فريق
متميزون
E-BOOK

دوستويفسكي

ذكريات من منزل الأموات

ترجمة: د. سامي الدروبي

التنوير

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات: فريق - متميزون-

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

ذكريات من منزل الأموات

رواية مترجمة

الكاتب: ديستويفسكي
ترجمة: سامي الدروبي

عن هذا الكتاب..

في رواية " ذكريات من منزل الأموات "، يحدثنا دوستويفسكي عن حالة نفسية غريبة لاحظها لدى السجناء أثناء مكوثه معهم فترة سجنه. وهي حالة يبدو أن دوستويفسكي اقتنع تمام الاقتناع أنها في السجناء وفي غيرهم، نظرا لاعترافه أن من هم خارج أسوار السجن ليس شرطاً أن يكونوا أفضل ممن هم بداخله.

وهذه الحالة هي:

ملاحظته أن بعض السجناء قد يفتعلون الشجار عمداً، ليس لعدائية فيهم، ولا لأن الموقف يستحق الشجار أساساً. ولكنهم يتشاجرون لما ينتج بعد الشجار: قيام كثير من الأشخاص بمحاولة تهدئتهم والحديث معهم وملاطفتهم ولو بكلمة لينهوا المشاجرة. في تلك اللحظات يجد هؤلاء الأشخاص قيمة لذواتهم، وكلمة ترفع من قدرهم فيكون لذلك بالغ الأثر في نفوسهم.

هم ليسوا أشراراً كما تصورهم الكثير من الناس، هم عطشى اهتمام بهم، ومتلهفون لأي كلمة ترفع من قدرهم، ويموتون شوقاً لفرصة تجعل الناس يخاطبونهم بشيء من الاحترام!

.

هنا، يستنتج دوستويفسكي أن أسوأ المجرمين يمكن أن يعود ليصبح إنساناً سوياً إذا ما وجد من يستوعبه، من يفهمه، من يقدره، ويحترمه كإنسان!

.

الجميل في الرواية أن دوستويفسكي كتبها عن فترة سجنه، وبدلاً من أن تكون مذكرات شخصية له، فقد تحولت لما يشبه بالتحليل النفسي لكل من صادفهم!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تقديم

يضم هذا المجلد من أعمال دوستويفسكي الأدبية الكاملة عملًا واحدًا هو ذكريات من منزل الأموات. والحق أن ترجمة عنوان الكتاب على هذا النحو ليست دقيقة كل الدقة، فإن دوستويفسكي يحدثنا في هذا الكتاب عن منزل ميت يدفن فيه البشر أحياء.

ذكريات من منزل الأموات: 1860 - 1861.

لقيّ هذا الكتاب إقبالًا شديدًا وأصاب نجاحًا عظيمًا. وقد نشر في ظروف مواتية كما قال أحد معاصريه، ذلك أن روحًا من التسامح والتساهل كانت تسيطر عندئذٍ على الرقابة، فظهرت كتب ما كان يتخيل أحد أن تظهر قبل بضع سنين. لقد أحدثت رواية (ذكريات من منزل الأموات) أثرًا كبيرًا في النفوس، فرأى القراء والنقاد في كاتبها (دانتي جديدًا هبط إلى جحيم رهيب)، لا سيما وأن هذا الجحيم موجود في الواقع لا في خيال الشاعر وحده. إن هذه الأوصاف الواقعية المرة الكاوية التي تُصوِر عالمًا لم يكن يعرفه القراء قبل ذلك، عالم هذا الخليط من السجناء، عالم الأشغال الشاقة التي يقومون بها، والمهن التي يتعاطونها، والتسليات التي يسرون بها عن أنفسهم، والمستشفى الكريه الذين يُعالجون فيه، ولا سيما العقوبات الجسمية الرهيبة التي تنزل بهم، هذه الأوصاف التي يقدمها كاتب موهوب عاش هو نفسه في هذا الجحيم، قد أثرت في نفوس القراء تأثيرًا كبيرًا، وهزتها هزًا قويًّا. حتى الإسكندر الثاني كانت تهطل دموعه على صفحات هذا الكتاب.

ومن الشائق مع ذلك أن نذكر أن رئيس لجنة الرقابة بالعاصمة قد اعتقد أن عليه أن يعترض على نشر الفصل الثاني. وهذه هي الحجة التي تعلل بها: (أليس من الجائز أن يذهب الظن بالبسطاء من القراء إلى أن العمل الإنساني العظيم الذي تقوم به الحكومة في السجون هو تخفيف للعقاب المخصص لجرائم خطيرة جدًّا؟. وقد أعد دوستويفسكي عندئذٍ مذكرة يشرح فيها أن افتقاد الحرية سنين طويلة هو أقصى عقوبة ولكن دوستويفسكي لم تتهيأ له فرصة نشر هذه المذكرة، وفي اليوم الثاني عشر من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) عام 1860 أذنت الإدارة المركزية للرقابة بنشر ذكريات من منزل الأموات صارفةً النظر عن آراء اللجنة، مشترطةً شرطًا واحدًا هو أن تحذف من الكتاب بعض التعابير التي تعوزها الحشمة).

كان دوستويفسكي قد بدأ تدوين انطباعاته في سجن أومسك نفسه، وظلت المذاكرات التي دونها مخبأةً زمنًا طويلًا لدى أحد موظفي المستشفى. ثم عمل دوستويفسكي في كتابة هذه المذكرات بمدينة سيمى بالاتنسك. ولكنه لم يستطع أن ينجز هذا العمل إلا حين عودته إلى العاصمة. إن هذا الكتاب الذي يفيض بذكريات مروِّعة رهيبة إنما هو ثمرة تجربة شخصية. يتحدث

دوستويفسكي عمَّا عاناه هو نفسه في السجن. ولئن نسب هذه المذكرات إلى رجل سماه ألكسندر جوريانتشيكوف، فإن هذا التمويه لم ينطلِ على أحد.

إن الانطباعات الأولى التي يشعر بها دوستويفسكي فظيعة: افتقاد الحرية، الحياة المشتركة مع قتلة ولصوص. فهذا دوستويفسكي يقول في رسالة له: (كانت المصاحبة المستمرة الدائمة للآخرين تفعل في نفسي فعل السم، وما تألمت من شيء خلال تلك السنوات الأربع كما تألمت من ذلك العذاب الذي لا يُطاق، والشيء الذي كان يشق على نفسه خاصةً هو تلك العداوة الشديدة التي كان يشعر بها نحوه السجناء لأنه ينتمي إلى طبقة السادة الذين يضطهدون أبناء الشعب ملاكين أو ضباطًا أو موظفين. لقد شعر دوستويفسكي في السجن بعزلة رهيبة، لا سيما وأن القلة القليلة من السجناء الذين كانوا قبل سجنهم ينتمون إلى طبقة النبلاء، لم يشعر نحوها دوستويفسكي بشيء من المودة ولم يجذبه إليها شيء من العاطفة. وهو ينظر إلى رفاقه في السجن، فلا يرى في أول الأمر إلا رجالًا غِلاظًا أفظاظًا ليس فيهم أثر من خجل ولا يخالج ضمائرهم شيء من ندم، وإنما هم فَجَرَة مستهترون متأهبون في كل لحظة للتشاجر والتشائم والشكر وسرقة بعضهم بعضًا، بل إنه ليرى طِباعًا كريهة كأنها تجسد الشر المطلق. فمن هؤلاء قاطع الطرق الرهيب أورلوف الذي كان يقتل الصغار والشيوخ بهدوء وبرود، وكان ينعم بإرادة جبارة فهو يحتقر كل عقاب ويحتمل أي قصاص. ومنهم أيضًا ذلك التتري جازين الذي يملك قوة خارقة ويشعر من يراه أنه أشبه بعنكبوت ضخم عملاق، لقد كان جازين، فيما قبل، يجد لذة عظيمة في ذبح الأطفال الصغار، وفي قتلهم بعد أن يمتلئ تلذذًا بإفزاعهم. ومنهم أيضًا رئيس عصابة قطاع الطرق كورينف، الوحش الكاسر الذي كان لا يشعر بشيء إلا الرغبات الجسمية والشهوات الحسية والظمأ إلى المباهج. ومنهم أخيرًا أ. ف (أرستوف)، السيد المنحل الفاجر العاهر المستهتر الذي لا يتورع عن شيء والذي يقول عنه دوستويفسكي أنه في تشوهه الروحي أشبه بكازيمودو في تشوهه الجسمي. وهنا يطرح دوستويفسكي هذا السؤال: ما هي الجريمة؟ وما هو قدر الإنسان الذي تجاوز الحدود المحرمة؟ ويمضي دوستويفسكي يهبط إلى الأغوار العميقة من النفس الإنسانية ويسبر كل ما في طبيعة الإنسان من أعماق لا يسيطر عليها العقل ولا يدركها العقل. ويدرس دوستويفسكي نفسية الجلاد فينتهي إلى نتيجة هي أن خير الناس يمكن أن يقسو قلبه بتأثير العادة فإذا هو يصبح حيوانًا كاسرًا، وإن الدم والسطو يسكران فيولدان التوحش والشذوذ والفساد، حتى ليؤكد دوستويفسكي أن بذور الغرائز البهيمية موجودة في جميع معاصريه من الناس تقريبًا.

غير أن هذه المشاعر التشاؤمية لا تتغلب على دوستويفسكي. لقد أخذ يميز بين الأشرار والأخيار شيئًا بعد شيء، وأخذ يجد بين السجناء رجالًا يمكن أن

تُفهم جرائمهم بل يمكن أن تُعذر من وجهة نظر الأخلاق، هذاَ آكيم آكيمتش الضابط الصغير الذي أمر بإطلاق النار على أمير قوقازي متمرد من دون أن يحاكمه وفقًا للأصول: إنه رجل هادئ وقور شريف جاد؛ وهذا باكلوشين المرح الذي قتل منافسه في الحب دون أن يريد ذلك تقريباً، لأنه لم يكن ينوي في أول الأمر إلا أن يروِّعه بمسدسه، وهذا نورا الطيب البسيط الساذج الذي حُكم بالسجن بتهمة السطو والنهب: إنه إنسان متدين شريف يلقبه السجناء (نورا الأسد) وهذا علي اللطيف الوديع الخجول الذي يشبه أن يكون خفره كخفر العذارى: لقد انضم إلى إخوته في أعمال السلب لا عن ميل إلى ذلك، بل لأنه لا يجرؤ أن يعارضهم. وهذا شيخ ستارودوب المؤمن الذي أشعل النار في الكنيسة الأرثوذكسية وقرر أن يتعذب في سبيل الدين: إنه رجل شهم يحترمه السجناء ويجلونه. وهذا أوريب المولع بالتهريب ولعًا شديدًا لا يملك أن يغالبه: إنه إنسان على جانب عظيم من الشرف والاستقامة والهدوء والوداعة واللطف، وهذا هو الشاب الوسيم سيرودكين الذي لم يستطع أن يتحمل عبء الخدمة العسكرية فإذا هو بعد أن يحاول الانتحار يقتل رئيسه الضابط لا لشيء إلا (أن يغير مصيره)، وهذا بتروف الذي ضربه رئيسه الكولونيل مرارًا فإذا هو يقتله ذات مرة في صورة من غضب، وهذا لوقا الذي اعتقل بتهمة التشرد فلما سمع الميجر يقول له: (أنا قيصر، أنا اللّه) لم يطق أن يسمع هذا الكلام فإذا هو يقتل الميجر. هؤلاء في أكثر الأحيان رجال أخرجتهم عن طورهم قسوة مضطهديهم ودفعتهم إلى الجريمة دفعًا. فواحد، كما يقول دوستويفسكي، قد قتل طاغيةً فاجرًا لينقذ شرف خطيبته أو أخته أو ابنته، وواحد هو قنٌّ هارب لعله كان يوشك أن يموت جوعًا، قتل واحدًا من رجال الشرطة الذين يطاردونه دفاعًا عن حريته وعن حياته. ليس المجرمون في كثير من الأحيان إلا ضحايا الظروف الإجتماعية التي تحيط بهم، وليست الجريمة التي يقترفونها إلا مصيبة تنزل عليهم وشقاء يحل فيهم، فما أصدق غريزة الشعب حين يعطف عليهم ويطلق عليهم اسم (الأشقياء)! ([1]) لقد تأثر دوستويفسكي تأثرًا عميقًا بهذا العطف: ما كان أعظم تأثره بالصدقات التي كان أبناء الشعب يجودون بها على السجناء في سخاء أيام الأعياد، وما كان أعظم تأثره بحنان ناستاسيا إيفانوفنا المرأة الفقيرة التي كانت تفعل كل شيء في سبيل تخفيف آلام السجناء وقد لاحظ دوستويفسكي أن أكثر السجناء متدينون، وأنهم يُصلون، وأنهم يتوقون إلى رحمة اللّه، ويطلبون غفرانه، فإذا هو يقول: إن في كل مكان أشرارًا! فمن يدري؟ قد لا يكون هؤلاء السجناء شراً من غيرهم، قد لا يكونون أسوأ من أولئك الذين يعيشون خارج الأسوار! كان دوستويفسكي لا يرى في رفاقه أول الأمر إلا وحوشًا مفترسة، ثم إذا هو يرى جوانب الخير في نفوسهم شيئًا بعد شيء، حتى لتنكشف له في بعض الأحيان على حين فجأة، لدى واحد منهم، عواطف غنية

ومودة قوية وقدرة على الفهم والتعاطف ومشاركة الآخرين آلامهم، فلا يكاد (يصدق عينيه ولا أذنيه)! إنه حين دنا من هؤلاء المنبوذين وإلتصق بهم أصبح لا يخشى أن يقول إن أبرز سمة وأوضح سمة في شعبنا إنما هي شعوره بالعدالة وتوقه إليها. فمتى نزعت القشرة الظاهرة الفظة، وأنعمت النظر في البذور الثاوية في الأعماق رأيت في هذا الشعب مزايا لم تخطر لك على بال!). حتى أن دوستويفسكي يهتف قائلًا قبل خروجه من السجن، حين أصبح له بين السجناء كثير من الأصدقاء والرفاق الطيبين: نعم يجب أن نعترف بالحقيقة: لقد كان هؤلاء الرجال يملكون كنوزًا رائعة... ولعلهم كانوا بين أبناء شعبنا أعظمهم مواهب وأكثرهم طاقات لكن ملكاتهم الممتازة قد هلكت إلى غير رجعة. فمن المذنب؟ إن مشكلة الذنب والجريمة والعقاب تحتل مكانًا كبيرًا في أعمال دوستويفسكي الذي عانى هذه المشكلة معاناة شخصية أكثر مما عاناه أي كاتب، حتى لنراه يقول بعد خروجه من السجن بزمن طويل: (لطالما باركت القدر الذي وهب لي أن أعاني هذه التجربة. لقد كان لهذه السنين الأربع التي قضيتها في السجن فضل كبير عليَّ. إن نفسي وإيماني وفكري، إن ذلك كله قد تبدل تبدلًا عظيمًا بفضل هذه التجربة). لقد جعله السجن مؤمنًا. لقد رد إليه السجن إيمانه باللّه وإيمانه بالشعب الروسي، حتى لقد كتب يقول: إن الإنسان، أثناء الحسرات التي يحسها في سجن الأشغال الشاقة يرتوي بالإيمان كما يرتوي العشب اليابس بماء المطر، إنه يجد الإيمان أخيرًا لأن الإيمان يظهر في ساعات الشقاء أقوى وضوحًا وأشد سطوعًا. وكتب يقول أيضًا: (لعل الإله العلي القدير قد شاء أن يرسلني إلى هناك حتى أتعلم جوهر الأشياء فأنقل علمي إلى غيري وأبلغه الناس). لقد استمد دوستويفسكي من الألم حنانًا وشفقة على البشر الذين تردوا في الخطيئة والشقاء فأصبحوا أحوج إلى الحب من الأبرياء والسعداء! إن روحًا مسيحية تترقرق في الكتاب كله. وذلك ما جعل تولستوي يتحمس له أشد التحمس فيكتب سنة 1880 إلى ستراخوف قائلًا: (كنت أشعر في هذه الأيام بضيق شديد فتناولت كتاب (ذكريات منزل الأموات) فأعدت قراءته. كنت قد نسيت كثيرًا منه، فلما أعدت قراءته، أيقنت أن ليس في الأدب الجديد كله كتاب واحد يفوقه، حتى ولا كتب بوشكين! ليست النبرة هي الشيء الرائع فيه، بل وجهة النظر التي يشتمل عليها: إنه صادق طبيعي مسيحي. إنه كتاب يعلم الدين. فإذا رأيت دوستويفسكي فقل له أني أحبه).

وقد كان لهذا الكتاب أثر سياسي أيضًا ففي شهر حزيران (يونيه) من عام 1862، بعد نشر الفصول التي تصف العقوبات الرهيبة كتب الجنرال الأمير نيكولا أورلوف رسالة إلى الإمبراطور يرجوه فيها إلغاء العقاب الجسدي الذي وصفه دوستويفسكي في كتابه وصفًا حيًا قويًّا. وشكلت لجنة خاصة لحل هذه المسألة فكان هنالك تياران متعارضان أحدهما يقول بإبقاء هذه العقوبات

والثاني ينادي بإلغائها، وتغلب التيار الثاني أخيرًا فصدر قانون 17 نيسان (أبريل) 1863 الذي يلغي هذه العقوبة الرهيبة إلغاءً تامًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الجزء الأول

مدخل

في وسط السهوب أو الجبال أو الغابات الوعرة من المناطق النائية بسيبيريا يلتقي المرء من حين إلى حين بمدن صغيرة سكانها ألف أو ألفان، مبنية كلها بالخشب، دميمة كل الدمامة، لها كنيستان، الأولى في وسط المدينة، والثانية في المقبرة. فإذا أردنا أن نصفها موجزين قلنا إنها أكثر شبهًا بقرية في ضواحي موسكو منها بالمدينة بمعنى كلمة المدينة. وهي على وجه العموم مزوَّدة بعدد وافر من رجال الشرطة وجباة المال وغيرهم من الموظفين المرؤوسين. ولئن كان البرد شديدًا في سيبيريا فإن خدمة الحكومة هناك رابحة مجزية إلى أبعد الحدود. إن السكان أناس بسطاء لا تعصف برؤوسهم الأفكار الليبرالية، ولهم عادات قديمة رسخها الزمن. والموظفون الذين يمكن أن نسميهم بالطبقة النبيلة في سيبيريا هم إما أناس من البلاد نفسها أي سيبيريون متأصلون، وإما أناس وافدون من روسيا. فأما هؤلاء الوافدون من روسيا فهم قادمون من العواصم رأسًا يحدوهم المرتّب الضخم والمعونة الكبيرة التي يُعطوها كنفقات سفر، كما تحدوهم آمال أخرى تتعلق بالمستقبل ولا تقل عن الراتب إغراءً. فالذين يعرفون كيف يحلون مشكلة الحياة يمكثون في سيبيريا دائمًا على وجه التقريب ويستقرون فيها إلى الأبد، ذلك أن الثمرات الوفيرة اللذيذة التي يجنونها بعد ذلك تعوّضهم عن خسارتهم خير تعويض. أما الآخرون، وهم أناس خفاف لا يعرفون كيف يحلون هذه المشكلة فإنهم ما يلبثون أن يسأموا ويضجّوا ثم هم يتساءلون على حسرة وأسف: لماذا ارتكبوا حماقة المجيء إلى هذه البقاع النائية؟ وهم يسلخون السنين الثلاثة، وهي الفترة المحدودة لإقامتهم، متذمرين متململين قد نفذ صبرهم، حتى إذا تصرّمت المدة إلتمسوا العودة ورجعوا إلى بلادهم وهم يقدحون في سيبيريا ويهزؤون بها ويسخرون منها، ألا إنهم لمخطئون، فإن سيبيريا بلاد هناءة وغبطة لا من جهة الخدمة العامة وحدها بل من جهات كثيرة أيضًا. المناخ فيها رائع، والتجار أثرياء مضيافون، والميسورون من أهلها كثير. أما صباياها فأشبه بورود متفتحة، وأخلاقهن لا غبار عليها، والطرائد تجري في شوارعها وترتمي على الصياد ارتماءً، والناس يشربون فيها الشمبانيا وافرة غزيرة، والكافيار مدهش، والفلاحون يحصدون من الغلال في بعض الأحيان أضعاف ما بذروا خمس عشرة مرة. صفوة القول: إنها أرض مباركة، وإنما ينبغي الانتفاع بها والاستفادة منها وما أيسر ذلك!

في مدينة من تلك المدن الصغيرة - البهيجة الراضية عن نفسها كل الرضى - التي ترك أهلها في نفسي ذكرى لا تمحى - إنما إلتقيتُ بمنفي من المنفيين اسمه ألكسندر بتروفتش جوريانتشيكوف، وهو من سراة الملاكين في روسيا. وقد حُكم عليه بالأشغال الشاقة من الفئة الثانية ([2]). لأنه قتل زوجته. فبعد أن

قضى مدة الحكم - وهي عشرة سنين من الأشغال الشاقة - مكث في مدينة ك ([3])... الصغيرة هذه، هادئ البال لا يفطن إلى وجوده أحد، مستوطنًا من المستوطنين. والحق أنه كان مسجلًا في قرية من القرى المجاورة، ولكنه كان يعيش في مدينة ك... حيث كان يستطيع أن يجني رزقه من إعطاء دروس خاصة للأطفال. إن المرء كثيرًا ما يلتقي في سيبيريا بمنفيين يعملون في التعليم. والناس لا يحتقرونهم، لأنهم يُعلّمون اللغة الفرنسية، وهي ضرورية للحياة جدًّا، وما كان لأحد من سكان هذه الأماكن القصية من سيبيريا أن يعرف شيئًا منها لولاهم. وقد رأيت ألكسندر بتروفتش أول مرة في منزل موظف من الموظفين اسمه إيفان إيفانتش جفوزديكوف، وهو شيخ محترم وقور مضياف له ثلاث بنات يعدن بأجمل الآمال. فكان ألكسندر بتروفتش يعطيهن دروسًا في اللغة الفرنسية أربع مرات في الأسبوع، ويتقاضى أجره عن كل درس أربع كوبكات فضة. وقد لفت نظري مظهره. إنه رجل شديد الشحوب شديد النحول، ما يزال شابًا (فهو في نحو الخامسة والثلاثين من عمره)، قصير واهن، يعنى بنظافة ملبسه كل العناية، ويرتدي الزي الأوروبي. إذا تحدثت إليه انتبه إلى كلامك انتباهًا شديدًا، وأصغى إلى كل قول من أقوالك مهذبًا غاية التهذيب، وقد بدا في وجهه التفكير كأنك تطرح عليه مشكلة أو كأنك تريد أن تنتزع منه سرًا. حتى إذا أجاب كان جوابه واضحًا موجزًا، يزن كل كلمة من كلماته، ويبلغ من ذلك أن من يستمع إليه يشعر بشيء من الحرج دون أن يعرف سبب هذا الحرج، ويشعر بشيء من الضيق والبرم، ويسعده بعد ذلك أن تنتهي المحادثة. وقد سألت عنه إيفان إيفانتش فأعلمني أن جوريا نتشيكوف رجل لا غبار على سلوكه، ولولا ذلك لما عهد إليه، هو إيفان إيفانتش بتعليم بناته؛ ولكنه يكره البشر كرهًا شديدًا وينفر من مخالطة الناس نفورًا قويًّا، ويظل مبتعدًا عن الآخرين؛ وأنه عدا ذلك على حظ كبير من سعة الثقافة، فهو كثير القراءة والمطالعة، ولا يتكلم إلا قليلًا، ولا يفتح قلبه لأحد في حديث.

وكان بعضهم يؤكد أن الرجل مجنون، ولكن دون أن يرى في ذلك آفة كبيرة خطيرة، لذلك كان خيار القوم في المدينة على استعداد لأن يداروا ألكسندر بتروفتش، لأنه يمكن أن يكون نافعًا لهم كثيرًا، كأن يتولى عنهم كتابة العرائض وما إلى ذلك. وكان يُعتقد أن له في روسيا أقرباء من ذوي المكانة العالية والمنزلة الرفيعة، وربما كان بينهم أناس يحتلون مناصب كبرى؛ ولكن لم يكن مجهولًا أن الرجل قد قطع كل علاقاته منذ نفيه، فأساء بذلك إلى نفسه على وجه الإجمال، وكان جميع الناس يعرفون قصته، ويعلمون أنه قتل زوجته بدافع الغيرة بعد سنة من زواجه، وإنه سلم نفسه للقضاء من تلقاء ذاته، فكان ذلك من الأسباب التي دعت إلى تخفيف الحكم عليه تخفيفًا كبيرًا، والناس ينظرون إلى هذا النوع من الجرائم نظرتهم إلى مصائب حلت

بالمجرم نفسه، فهو يستحق الشفقة والرحمة. ومع ذلك كان هذا الإنسان الشاذ يصر على الإبتعاد عن الناس إصرارًا شديدًا، ولا يخرج إلا لإعطاء الدروس التي يُعهد بها إليه.

لم ألتفت إليه في أول الأمر أي إلتفات. ولكنه أثار اهتمامي بعد ذلك دون أن أعرف لهذا سببًا: إنه أشبه بلغز. أما التحدث معه فأمر مستحيل. صحيح أنه كان يجيب عن جميع الأسئلة التي أُلقيها عليه، ولكن متى انتهى من إجابته لم أجرؤ أن ألقي عليه مزيدًا من الأسئلة. وكان بعد أحاديث من هذا النوع يبدو في وجهه عذاب وألم وتعب وإرهاق. أذكر أنني في ليلة جميلة من ليالي الصيف خرجت معه من عند إيفان إيفانتش. فخطر ببالي فجأة أن أدعوه إلى بيتي لتدخين سيجارة. فما كان أشد الذعر الذي ارتسم على وجهه حينذاك! إنني لا أستطيع أن أصف لكم ذلك الذعر.. لقد اضطرب اضطرابًا شديدًا، وتمتم ببضع كلمات مفككة لا ترابط بينها ولا اتساق فيها، ثم إذا هو يرشقني بنظرة غاضبة حانقة على حين فجأة، ويلوذ بالفرار عائدًا أدراجه. وقد أدهشني هذا، وصار يبدو منذ ذلك الحين كمن يشعر بنوع من الرعب متى رآني. ولكنني لم أيأس... كان فيه شيء يشدني إليه شدًا.. وبعد شهر دخلت على جوريانتشيكوف من تلقاء نفسي، دون أي عذر أتعلل به، ودون أية حجة أنتحلها، واضح أن فعلتي هذه كانت حماقة شديدة، وكانت خالية من حسن الأدب ورهافة الذوق. كان الرجل يقطن في طرف من أطراف المدينة، عند امرأة عجوز من الطبقة البورجوازية لها ابنة مصدورة. وكان لابنتها هذه ابنة غير شرعية في العاشرة من عمرها بارعة الجمال، شديدة المرح والفرح. فلما دخلت كان ألكسندر بتروفتش جالسًا قربها يعلمها القراءة؛ حتى إذا رآني اضطرب اضطرابًا شديدًا كأنني فاجأته متلبسًا بجرم مشهود، فنهض طائش اللب على حين فجأة، ونظر إليَّ مشدوهًا مبهوتًا إلى أقصى الحدود. وبعد أن جلسنا أخيرًا، كان يتابع كل نظرة من نظراتي، كأنه يرتاب فيّ ويتصور أن لي نية خفية أضمرُها؛ فأدركت أن الرجل شديد الشك، كثير الريب، سيء الظن، قوي الحذر، كان ينظر إليَّ حانقًا مغتاظًا، ويوشك أن يسألني: (هلا انصرفت؟). حدثته عن مدينتنا الصغيرة، وعن الأنباء الرائجة، فكان يصمت ولا يقول شيئًا، أو كان يبتسم إبتسامة صفراء سيئة. وأدركت أنه كان يجهل كل الجهل ما يجري في مدينتنا، وأنه لا يحرص على أن يعرف من ذلك شيئًا البتة. وحدثته بعدئذ عن مقاطعتنا وعن حاجاتها، فكان يصغي إلى كلامي صامتًا، محدِّقًا إليَّ بهيئة تبلغ من الغرابة أنني لم ألبث أن خجلت أنا نفسي من هذا الحديث؛ حتى لقد كدت أغضبه حين قدمت إليه كتبًا وجرائد كانت قد وصلتني في آخر بريد ولم أفضها بعد. لقد نظر إليها في أول الأمر نظرة شرهة، ولكنه سرعان ما غير رأيه فرفض أن يتناول ما قدمته إليه، معتذرًا عن ذلك بضيق الوقت وقلة الفراغ. واستأذنته أخيرًا بالانصراف، فأحسست وأنا أخرج من عنده أن حملًا ثقيلًا قد سقط عن كاهلي. وآلمني أن أكون قد ضايقت إنسانًا لا هم له إلا أن

ينأى عن جميع الناس. لكن ما وقع قد وقع. وكنت قد لاحظت أنه لا يملك إلا عددًا قليلًا جدًّا من الكتب، فليس صحيحًا إذن ما كان يُقال من أنه قرأ كثيرًا. غير أنني قد اتفق لي أن مررت أمام نوافذه بالعربة مرتين في ساعة متأخرة جدًّا من الليل، فرأيت في بيته ضوءًا. فلماذا كان يسهر إذن حتى الصبح؟ أتراه كان يكتب؟ وإذا كان يكتب، فماذا كان يكتب؟

وغبت عن مدينتنا قرابة ثلاثة أشهر. فلما عدت في الشتاء علمت أن الكسندر بتروفتش قد مات، وأنه لم يقبل حتى أن يستدعي أثناء مرضه طبيبًا. وكان الناس قد نسوه أو كادوا. وكان بيته خاليًّا، وسرعان ما تعرفتُ بصاحبة البيت التي كان يسكن عندها، عسى أن أعرف منها شيئًا عما كان يعمله جارها، وعسى أن أعرف هل كان يكتب شيئًا! فما كدت أنقدها عشرين كوبكًا حتى جاءتني بسلة ملأى أوراقًا تركها المتوفى، واعترفت لي بأنها قد استعملت دفترين منها في إشعال النار. والمرأة عجوز متجهمة الوجه عابسة الهيئة صموت لا تتكلم، فلا أنا استطعت أن أنتزع منها شيئًا ذا بال، ولا هي استطاعت أن تقول لي شيئًا عن الرجل الذي كان يقطن في بيتها. ولكنها روت لي أنه كان لا يكاد يعمل شيئًا، فهو يظل أشهرًا برمتها لا يفتح كتابًا ولا يتناول قلمًا؛ وأنه كان في مقابل ذلك يقضي الليل كله متجولًا في غرفته جيئة وذهابًا، غارقًا في تأملاته ذاهلًا عما حوله، حتى لقد كان يتكلم بصوتٍ عالٍ في بعض الأحيان؛ وذكرت لي أنه كان يحب حفيدتها كاتيا حبًّا كثيرًا، ولا سيما منذ عرف اسمها؛ وكان يكره أن يزوره أحد، ولا يخرج إلا لإعطاء الدروس التي كان يعهد إليه بها: حتى أنه كان ينظر إلى صاحبة البيت نظرة شزراء إذا هي جاءت ترتب غرفته بعض الترتيب مرةً كلّ أسبوع؛ وخلال السنين الثلاث التي قضاها مقيمًا عندها لم يكد يتوجه إليها بكلام يومًا. سألتُ كاتيا هل تتذكر شيئًا عن معلمها، فنظرت إليَّ صامتةً، ثم إلتفتت إلى جهة الحائط وأخذت تبكي. إذنْ لقد استطاع هذا الرجل أن يجعل أحدًا يحبه.

مضيت بالأوراق، وسلخت يومي كله في فحصها. كان أكثرها لا قيمة له البتة، فهو تمارين للتلاميذ. وعثرت أخيرًا على دفتر سميك بعض السمك، مُلئت صفحاته بكتابة دقيقة صغيرة، ولكنه غير مكتمل، ولعل صاحبه قد نسيه. إنه قصة السنين العشرة التي كان ألكسندر بتروفتش قد قضاها في سجن الأشغال الشاقة، وهي قصة مفككة مجزأة لا تماسك فيها ولا تكامل... تتخللها هنا وهناك حكاية قصيرة أو ذكريات غريبة رهيبة ينفضها صاحبها نفضًا يشبه أن يكون تشنجًا، وينتزعها من نفسه انتزاعًا يوشك أن يكون اقتطاعًا. وقد أعدت قراءة هذه الأجزاء المنثورة، فأخذتُ أتساءل: تُرى ألم يكتبها كاتبها في لحظات من جنون؟ على أن هذه المذكرات التي يسجلها محكوم بالأشغال الشاقة، والتي يجعل عنوانها في موضع من مواضع قصته (ذكريات من منزل الأموات)، بدت لي غير خالية من الطرافة. إنها تكشف عن عالم جديد كل الجِدة، عالم مجهول إلى ذلك الحين... وأغراني ما في بعض وقائعها من غرابة

وأغرتني ملاحظات خاصة عن هذا العالم الساقط الذي يصفه الرجل، فكنت أقرأ في لذة وشوق... قد أكون على خطأ: ولكنني أنشر بعض فصول هذه القصة، تاركًا للقراء أن يحكموا عليها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

1

منزل الموتى

يقع سجننا في آخر المدينة وراء الأسوار. فإذا نظرت من خلال شقوق السياج، آملًا أن ترى شيئًا، فلن يقع بصرك إلا على ركن صغير من السماء، وعلى متراس من تراب تغطيه أعشاب السهوب، ويتجول عليه الحراس ذاهبين آيبين ليل نهار؛ فتقول لنفسك عندئذٍ أن سنين كثيرة ستنقضي، وإنك من خلال شق هذا السياج نفسه ستظل ترى هذا المتراس نفسه وهؤلاء الحرس أنفسهم، وهذا الركن الصغير نفسه من السماء، لا السماء التي تقوم فوق السجن، بل سماء أخرى بعيدة. تصوروا فناءً كبيرًا طوله مائتا قدم، وعرضه مائة وخمسون، يحيط به سياج سداسي الأضلاع على غير انتظام، مؤلف من أوتاد غُرست في الأرض عميقة: تلكم هي تخوم السجن الخارجية. وفي جهة من السياج بُنيّ باب كبير قوي مغلق دائمًا، لا ينقطع عن حراسته عدد من الحراس، ولا يُفتح إلا حين يخرج السجناء للعمل فوراء هذا الباب يوجد الضياء وتوجد الحرية... ووراءه يعيش أناس طلقاء... والناس في داخل السياج يتصورون ذلك العالم الرائع العجيب حلمًا من الأحلام، أو حكاية من الخرافات... أما عالمنا نحن فليس من ذلك العالم في شيء... إنه عالم خاص جدًّا، لأنه لا يشبه شيئًا ولا يشبهه شيء. هو عالم له عاداته، وله زيه، وله قوانينه... وكل ما فيه خاص. إنه منزل (ميت حيٌّ) معًا، الحياة فيه لا شبيه لها، والأحياء فيه ليس لهم نظراء. إن هذا الركن هو الذي أحاول أن أصفه.

إذا دخلت السياج رأيت بضع مبان. وفي كل جهة من جهات فناء واسع جدًّا يمتد مبنيان من خشب قد بنيا من جذوع الأشجار طبقة واحدة: تلكم هي ثكنات السجناء، فيها يحتجزون بعد أن يُقَسموا عدة فئات، وفي آخر الفناء يرى مبنى آخر هو المطبخ قد قُسم إلى جناحين. وبعد المطبخ مبنى آخر يُتخذ كهفًا للمئونة ومرآبًا للعربات ومخزنًا للغلال في آن واحد. أما وسط الفناء، فهو عارٍ كل العري، يشبه أن يكون ميدانًا واسعًا. وهنالك إنما يصطف السجناء، فيجري تفقدهم وتتم مناداتهم ثلاث مرات في اليوم: صباحًا وظهرًا ومساءً، وعدة مرات أثناء النهار أيضًا إذا كان الجنود الحرس ريابين غير بارعين في العد. وحول ذلك، بين السياج والمباني تبقى مساحة خالية واسعة يحب بعض السجناء الذين يكرهون صحبة البشر ويتصفون بمزاج قائم وطبع مظلم أن يتنزهوا فيها حين لا يعملون: يجترون هنالك خواطرهم الحبيبة إلى قلوبهم، الأثيرة في نفوسهم، بمنأى عن الناس وبمنجى من الأنظار. كنتُ إذا صادفتهم أثناء هذه النزهات التي يقومون بها أحب أن أنظر إلى وجوههم الحزينة المتغضنة، وأن أحزر ما يدور في رؤوسهم من أفكار. كان أحب شيء

إلى أحد هؤلاء السجناء مثلًا أن يشغل نفسه بعد أوتاد السياج التي يبلغ عددها ألفًا وخمسمائة وتدًا. لقد عدها جميعًا، وحفظها على ظهر القلب. وكان كل وتد من هذه الأوتاد يمثل في نظره يومًا من أيام الاعتقال، فهو يُسقط من الحساب في كل يوم من الأيام وتدًا، فيستطيع بهذه الطريقة أن يعرف على وجه الدقة عدد الأيام التي بقيّ عليه أن يقضيها في السجن. وما كان أصدق سعادته حين يأتي على آخر وتد من أوتاد أحد أضلاع السياج السداسي! وكان عليه مع ذلك أن ينتظر سنين طويلة قبل أن يُطلق سراحه. غير أن الإنسان يتعلم الصبر في السجن. لقد شهدت في ذات يوم إطلاق سراح واحد من المسجونين قضى مدة الحكم، فأخذ يودِّع رفاقه. كان قد قضى في السجن عشرين عامًا من الأشغال الشاقة. لقد رآه عدد من السجناء يدخل السجن شابًا، غير عابئ بشيء، غير مبالٍ شيئًا، لا يفكر لا في الجريمة التي ارتكبها ولا في العقوبة التي وقعت عليه: وهو الآن شيخ أشيب الشعر، حزين الوجه، عابس الأسارير. لقد طاف على ثكناتنا الست صامتًا، فكان كلما دخل واحدة منها، صلى أمام صورة العذراء، وحيا رفاقه تحية عميقة، راجيًّا منهم أن لا يحفظوا عنه ذكرى سيئة. وأذكر أيضًا أنه قد نودي أحد السجناء في ذات مساء، وهو رجل كان في الماضي فلاحًا سيبيريًّا غنيًّا، وقد أبلغ قبل ذلك بستة أشهر أن زوجته تزوجت غيره، فأحزنه ذلك كثيرًا، وها هي ذي تأتي في هذا المساء لتعطيه صدقة. لقد تحدثا دقيقتين، وبكيا كلاهما، ثم افترقا إلى غير لقاء بعد الآن... ورأيت وجه هذا السجين حين عاد إلى الثكنة... حقًّا إن الإنسان يتعلم هنا كيف يتعوَد إحتمال كل شيء...

ومتى بدأ الشفق أدخلونا إلى الثكنات نُسجن فيها الليل كله. ولقد كان يؤلمني ويحزنني دائمًا أن أترك الفناء إلى الثكنة. تصوروا غرفة طويلة منخفضة خانقة، تضيئها شموع لا تكاد تنيرها، وتشيع في جوها رائحة ثقيلة تبعث على الغثيان. لا أستطيع أن أفهم الآن كيف عشت في هذه الثكنة عشر أعوام كاملة. وكان سريري في الثكنة ثلاثة ألواح من خشب وذلك هو المكان الوحيد الذي كنت أستطيع التصرف فيه والتمتع به. كان يُحشر في كل غرفة أكثر من ثلاثين رجلًا. وفي فصل الشتاء كانوا يحبسوننا في ساعة مبكرة، فكان لا بد من إنتظار أربع ساعات حتى ينام جميع السجناء، أما قبل ذلك فصخب كبير، وضجة شديدة، وقهقهات وشتائم وصليل سلاسل وأبخرة فاسدة ودخان كثيف، وفوضى رؤوس محلوقة وجباه متغضنة... وما إلى ذلك من أمور تثير الاشمئزاز وتبعث على التقزز... نعم إن الإنسان حيوان طويل العمر! ويمكن أن نعرفه بقولنا: الإنسان كائن قادر على أن يتعود كل شيء، ولعل هذا خير تعريف يمكن أن يُعرَّف به الإنسان.

كان عددنا مائتين وخمسين سجينًا، وذلك عدد لا يكاد يتغير، فما أن يكمل أحدٌ مدة سجنه حتى يصل غيره. وكان بين السجناء من يلقى حتفه في السجن أيضًا والسجناء من جميع أنواع البشر. وأغلب الظن أن كل حكومة من

حكومات روسيا، وأن كل إقليم من أقاليم روسيا، قد أرسل إلى هذا السجن من يمثله. وكان بين السجناء أجانب، بل وكان منهم رجال جاؤوا من جبال القفقاس، وكان هذا العالم كله يُقسم فئات مختلفة، تبعًا لضخامة الجريمة ومدة العقاب، وكان لجميع الجرائم أناس يمثلونها بين هؤلاء السجناء، ويتألف أكثر سكان السجن من محكومين بالأشغال الشاقة من الفئة المدنية (أي من (كبار المحكومين) على حد تعبير السجناء)، فهم مجرمون جُرِّدوا من جميع حقوقهم المدنية، وهم أعضاء أدانهم المجتمع، ولفظهم، ووسم جباههم بالحديد المحمى وسمًا يشهد إلى الأبد بالجريمة التي قارفوها. وهم يُودَعون السجن مدة تتراوح بين ثماني سنين واثنتي عشرة سنة، حتى إذا انقضت مدة العقوبة أُرسلوا إلى أحد أقاليم سيبيريا مستوطنين. أما فئة المجرمين العسكريين فإنهم لا يُجَرَّدون من حقوقهم المدنية - ذلك ما كان متبعًا في الكتائب العسكرية ذات النظام الروسي - ولا يُرْسَلون إلى السجن إلا مدة قصيرة. وأُدخلوا فمتى انقضت هذه المدة عادوا إلى المكان الذي جاءوا منه، و جنودًا في الفرق المعسكرة على حدود سيبيريا. إن كثيرًا من هؤلاء كانوا يرجعون إلينا بسبب ارتكابهم جرائم خطيرة، ولكنهم لا يسجنون في هذه المرة عددًا قليلًا من السنين، بل يسجنون عشرين سنة في أقل تقدير، وهم يشكلون عندئذٍ فئة يطلق عليها اسم (المؤبدين). ومع ذلك لم يكن المؤبدون مجرّدين من حقوقهم. وكان ثمة فئة أخرى كبيرة العدد يطلق عليها اسم (القسم الخاص)، وهي تتألف من أسوأ المجرمين وأشدهم خطرًا، فهم أناس مدمنون على الإجرام عريقون فيه؛ وكان يُرسل إلى هذا القسم الخاص محكومون من جميع البلاد الروسية. وكان هؤلاء يعدون أنفسهم مؤيدين، لأن نهاية المدة التي يجب أن يقضوها في السجن غير معينة. وكان القانون يقضي بأن يعهد إليهم بأشغال مضاعفة مثنى وثلاث. وهم يبقون في السجن خارج سيبيريا إلى أن يُشرع في سيبيريا بأعمال شاقة تبلغ غاية الإرهاق. كان هؤلاء يقولون للسجناء الآخرين (أنتم هنا إلى أجل معلوم، أما نحن فباقون إلى آخر الحياة). وقد علمت فيما بعد أن هذا القسم قد أُخلي، وأن المحكومين العسكريين قد أُبعدوا أيضًا، وأنشأت لهم فرقة ذات نظام خاص. وطبيعي أن إدارة السجن قد تبدلت كذلك، فأنا أصف الآن إذنْ تقاليد عهد قديم، وأمورًا أُلغيت منذ زمانٍ طويل...

نعم، منذ زمانٍ طويل... حتى ليُخيَّل إليَّ أن ذلك كله كان حُلمًا من الأحلام. إنني أتذكر الآن يوم دخولي إلى السجن في مساء من أماسي شهر كانون الأول عند هبوط الليل. كان السجناء عائدين في تلك الساعة من أشغالهم وكان الموظفون يهيئونهم للتفقد. فتح لي عريف ذو شاربين طويلين باب هذا المنزل الغريب العجيب الذي سلخت فيه من عمري ذلك العدد كله من السنين، وقاسيت فيه من الشدائد وكابدت من الانفعالات ما لم يكن في وسعي حتى أن أتصوره على وجه التقريب لولا أن قاسيته وكابدته فعلًا. هل

كان في وسعي مثلَا أن أتخيَل العذاب الرهيب الذي يعانيه المرء حين لا يستطيع أن يخلو إلى نفسه دقيقة واحدة خلال عشرة سنين؟ نعم.. إنني لم أستطع أن أخلو إلى نفسي مرة واحدة فقط... سواءً أثناء العمل تحت الحراسة، أو في الثكنة مع مائتي (رفيق)... ولكن كان عليَّ أن أتعود هذا...

كان بين السجناء أناس ارتكبوا جريمة قتل عن طيش وخفة، وكان بينهم أناس احترفوا القتل احترافًا؛ كان بينهم قطاع طرق وقادة قطاع طرق وكان بينهم مجرد لصوص أتقنوا صناعة العثور على مال في جيب أحد المارة، أو اختطاف أي شيء من فوق مائدة؛ وكان بينهم أناس لا يستطيع المرء أن يقول لماذا ولا كيف أُدخلوا السجن. وكان لكل سجين من السجناء قصته المضطربة المبهمة الثقيلة الشاقة الأليمة كغداة ليلة سكر. والسجناء على وجه العموم لا يتكلمون عن ماضيهم إلا قليلًا جدًّا، فإنهم لا يحبون أن يقصوا هذا الماضي، حتى أنهم يحاولون أن لا يفكروا فيه. وقد عرفت بين رفاقي في القيد الذي يشدنا معًا قتلة يبلغون من شدة المرح وقلة الاكتراث أن المرء يستطيع أن يراهن على أن ضميرهم لم يعرف الندامة في يوم من الأيام. ولكن كان بين رفاقي أيضًا أناس عابسون صموتون لا يكادون يتكلمون. وكان يندر أن يقص أحد حكايته، لأن حب الاستطلاع هذا لم يكن رائجًا ولا مألوفًا، بل نستطيع أن نقول إنه لم يكن مقبولًا. ومع ذلك كان يتفق من حين إلى حين أن يروي سجين لسجين قصته من فراغ الوقت وقلة العمل، فيصغي الثاني لكلام الأول بغير اكتراث والحق أنه ما كان لأحد أن يدهش جاره بما يقصه عليه أو يرويه له. (أتظننا جهلة؟): تلكم هي العبارة التي كان السجناء يقولونها ساخرين معتزين! أذكر أن واحدًا من قطاع الطرق سكر يومًا (وكان يمكن أن يسكر السجناء في بعض الأحيان فروى كيف قتل طفلًا في الخامسة من عمره، ثم قطعه إربًا إربًا: اجتذبه في أول الأمر بلعبة ثم مضى به إلى مخزن من مخازن المئونة فمزقه هنالك أشلاء. فإذا بالثكنة كلها، وكانت من قبل تضحك لأمازيح الرجل، تطلق عندئذٍ صرخة واحدة، فاضطر الرجل أن يصمت. ولئن قاطعه السجناء وحالوا بينه وبين إتمام حديثه فما ذلك لأن القصة قد أثارت استياءهم أو بعثت الاستهجان والاستنكار، بل لأنه ليس مقبولًا أن يتحدث المرء في (هذا). ويجب أن أذكر هنا أن السجناء كانوا على درجة من التعليم. كان نصفهم - إن لم يكن أكثر من نصفهم - يعرف القراءة والكتابة. أين يمكنك أن تقع، في روسيا، بين أي طائفة من الناس عددها مائتان وخمسون رجلًا، نصفهم يعرف القراءة والكتابة؟ وقد سمعت بعد ذلك من يقول إن التعليم يفسد أخلاق الناس، وسمعت من يستدل على ذلك بهذه الوقائع نفسها. إلا أن هذا الحكم لخطأ: فإن التعليم لا شأن له قَطّ بهذا السقوط الأخلاقي. يجب أن نسلم مع ذلك بأن التعليم ينمي روح العزيمة، ويقوي إرادة التصميم لدى الشعب، وما ذلك بعيب. وكان لكل فئة من الفئات أو لكل قسم من الأقسام زي خاص بهِ فهذه فئة يرتدي أفرادها صدرية من

جوخ، لونها بين البني والرمادي، وسروالًا أحد ساقيه بني والثاني رمادي. في ذات يوم، بينما كنا في الشغل، جاءت بنت صغيرة تبيع (سميطًا) مصنوعًا من الدقيق الأبيض، فنظرت إليَّ طويلًا، ثم انفجرت ضاحكةً وصاحت قائلةً: (هه... ما أبشع منظرهم! إنهم لا يملكون حتى ما يكفي لصنع ملابسهم من جوخ بني أو من جوخ رمادي). وكان ثمة فئة أخرى يرتدي أفرادها صدرة من جوخ رمادي، لكن أكمامها بنية. وكانت الرؤوس تُحلق أيضًا على صور مختلفة، فتارة تحلق الجمجمة طولًا من القذال إلى الجبين، وتارةً تُحلق عرضًا من الأذن إلى الأذن.

إن بين أفراد هذه الأسرة من التشابه الواضح البارز ما يتيح للمرء أن يميِّزها من أول نظرة: فحتى الشخصيات المرموقة بينهم، الشخصيات التي تسيطر على سائر السجناء دون أن تريد ذلك، تحاول أن لا تشذ عن الآخرين، وإنما تتبنى ما يتبنون وتسلك كما يسلكون. ويمكن أن نقول إن جميع السجناء - باستثناء عدد قليل يتمتع بمرح شديد ويحظى لذلك باحتقار الآخرين - كانوا عابسي الوجوه، مقطبين، كالحين، حسودين، مغرورين غرورًا رهيبًا، مدَّعين سريعي التأذي، شديدي التمسك بالأمور الشكلية. والفضيلة العليا في نظرهم هي أن لا يدهش أحدهم من شيء لذلك كانوا يعنون أشد العناية باصطناع مظهر الرصانة والرزانة. ولكن كثيرًا ما يحل محل مظهر التعالي، بسرعة كومض البرق، صغار واضح وجبن جلي. ومع ذلك كان بينهم رجال أقوياء أشداء حقًّا، وكان هؤلاء ينطلقون على سجيتهم وطبيعتهم مخلصين صادقين... ولكن الشيء الغريب هو أنهم في أغلب الأحيان على جانب كبير من الخيلاء توشك من فرطها أن تكون مرضًا، كانت الخيلاء في المحل الأول دائمًا. أما أكثر السجناء فكانت أخلاقهم منحطة حقيرة، لذلك كانت النمائم والوشايات والسعايات تنهمر انهمار المطر الهتون... كانت حياتنا جحيمًا لا تُطاق... ولكن ما كان لأحد أن يجرؤ على رفع صوته بالشكوى من أنظمة السجن الداخلية، ولا من العادات المألوفة المقبولة. فكان السجناء يخضعون لهذه الأنظمة وهذه العادات صاغرين، شاؤوا أم أبوا وكان هنالك أشخاص ذوو طباع شرسة ومراس صعب، فهؤلاء لا يخضعون إلا بعد لأي، ولكنهم يخضعون على كل حال. إن السجناء الذين كانوا قبل دخولهم السجن قد تجاوزوا كل الحدود، ودفعهم غرورهم الطائش الأهوج إلى ارتكاب جرائم رهيبة على غير شعور منهم، كما لو كانوا في حالة هذيان أو جنون، فروَّعوا مُدنًا بأسرها، إن هؤلاء أنفسهم ما يلبث نظام السجن أن يروِّضهم... فتلين قناتهم، وتهدأ طباعهم بعض الهدوء. والقادم (الجديد) الذي يحاول أن يشذ، سرعان ما يلاحظ أنه لن يدهش هنا أحدًا، فإذا هو يخضع شيئًا بعد شيء، ويتلاءم مع الجو العام، ويصطنع وقارًا شخصيًّا يكاد يصطنعه كل سجين، تمامًا كما لو كان اسم السجين عنوان شرف ولقبًا من ألقاب المجد. ثم إنك لا تلاحظ أية علامة من علامات الخجل أو أية إمارة من إمارات الندامة، ولكن نوعًا من الخضوع

الخارجي الذي يشبه أن يكون خضوعًا رسميًّا، هو الذي يتحكم بمستقبل السلوك. (نحن أناس مضيّعون، لم نعرف كيف نعيش أحرارًا. فعلينا الآن أن نجتاز الشارع الأخضر ([4])، وأن نعد صفوفه ونعيد عدّها). (لم تشأ أن تطيع أباك وأمك، فعليك الآن أن تطيع جلد الحمار)؛ (أبيت أن تطرِّز، فكسر الآن الحجارة). كذلك كانوا يقولون، وكذلك كانوا يرددون على سبيل الموعظة بالأقوال المأثورة والأمثال المضروبة، دون أن يأخذوا هذه الأقوال مآخذ الجد رغم ذلك، فما كانت إلا كلمات يطلقونها في الهواء... وهل اعترف واحد منهم بأنه آثم؟ أبدًا!... إنه ليكفي أن يحاول غريب - لا سجين - أن يعيب على أحد السجناء جريمته أو أن يهينه حتى تنطلق الشتائم والمسبات هنا وهناك إلى غير نهاية! وما كان أحذق هؤلاء السجناء في صنع المسبات والشتائم مرهفة لطيفة... إن في سبابهم وشتائمهم لرقة ودقة... إنهم في هذا المجال فنانون!... الشتيمة علم حقًّا.. إنهم لا يحاولون أن يجرحوا الخصم باللفظ الصريح بل بالمعنى الخفي الذي تشتمل عليه عبارة يشيع في داخلها السم. وكانت مشاجراتهم التي لا تنقطع تساهم كثيرًا في تطوير هذا الفن الخاص، وفي تحقيق النمو والتقدم له.

ولما كانوا لا يعملون إلا في ظل التهديد بالعصا، فلقد كانوا كسالى فاسدين ساقطين. والذين لم يكونوا قد فسدوا قبل وصولهم السجن فإنهم ما يلبثون أن يفسدوا فيه، وكانوا غرباء بعضهم عن بعض، قد جمعتهم الظروف على غير إرادة منهم كانوا يقولون: (لقد أبلى الشيطان ثلاثة أزواج من الأحذية حتى استطاع أن يجمعنا). وكانت المكائد والدسائس والوشايات والنمائم والسعايات والحسد والمشاجرات، كان ذلك كله يحتل المقام الأول في حياة الجحيم تلك التي نعيشها. ما من لسان بذيء بقادر على أن يصمد لهؤلاء القتلة الذين تهم الشتيمة أن تخرج من أفواههم في كل لحظة.

كان بينهم، كما سبق أن قلت، رجال أقوياء الإرادة، صلاب العودة شديدو البأس، شجعان القلب، تعلموا كيف يسيطرون على أنفسهم وكيف يتحكمون بسلوكهم. لقد كان الآخرون يهابون هؤلاء ويقدرونهم ويحترمونهم على غير إرادة منهم؛ وكان هؤلاء رغم حرصهم الشديد على سمعتهم يحاولون أن لا يسيطروا على أحد وأن لا يفرضوا أنفسهم على أحد، وأن لا يحاصروا أحدًا، وكانوا لا يتهاترون ولا يتشاجرون ولا يتشاتمون بغير داعٍ إلى مهاترة أو مشاجرة أو مشاتمة. كان سلوكهم سلوكًا رضيًّا سليمًا كريمًا من جميع النواحي، كانوا يتميزون بالعقل والتبصر والحكمة، وكانوا طيعين دائمًا على وجه الإجمال، لا عن تقيد بمبدأ ولا عن شعور بواجب، بل على أساس اتفاق صامت بينهم وبين إدارة السجن، اتفاق يدركون هم ما يعود عليهم به من مزايا، وما يجلبه لهم من منافع، ومع ذلك كانوا يعاملون في حذر. أذكر أن سجينًا شُجاعًا قوي البأس معروفًا بما يتصف به من ميول تشبه ميول

الوحوش الكاسرة استدعي في ذات يوم ليجلد. كان ذلك أثناء الصيف. ولم يكن أحد يعمل. وكان الضابط الذي هو الرئيس المباشر للسجن قد وصل إلى مقر الحرس الموجود قرب الباب الكبير ليشهد تنفيذ العقوبة بنفسه. كان هذا الضابط، وهو برتبة ميجر ([5])، بلية السجناء العظمى، قد جعلهم يرتعدون أمامه خوفًا وذُعرًا. كان يبلغ من القسوة حدًا يفقده صوابه ويضيِّع له رشده. كان ينزل عليهم نزول الصاعقة، على حد تعبيرهم. غير أن نظرته التي لا تقل حدةً عن نظرة الفهد هي التي كانت ترعبهم خاصةً. كان يستحيل إخفاء شيء عنه. كان يرى دون أن ينظر إن صح التعبير. وكان إذا دخل السجن عرف على الفور ماذا يجري في أقصى الطرف الآخر من السور. لذلك كان السجناء يطلقون عليه اسم (صاحب الأعين الثماني). وكان أسلوبه في المعاملة سيئًا، فهو لا يزيد على أن يثير الحنق والغيظ في نفوس هؤلاء الناس الذين لا يعوزهم حنق ولا غيظ. ولولا الضابط النقيب، الذي كان إنسانًا حسن التهذيب واسع الصدر عاقلًا يُهدِّئ روع الميجر ويخفف اندفاعاته ويمنع نزواته إذنْ لأحدث ذلك الميجر كثيرًا من الأذى ولأوقع كثيرًا من المصائب ولسبب كثيرًا من الآلام بسوء إدارته. وإني لأتساءل كيف أمكن أن يُحال على التقاعد سليمًا لم يمسسه أذى؛ والحق أنه صُرفَ من الخدمة بعد صدور حكم في حقه.

امتقع لون السجين حين نودي. كان في العادة يرقد على الأرض شجاعًا لا ينطق بكلمة واحدة، حتى إذا فرغوا من جلده بالسوط نهض ينفض جسمه، كان يتحمل هذا التعذيب بهدوء كفيلسوف. صحيح أنهم كانوا لا يعاقبونه إلا لذنب قارفه، ولا يوقعون فيه العقوبة إلا بكثير من الحذر والاحتياط. ولكنه كان يعد نفسه في هذه المرة بريئًا. لذلك امتقع لون وجهه، واستطاع وهو يدنو من جنود الحرس في رفق وهدوء أن يخفي في كمه سكينًا من السكاكين التي يستعملها الحذاؤون. يجب أن نذكر مع ذلك أنه كان محظورًا حظرًا مطلقًا على السجناء أن يملكوا آلات قاطعة، كالسكاكين والخناجر والمدى وما إلى ذلك. وكان يجري من أجل ذلك تفتيش يقوم به المفتشون قيامًا دقيقًا على حين غرة أحيانًا كثيرة. وكانت مخالفة هذا النظام من أنظمة السجن تنزل في المُخالف عقوبات شديدة قاسية. ولكن لما كان من الصعب أن ينتزع من مجرم ما يريد إخفاءه، ولما كان السجن من جهة أخرى لا يخلو من آلات قاطعة حتمًا، فإن هذه الآلات القاطعة لم تغب من السجن في يوم من الأيام فإذا أمكنت مصادرة بعض هذه الآلات القاطعة، لم يلبث السجناء أن يحصلوا على آلات قاطعة جديدة تحل محل تلك التي تمت مصادرتها. اندفع السجناء نحو السياج خافقي القلوب ليشهدوا من خلال الشقوق ما سيحدث. كانوا يعرفون أن بتروف سيرفض في هذه المرة أن يستسلم للجلد، وأن نهاية الميجر قد أزفت. ولكن الميجر ركب عربته في اللحظة الحاسمة وانصرف عاهدًا بتنفيذ العقوبة إلى ضابط مرؤوس. قال السجناء فيما بعد: (إن اللّه هو

من أنجاه!). أما بتروف فقد تحمل القصاص هادئًا، ذلك أن غضبه قد خف منذ انصراف الميجر، إن السجين يخضع ويطيع إلى درجة ما، غير أن هنالك حدودًا لا ينبغي تجاوزها. لا شيء أدعى إلى الدهشة والعجب من تلك الإنفجارات الغريبة التي تظهر لدى السجناء في بعض الأحيان اندفاعًا وعصيانًا وتمردًا. وما أكثر ما نرى رجلًا ظل خلال سنين عدة يتحمل أقسى العقوبات ثم إذا هو يثور ويعصي ويتمرد لسبب تافه، لأمرٍ لا قيمة له البتة... حتى ليمكن أن يقال عنه عندئذٍ أنه قد جُنّ... وذلك ما يقال على كل حال...

سبق أن قلت إنني لم ألاحظ خلال عدة سنين أية علامة من علامات الندامة، ولا أيسر أثر من آثار الأسف للجريمة المرتكبة، وإن أكثر السجناء كانوا في قرارة نفوسهم يعتقدون أن من حقهم أن يفعلوا ما يحلو لهم... ولا شك أن للكبر والغرور والقدوة السيئة والتباهي والتواضع الكاذب شأنًا في ذلك. ومن ذا الذي يستطيع أن يزعم على كل حال أنه سبر قرارة هذه القلوب التي استسلمت للضياع، فوجدها موصدة دون كل ضياء؟!... على أنني كان في وسعي خلال هذا العدد كله من السنين أن ألتقط أية إيماءة، ولو كانت عابرة خاطفة، تدل على شيء من أسف أو ندامة أو عذاب ضمير. وذلك ما لم ألاحظ منه شيئًا والحق يقال. ليس في وسع الإنسان أن يحكم على الجريمة وفقًا لآراء جاهزة، وفلسفة الإنسان في الحكم على الجريمة أعقد قليلًا مما قد نتوهم. ومن الثابت المحقق أنه لا السجون ولا المعتقلات ولا نظام الأشغال الشاقة، لا شيء من هذا كله بقادر على إصلاح المجرم. إن هذه العقوبات لا تزيد على أن تنزل فيه قصاصًا، وتقي المجتمع من الجرائم التي قد يقارفها إبان ذلك. وليس من شأن الاحتجاز والأشغال المرهقة إلا أن تفاقم الكره والبغض والحقد لدى هؤلاء الناس، وإلا أن تزيد ظمأهم إلى الملذات المحرمة، وإلا أن تولد فيهم مزيدًا من الاستخفاف والاستهتار. وإنني من جهة أخرى لعلى يقين من أن نظام الزنزانة المنفردة لا يحقق إلا هدفًا ظاهرًا خداعًا، فهو يجرد المجرم من كل قوته وكل طاقته، وهو يثير الحفيظة في روحه ويضعف نفسه ويروِّعها، ثم يخرج لنا من ذلك كله مومياء جافة شبه مجنونة، يقدمها إلينا مثالًا على الصلاح الذي تحقق في نفس المجرم وعلى الندامة التي شعر بها. إن المجرم الذي تمرد على المجتمع يكره المجتمع ويعد نفسه دائمًا على حق: فالمجتمع هو المخطئ في نظره، أما هو فليس بمخطئ. ثم إنه قد عوقب، لذلك يرى أنه قد أصبح بريئًا. دعك من اختلاف آراء الناس بعضهم مع بعض في شأن الجريمة: إن هناك جرائم يعترف كل إنسان في كل مكان وزمان، وتعترف جميع القوانين والأنظمة والشرائع بأنها جرائم لا جدال فيها، وبأنها ستظل تعد جرائم ما ظل الإنسان إنسانًا. وإنني لم يتح لي أن أسمع إلا في السجن قصصًا عن أشد الجرائم غرابةً وهولًا يرويها صاحبها ضاحكًا ضحكًا يشبه أن يكون ضحك طفل، ولا يكاد يحاول أن يكظم ضحكه. لن أنسى مدى الحياة قصة ابن قتل أباه، وكان قبل ذلك ضابطًا وكان

من طبقة النبلاء. لقد كان هذا الابن مصدر شقاء أبيه. كان ابنًا شاذًا ما في ذلك شك. وكان الأب يحاول جاهدًا أن يصدّه عن سلوكه السيئ بإسداء النصح إليه عسى أن يقيه من الانزلاق إلى الهاوية التي كان ينحدر إليها، فلم يُجْدِه ذلك شيئًا. وإذ كان الإبن مثقلًا بالديون، وكان يتصور أن أباه يملك عدا المزرعة مالًا يخبئه، فقد قتل أباه بغية أن يؤول إليه الميراث بمزيد من السرعة. ولم تكتشف الجريمة إلا بعد انقضاء شهر على ارتكابها. وفي أثناء ذلك الشهر استمر القاتل على فجوره واستهتاره بعد أن أبلغ القضاء عن اختفاء أبيه. وأخيرًا استطاعت الشرطة، أثناء غياب الابن، أن تكتشف جثة القتيل الشيخ في قناة تغطيها الأشجار. وكان الرأس الأشيب مفصولًا عن الجذع، مسندًا إلى الجسم العاري كل العري، وقد وضع القاتل تحت الرأس وسادة من قبيل السخرية والهزء. لم يعترف الشاب بشيء: ولكنه جُرِّد من رتبته العسكرية، وانتزعت منه امتيازات النبالة، وأرسل إلى سجن الأشغال الشاقة يقضي فيه عشرين عامًا. فكيف كان هذا الشاب طوال المدة التي عرفته فيها؟ لقد كان دائمًا مشرق المزاج لا يبالي شيئًا ولا يحفل بشيء... لم ألق في حياتي شابًا في مثل طيشه وقلة تبصره، رغم أنه لم يكن غبيًّا قَطّ... ولم ألاحظ فيه شيئًا من الإفراط في القسوة، وكان السجناء الآخرون يحتقرونه، لا بسبب جريمته، فما كان أحد يأتي على ذكرها أو يناقش فيها، بل لأنه لم يكن على شيء من الرصانة والوقار. وها هو يمتدح في ذات يوم ما تتصف به أسرته من قوة الجسم وتمام العافية بالوراثة، فيقول: (انظروا إلى أبي مثلًا: إنه إلى يوم موته لم يمرض قَطّ!). إن مثل هذا التبلد الحيواني في الإحساس يبدو أمرًا مستحيلًا حين يبلغ مثل هذه الدرجة الرهيبة: إنه شيء شاذ إلى أبعد حدود الشذوذ. فلا بد أن يكون ثمرة آفة عضوية، لا بد أن يكون ثمرة تشوه جسمي وروحي لم يعرفه العلم حتى أيامنا هذه، ولا يمكن أن يكون الأمر أمر جنوح أو إجرام فحسب، ولم أصدق طبعًا أن تُرتكب جريمة تبلغ هذا المبلغ من الوحشية، غير أن أناسًا من المدينة التي كان يقطنها الشاب، كانوا يعرفون جميع تفاصيل قصته فرووها لي؛ وكانت الوقائع من الوضوح بحيث يستحيل رفض التصديق والاقتناع بصحة وقوع الجريمة.

وقد سمعه السجناء ذات مرة يصيح أثناء نومه: (اقبض عليه! اقبض عليه! اقطع رأسه، اقطع رأسه!...).

وكان جميع السجناء تقريبًا يحلمون بصوت عالٍ، أو يهذون أثناء النوم. وكانت ألفاظ الشتم والسب وأسماء الخناجر والفؤوس تتردد في أحلامهم أكثر الأحيان. وكانوا يقولون: نحن أناس مخربون، ليس لنا أحشاء، لذلك نصرخ في الليل.

ولم تكن الأشغال الشاقة في قلعتنا عملًا بل إلزامًا: كان السجناء يقومون بمهمتهم أو يعملون عددًا من الساعات يحدده القانون، ثم يعودون إلى السجن.. وكانوا يكرهون هذا العمل الذي يُجبرون على القيام به إجبارًا،

فلولا أن كل سجين من السجناء كان يشغل وقته بعمل شخصي يقبل عليه من تلقاء نفسه ويهب له كل ذكائه، إذنْ لاستحال عليه أن يطيق احتمال السجن وكيف يمكن لهؤلاء الناس الذين يتصفون جميعًا بطبيعة قاسية، والذين عاشوا حياة عريضة وما يزالون يريدون أن يعيشوا، والذين جمعتهم الظروف على غير إرادة منهم، بعد أن نبذهم المجتمع، كيف يمكن لهؤلاء الناس أن يعيشوا حياة سليمة طبيعية؟
إن الكسل وحده ينمي ويعزز لدى السجناء أشد الغرائز الإجرامية عنوًّا، حتى تلك التي ما كان يمكن أن تخطر ببالهم في يوم من الأيام.
إن الإنسان لا يستطيع أن يحيا بلا عمل، ولا يستطيع أن يحيا بدون تملك طبيعي مشروع. فإذا لم تتوفر هذه الشروط انحلت أخلاقه وفسدت طباعه وانقلب وحشًا كاسرًا. لذلككان لكل سجين، بحكم ضرورة طبيعته وبحكم غريزة حب البقاء، كان لكل سجين عندنا مهنة يتعاطاها وعمل يقوم به. وكانت أيام الصيف الطويلة تنقضي كلها تقريبًا في الأعمال المفروضة؛ وكانت ليالي الصيف القصيرة لا تكاد تكفي للنوم. وليس الأمر كذلك في الشتاء. كان النظام يوجب أن يحبس السجناء في الثكنات متى هبط الليل. فما عساهم يصنعون أثناء الليالي الطويلة الحزينة غير أن ينصرفوا إلى عمل من الأعمال؟ لذلك كانت كل ثكنة من الثكنات تتخذ في ليالي الشتاء مظهر ورشة كبيرة رغم أن ذلك ممنوع محظور! والحق أن العمل نفسه لم يكن ممنوعًا أو محظورًا، ولكن الممنوع والمحظور إنما هو اقتناء آلات أو أدوات... وهل يمكن العمل بغير آلات أو أدوات!... كان السجناء يعملون إذنْ خفية في السر... ويظهر أن إدارة السجن كانت تغض الطرف عن هذا. وكان كثير من السجناء يصلون إلى السجن وهم لا يعرفون ماذا يصنعون بأصابعهم العشرة، فإذا هم يتعلمون من رفاقهم مهنة من المهن، حتى إذا أطلق سراحهم خرجوا من السجن عُمالًا مهرة. كان بينهم حذاؤون وإسكافيون وخياطون ونحاتون وقفالون ونقاشون. حتى لقد كان بينهم يهودي اسمه أشعيا بومشتاين كان يعمل صائغًا ومُرابيًّا في آن واحد. كان جميع السجناء يعملون، فيجنون من عملهم بعض الدريهمات، لأن طلبات كثيرة كانت تأتي إليهم من المدينة. إن المال حرية رنانة راجحة في نظر من حرم من الحرية حرمانًا كاملًا. فإذا شعر أن في جيبه بعض المال، كان له في ذلك عزاء عن حاله، ولو لم يكن يستطيع أن ينفق هذا المال في وجه من الوجوه (ولكن يجب أن تذكر أن إنفاق المال ممكن في كل مكان وكل زمان، لا سيما وأن المرء يشتهي الثمرة المحرَّمة اشتهاءً مُضاعفًا، ولقد كان يمكن الحصول على خمرة حتى في السجن). وكان السجناء جميعًا يدخنون رغم أن الغلايين كانت ممنوعة منعًا باتًا، فكان المال والتبغ يقيان السجناء شرَّ الجريمة: فلولا العمل لأهلك بعضهم بعضًا، لولاه لدمر بعضهم بعضًا، كما تفعل العناكب حين تحبس في حق من زجاج. ومع ذلك كان العمل والمال كلاهما ممنوعين محظورين وكثيرًا ما كانت إدارة

السجن تقوم في الليل بحملات تفتيش دقيق فتصادر كل ما تقع عليه عند السجناء من أشياء تحظر الأنظمة اقتناءها؛ وكانت حملات التفتيش هذه تظفر باكتشاف بعض هذه الأشياء المحظورة مهما يتفنن السجناء في إخفائها. وكان هذا أحد الأسباب التي تدفع السجناء إلى أن لا يحتفظوا بهذه الأشياء زمنًا طويلًا، بل يُسارعون إلى أن يستبدلوا بها خمرًا يشربونه، وذلك يعلل لنا كيف كان لا بد أن تدخل الخمرة إلى السجن. كان السجين لا يُحرم من ماله متى صودر فحسب، بل كان إلى ذلك يُجلد جلدًا قاسيًّا!...

وما يكاد ينقضي على حملات التفتيش زمن قصير، حتى يحصل السجناء من جديد على نظائر الأشياء التي تمت مصادرتها... فتعود الأمور إلى ما كانت عليه... وكانت إدارة السجن تعلم ذلك... ورغم أن ظروف حياة السجناء كانت أشبه بظروف حياة الناس الذين يسكنون فوق بركان فيزوف، فلم يكن أحد منهم يتمتم بكلمة واحدة تذمرًا من العقاب.

ومن لم يملك صنعةً يدوية كان يتاجر بطريقة من الطرق. وكانت أساليب الشراء والبيع طريفة. فبعضهم يشتري أشياء عتيقة ثم يبيعها، وهي أشياء ما كان لأحد غير سجين أن يخطر بباله بيعها أو شراؤها، حتى ولا اعتبارها ذات قيمة ما. إن أحقر خرقة بالية كان لها ثمنها، وكان يمكن أن تنفع، وكان المال يكتسب في نظر السجناء، بسبب فقرهم، قيمة أعلى من قيمته في الواقع. إن أشغالًا طويلة شاقة، بل ومعقدة كل التعقيد في بعض الأحيان، كان لا يُدفع ثمنها إلا بضعة كوبكات. وكان بعض السجناء يُقرِضون بالربا لمدة أسبوع، فيجنون من ذلك بعض الأرباح. كان السجين المبذر أو المِتلاف يحمل إلى المرابي الأشياء القليلة التي يملكها، فيرهنها لديه لاقتراض دريهمات قليلة بفائدة ضخمة. فإذا لم يسترد المدين أشياءه بدفع الدين في موعده المضروب، كان من حق المرابي أن يبيعها بالمزاد في غير رحمة، وبلا إبطاء. وقد بلغ الربا في السجن من الرواج والازدهار أن السجناء كانوا يرهنون حتى أشياء تملكها الدولة: كالملابس والأحذية وما إلى ذلك من أمتعة لا غنى عنها في لحظة من اللحظات. فإذا قبل الدائن رهن أمتعة من هذا النوع، جرت الأمور في كثير من الأحيان مجرى لم يكن في الحسبان: فها هو ذا صاحب الأمتعة يمضي بعد استلام المال إلى العريف (رئيس المراقبين في السجن)، فيبلغه نبأ اختفاء أمتعة من ملك الدولة، فتنتزع الأمتعة عندئذٍ من المرابي، دون أن يرى أحد أن هناك ما يدعو إلى تبليغ إدارة السجن حقيقة الأمر، وما من مشاجرة قامت يومًا بين المرابي وصاحب الأمتعة - وذلك أظرف ما في الأمر - فالمرابي يرد الأمتعة المطلوبة صامتًا عابس الوجه مقطب الجبين، كأنه كان يتوقع ذلك منذ زمن طويل.. ولعله كان يعترف لنفسه بأنه لو كان في محل المدين لما فعل غير ما فعله المدين. ولذلك إذا تشاتم الرجلان في إثر حادثة من هذا النوع، فإنهما لا يتشاتمان عن كره وبغضاء، بل يتشاتمان إبراءً للذمة إن صح التعبير.

وكان السجناء يسرق بعضهم بعضًا بلا خجل ولا حياء. إن لكل سجين صندوقًا صغيرًا مزودًا بقفل، يدس فيه الأمتعة التي تعهد بها إليه إدارة السجن. غير أن السماح باستعمال هذه الصناديق لم يمنع السرقات قَطّ. وسهل على القارئ أن يتصور براعة اللصوص الذين كانوا بيننا. إن أحد السجناء، وكان مُخلصًا لي كل الإخلاص، (أقول هذا بلا ادعاء) قد سطا على كتاب التوراة الذي كنت أملكه، وهو الكتاب الوحيد الذي كان يسمح للسجناء باقتنائه في السجن. وقد اعترف لي بفعلته في ذلك اليوم نفسه، لا ندمًا على ما فعل، بل لأنه حين رآني أبحث عن الكتاب مدة طويلة أشفق عليَّ وأخذته بي رحمة. وكان بين رفاقنا في القيد عدد من السجناء يسمون (خمَّارين)، وهم يبيعون الخمر ويثرون من هذه التجارة إثراءً لا بأس به. سأتحدث عن هذا فيما بعد، لأن هذه التجارة شائقة جدًّا. إن عددًا كبيرًا من السجناء قد جيء بهم إلى هنا لأنهم مهربون فلا غرابة والحالة هذه أن يُهرب الخمر سرًا إلى السجن، رغم المراقبة الشديدة، والحراسة المستمرة التي لا بد منها ولا غنى عنها... ويجب أن أذكر عابرًا أن التهريب جريمة لها شأن خاص... هل تتصورون أن المال والربح الذي يجنيه المهرِّب من التهريب ليس في المقام الأول دائمًا في نظر المهرِّب؟ تلك حقيقة مع ذلك. إن المهرِّب يعمل في التهريب لا طمعًا في الربح بل تحقيقًا لرسالة: إنه في نوعه شاعر. إنه يجازف بكل ما يملك، ويعرض نفسه لأشد المخاطر، ويمكر، ويحتال، ويبتكر، ويخرج من المآزق، وينجو من المتاعب... حتى لكأنه أحيانًا ملهم في ما يعمل... إن هوى التهريب لا يقل قوةً وعُنفًا عن هوى القمار. عرفت سجينًا ضخم الجسم قوي البنية كان بين جميع من عرفت أكثرهم دماثةً وألينهم عريكةً وأشدهم مسالمةً وخضوعًا... حتى ليتساءل المرء كيف أمكن أن يُسجن هذا الإنسان؟ لقد كان من حسن المعشر ولطف السلوك وحب الناس أنه لم يتشاجر مع أحد طوال المدة التي قضاها في السجن. إنه من روسيا الغربية، وكان يقطن على الحدود، فاعتقل وأُرسل إلى السجن بتهمة التهريب. وكان طبيعيًّا أن لا يستطيع مقاومة الإغراء الذي يحضه على المجيء بخمرة إلى السجن. كم من مرة عوقب على ذلك! واللّه يعلم كم كان يخاف السياط وكانت هذه المهنة لا تدر عليه إلا ربحًا زهيدًا... وكان المتعهد (المقاول) هو الذي يثرى على حسابه.. كان الرجل يبكي بكاء امرأة عجوز كلما عوقب، ويحلف أغلظ الأيمان لينقطعن عن هذا العمل. فكان يبر بالعهد الذي قطعه على نفسه شهرًا، ثم إذا هو يعود إلى سيرته الأولى منساقًا مع هواء من جديد... فبفضل هواة التهريب هؤلاء كان السجن لا يخلو من الخمرة في يوم من الأيام.

وهناك مورد آخر ثابت كان يحسن إلى السجناء وإن لم يكن يغنيهم... ذلك المورد هو الصدقات. إن الطبقات الراقية في مجتمعنا الروسي لا تعرف مدى اهتمام التجار والباعة والكسبة وسائر شعبنا الروسي (بعاثري الحظ). كان سيل الصدقات لا ينقطع عن السجن في يوم من الأيام، وهو أنواع من الخبز

الأبيض في أكثر الأحيان، أو شيء من المال في بعض الأحيان. فلولا هذه الصدقات لكانت حياة السجناء، ولا سيما حياة أولئك الذين ساءت تغذيتهم، شاقة أليمة إلى أبعد الحدود. وكانت الصدقات توزع على السجناء بالتساوي. فإذا كانت إحدى الصدقات غير كافية شطرت الأرغفة الصغيرة نصفين، حتى ينال كل سجين نصيبه ما زلت أذكر أول صدقة تلقيتها، وكانت قطعة نقد صغيرة. ففي ذات صباح بعد وصولي بزمن قصير، كنتُ عائدًا من العمل وحدي مع أحد الحرس، فإلتقيتُ بأم وابنتها... إن البنت في العاشرة من عمرها، جميلة كملاك... كنت قد رأيتها مرة قبل ذلك. (الأم أرملة جندي شاب مسكين حوكم أمام المجلس الحربي ومات بمستشفى السجن أثناء وجودي فيه. لقد بكتا بكاءً حارًّا حين جاءتا كلتاهما تودعانه الوداع الأخير). فلما رأتني الفتاة احمرّ وجهها وتمتمت تهمس في أذن أمها ببعض الكلام، فتوقفت الأم، وتناولت من سلتها ربع كوبك مدته إلى البنت، فأسرعت البنت إليَّ تقول: (خذ هذا الكوبك أيها المسكين، على روح يسوع المسيح!). فأخذت قطعة النقد التي دستها البنت في يدي. وعادت البنت إلى أمها فرحة كل الفرح. لقد احتفظت بذلك الكوبك... زمنًا طويلًا...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

2

المشاعر الأولى

إنَّ الأسابيع الأولى من سجني، وبداياتي الأولى فيه بوجه عام تُعرض لخيالي الآن واضحةً وضوحًا قويًّا. أما السنون التالية فقد اختلط بعضها ببعض ولم تُخلف في نفسي إلا ذكرى غامضة مبهمة. حتى أن بعض فترات هذه الحياة قد امحت من ذاكرتي تمامًا، ولم أحتفظ منها إلا بإحساس واحد لم يتغير، وهو الإحساس بأنها شاقة رتيبة خانقة.

إن ما رأيته وشعرت به أثناء تلك الآونة الأولى من اعتقالي يبدو لي كأنه حدث بالأمس. وكان لا بد أن يكون الأمر كذلك.

أذكر تمامًا أن هذه الحياة إنما أدهشتني في أول الأمر لأنني لم أجد فيها شيئًا خاصًا خارقًا يلفت النظر أو يثير الانتباه، أو قل بتعبير أصدق أنني لم أجد فيها شيئًا غير متوقع. ولم أفهم كل ما في مثل هذه الحياة من أمور استثنائية غير متوقعة إلا بعد أن عشت في السجن زمنًا طويلًا طولًا كافيًّا، فدهشت عندئذٍ أشد الدهشة. ويجب أن أعترف أن هذه الدهشة لم تفارقني طوال المدة التي قضيتها في السجن؛ ولا استطعت أن أتصالح مع هذه الحياة بحال من الأحوال.

شعرت في أول الأمر باشمئزاز لا سبيل إلى مغالبته حين وصلت إلى السجن، ولكن الشيء الغريب أن الحياة فيه بدت لي أقل مشقة وألمًا مما كنت أتصورها في طريقي إليه.

فها هم أولاء السجناء، رغم ضيقهم بالأغلال، يذهبون ويجيئون في السجن بحرية. إنهم يتشاتمون ويغنون ويعملون ويدخنون الغليون ويشربون الخمر (كان الشاربون مع ذلك قلة نادرة)، بل ويقيمون في الليل ندوات لعب بالورق ولم تبد لي الأشغال الشاقة شاقة جدًّا. وخُيِّل إليَّ أنها ليست هي المشقة أو العناء أو التعب الذي يلقاه السجين في معتقل الأشغال الشاقة. ولم أدرك إلا بعد ذلك بزمن طويل لماذا كان هذا العمل قاسيًّا ومفرطًا. إنه قاسٍ ومفرط لا لأنه صعب، بل لأنه إجباري، لأنه إلزامي، لأنه قهري، ولأن المرء لا يقوم به إلا خوفًا من العصا. لا شك أن الفلاح يعمل أكثر كثيرًا من السجين المحكوم عليه بالأشغال الشاقة، فهو يكد ويجهد في الصيف ليل نهار. ولكنه من أجل مصلحته إنما يكد ويجهد، فهدفه معقول وغايته مفهومة، لذلك لا يقاسي ما يقاسيه السجين الذي يقوم بعمل إجباري لا يجني منه نفعًا، خطر ببالي ذات يوم أنه إذا أُريد تحطيم إنسان من الناس تحطيمًا، ومعاقبته معاقبة قاسية رهيبة، وسحقه سحقًا يرتعش إزاءه أشد السفاكين عنوًا، وأكثرهم ضراوة، وأخافته من هذه العقوبة خوفًا رهيبًا قبل إنزالها فيه، يكفي أن يفرض عليه القيام بعمل ليس له أي فائدة البتة، عمل سخيف باطل مستحيل. إن الأعمال

التي يفرض على السجناء أن يقوموا بها الآن لا تفيد هؤلاء السجناء في شيء، ولا تعود عليهم بنفع، ولكنها أعمال معقولة على كل حال: فالسجين يصنع قرميدًا أو يحفر الأرض أو يطيِّن أو يبني، وتلك كلها أعمال لها معناها ولها هدفها. فهو يريد عندئذٍ أن يقوم بعمله بمزيد من الحذق، ومزيد من الفائدة. أما إذا أكرهته مثلًا على أن يصب ماء من وعاء في وعاء، ثم أن يعيد الماء من الوعاء الثاني إلى الوعاء الأول؛ أو إذا أكرهته أن يدق رملًا، أو على أن ينقل كومة تراب من مكان إلى مكان لتأمره متى أتم نقلها بأن يردها إلى حيث كانت، فإنني لعلى يقين من أن السجين سيقتل نفسه ذبحًا بعد بضعة أيام، أو سيرتكب ألف جريمة من الجرائم التي يُعاقب فاعلها بالإعدام، مؤثرًا ذلك على أن يحيا في مثل هذا الهوان وهذا العذاب. إن عقوبة كهذه العقوبة لهي أقرب إلى التعذيب والانتقام الرهيب منها إلى التأديب. وهي سخيفة مستحيلة لا تحقق هدفًا معقولًا.

مهما يكن من أمر، فإنني لم أصل إلى السجن إلا في فصل الشتاء، في شهر كانون الأول (ديسمبر). لم تكن الأعمال حينذاك كثيرة في قلعتنا، ولم يكن في ذهني أية فكرة من أعمال الصيف التي يساوي تعبها خمسة أضعاف تعب أيام الشتاء. كان السجناء أثناء فصل الشتاء ينقضون مراكب قديمة تملكها الدولة على نهر أرتيش، ويعملون في الورشات، وينزعون الثلوج التي تُراكمها عواصف الثلج على المباني، أو يحرقون الجص ويدقونه إلخ... ولما كان النهار قصيرًا جدًّا، فإن العمل ينتهي في ساعة مبكرة، ويعود السجناء إلى السجن حيث لا يعملون شيئًا عدا العمل الإضافي الذي ابتدعوه لأنفسهم.

وكان ثلث السجناء في أكثر تقدير يقوم لنفسه بعمل جاد: أما الآخرون فيتسكعون كسالى لا يعملون، ويحوِّمون هنا وهناك في الثكنة بغير هدف يكيد بعضهم لبعض ويشتم بعضهم بعضًا، والذين يملكون شيئًا من مال يشربون الخمرة ويسكرون، أو يخسرون في القمار ما ادخروه... ذلك كله كسلًا وضجرًا وفراغًا... وقد عرفت نوعًا من العذاب لعله أشد وآلم أنواع العذاب التي يمكن أن يقاسي منها سجين إلى جانب حرمانه من الحرية: ألا وهو السكنى المشتركة قسرًا. إن السكنى المشتركة أمر يُقسر عليه الإنسان قسرًا في كل مكان تقريبًا، ولكن السكنى المشتركة ليست رهيبة في مكان كما هي رهيبة في سجن: إن هناك أناسًا لا يطيق أحد أن يعيش معهم. وإني لعلى يقين من أن كل سجين قد قاسى من هذا الأمر، ربما دون أن يشعر.

أما الطعام الذي كان يُقدم للسجناء فقد بدا لي مقبولًا. وكان السجناء يؤكدون أنه خير كثيرًا من الطعام الذي يقدم في أي معسكر من معسكرات التدريب في روسيا الأوروبية. غير أنني لا أستطيع أن أشهد بصدق قولهم، لأنني لم أدخل سجنًا غير هذا السجن، وكان كثيرون منا يستطيعون أن يحصلوا على الطعام الذي يطيب لهم، ولكن رغم أن سعر رطل اللحم لا يزيد على كوبكين شتاءً، وثلاثة كوبكات صيفًا، فإن الذين كانوا يسمحون لأنفسهم بترف أكل

اللحم إنما هم الذين يملكون مالًا، أما أكثر السجناء فكانوا يكتفون من الطعام بالنصيب الذي يوزع عليهم.

وإذا امتدحوا طعام السجن فإنهم لا يعنون إلا الخبز الذي كان يوزع بالوزن على الغرف لا على الأفراد، ولو قد اتبعت هذه الطريقة الأخيرة لأرعب ذلك السجناء؛ لأن ثلثهم على الأقل كان سيعاني من الجوع في هذه الحالة بغير انقطاع؛ أما الطريقة المتبعة فقد كان كل منهم راضيًّا عنها. وكان خبزنا طيب المذاق لذيذ الطعم مشهورًا في المدينة كلها، وإنما تعزى جودته إلى أن أفران السجن قد أحسن بناؤها، أما حساؤنا الذي كان يُصنع من حامز الملفوف (الكرنب) ويُطبخ في قدر كبيرة ويكثَّف بإضافة شيء من الدقيق إليه، فلم يكن منظره بالمنظر السار، وهو في أيام العمل هزيل يكاد يخلو من الدسم. على أن الشيء الذي كان يثير في نفسي الاشمئزاز خاصةً، إنما هو عدد الهوام والحشرات التي كثيرًا ما كانت توجد فيه. على أن السجناء كانوا لا يولون ذلك أيَّ انتباه.

لم أذهب إلى العمل في الأيام الثلاثة الأولى التي أعقبت وصولي: فلقد كان السجناء الجدد يمهلون بعض الوقت للاستراحة من متاعب السفر. وكان عليَّ أن أخرج من السجن في الغداة لتبديل أغلالي، فإن السلسلة التي كنت مُقيدًا بها ليست من النموذج المستعمل في السجن. فهي مؤلفة من حلقات ترن رنين الجلاجل، كما وصفها بذلك السجناء وهي تحمل من الخارج فوق الثياب، ولا كذلك قيود رفاقي فإنها لم تكن مصنوعة من حلقات بل من قضبان أربع بسمك الإصبع، تضمها ثلاث حلقات تلبس تحت السروال وتشدُّ الحلقة الوسطى منها بحزام معقود على القميص. ما زلت أرى الصبيحة التي قضيتها في السجن راقية واضحة إلى الآن. لقد دق الطبل عند مقر الحرس قرب الباب الكبير في السور، فما هي إلا عشرة دقائق حتى فتح العريف أبواب الثكنة، فأخذ السجناء يستيقظون بعضهم وراء بعض، فينهضون عن أسرتهم المصنوعة من ألواح الخشب، مرتجفين من شدة البرد، على ضوءٍ كابٍ يصدر عن شمعة مشتعلة.

إنهم عابسون جميعًا على وجه التقريب: يتثاءبون ويتمطون وتتغضن جباههم الموشومة. فبعضهم يرسم إشارة الصليب وبعضهم يبدأ بقذف الشتائم وصب اللعنات والأبخرة التي تملأ جو الثكنة رهيبة. غير أن الهواء البارد يهجم من الخارج متى فُتح الباب، ويأخذ يدور في الثكنة كالأعصار. ويتدافع السجناء حول دلاء الماء يملؤون منها أفواههم ليغسلوا وجوههم وأيديهم. ويكون هذا الماء قد حمله السقاء منذ الأمس. والسقاء سجين توجب الأنظمة أن يعنى بتنظيف الثكنة، وينتخبه السجناء بأنفسهم، فهو لا يمضي إلى العمل، لأن عليه أن يعنى بفحص الأسرة، وملاحظة الأرض، وأن يجيء بطشت الغسيل في الليل وأن يخرجه في الصباح، وأن يملأ دلاء الثكنة بالماء البارد يُستعمل في

الصباح للاغتسال ويستعمل في النهار للشرب. وفي ذلك الصباح الذي دخلت فيه السجن شَبَت على الفور مشاجرات حول جرة الماء:

- ماذا تفعل هنا يا ذا الجبين الموشوم؟

بهذا دمدم سجين فارع القامة، أعجف الجسم، أسمر اللون. يلفت النظر بالنتوءات الغريبة التي تغطي جمجمته. قال ذلك ودفع بيده سجينًا آخر مدوَّر الجسم، قصير القد، مرح الطبع، أحمر الوجه. فأجابه الثاني:

- هلا انتظرت قليلًا!

- لماذا تصرخ؟ ألا تعلم أن من يطلب من غيره الإنتظار لا بد له أن يدفع ثمن ذلك؟ هيا امضِ! أرأيتم إلى هذا التمثال أيها الأخوة لا... لا... إنه لا يملك شيئًا من (الفارتيكوليتانبوست) ([6]...

وأحدثت هذه الكلمة (فارتيكوليتانبوست) أثرها... فانفجر السجناء ضاحكين مقهقهين... وذلك كل ما كان يتمناه السجين المازح الهازل الذي كان واضحًا أنه يقوم في الثكنة بدور المهرِّج. فرمقه السجين الثاني بنظرة احتقار عميق. قال الأول:

- يا لك من عجل... انظروا كم سمَّنه خبز السجن!...

- ماذا تظن نفسك؟ طائرًا جميلًا؟.

- كما تريد!...

- قل لنا إذنْ: أيُّ طائر جميل أنت؟

- إنك ترى...

- كيف أرى؟

- قلت لك: طائر...

- ولكن أي طائر؟

كان الرجلان يلتهم كل منهما صاحبه بعينيه إلتهامًا. وكان القصير ينتظر جوابًا وهو قابض يديه كأنه يستعد للنزال. وقدرت أن معركة ستنشب. كانت هذه الأمور كلها جديدة عليَّ. لذلك كنت أنظر إلى المشهد مستطلعًا مدهوشًا. ولكنني علمت بعد ذلك أن المشاجرات التي من هذا القبيل بريئة كل البراءة، يراد بها تسلية السجناء الآخرين، كأنها تمثيلية مضحكة... ولا يكاد يصل الشجار في يوم من الأيام إلى حد استعمال الأيدي. ذلك أمر تتميز به عادات السجن وأخلاقه تميزًا واضحًا.

لبث السجين الطويل القامة هادئًا رضيًّا وقورًا جليلًا. كان يحس أنهم ينتظرون جوابه. إن عليه أن يدافع عما قاله، وأن يبرهن على أنه طائر عظيم، على أنه شخصية... وإلا تلطخ شرفه أمام الآخرين، وضحكوا عليه ما شاء لهم هواهم أن يضحكوا. لذلك ألقى خصمه نظرة شزراء تفيض احتقارًا لا يوصف، محاولًا أن يثير حنقه بنظرة من فوق الكتف يروزه بها من أعلاه إلى أدناه، كما يمكن أن يفعل ذلك بحشرة من الحشرات، ثم قال يجيبه بصوت بطيء متميز:

- كاجان ([7])
يريد أن يقول إنه طائر من نوع (الكاجان)، فما إن نطق بهذه الكلمة حتى انطلقت من الصدور قهقهة رهيبة، وحتى أخذت الأكف تصفق تهليلًا للجواب المحكم.
- أنت لست طائر (كاجان)... بل أنت وغد حقير..
كذلك صاح يقول الرجل القصير السمين الذي أحس أنه غُلب. وثارت ثائرته للهزيمة التي ألحقها به خصمه، فأوشك أن يهجم عليه لولا أن رفاقه أحاطوا بالرجلين كليهما خشية أن تقوم مشاجرة حقًّا.
صاح أحد المشاهدين يقول من ركنه البعيد:
- ما لكما لا تقتتلان بالأيدي بدلًا من تراشق الكلام بالألسن؟
فأُجيب:
- بل حولوا بينهما... فلسوف يقتتلان... نحن رجال أشداء... واحدنا بسبعة إذا جد الجد... ولا نحجم عن منازلة...
- يا للمقاتلين الأشداء!... واحد جيء به إلى هنا لأنه سرق رطلًا من خبز.. وواحد لأنه من لصوص الأواني... أوسعه الجلاد جلدًا بعد أن سرق من إحدى العجائز وعاء لبن رائب....
صاح رجل من مشوهي الحرب:
- هيَّا... كفى... كفى...
هو جندي سابق مهمته أن يحافظ على النظام في الثكنة، وكان ينام في ركن من الأركان على سرير خاص.
- ماءٌ يا أولاد! ماءً لأخيكم نيفاليد ([8]) بتروفتش!... ماء لأخينا نيفاليد بتروفتش... ها هو ذا يستيقظ الآن!
- أخوك؟ أأنا أخوك؟ إننا لم نشرب خمرة معًا بقرش واحد في يوم من الأيام...
كذلك دمدم يقول الرجل المشوه وهو يدس ذراعيه في كم معطفه.
وتهيأ السجناء للتفقد... ذلك أن النهار قد طلع... تدافع السجناء نحو المطبخ جمهورًا متزاحمًا... كانوا قد لبسوا صداراتهم... وها هم يتلقون بقبعاتهم ذات اللونين الخبز الذي يوزعه عليهم أحد الطباخين. كان هؤلاء الطباخون يختارهم السجناء أنفسهم، وكان يوجد منهم اثنان في كل مطبخ... وهم يتصرفون بالسكين الوحيدة المرخص بها في المطبخ، يستعملونها في قطع الخبز وقطع اللحم على السواء.
وتفرق السجناء في الأركان وحول الموائد، لابسين طاقياتهم وستراتهم، متزنرين بحزام الجلد، متأهبين للذهاب إلى العمل. وكان أمام بعض السجناء شيء من شراب الكفاس ([9]) يفتّون فيه خبزهم ثم يلتهمونه.

الجلبة لا تُطاق. ومع ذلك كان بعض السجناء يتحدثون في الأركان وقد لاح في وجوههم الجد والهدوء.
- نعمت صباحًا، وطاب طعامك أيها الأب أنطونتش.
كذلك قال أحد الشبان من السجناء، وهو يجلس إلى جانب شيخ أثرم عابس، فأجابه الشيخ دون أن يرفع عينيه محاولًا أن يمضغ خبزه بلثتيه اللتين ليس فيهما أسنان:
- نعمت صباحًا، إذا كنت لا تمزح!
- كنت أحسب أنك مت يا أنطونتش! ما أغباني!... حقًّا كنت أظن أنك مت!...
- منْ أنت أولًا فأتبعك...
جلست قرب الرجلين. كان على يميني سجينان وقوران يتبادلان الحديث ويحاولان أن يحافظا على رصانتهما وهما يتحدثان.
قال أحدهما:
- لستُ أنا من يمكن أن يسرقه أحد... بل إنني لأخشى أن أقوم أنا بسرقة أحد... لن ينفع أن أحدًا يسرقني... وإلا دفع الثمن غاليًّا..
- ما عساك تستطيع أن تفعل؟ ما أنت إلا سجين... هل لنا اسم آخر؟... لسوف ترى أنها ستسرقك، هذه اللئيمة... دون أن تقول لك شكرًا. لقد صنعت بي ذلك. هل تتصور أنها جاءت منذ بضعة أيام؟ تساءلت: أين يمكن أن نختفي عن الأنظار؟ قلت: استأذن بالذهاب إلى تيودور الجلاد. كان لا يزال يملك دارًا في ظاهر البلدة... هي تلك الدار التي اشتراها من سالومون الأجرب... هل تعرفه؟ إنه ذلك اليهودي الذي قتل نفسه منذ عهد قريب.
- نعم أعرفه... هو الذي كان خمَّارًا هنا منذ ثلاث سنين، وكانوا يسمونه جريشكا... الخمَّار الأعور... أعرفه.
- بل أنت لا تعرف شيئًا... أولًا: هو خمَّار آخر....
- كيف؟ خمَّار آخر؟ أنت لا تعرف ماذا تقول... أستطيع أن آتيك بالعدد الذي تشاء من الشهود على أنك لا تدري ماذا تقول!...
- أأنت تأتيني بشهود؟ من أنت؟ أتعرف من تخاطب يا هذا؟
- من أنا؟ أنا من ضربك مِرارًا، رغم أنني لا أتباهى بذلك ولا أفخر ولا أزهو.. فدعك إذنْ من التكبر والاستعلاء!...
- أنت ضربتني؟ لمَّا يولد بعد من يضربني... والشخص الذي ضربني هو الآن راقد في باطن الأرض على عمق ستة أقدام...
- أنت امرؤ مصاب بالطاعون!
- ليت جذام سيبيريا يملؤك قروحًا!
- ليت تركيًا يشق رأسك شقًّا!...
وانهالت الشتائم كالمطر المنهمر...
- انظروا... ها هما يصيحان، على المرء أن يبقى هادئًا بعد أن لم يعرف كيف يسلك سبيل الرشاد في هذه الحياة... إنهما لسعيدان جدًّا بالمجيء إلى هنا

ليأكلوا خبز الحكومة، هذان الفتيان الشُجاعان...
وسرعان ما فصلوا أحدهما عن الآخر، فحالوا بين اشتباكهما، لأن يقتتل المقتتلون بالألسن ما شاء لهم أن يقتتلوا، فذلك أمر مباح، لأنه يسلي الجميع، أما أن يشتبكا بالأيدي فلا!... إن الأعداء لا يشتجرون بالأيدي إلا في حالات نادرة استثنائية... فإذا نشب عراك أبلغ الميجر، فأمر الميجر بإجراء تحقيق، وتدخَّل في الأمر بنفسه. وعندئذٍ تجري الأمور مجرى سيئًا يصيب السجناء بأذى. لذلك تراهم يسارعون إلى إنهاء أي شجار جدي. ثم إن المتخاصمين يتشاجرون من قبيل التسلية والتمرن على فصاحة اللسان وبلاغة البيان في الدرجة الأولى. إنهم يتحمسون في أول الأمر، ويتخذ الشجار بينهم طابع السخط والغضب والحنق، فيتوقع المرء أن يهم أحدهما بالآخر يريد أن يقتله، ثم لا يقع شيء من ذلك البتة؛ فما أن يبلغ بهم الغضب حدًا معينًا، حتى يفترقا ويمضي كل منهما في سبيله. ولقد أدهشني ذلك كثيرًا... ولئن كنت أصف هنا بعض ما كان يجري بين السجناء من أحاديث، فإنما أفعل ذلك عامدًا. هل كان يمكنني قبل ذلك أن أتصور أن يتشاتم اثنان نشدانًا للذة، وأن يجدوا في هذا التشاتم متعة! يجب أن لا ننسى ميل المرء إلى الظهور والشهرة: إن المحاور الذي يعرف كيف يشتم شتمًا موفقًا كفنان، يحظى باحترام الآخرين... حتى ليكاد السجناء يصفقون له كما يصفق الناس لممثل أجاد تمثيل دوره.
وكنت قد لاحظت في المساء الماضي نظرات شزراء يوجهها إليَّ بعضهم؛ ولاحظت في مقابل ذلك عددًا من السجناء يحومون حولي، لظنهم أنني أحمل معي إلى السجن بعض المال، حاولوا أن يستميلوني، وذلك بأن يعلموني كيف أضع الأغلال دون أن تضايقني، وقدموا لي أيضًا صندوقًا ذا قفل أودع فيه أمتعتي التي سلمتنيها الإدارة وأودع فيه الملابس الداخلية القليلة التي سُمح لي أن أُدخلها معي إلى السجن (وقد قبضوا ثمن الصندوق طبعًا)، وبعد ذلك بيوم واحد فقط، سرق هؤلاء السجناء هم أنفسهم صندوقي، بعد أن شربوا بثمنه خمرًا، إن واحدًا منهم قد أخلص لي الود بعد ذلك، وبلغ من ذلك أنه أصبح يسرق لي كل ما تتيح الفرص أن تمتد يده إليه من أشيائي. ولم يكن يشعر من سرقاته بأي خجل أو حياء، لأنه كان يرتكب هذه السرقات وهو لا يكاد يشعر بما يعمل، حتى لكأن ما يقوم به واجب لذلك لم أستطع أن أحمل له أي حقد أو ضغينة.
وقد عرفت من هؤلاء السجناء أن في إمكان المرء أن يحصل على شيء من الشاي، وأن من مصلحتي أن أهيئ لنفسي غلاية. ووقعوا لي على غلاية استأجرتها إلى زمن. ودلوني كذلك على طباخ يمكن إذا أنا نقدته ثلاثين كوبكًا في الشهر أن يدبِّر لي الأطعمة التي أرغب فيها، هذا إذا كنت أريد أن أشتري مؤنًا خاصةً وأن يُهيأ لي طعام خاص... واقترضوا مني بعض المال بطبيعة الحال... بل إنهم في يوم وصولي نفسه قد جاؤوني يطلبون الاقتراض ثلاث مرات.

إن من كانوا ينتمون إلى طبقة النبلاء قبل دخولهم السجن، كان السجناء ينظرون إليهم شزرًا. فرغم أنهم جُردوا من جميع حقوقهم، وأصبحوا كسائر السجناء سواء بسواء، فإن هؤلاء كانوا لا يعدونهم رفاقًا. صحيح. كانوا ينظرون إلينا دائمًا نظرتهم إلى نبلاء، رغم أنهم كثيرًا ما يسخرون من سقوطنا. كانوا يقولون مثلًا:

- هيه أنظر إلى هذا السيد النبيل كانت عربته في الماضي تدوس الناس في موسكو! أما الآن فقد انتهى الأمر. إنه الآن يجدل حبال القنب.

كانوا يغتبطون لآلامنا التي نحاول إخفاءها ما استطعنا إلى ذلك سبيلًا. وكنا نقاسي أكثر ما نقاسي حين نعمل معهم، ذلك أن قوانا لا تعادل قواهم، ولم نكن نستطيع أن نساعدهم حقًّا. لا شيء أصعب من كسب ثقة الناس، وكسب ثقة أمثال هؤلاء الناس خاصةً، والحظوة برضاهم ونيل محبتهم وعواطفهم.

ولم يكن في السجن كله إلا بضعة أشخاص من قدامى النبلاء، فهم خمسة بولونيين كان السجناء يكرهونهم أكثر مما يكرهون الروس من قدامى النبلاء (وسأتكلم عن هؤلاء البولونيين تفصيلًا فيما بعد)؛ كان البولونيون (ولا أتكلم الآن إلا عن المحكومين السياسيين) يُكرهون أنفسهم على معاملة السجناء بشيء من التهذيب إكراهًا جارحًا مُسيئًا مؤذيًّا، ولا يكادون يخاطبونهم يومًا بكلمة، ولا يخفون ما يشعرون به من اشمئزاز من صحبتهم. فكان السجناء يدركون ذلك تمام الإدراك ويكيلون لهم الصاع صاعين.

احتجت إلى ما يقرب من سنتين من أجل أن أظفر بمودة بعض رفاق السجن، على أن أكثرهم كان يحبني ويعلن أنني إنسان طيب شهم.

كان عدد قدامى النبلاء من الروس في السجن خمسة، منهم أنا. ولقد سمعت من يصف أحدهم - حتى قبل وصولي - بأنه إنسان شرير حقير فاسد الأخلاق وغد متفسخ يتجسس على السجناء ويشي بهم. لذلك تحاشيت منذ أول يوم أن تكون لي علاقة بهذا الإنسان. أما ثاني الخمسة فهو قاتل أبيه ([10]) الذي سبق أن أتيت على ذكره، وأما الثالث فاسمه أكيم آكيمتش، ما رأيت في حياتي إنسانًا أطرف منه، وما تزال ذكراه في نفسي حية قوية إلى الآن.

إنه طويل القامة، نحيل الجسم، ضعيف العقل، على جانب رهيب من الجهل، مُماحك مُناكد كألماني. كان السجناء يسخرون منه ويستهزئون به ولكنهم كانوا يخشونه، لأنه سريع التأذي، كثير المطالب، ميَّال إلى المشاجرة. وقد وضع نفسه منهم موضع الند منذ وصوله، فهو يبادلهم الشتائم والضرب، وهو لما يتصف به من استقامة وشرف ونزاهة وإخلاص، ما إن يلاحظ ظلمًا يقع على مخلوق حتى يتدخل في الأمر الذي لا يعنيه، فكأنه طرف فيه. وكان إلى ذلك ساذجًا إلى أبعد حدود السذاجة. كان في مشاجراته مع السجناء يعيب عليهم أنهم لصوص، وينصحهم مُخلصًا صادقًا بأن يُقلعوا عن السرقة. كان في الماضي ملازمًا ثانيًّا بالقفقاس. وقد انعقدت بيني وبينه الصلة منذ أول يوم،

فسرعان ما قصَّ عليَّ قضيته. قال إنه بدأ حياته العسكرية متطوعًا برتبة صف ضابط في فرقة على الحدود. وبعد أن انتظر ترقيته إلى رتبة ملازم ثانٍ زمنًا طويلًا، نال هذه الترقية أخيرًا، وأُرسل إلى الجبال رئيسًا لحصن صغير. وكان هنالك أمير صغير من الأراضي التابعة للحصن، حاول إشعال النار في الحصن، وقام ذات ليلة بهجوم على الحصن، فلم يظفر بطائل، وعمد آكيم آكميتش إلى الحيلة في الاقتصاص من الأمير، فتظاهر بأنه يجهل أن الأمير هو الذي شن ذلك الهجوم على الحصن، ونسب ذلك الهجوم إلى عصاة كانوا يطوفون في الجبل. وبعد شهر من ذلك، دعا أكيم الأمير إلى زيارته زيارة مودة وصداقة. فجاء الأمير ممتطيًّا صهوة جواده دون أن يخطر بباله أي شك، ودون أن تراوده أية شبهة. جمع أكيم آكميتش جنوده، وأعلن لهم أمام الأمير الخيانة التي ارتكبها الزائر، وقرع الأمير على سلوكه، وبرهن له على أن إحراق حصن من الحصون جريمة شنعاء، وشرح له بكثير من الدقة والتفصيل ما يقع على أمير تابع للحكومة من واجبات، ثم ختم ذلك كله بأن أمر بإطلاق الرصاص على الأمير؛ ثم أسرع يبلغ رؤساءه بأنه نفذ في الأمير حكم الإعدام، ذاكرًا جميع التفاصيل اللازمة. فأحيل أكيم أكميتش إلى المحاكمة أمام مجلس حربي، فصدر الحكم بإعدامه، ثم خُفِّف الحكم فأرسل الجاني إلى سيبيريا سجينًا من الفئة الثانية، أي سجينًا مدة اثنتي عشرة سنة. اعترف لي أكيم بأن تصرفه لم يكن شرعيًّا، وأن الأمير كان يجب أن يُحاكم أمام محكمة مدنية لا أمام مجلس عسكري. ومع ذلك كان أكيم غير قادر على أن يفهم أن فعله جريمة. فكان يجيب على جميع اعتراضاتي بقوله:

- لقد أشعل النار في حصني، فماذا كان يجب عليَّ أن أعمل؟ أكان يجب عليَّ أن أشكر له فعلته؟

وكان السجناء، رغم أنهم يسخرون من آكيم آكيمتش، ويستهزؤون به، ويزعمون أن به لوثة، كانوا يقدرونه بسبب حذاقته ومهارته ودقته.

كان يتقن جميع المهن الممكنة، ويصنع لك ما تشاء أن يصنعه: كان حذاءً، وإسكافيًّا، ودهانًا، ونقاشًا، وقفالًا. وقد اكتسب هذه المواهب كلها في السجن نفسه، فقد كان يكفيه أن يرى شيئًا من الأشياء حتى يقلده أحسن تقليد. وكان يبيع في المدينة سِلالًا وفوانيس ودمى، أو قل كان يكلف أحدًا يبيع له هذه الأشياء.

وبفضل عمله كان يحوز على بعض المال دائمًا، يشتري به على الفور ملابس أو وسادة أو ما إلى ذلك مما يحتاج إليه. وقد هيأ لنفسه فراشًا. وإذ كان يقيم في نفس الثكنة التي أُقيم أنا فيها، فقد أفادني كثيرًا في أول عهدي بالسجن.

وكان السجناء قبل أن يخرجوا من السجن إلى العمل يصطفون صفين أمام مقر الحرس، فكان الحرس يحيطون بهم وقد أمسكوا ببندقياتهم محشوة. يأتي بعدها ضابط من سلاح الهندسة مع مراقب الأشغال وعدد من الجنود

الذين يشرفون على أعمال السجناء، فكان المراقب يعد السجناء ويرسلهم أفواجًا إلى الأماكن التي يجب عليهم أن يعملوا فيها.

وذهبت مع عدد من السجناء إلى ورشة الهندسة، وهي مبنى واطئ من خشب، شُيِّد وسط فناء كبير تراكمت فيه مواد البناء. كان هناك كور لصهر المعادن، وورشات نجارة وأقفال ودهان. فكان أكيم آكميتش يعمل في هذه الورشة الأخيرة: يُحضِّر زيت الدهان، ويشكل الألوان، ويطلي الموائد وغيرها من الأثاث بلون يوهم أنها من خشب الجوز.

وبانتظار أن يضعوا لي أغلالًا جديدة، نقلت إليه إحساساتي الأولى، فقال:

- نعم، إنهم لا يحبون النبلاء، ولا سيما المحكومين السياسيين، ويسعدهم أن يلحقوا بهم أذى أو أن ينالوهم بإساءة. وذلك أمر لا ينبغي أن نستغربه في حقيقة الأمر! أنت لست منهم، أنت لا تشبههم: لقد كانوا كلهم قِنانًا أو جنودًا، فكيف يمكن أن يحبوك؟ إن الحياة قاسية هنا، ولكن قسوتها ليست شيئًا مذكورًا إذا قيست بقسوة الحياة في معسكرات التأديب بروسيا. حتى أن الذين يجيئون من هنالك يمتدحون سجننا، ويصفونه بأنه جنة بالقياس إلى تلك السجون... لا لأن العمل هنالك أصعب؛ ويُقال إن الإدارة هنالك تعامل سجناء الفئة الأولى (وليست الإدارة هناك عسكرية فحسب، كما هي هنا) معاملةً تختلف عن المعاملة هنا كل الاختلاف. إن للسجناء هناك بيوتًا صغيرة خاصة بهم (قيل لي ذلك ولكنني لم أره بنفسي)، وإنهم لا يرتدون زيًّا موحدًا، وإنهم لا تُحلق رؤوسهم؛ على أن الزي الموحد والرؤوس المحلوقة خير في نظري... إنها تنظم الأمور، ثم إن منظرها أجمل... ولكنهم، هم، لا يحبون هذا، يا له من برج بابل! أولاد مجندون، شراكسة، ملاحدة، أورثوذكس، فلاحون تركوا نساءهم وأولادهم، يهود، غجر، وأناس آخرون لا يدري إلا اللّه من أين جاءوا!... وعلى هذا الخليط العجيب من البشر أن يعيش معًا كأسرة واحدة، جنبًا إلى جنب؛ على هؤلاء الناس جميعًا أن يأكلوا من أطباق واحدة، وأن يناموا على ألواح واحدة... ما من لحظة حرية: ولا يمكن للمرء أن يرفه عن نفسه قليلًا إلا خلسة وخفية... عليه أن يخبئ ماله في حذاءيه... ثم السجن فالسجن... ولا شيء إلا السجن... إن الإنسان لتراوده عندئذٍ حماقات دون أن يريد ذلك.

كنت أعلم هذا كله من قبل. وإنما كنت أحب خاصةً أن أسأل أكيم أكيمتش عن الميجر. ولم يخفِ عني أكيم شيئًا، فتركت أقواله في نفسي أثرًا ليس بالممتع!...

كان عليَّ أن أعيش سنتين كاملتين تحت سلطة هذا الضابط. وكل ما قصه عليَّ أكيم أكيمتش عنه لم يكن إلا الحقيقة نفسها بِلا زيادة ولا نقصان. إن هذا الضابط إنسان سيء الطبع، شرس الخلق، رهيب، لا سيما وأنه كان يملك سلطة تكاد تكون مطلقة على أكثر من مائتي إنسان. كان ينظر إلى السجناء نظرته إلى أناس يناصبونه العداء شخصيًّا، وتلك خطيئة أولى خطيرة كل الخطورة. وحتى كفاءاته النادرة، بل وربما حسناته القليلة كان يفسدها طيشه

وخبثه وميله إلى الشر والأذى. كان يسقط على الثكنة في بعض الأحيان سقوط قنبلة في وسط الليل، فإذا رأى أحد السجناء نائمًا على ظهره أو على جنبه الأيسر أيقظه ليقول له: (يجب أن تنام على الجنب الأيمن كما أمرت أنا بذلك. وكان السجناء يكرهونه ويمقتونه ويخافونه خوفهم من الطاعون. إن وجهه الكريه المحمر يرتجف لمنظره جميع السجناء. وكان كل سجين يعرف أن الميجر خاضع خضوعًا كاملًا لسلطة خادمه فدكا، وأنه كاد يُجنّ حين مرض كلبه تريزوركا، كان يؤثر هذا الكلب على جميع خلق اللّه... فلما أعلمه فدكا أن بين السجناء سجينًا مُلمًا بالبيطرة، وأن حالات شفاء عجيبة قد تمت على يديه، استدعى السجين على الفور وقال له:

- أعهد إليك بمعالجة كلبي من مرضه، فإن شفيت تريزوركا أغدقت عليك ذهبًا وفضة...

والرجل فلاح سيبيري ذكي جدًّا، هو في الواقع بيطري ممتاز، ولكنه فلاح ماكر قبل كل شيء. وقد قصَّ على رفاقه قصة زيارته للميجر بعد أن نُسيت تلك القصة، قال:

- نظرت إلى كلبه تريزوركا. كان راقدًا على أريكة وتحت رأسه وسادة ناصعة البياض. وأدركت فورًا أنه يعاني من إلتهاب، وأنه في حاجة إلى فصد، وأيقنت أن في إمكاني أن أشفيه، ولكنني قلت لنفسي: (فماذا لو فطس الكلب؟ لسوف يكون الذنب عندئذٍ ذنبي أنا)، فقلت للضابط: (لا يا صحاب النبالة... لقد تأخرت في استدعائي... فلو رأيتُ كلبك أمس أو أمس الأول إذنْ لكان الآن مشافى معافى... ولكن فات الأوان، فلست أستطيع أن أصنع له شيئًا، وسيموت لا محالة!

وفطس تريزوركا.

وحكى لي أن أحد السجناء أراد في يوم من الأيام أن يقتل الميجر. كان هذا السجين قد عُرف منذ عدة سنين بخضوعه وامتثاله وانصياعه كما عُرف أيضًا بسكوته وصمته حتى لقد كان يُعد مجنونًا. ولما كان على جانب من ثقافة، فقد كان ينفق لياليه في قراءة التوراة. ومتى نام جميع السجناء نهض وتسلق المدفأة فأشعل شمعة من شموع الكنيسة وفتح إنجيله وأخذ يقرأ. فعلى هذه الحال إنما قضى سنة بكاملها.

وفي ذات يوم، خرج من الصفوف وأعلن أنه لن يذهب إلى العمل. فأبلغ الميجر الأمر، فغضب غضبًا شديدًا، ولم يلبث أن جاء إلى الثكنة فورًا. فما إن رآه السجين حتى اتجه نحوه، ورماه بقرميدة كان قد هيأها سلفًا، ولكنه لم يصبه. فقُبض على السجين، وحُوكم، وجُلد بالسياط، بضع لحظات لا أكثر... نُقل بعدها إلى المستشفى، فما هي إلا ثلاثة أيام حتى مات. وقد صرَّح وهو يحتضر بأنه لا يكره أحدًا، وإنما أراد أن يتألم وأن يتعذب، وأنه مع ذلك لا ينتمي إلى أية ملة من الملل المنشقة. كان الناس إذا أتوا على ذكره في الثكنات يذكرونه بالخير والاحترام دائمًا.

وأخيرًا أبدلوا لي أغلالي. وفيما كانوا يلحمونها دخلت إلى الكور بائعات أرغفة صغيرة من الخبز الأبيض، واحدةً بعد أخرى. كان أكثر من فتيات صغيرات يأتين لبيع أرغفة الخبز التي تحضرها أمهاتهن. حتى إذا شببن عن الطوق ظللن يجئن إلينا، ولكن دون أن يحملوا بضاعة للبيع.. كان لا بد أن يلقى المرء واحدة منهن دائمًا. وكان ثمة نساء متزوجات. إن سعر رغيف الخبز الصغير كوبكان، فكان جميع السجناء تقريبًا يشترون...

وقد لاحظتُ سجينًا نجارًا، أشيب الشعر محمرَّ الوجه باش الهيئة مبتسم الثغر... كان هذا السجين النجار يمازح بائعات أرغفة الخبز الصغيرة. كان عقد على عنقه منديلًا أحمر قبل مجيئهن. فما هي إلا لحظات حتى وصلت امرأة سمينة في وجهها بثور، فوضعت سلتها أمام منضدة النجار، ودار بينهما الحديث التالي:

- لماذا لم تجيئي أمس؟

كذلك سألها النجار مبتسمًا إبتسامة رضى.

فأجابته المرأة بجرأة قائلة:

- بل جئت، ولكنك كنت قد مضيت.

- نعم لقد ذهبوا بنا من هنا، وإلا لكنا إلتقينا... لقد جئن أمس الأول جميعًا لرؤيتي...

- من اللواتي جئن؟

- مارياشكا... هافروشكا... تشيكوندا... وكانت هنا دفوجروشفايا (أربعة كوبكات) أيضًا...

سألت آكيم آكيمتش:

- ماذا؟ هل مثل هذه الأمور ممكنة هنا؟

- نعم، تحدث أحيانًا..

قال أكيم ذلك وهو يغض طرفه، لأنه رجل عف جدًّا.

نعم، كانت هذه الأمور تحدث أحيانًا، ولكنها لا تحدث إلا نادرًا... وذلك بعد تخطي مصاعب كبيرة جدًّا... فالسجناء يؤثرون أن ينفقوا مالهم في الشراب، رغم كل ما في حياتهم المكبوتة من عنت. لقد كان من الصعب جدًّا اللحاق بهاته النسوة. كان لا بد من الإتفاق على المكان والزمان، ولا بد من تحديد موعد، والعثور على خلوة، وذلك من أعسر الأمور، ولا بد من مغافلة الحرس، وذلك أمر يكاد يكون مُستحيلًا، ولا بد أيضًا من إنفاق مبالغ طائلة... نسبيًّا... ومع ذلك رأيت بعض مشاهد الغرام.. ففي ذات يوم، كنا ثلاثة نعمل في تسخين فرن القرميد في مكان على شاطئ نهر أرتيش، وكان معنا جنود من الحرس متسامحون. فإذا بامرأتين تصلان.

قال أحد السجناء يخاطب المرأتين، وكان ينتظرهما ولا شك:

- أين بقيتما طوال هذه المدة؟ تلبثتما عند آل زفيركوف، أليس كذلك؟

- ماذا؟ عند آل زفيركوف؟ حين يصبح للدجاج أسنان أذهب إلى آل زفيركوف!

كذلك قالت إحداهما متضاحكة.
إنها أقذر بنت يمكن أن يتصورها الخيال. كانوا يطلقون عليها اسم تشيكوندا... وقد وصلت في صحبة صديقتها (الأربعكوبكات) (دفوجروشفايا) التي تفوق كل وصف.
قال الشاب الغزل مخاطبًا الأربعكوبكات:
- هيه. أصبحنا منذ زمن طويل لا نراك... لكأنك نحلت قليلًا.
- ربما... لقد كنت قبل الآن جميلة سمينة، أما الآن فكأنني بلعت إبرًا...
- وما تزالين تصاحبين الجنود، أليس كذلك؟
- انظروا إلى هؤلاء الناس كم يتقولون ويغتابون! ثم أي ضير في أن أصاحب جنودًا؟...
- دعي جنودك أولئك، وأحبينا نحن... إن معنا مالًا...
تصوروا هذا المغازل المحلوق الرأس، المغلول القدمين، اللابس سترةً من لونين، العامل تحت حراسة الخفراء...
وحين أصبح في وسعي أن أعود إلى السجن، وكنت قد أوثقت بالأغلال، ودعت آكيم آكيمتش، وانصرفت بحراسة أحد الجنود. إن الذين يعملون على أساس عدد معين من الساعات بل على أساس مهمة معينة ينجزونها، يعودون أول العائدين... ولذلك حين وصلت إلى ثكنتنا كان قد سبقني إليها عدد من السجناء: إن الوسيلة الوحيدة التي تحمل السجناء على المواظبة والاستمرار في العمل هي أن يُعهد إليهم بمهمة معينة يجب عليهم إنجازها؛ إنهم ينجزون المهمة عندئذٍ مهما تكن صعبة بنصف الوقت الذي يحتاجون إليه لإنجازها حتى ولو استمروا على العمل بغير انقطاع إلى أن يقرع الطبل. فمتى انتهى السجين من إنجاز مهمته عاد رأسًا، ولم يخطر ببال أحد أن يصده عن العودة.
وإذا كان المطبخ لا يمكن أن يتسع لسكان ثكنة بكاملها، فقد كان السجناء لا يتناولون الطعام معًا، فمن يصلون قبل غيرهم يأكلون نصيبهم ويفرغون فيخلوا المكان للآخرين. وقد ذقت الحساء المصنوع من حامز الملفوف، ولكنني لم أستسغ مذاقه لأنني لم أتعود عليه، وهيأت لنفسي شيئًا من الشاي، ثم جلست إلى طرف مائدة مع أحد السجناء، وهو مثلي نبيل سابق.
كان السجناء يدخلون ويخرجون. ولم يكن المكان هو الذي يعوزهم، ذلك أن عددهم ما يزال قليلًا، وجلس خمسة منهم وحدهم، قرب المائدة الكبيرة، وصبَّ الطباخ لهم طاستين من حامز الحساء، وأتاهم بقصعة فيها سمك مقلي. كان هؤلاء الأشخاص يحتلفون بعيد فيرفهون عن أنفسهم ويبذخون. نظروا إلينا من جانب. ثم دخل أحد البولونيين فجلس قربنا.
صاح سجين طويل القامة وهو يدخل ويشمل رفاقه بنظرة:
- لم أكن معكم، ولكنني أعرف ماذا تعملون.

إنه رجل في نحو الخمسين من عمره، نحيل الجسم بارز العضلات ينم وجهه عن المكر، كما ينم عن المرح، وشفته السفلى سميكة متدلية تضفي على وجهه مظهرًا مُضحكًا.
قال وهو يجلس قرب الذين يحتفلون ويولمون:
- هيه! هل طاب نومكم؟ لماذا لا تردون التحية... طيب... يا أصدقائي الكورسكيين.... هنيئًا مريئًا!... ها أنا ذا أجيئكم بضيف جديد.
- لسنا من مقاطعة كورسك!
- إذنْ يا أصدقائي التامبوفيين.
- ولا نحن من تامبوف. وليس لك أن تطلب منا شيئًا، فإذا أردت أن تولم فعليك بفلاح غني فاتجه إليه...
- في معدتي اليوم إيفاني تاسكون وماريا إيكوتشينا (أيكوتا تعني بالروسية: الفواق) أي أنني أكاد أموت جوعًا، فأين يسكن هذا الفلاح الغني الذي ذكرتموه؟
- هو جازين، فعليك به!
- إن جازين يشرب اليوم يا إخوتي، فيتلف كل ما يملك!
- معه عشرون روبلًا على الأقل. ألا إن مهنة بيع الخمر لمهنة تدر ربحًا كثيرًا...
كذلك قال سجين آخر.
أجاب الرجل قائلًا:
- أترفضونني إذنْ؟ طيب... سآكل طبيخ الحكومة.
- هل تريد شيئًا من الشاي؟ عليك إذنْ بهذين السيدين اللذين يشربان الشاي، فاسألهما منه قليلًا!...
- أين ترون سيدين؟ ما هما الآن بنبيلين، ما هما الآن خير منا.
بهذا نطق بصوت قاتم سجين آخر كان جالسًا في ركن، ولم يكن قد جازف قبل ذلك بكلمة واحدة. قال السجين ذو الشفة السميكة وهو يلقي نظرة فكهة:
- وددت لو أشرب قدحًا من الشاي، ولكنني أستحي أن أطلب.. ذلك أن لنا كرامتنا نحن...
فقلت له وأنا أدعوه بإشارة من يدي:
- إذا شئت قدمنا إليك قدحًا من الشاي. هل تريد؟
- وكيف لا أريد؟ من ذا الذي لا يريد؟
قال ذلك وهو يقترب من المائدة.
- انظروا إلى هذا الرجل! حين كان حرًا في بيته كان لا يأكل إلا حساءً حامزًا وخبزًا أسود أما في السجن فلا بد له من شرب الشاي كأنه نبيل من النبلاء!
كذلك أردف يقول السجين ذو الوجه القائم الكئيب.
سألته:
- ألا يشرب أحد الشاي هنا؟

ولكنه لم يجدني جديرًا بجواب.
- أرغفةً بيضاء، أرغفةً بيضاء! أول مبيع...
كان سجين شاب يحمل أرغفة بيضاء منظومة في خيط، هي حمل ثقيل من الأرغفة يبيعها في الثكنات.
إن البائعة تعطيه رغيفًا عن كل عشرة أرغفة يبيعها، أجرًا له، وعلى هذا الرغيف إنما كان يعتمد لطعامه.
- أرغفة صغيرة! أرغفة صغيرة!
كذلك كان يصيح وهو يدخل المطبخ.
ثم يردف قائلًا:
- أرغفة صغيرة من موسكو، ساخنة ساخنة... أتمنى لو آكلها كلها، ولكن لا بد عندئذٍ من مال، لا بد من مال كثير. هيا يا أولاد لم يبق إلا رغيف واحد... من كان يحب أمه فليشترِ مني هذا الرغيف...
ضحك الجمع من هذه الاستعانة بحب الابن لأمه.. فاشتروا منه بضعة أرغفة بيضاء.
قال:
- إن جازين يسكر الآن سكرة رهيبة يا لها من خطيئة! ولقد اختار اللحظة المناسبة... ماذا لو وصل (ذو العيون الثماني)؟ (يقصد الميجر).
- سنخبئه... هل سكر؟
- نعم... ولكنه فظيع... لقد ثارت ثائرته!...
- لا شك أننا نصل إلى مرحلة اللطمات.
سألت البولندي جاري:
- عمن يتكلمون؟
فقال:
- عن جازين.. هو سجين يتعاطى بيع الخمرة. فإذا جنى من تجارته بعض المال، شرب بالمال الذي جناه إلى آخر كوبك. إنه متى شرب أصبح وحشًا كاسرًا قاسيًّا شريرًا. أما قبل أن يشرب فهو هادئ مسالم... حتى إذا شرب ظهر على حقيقته، فإذا هو يهجم على الناس مُشرعًا سكينه إلى أن ينتزعوها منه.
- وكيف يستطيعون ذلك؟
- يهجم عليه عشرة أشخاص، فما ينفكــون يضربونه ضربًا شديدًا مبرحًا إلى أن يفقد وعيه، ويسقط مغشيًّا عليه. فإذا صار كالميت من كثرة الضرب أرقدوه على سريره المصنوع من ألواح الخشب وغطوه بمعطفه.
- ولكنهم بذلك قد يجهزون عليه!
- لو ضرب غيره كما يضرب هو لمات حتمًا، أما هو فلا... إنه قوي الجسم إلى درجة خارقة، إنه أقوى السجناء طرًا... إن بنيَّته تبلغ من المتانة والصلابة أنه يصحو في الغداة سليمًا معافى كأن لم يحدث شيء...

تابعت أسأل البولوني:

- قل لي من فضلك: هؤلاء أناس يأكلون على انفراد، ومع ذلك أراهم ينكرون عليَّ الشاي الذي أشربه... فما معنى هذا؟

- لا دخل للشاي في هذا... وإنما حقدهم منصب عليك أنت: ألست نبيلًا؟ إنك لا تشبههم. وإنه ليسعدهم أن يناكدوك وأن يذلوك. إنك لا تعرف المتاعب التي تنتظرك. إن حياتنا هنا استشهاد، إنها شاقة من ناحيتين، ولا بد أن نكون على جانب عظيم من قوة الإرادة وشدة الصبر حتى تعتادها وتألفها. لسوف يسببون لك كثيرًا من التنغيص بسبب طعامك وشايك، مع أن الذين يأكلون طعامًا خاصًا ويشربون الشاي كثيرون، إنهم يعتبرون ذلك من حقهم هم، أما أنت فليس من حقك...

قال البولوني هذا ثم نهض وبارح المائدة. وبعد لحظات كانت نبوءاته قد تحققت...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3

المشاعر الأولى

تتمة

ما كاد يخرج مـ..... كي ([11]) (البولوني الذي تحدثت عنه) حتى دخل جازين إلى المطبخ مُسرعًا وقد أخذ السكر منه كل مأخذ.

لأن أرى سجينًا سكران في وسط النهار، رغم أن على جميع السجناء أن يذهبوا إلى العمل، ورغم ما عُرف عن الميجر من قسوة شديدة، ورغم أن هذا الميجر قد يباغت الثكنة بين لحظة وأخرى، ورغم مراقبة ضابط الصف الذي كان لا يبارح السجن لحظة، ورغم وجود جنود وحرس وموظفين، فإن ذلك خليق بأن يبلبل الأفكار التي كانت قد قامت في ذهني عن السجن. وقد احتجت إلى زمن طويل حتى أفهم وأعلل وقائع كهذه الوقائع ظهرت لي في الوهلة الأولى أقرب إلى الألغاز والأحاجي.

سبق أن قلت إن جميع السجناء كانوا يزاولون حرفة من الحرف، وإن هذا العمل كان لهم ضرورة طبيعية لا بد منها. وهم يحبون المال حبًّا شديدًا، وينزلونه منزلة عالية لا تعلوها منزلة أي شيء من الأشياء، ويكادون يقدرونه تقديرهم للحرية نفسها. إن السجين يتأسى بعض التأسي حين ترن في جيبه بضعة كوبكات. أما إذا لم يكن يملك شيئًا من مال فإن الحزن يستولي عليه، وإن القنوط واليأس يستبدان به، حتى ليمكن أن يقارف أية جناية في سبيل الحصول على بعض المال. غير أن هذا المال، رغم المنزلة العالية التي ينزلها فيه السجناء، ورغم القيمة الكبرى التي يصفونها عليه، لا يبقى في جيب صاحبه زمنًا طويلًا قَطّ، لأن الإحتفاظ به والإبقاء عليه هما من أشق الأمور. فهو إما أن يُصادر وإما أن يُسرق. كان الميجر يصادر أثناء حملاته التفتيشية المباغتة كل ما قد يقع عليه من مبالغ صغيرة لقيَّ أصحابها في جمعها أكبر العناء؛ فينفق المال عندئذٍ في تحسين طعام السجناء، لأن إدارة السجن تخصص المال المصادر لهذا الغرض. ولكن المال يُسرق في أكثر الأحيان. إن من المستحيل أن يثق السجين بأحد، وأن يركن إليه ويعتمد عليه. على أن السجناء قد اهتدوا إلى وسيلة للمحافظة على المال. كان هناك شيخ عجوز ينتمي إلى الملة الدينية المنسوبة إلى مدينة فياتكا ([12]) وقد إلتجأ إلى منطقة ستارودوب، فهذا الشيخ هو الذي يتولى إخفاء مدخرات السجناء. لا أستطيع أن أقاوم الإغراء الذي يدفعني إلى قول بضع كلمات عن هذا الرجل: إنه في الستين من عمره، نحيل، قصير القامة، أشيب الشعر تمامًا. وقد أوقعني في حيرة شديدة منذ وقع بصري عليه أول مرة، ذلك أنه لا يشبه السجناء الآخرين في شيء. إن نِظرته تبلغ من الهدوء والوداعة والمسالمة والعذوبة أنني كان

يحلو لي دائمًا أن أرى عينيه الصافيتين الرائقتين المحفوفتين بغضون كثيرة. وقد تحدثت معه مرارًا، فقلما رأيت إنسانًا يبلغ ما يبلغه هذا الرجل من طيبة القلب ونبل النفس، وشهامة الخلق، ودماثة السلوك. ولقد أُرسل إلى سجن الأعمال الشاقة لجريمة خطيرة ارتكبها. كان عدد من بني ملته الدينية في ستارودوب (إقليم تشرنيجوف) قد ارتدوا إلى الأرثوذكسية. لقد عملت الحكومة كل ما تستطيع أن تعمله من أجل أن تشجعهم على المضي في هذا الطريق، ومن أجل أن ترد إلى هذا الطريق سائر المنشقين. فقرر الشيخ مع عدد من المتعصبين للملة الدينية أن يدافعوا عن (الدين القديم). فلما أخذت الحكومة تبني في مدينتهم كنيسة أرثوذكسية، أضرموا في الكنيسة النار وأحرقوها. ونتج عن ذلك إعتقال الفاعل وإرساله إلى السجن في سيبيريا. إن هذا الرجل الغني وكان يعمل في التجارة قد خلف وراءه امرأة وأولادًا يحبهم، ولكنه ذهب إلى المنفى رابط الجأش شُجاعًا، معتقدًا لعماوته أنه يتألم في سبيل (الدين القديم) و (الإيمان الصحيح)... إن المرء ليتساءل رغم إرادته، بعد أن يعيش زمنًا إلى جانب هذا الشيخ: (كيف أمكن أن يتمرد هذا الرجل وأن يثور؟). ولقد سألته عدة مرات عن (دينه)، فكان لا يجيب بشيء يتعلق بمعتقداته، ولكنني لم ألاحظ في ردوده أية بغضاء أو ندم. ومع ذلك فقد أضرم النار في كنيسة فدمر الكنيسة... وكان لا يُنكر أنه فعل ذلك أبدًا: كان يبدو أنه مقتنع كل الإقتناع بأن جريمته واستشهاده، على حد تعبيره، هما من الأعمال المجيدة التي تستحق أن يعتز بها صاحبها وأن يفخر. وعبثًا حاولت أن أحاصره بالأسئلة وأن أدرسه، فإنني لم أستطع أن أجد فيه أثرًا من آثار العجب بنفسه أو الزهو أو الخيلاء أو الغرور. وكان بيننا سجناء آخرون من المنشقين عن الأرثوذكسية المنتمين إلى هذه الملة، وكان أكثرهم من سيبيريا، فكان هؤلاء على جانب كبير من توقد الذكاء وحسن الحيلة، كما يُلاحظ ذلك لدى كثير من الفلاحين. كانوا يحبون الجدل على طريقتهم، وكانوا يتبعون عقيدة ملتهم اتباعًا أعمى، ويميلون إلى المناقشة ميلًا واضحًا. ولكنهم كانوا يتصفون بعيوب كثيرة فهم متعالون متكبرون فيهم من الغطرسة ما لا يُطاق ولا يُحتمل. ولا كذلك صاحبنا الشيخ، إنه لا يشبههم في شيء. فهو، على أنه قوي جدًّا، وعلى أنه أقوى من أتباع هذه الملة الآخرين حجةً وأوسع منهم ثقافةً، يتحاشى أي نقاش؛ وكان دمث الطبع، لين العريكة، باش المزاج، حتى ليتفق له أن يضحك - لا ضحكًا فظًا ساخرًا كما يضحك غيره من السجناء - بل ضحكًا حلوًا مُضيئًا يسمع فيه المرء كثيرًا من براءة الطفولة، وينسجم أكبر الانسجام مع رأسه الأشيب. (قد أكون على خطأ، ولكنني أحسب أن في الإمكان معرفة رجل من ضحكته وحدها؛ فإذا بدت لك ضحكته محببة، فكن على يقين من أنه إنسان طيب كريم النفس). وقد ظفر هذا الشيخ بإجماع السجناء على احترامه ولكن ذلك لم يصبه بشيء من غرور. كان السجناء يطلقون عليه اسم (الجد)، ولا يسيئون إليه في يوم من الأيام. وعندئذٍ أدركت كيف استطاع هذا الشيخ أن

يكون له تأثير كبير في أتباع ملته. وإنَ المرء ليشعر، رغم أن الشيخ كان يتحمل قسوة الحياة في السجن رابط الجأش قوي العزيمة، أنه يخفي حزنًا عميقًا لا شفاء منه ولا برء له. ففي ليلة من الليالي، في نحو الساعة الثالثة من الصباح، استيقظت من نومي، فسمعت نشيجًا بطيئًا مخنوقًا. كان الشيخ جالسًا على المدفأة (حيث كان قبل ذلك يصلي الرجل الذي أراد أن يقتل الميجر)، يقرأ في كتاب ملته المخطوط. وكان يبكي. وسمعته يردد: (لا تتركني يا رب! لا تتركني يا رب! يا رب شُدَّ أزري وقوِّ عزيمتي.. أولادي الصغار المساكين!... أولادي الصغار الأحبة... لن نلتقي إذنْ بعد اليوم أبدًا... لا أستطيع أن أصف لكم الحزن الذي شعرت به حينذاك!

عهدنا إذنْ بما معنا إلى هذا الشيخ. كان قد ذاع في ثكنتنا - لا يدري إلا اللّه لماذا؟ - أن الشيخ لا يمكن أن يسرق. كانوا يعلمون أنه يخفي المدخرات التي تودع عنده في مكان ما، ولكن لم يستطع أحد أن يكتشف سره. وقد كشف لنا عن هذا السر، كشفه لي وللبولونيين.

كان لأحد الأوتاد التي يتألف منها السياج بقية غصن يبدو في الظاهر مُرتبطًا بالجذع ارتباطًا قويًّا، ولكن كان يمكن في الواقع انتزاعه ثم رده إلى مكانه. فها هنا إذنْ فراغ. وهذا الفراغ هو ما كان يتخذه الشيخ مخبأً للمال.

والآن أعود إلى ما كنت بصدد الكلام عليه. لماذا لا يحتفظ السجين بماله؟ إنه لا يحتفظ بماله، لا لأن الإبقاء على هذا المال صعب فحسب، بل أيضًا لأن حياة السجن حزينة كئيبة كثيرًا... إن السجين في ظمأ شديد إلى الحرية بطبيعته! إنه من جهة وضعه الإجتماعي إنسان يبلغ من قلة الاكتراث وشدة الفوضى أن فكرة تبديد ماله فى سكر وعربدة وقمار تراود ذهنه بطبيعة الحال، ولو لينسى شقاءه دقيقة واحدة. إنه ليبدو للمرء غريبًا أن يكب بعض الناس على العمل دائبين صابرين، لا لهدفٍ آخر غير أن يتلفوا في يوم واحد كل ما جنوه بالتعب والعرق حتى آخر قرش!... ثم يعودون إلى العمل يكدون ويجهدون إلى أن يحين وقت احتفال جديد ينتظرونه أشهرًا برمتها. وكان بعض السجناء يحبون الثياب الجديدة المتفردة بعض التفرد، يحبون السراويل الغريبة، والصديرات والمعاطف السيبيرية... ولكن القمصان الهندية هي أكثر ما كان يحبه السجناء من أنواع الثياب وكذلك الأحزمة ذات المشابك المعدنية.

وكان الأنيقون في أيام الأعياد يرتدون أبهى حلة: ليتك تراهم يتبخترون في جميع الثكنات! إن سرورهم بارتداء ثياب أنيقة يبلغ بهم مبلغ الطفولة. والحق أن السجناء هم في أمور كثيرة أطفال كبار. وهذه الملابس الجديدة سرعان ما تختفي، وكثيرًا ما تختفي في مساء اليوم الذي اشتريت فيه، فإن أصحابها ما يلبثون أن يرهنوها أو يبيعوها بأبخس الأثمان. والاحتفالات إنما تتكرر في أوقات توشك أن تكون دائمًا محددة، فهي تطابق مواعيد الاحتفالات الدينية أو تطابق أيام الأعياد الشخصية. فالمحتفل يضع شمعة أمام صورة العذراء متى نهض من نومه، ويقرأ صِلاته، ثم يرتدي أبهى حلله ويأمر لنفسه بغدائه. ويكون

قد اشترى لحمًا وسمكًا وفطائر... فها هو ذا يزدرد الطعام كالثور، يزدرده وحده في أكثر الأحيان... فقلما يدعو سجين رفيقًا له إلى مشاركته احتفاله بعيده. وفي أحد هذه الأوقات إنما تظهر الخمرة: يعب السجين منها ما شاء له هواه أن يعب، ثم يقوم يتجول في الثكنات مترنحًا متعثرًا، حريصًا أشد الحرص على أن يُظهر لجميع رفاقه أنه سكران، ليستحق بذلك احترامًا وتقديرًا خاصين.

إن الشعب الروسي يشعر دائمًا بشيء من العطف على امرئ سكران. ولكن شعور السجناء نحو السكران في السجن ليس عطفًا بل احترامًا. إن السكر في السجن نوع من التميز الارستقراطي.

ومتى استخف السجين َالطربُ دعا موسيقيًّا يعزف له. لقد كان بيننا بولوني قصير هارب من الجندية دميم الوجه بشع المنظر... لكنه يملك كمانًا يحسن العزف عليها، ولم يكن هذا البولوني يمارس أية مهنة غير العزف على كمانه، فها هو ذا يتبع السجين الطرب من ثكنة إلى ثكنة يعزف له ألحان رقص بكل ما أوتيَ من قوة. وكثيرًا ما كان يفصح وجهه عن الملل والسأم والاشمئزاز من هذه الموسيقى التي تتكرر ولا تجدد قَطّ، فإذا السجين يصيح قائلًا له: (اعزف ما دمت قد نلت على هذا أجرًا)، فيعود الموسيقي يواصل العزف على أوتار كمانه بمزيد من الهمة والقوة.

وكان هؤلاء السكارى على ثقة من أن رفاقهم يحمونهم، فإذا اتفق أن وصل الميجر أخفوهم عن أنظاره. وتلك خدمة منزهة عن الغرض مبرأة من المنفعة، كما أن ضابط الصف والجنود الذين يبقون في الثكنة للمحافظة على النظام لا يحركون ساكنًا قَطّ: فإن السكير لا يمكن أن يسبب أي فوضى. ومتى حاول أن يثور أو أن يحدث جلبة وضجة وصخبًا، قام رفاقه يهدئونه، وقد يوثقونه. لذلك كان الموظفون المرؤوسون (من مراقبين وغيرهم) يغضون الأبصار. إنهم يعلمون أن تحريم الخمرة سيجعل جميع الأمور تجري في السجن على نحو آخر. والسؤال الآن هو: كيف كان السجناء يحصلون على الخمرة؟

كانوا يشترونها في السجن نفسه من (الخمارين) (بهذا الاسم كان السجناء يسمون أولئك الذين يتعاطون هذه التجارة، وهي تجارة مربحة جدًّا، رغم أن عدد الشاربين والمحتفلين قليل، نتيجة لارتفاع تكاليف كل احتفال من هذا القبيل، إذا قيست هذه التكاليف بقلة موارد السجناء). وكانت هذه التجارة تبدأ وتستمر وتنتهي على نحو طريف كل الطرافة. هذا سجين لا يجيد أي حرفة، ولا يريد أن يعمل، ولا بد له مع ذلك أن يغتني اغتناءً سريعًا، فإذا هو يقرر، متى ملك بعض المال، أن يتعاطى تجارة الخمرة يشتريها ويبيعها. والمغامرة خطرة جريئة: فهي تقتضي شجاعة وتتطلب جسارة، لأن المغامر لا يخاطر بجلده وحده، بل يخاطر ببضاعته أيضًا. ولكن الخمار لا يتراجع أمام هذه العقبات. وهو في أول الأمر يحمل الخمرة إلى السجن بنفسه، لأنه لا يملك،

بعد، إلا قليلًا من المال، ويبيعها فيجني من ذلك ربحًا كبيرًا. ثم يكرر هذا العمل مرة ثانية، فثالثة... فإذا لم تكشف أمره الإدارة ملك من المال ما يتيح له أن يوسِّع تجارته... فيصبح عندئذ (مقاولًا)، يصبح (رأسماليًّا): إنه يتخذ لنفسه عملاء ومساعدين، وبذلك تقل المخاطر التي يتعرض لها، وتزداد الأرباح التي يجنيها. فالمساعدون هم الذين يجازفون الآن من أجله وفي سبيله.

إن السجن مليء دائمًا بسجناء لا مال عندهم ولا حرفة لهم، ولكنهم يملكون الجرأة والشجاعة، ويملكون الحذق والمهارة. فرأس المال الوحيد الذي ينعمون به إنما هو جلود ظهورهم، وهم كثيرًا ما يقررون استغلال رأس المال هذا، فيقترحون على الخمار أن يتولوا تهريب الخمرة إلى الثكنات. ولا بد أن يوجد في المدينة دائمًا جندي أو متكسب أو حتى فتاة، يشترون خمرًا بمال الخمار (ويتقاضون على شراء الخمر ربحًا يتفق عليه، وهو ربح زهيد على وجه الإجمال) ثم يخفونه في مكان يعرفه السجين المهرِّب، قرب ورشة العمل التي يعمل فيها؛ والمهرب لا بد أن يذوق هذا السائل الطيب في طريق عودته إلى السجن، فيفرغ بذلك بعض الزجاجة، فيعمد إلى ملء الفراغ بالماء... ولسان حاله يقول: (لك أن تأخذ أو أن تدع)... ولن يستطيع الخمَّار أن يكون متشددًا، بل عليه أن يعد نفسه سعيداً إذا لم يُسرق ماله أصلًا، وإذا جيء بالخمرة ممزوجةً بالماء على هذا النحو. إن المهرِّب الذي يعيِّن له الخمَّار مكان اللقاء بينه وبين الوسيط يحمل إلى هذا الوسيط أمعاء من أمعاء البقر أحسن غسلها سلفًا، وملئت ماء، لتحتفظ بمرونتها ولينها وطراوتها، فمتى تم ملء الأمعاء بالماء، لفَّها المهرِّب وخبأها في جسمه... في المواضع الخفية السرية من جسمه... وهنا إنما تتجلى الحيلة ويتجلى الدهاء والحذق لدى هؤلاء السجناء الشجعان... وإلا تجلل شرفهم بالعار: إن عليهم أن يخادعوا الذين يرافقونهم إلى العمل، وأن يخدعوهم؛ فإذا كان المُهرِّب بارع الحيلة لم يلاحظ الحارس شيئًا (وهو في الغالب من المجندين) لأن المُهرب يكون قد أحسن دراسته، كما يكون قد أحسن اختيار الزمان والمكان للموعد المضروب. هب المهرِّب يعمل في صنع القرميد مثلًا: إنه في هذه الحالة يتسلق الفرن الذي يُشوى فيه القرميد، وطبيعي أن لا يرافقه الجندي الذي يحرسه ليراقب حركاته وسكناته. ومن ذا الذي يستطيع أن يرى هنالك ماذا يصنع؟ حتى إذا قفل راجعًا إلى السجن، هيأ قطعة نقدية بخمسة عشر كوبكًا أو بعشرين كوبكًا، وانتظر عريف الحرس على الباب. إن العريف يفتش كل سجين ويحبسه وينبشه عند عودته إلى الثكنة، ثم يفتح له الباب؛ والمهرِّب يأمل أن يستحيي العريف من تفتيشه وجسه في بعض المواضع تفصيلًا، ولكن العريف إنما يجس هذه المواضع الحرجة بعينها حين يكون بارع الحيلة ماكرًا، فإذا هو يعثر على الخمرة المهربة، فلا يبقى للسجين عندئذٍ إلا سبيل واحد للسلامة، هي أن يدس في يد العريف قطعة النقد خلسة فتصل الخمرة بهذه الطريقة إلى أيدي الخمَّار بغير مشاكِل في كثير من الأحيان. حتى إذا لم تنجح

هذه الحيلة كان لا بد للمهرب من أن يضع في التداول رأس المال الوحيد الذي يملكه، فالعريف يكتب تقريرًا إلى الضابط الميجر، والضابط الميجر يأمر بجلد المهرِّب العاثر الحظ بغير هوادة ولا رحمة؛ وتصادر الخمرة... والمهرِّب يتلقى عقابه دون أن يشي بصاحبه المقاول، لا لأن هذه الوشاية ستلطخ شرفه بل لأنها لن تجلب له نفعًا، فلسوف يُجلد على كل حال، سواءً أوشى بصاحبه أم لم يشِ به؛ وكل العزاء الذي يمكن أن يناله من الوشاية بصاحبه هو أن يشركه في تحمل العقوبة معه، ولكنه بحاجة إلى الخمار، لذلك لا يشي به، رغم أنه لا يتقاضى أي أجر متى افتضح أمره فلم يستطع أن يُهرِّب الخمرة إلى داخل السجن.

على أن الوشاية رائجة في السجن والسجناء لا يغضبون من الجاسوس ولا يبعدونه عنهم، بل كثيرًا ما يتخذونه لهم صديقًا. فإذا خطر ببال أحد أن يبرهن للسجناء على أن وشاية بعضهم ببعض أمر حقير غاية الحقارة لم يفهم عنه أحد شيئًا. إن النبيل السابق الذي تحدثت عنه آنفًا، ذلك المخلوق الجبان الغدار الدنيء الذي قطعتُ صلتي به منذ وصولي إلى القلعة كان صديقًا لفدكا خادم الضابط الميجر، فكان يروي له كل ما يجري في السجن، وكان فدكا يسارع طبعًا فينقل إلى مولاه ما يسمعه. والسجناء جميعًا يعرفون هذا الأمر، ولكن ما كان ليخطر ببال أحد منهم أن يعاقبه على ذلك، أو أن يعيب عليه سلوكه، ولكن ها أنا ذا ابتعدت عن مجرى حديثي مستطردًا، فلأعد إلى ما كنت بصدده:

متى وصلت الخمرة إلى السجن دفع المقاول للمهرب أجره وأخذ يجري حسابه، والبضاعة قد كلفه ثمنها غاليًّا، وهو لذلك من أجل أن يُربي ربحه يضيف إلى الخمرة نصف مقدارها ماءً، فلا يبقى عليه بعد ذلك إلا أن ينتظر المشترين. وهذا سجين يجيئه في مطلع يوم عيد، بل وفي مطلع يوم من أيام الأسبوع: لقد عمل عدة أشهر عملًا شاقًا كما يعمل زنجي من أجل أن يجمع، كوبكًا بعد كوبك، مبلغًا من المال يقرر أن ينفقه دفعة واحدة. لقد حدد السجين يوم احتفاله منذ زمن بعيد، وحلم به أثناء ليالي الشتاء الطويلة، وأثناء قيامه بأعماله القاسية المرهقة، فكان الأمل بحلول هذا اليوم يشد أزره ويقوي عزيمته. ويسطع أخيرًا فجر ذلك اليوم الموعود الذي طال انتظاره: إن المال في جيب السجين لم يصادر ولم يسرق، وهو حر في إنفاقه على ما يشاء له هواه، فها هو ذا يحمل مدخراته إلى الخمَّار الذي يعطيه في أول الأمر خمرة تشبه أن تكون صافية لأنها لم تمزج بالماء إلا مرتين. ولكن كلما فرغت الزجاجة بعض الفراغ ملأ الخمار فراغها ماءً، وهكذا يدفع السجين ثمن قدح الخمر ستة أضعاف ما يدفعه في خمَّارة. قد يتراءى لكم أن السجين يحتاج إلى عدد كبير من مثل هذه الأقداح حتى يسكر، وأنه يدفع مبالغ طائلة من المال قبل أن يسكر... ولكن الواقع أن القليل من الكحول الذي يحويه الشراب يُسْكِرُ السجينِ بسرعة كافية، لأن السجين قد فقد عادة الشرِاب...

وهو يظل يشرب إلى أن ينفق آخر قرش يملكه، ثم يعمد إلى بيع أمتعته الجديدة أو رهنها ليستمر على الشراب، والخمَّار يتعاطى تجارة الإقراض بالرهن في الوقت نفسه، فإذا نفدت أمتعة السجين الشخصية، وهي قليلة، لم يلبث أن يرهن الأمتعة التي تُقدمها له الحكومة؛ فمتى شرب بثمن آخر قميص من قمصانه و آخر خرقة من خرقه، استيقظ في صباح اليوم التالي مصدع الرأس، فراح يتوسل إلى الخمَّار أن يعطيه قطرة من الخمر دينًا ليذهب عنه هذا الصداع، ولكن الخمار يرفض أن يعطيه شيئًا بالدين، فما يملك المسكين إلا أن يقبل الرفض حزينًا. وفي اليوم نفسه يعود يعمل، ويظل يعمل أشهرًا بكاملها، كادحًا مُرهقًا نفسه، حالمًا باليوم السعيد الذي انقضى... وشيئًا فشيئًا يسترد أمله ويستعيد شجاعته منتظرًا يومًا كذلك اليوم، يومًا بعيدًا لكنه آتٍ لا ريب فيه.

وحين يجني الخمَّار مبلغًا كبيرًا - بضع عشرات من الروبلات - فإنه يشتري خمرًا، ولكنه لا يمزج هذه الخمرة الجديدة بماء، لأنه يخص بها نفسه: كفاه تجارةً!... لقد آن له هو أن يتسلى ويطرب. فها هو ذا يشرب ويأكل ويدفع للموسيقى أجرًا... إن موارده تتيح له أن يمنَّ على صغار الموظفين المرؤوسين في السجن ببعض الهبات... ويدوم احتفاله هذا بضعة أيام، حتى إذا نفدت مؤونته من الشراب مضى يشرب عند الخمارين الآخرين الذين ينتظرون ذلك منه ويتوقعونه، فيظل يشرب إلى أن ينفق آخر كوبك يملكه. ومهما يكن انتباه السجناء قويًّا من أجل حماية رفاقهم المحتفلين، فإنه ليتفق أن يلاحظ الضابط الميجر أو ضابط الحرس ما قام في السجن من فوضى، فيُقاد السكير عندئذٍ إلى غرفة القصاص، بمصادر ما معه من مال - إن كان قد بقي له منه شيء - ثم يُجلد، حتى إذا فرغوا من جَلْدِه نفض جسمه كما ينفض جسمه كلب تلطخ بالوحل، وعاد إلى الثكنة، ثم استأنف عمله خمَّارًا بعد بضعة أيام.

ويوجد بين السجناء في بعض الأحيان أناس من عشاق الجنس اللطيف: إنهم يستطيعون بمبلغ كبير من المال يرشون به جنديًّا من الجنود أن يتسللوا خلسة من القلعة إلى ضاحية من ضواحي المدينة بدلًا من أن يذهبوا إلى العمل. وهناك في بيت هادئ المنظر، يقيمون حفلة ينفقون فيها مبالغ طائلة. إن الجنود الذين يقبلون اصطحاب سجين من السجناء في رحلة كهذه يتقاضون رشوة كبيرة، لذلك تراهم في بعض الأحيان يهيؤون فِرارًا من هذا النوع سلفًا لثقتهم بأنهم سيكافأون مكافأة ضخمة. وأمثال هؤلاء الجنود مرشحون لأن يصبحوا هم أنفسهم سجناء. وهذا الفرار يبقى في أكثر الأحيان سريًّا، بل يكاد يبقى سريًّا في جميع الأحيان. ويجب أن أعترف مع ذلك أن حدوث هذا الفرار أمر نادر، لأنه يكلف نفقات باهظة، وعشاق الجنس اللطيف يلجئون إلى وسائل أخرى لا تكلف مثل هذه النفقات الباهظة.

في بداية عهدي بالسجن لفت نظري واستأثر بانتباهي وأثار حب الاطلاع في نفسي سجين شاب وسيم الوجه حلو الملامح دقيق القسمات: إن اسمه سير وتكين ([13]): إنه إنسان يشبه أن يكون لغزًا من نواح كثيرة. لقد خطف وجهه بصري منذ أول نظرة. لم يكن قد تجاوز الثالثة والعشرين من عمره، وكان ينتمي إلى القسم الخاص، أي أنه كان محكومًا عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة، فكان ينبغي النظر إليه على أنه من أخطر المجرمين العسكريين. إنه هادئ لطيف عذب لا يتكلم إلا قليلًا، ولا يضحك إلا نادرًا. إن عينيه الزرقاوين وبشرته الرائعة وشعره الأشقر، إن هذا كله يضفي على وجهه تعبيرًا جميلًا لا تفسده حتى جمجمته المحلوقة الشعر. ورغم أنه لا يمارس أية حرفة فقد كان يحصل أحيانًا على مبالغ من المال. كان كسولًا كسلًا واضحًا، وكان زري الثياب دائمًا. فإذا تكرم أحدهم فأهدى إليه قميصًا أحمر طار ليه من فرط الفرح وشدة الابتهاج، فأخذ يطوف مرتديًّا قميصه الجديد يعرضه في كل مكان. وكان سيروتكين لا يشرب الخمر ولا يلعب القمار ولا يكاد يتشاجر يومًا مع أحد من السجناء. وكان لا يني يتجول، واضعًا يديه في جيبي سرواله، هادئ المشية واجم النظرة متأملًا مُفكرًا. أما في أي شيء كان يفكر، فذلك ما لا أعلم عنه شيئًا. إذا نودي ليسأل عن أمر من الأمور، أو ليطلب منه شيء من الأشياء أسرع يجيب بكثير من الاحترام، وتكلم كلامًا واضحًا دقيقًا، دون أن يثرثر كثيرًا كما يفعل غيره إنه ينظر إليك دائمًا بعينين ساذجتين سذاجة عيني طفل في العاشرة من عمره. إذا ملك مالًا لم يشتر شيئًا مما كان يعده سائر السجناء أشياء لا غنى عنها، وإذا تمزق قميصه لم يعهد إلى أحد بترقيعه، لا ولا كان يشتري أحذية جديدة. إن أرغفة الخبز الأبيض والفطائر هي ما كان يحلو له أن يشتريه أكثر من أي شيء آخر. فكان يقضم هذه الأرغفة وهذه الفطائر بلذة كلذة طفل صغير في السابعة من عمره. كان السجناء يخاطبونه بقولهم: (هيه سيروتكين، يا يتيم قازان ([14]) الصغير المسكين!) إذا كان رفاقه لا يعملون أخذ يتجول في الثكنات على عادته حتى إذا كان جميع السجناء منكبين على عملهم ظل هو عاطلًا لا يحرك يديه. وإذا مازحه أحد أو سخر منه وهزئ به - وكان هذا يحدث كثيرًا - لم يزد على أن يدير ظهره ويمضي إلى مكان آخر دون أن يقول كلمة واحدة. فإذا كانت المزحة ثقيلة قوية احمرّ وجهه، تساءلت كثيرًا ما عسى تكون الجريمة التي اقترفها حتى أُرسل إلى سجن الأشغال الشاقة. وفي ذات يوم كنت مريضًا راقدًا في المستشفى، وكان سيروتكين متمددًا على فراش قريب مني، فأخذت أتحدث معه، فتحمس وقصَّ عليَّ بغير تحفظ كيف جُنِّدَ، وكيف صحبته أمه باكيةً، ووصف لي أنواع العذاب التي قاساها أثناء الجندية، وأضاف إلى ذلك أنه لم يستطع أن يتعود هذا النوع من الحياة: فلقد كان جميع الناس هنالك قساة عتاة،

يغضبون لأتفه الأسباب، وكان رؤساؤه حاقدين عليه ساخطين منه في جميع الأحيان تقريبًا.

سألته:

- ولكن لماذا أُرسلت إلى هنا يا سيروتكين؟ ولماذا إلى القسم الخاص يا سيروتكين؟

قال:

- نعم يا ألكسندر بتروفتش!... إنني لم أقضِ في الجندية إلا سنة واحدة وقد أُرسلت إلى هنا لأنني قتلت رئيسي النقيب جريجوري بتروفتش.

- سمعت بعضهم يروي هذا، ولكنني لم أصدق... فكيف أمكن أن تقتله يا سيروتكين؟

- كل ما رُوي لك صحيح. لقد كانت حياتي هنالك ثقيلة لا تطاق ولا تحتمل.

- ولكن المجندين الآخرين يحتملون تلك الحياة! صحيح أنها شاقة قاسية في البداية، ولكن المرء يتعودها أخيرًا ويصبح جنديًّا ممتازًا. لا شك أن أمك قد أسرفت في تدليلك فأفسدت طباعك... أنا واثق أنها كانت تغذيك بالفطائر واللبن حتى الثامنة عشرة من عمرك!...

- حقًّا لقد كانت أمي تحبني كثيرًا... وحين سافرت رقدت على سريرها وبقيت فيه... ألا ما كان أقسى حياة الجندية في نفسي حينذاك! كان كل شيء يجري مقلوبًا... كانوا ينزلون فيَّ العقوبة تلو العقوبة... ولماذا؟ لقد كنت أطيع جميع الناس، وأخضع لجميع الأوامر، وأتبع جميع القواعد، وأعتني بكل شيء، ولا أشرب الخمرة قَطّ، ولا أستدين من أحد شيئًا... ذلك أن المرء يسيء صنعًا إذا هو أخذ يستدين... ومع هذا كان جميع الناس حولي قساةً عتاةً إلى أبعد حدود القسوة والعتو... كنت في بعض الأحيان ألطو في ركن من الأركان وآخذ أبكي... وأنتحب... نعم... أنتحب... وفي ذات يوم، أو قل في ذات ليلة، كنت مكلفًا بالحراسة. الفصل خريف، والرياح شديدة، والجو يبلغ من شدة الظلام أن المرء لا يستطيع أن يرى قطة... وكنتُ حزينًا، حزينًا غاية الحزن... نزعت الحربة من بندقيتي ووضعتها جانبًا، ثم وضعت فوهة البندقية على صدري وضغطت الزناد بإبهام قدمي بعد أن خلعت حذائي. لم تنطلق الطلقة. فحصت بندقيتي وحشوتها بارودًا جديدًا، ثم سددت فوهة البندقية إلى صدري... ومرة أخرى لم تنطلق الطلقة... قلت لنفسي: (ما العمل؟). ثم انتعلت حذائي، وأحكمت إعادة وضع الحربة في موضعها من البندقية، ومضيت أتجول ذاهبًا آيبًا، حاملًا بندقيتي على كتفي. قلت لنفسي: ألا فلأُرسل إلى أي مكان، ولكنني لا أريد أن أبقى جنديًّا. وبعد نصف ساعة وصل النقيب الذي كان يقوم بجولته التفتيشية. تقدم مني وقال لي: (أهكذا يسير الجندي حين يكون حارسًا؟)، فما كان مني إلا أن أمسكت بندقيتي وأغمدت الحربة في جسمه. وقد جلدوني أربعة آلاف جلدة بالسوط... هكذا وصلت إلى القسم الخاص.

لم يكذب سيروتكين! ومع ذلك فأنا لا أفهم لماذا أرسلوه إلى هنا. إن جرائم من هذا القبيل تعاقب معاقبة أقل قسوة. إن سيروتكين هو السجين الوحيد الذي كان جميل الوجه حقًّا. أما سائر رفاقه في القسم الخاص - وعددهم خمسة عشر سجينًا - فقد كان لهم منظر كريه رهيب! إن لهم وجوهًا تبعث الاشمئزاز في النفس والرؤوس الشائبة فيهم كثيرة. سأتحدث عن هذه العصبة فيما بعد. وكان سيروتكين في كثير من الأحيان على صداقة طيبة بالخمَّار جازين الذي سبق أن تحدثت عنه في بداية هذا الفصل.

إن جازين هذا إنسان رهيب. يحس كل من يراه أنه رجل مرعب مخيف يبعث الإضطراب والقلق في النفس، ولقد بدا لي أنه لا يمكن أن يوجد على وجه الأرض مخلوق أشد منه شراسة وضراوة ووحشية لقد سبق لي أن رأيت في مدينة توبولسك قاطع الطريق كامنيف الذي اشتهر بجرائمه؛ ورأيت بعد ذلك سولوكوف، السجين الهارب، الذي كان فارًا من الجندية، وكان سفّاحًا كاسرًا من السفاحين، ولكن لا هذا ولا ذاك أيقظ في نفسي من الاشمئزاز ما أيقظه جازين، تخيَّلوا عنكبوتًا ضخمًا عملاقًا في حجم إنسان. وهو تتري. لم يكن في السجن كله إنسان يضارعه قوة جسم، وشدة بأس. إنه يوحي إلى القلوب الذعر والرعب بضخامة رأسه الغريب المشوه أكثر مما يوحي ذلك بقامته الطويلة وبنيته الهرقلية. وكانت تجري في حقه شائعات من أغرب الشائعات فبعضهم يقول إنه كان جنديًّا، وبعضهم يزعم أنه قد فرَّ من نرتشنسك ([15])، وأنه نُفيّ عدة مرات إلى سيبيريا، ولكنه استطاع أن يهرب في كل مرة، ثم آل أخيرًا إلى سجننا فردًا من أفراد قسم المؤبدين، ويُقال إنه كان يحب قتل الأطفال الصغار يستدرجهم في أول الأمر إلى مكان ناءٍ ثم يأخذ يرعبهم ويعذبهم، حتى إذا شفى غليله من الاستمتاع بذعر نفوسهم ونبضات قلبهم، أخذ يقتلهم ببطء وهدوء ورصانة ووقار، متلذذًا بذلك أكبر التلذذ. لعل الذين يروون عنه هذه الفظائع قد تخيلوها تخيلًا من الأثر الذي يحدثه في نفوسهم، غير أن من الجائز أن تكون صحيحة، وهي تتفق وسحنته على كل حال. على أن جازين، حين يكون صاحيًّا غير سكران، يتصرف تصرفًا لائقًا ويسلك سلوكًا لا غبار عليه. إنه هادئ دائمًا لا يُخاصم أحدًا، ويتحاشى المشاجرات احتقارًا لمن حوله، وتقديرًا لشخصه، وكان لا يتكلم إلا قليلًا. وكانت حركاته جميعها محسوبة موزونة هادئة رصينة. ولا تخلو نظرته من ذكاء، ولكن تعبير هذه النظرة تعبير قاسٍ ساخر كابتسامته. وكان بين تجار الخمرة أغناهم طرًا. كان يسكر مرتين في السنة، فإذا سكر انكشفت شخصيته على حقيقتها، وحشية ضارية كاسرة. إنه ينتعش شيئًا فشيئًا فيأخذ يناكد السجناء بالسخريات اللاذعة المسمومة التي يكون قد حضرها وسنها وصقلها زمنًا طويلًا قبل ذلك؛ حتى إذا بلغ غاية السكر و استبدت به نوبات حنق مسعور وغيظ مجنون، تناول سكينًا فأشرعها واتجه نحو رفاقه والسجناء يعرفون قوة بأسه الهرقلية، فهم

لذلك يتحاشونه ويختبئون عنه لأنهم يعلمون أنه سيهجم على أول من يراه منهم. وقد انتهوا مع ذلك إلى وسيلة يجردونه بها من سلاحه هي أن ينقض على جازين عشرة من السجناء مباغتةً، فما يزالون يكيلون له ضربات شديدة على صرته وفي بطنه وتحت قلبه إلى أن يفقد الوعي ويسقط مغشيًّ عليه. إن هذه الطريقة يمكن أن تجهز على أي إنسان، ولكنها لا تجهز على جازين. حتى إذا أوسعوه ضربًا لفوه بمعطف ورموه على سريره، قائلين: (والآن فلينم). ويستيقظ جازين في الغداة سليمًا معافى تقريبًا. فيذهب عندئذٍ إلى العمل صامتًا كئيب المزاج مظلم النفس. وكلما سكر جازين عرف جميع السجناء كيف ينتهي نهاره. وكان هو نفسه يعرف ذلك، ولكنه يشرب رغم كل شيء. وانقضت على هذا سنوات، فلاحظ السجناء أن جازين قد أخذ يهزل ويضعف. أصبح لا يكف عن الأنين، شاكيًّا من أمراض شتى وازدادت زياراته للمستشفى. وقال السجناء: (ها هو يرضخ أخيرًا).
في ذلك اليوم دخل جازين المطبخ يتبعه البولوني القصير الذي يعزف على الكمان، والذي كان السجناء يستأجرونه لتتم بموسيقاه بهجة أعيادهم. وقف جازين وسط القاعة صامتًا يحدق إلى رفاقه واحدًا بعد واحد. لم ينطق أحدٌ بكلمة. فلما رآني مع رفيقي ألقى علينا نظرته تلك الخبيثة الساخرة، وابتسم إبتسامة رهيبة، وقد لاح في وجهه ما يلوح من الرضى في وجه امرئ تخيَّل مهزلة سوف يقوم بها.. اقترب من مائدتنا مترنحًا وقال:
- هل لي أن أعرف من أين تجيئون بالموارد التي تتيح لكم أن تحتسوا شايًا؟
تبادلتُ وصديقي نظرة عجلى. وأدركتُ أن خير ما نفعله هو أن نصمت فما نجيب بشيء... ذلك أن أي جواب يمكن أن يثير حنق جازين، فيجن جنونه...
وتابع جازين يقول:
- لا شك أن عندكم مالًا، بل لا شك أن عندكم مالًا كثيرًا حتى تشربوا الشاي. ولكن قولا: أأنتم في سجن الأشغال الشاقة من أجل احتساء الشاي؟ هه؟... أأنتم هنا من أجل أن تشربوا شايًا؟ هلا قلتم... هلا أجبتم، حتى أعرف كيف...
وإذا أدرك أننا صامتان، وأننا قررنا أن لا نلتفت إليه تقدم نحونا مسرعًا مكفهر الوجه مرتجفًا من شدة الغيظ والحنق، وكان يوجد على بعد خطوتين منا صندوق ثقيل يودع فيه خبز السجناء مقطعًا للغداء والعشاء، فما يحتويه الصندوق يكفي لإطعام نصف السجناء. وكان الصندوق في تلك اللحظة خاليًّ، فتناوله جازين بكلتا يديه، وهزه فوق رأسينا. ورغم أن وقوع جناية قتل أو محاولة قتل يكون في العادة مصدر انزعاج للسجناء (إذ تجري عندئذ تحقيقات كثيرة، وتفتيشات كثيرة)، ورغم أن السجناء يحولون في العادة دون حدوث مشاجرات يمكن أن تكون لها عواقب وخيمة، فقد صمت الجميع وأخذوا ينتظرون ما سيحدث..
ما من كلمة قالها أحد دفاعًا عنا! ما من صيحة صدرت عن أحد في ردع جازين! لقد كان حقد السجناء على النبلاء يبلغ من الشدة أن كلًا منهم كان

يسره أن يرانا في خطر، وأن يحس أننا في خطر... كان ذلك واضحًا كل الوضوح... غير أن حادثًا مواتيًّا سعيدًا قد أنهى هذا المشهد الذي أوشك أن ينقلب إلى فاجعة... كان جازين يهم أن يُسقط فوق رأسينا الصندوق الضخم الذي كان يديره بيديه، حين جاء أحد السجناء مسرعًا من الثكنة التي يبيت فيها، فصاح يقول لجازين:

- جازين، لقد سُرق خمرك!

فإذا بالرجل الرهيب يدع الصندوق يسقط على الأرض، ويُسرع خارجًا من المطبخ. قال السجناء بعضهم لبعض: (اللّه أنقذهما!)... وظلوا يرددون هذه الجملة زمنًا طويلًا.

لم أستطع يومًا أن أعرف هل سُرق خمره حقًّا، أم أن تلك حيلة ابتكرت لإنقاذنا...

وفي ذلك المساء نفسه، قبل إغلاق الثكنات، حين هبط الليل، كنت أتجول عند السور... إن حزنًا ساحقًا قد سقط على نفسي... لم أشعر طوال مدة إقامتي في السجن بتعاسة كالتعاسة التي شعرت بها في ذلك المساء، رغم ما يُقال من أن أول يوم في السجن هو أشقى أيام السجن على الإطلاق. كانت فكرة تهزني في ذلك المساء هزًا قويًّا، فكرة لم تبارحني بعد ذلك طوال مدة إقامتي في السجن... فكرة هي سؤال لم أجد له جوابًا حينذاك، ولا وجدت له جوابًا إلى الآن. ذلك السؤال هو: هل يمكن أن تقارن جريمة بأخرى ولو مقارنة تقريبية؟ هذان رجلان اقترف كل منهما جريمة قتل... وقد درست ظروف اقتراف الجريمتين دراسة دقيقة ووزنت وزنًا دقيقًا... إن القضاء يصدر على الرجلين حكمًا واحدًا وينزل فيهما عقوبة واحدة... ومع ذلك ما أعمق الهوة بين الفعلين! إن أحد الرجلين قد قتل في سبيل شيء تافه لا قيمة له... قتل في سبيل بصلة... قتل في الطريق فلاحًا كان مارًا هنالك ولم يجد معه إلا بصلة.

- هه... لقد أرسلوني إلى سجن الأشغال الشاقة من أجل فلاح لم يكن معه إلا بصلة!...

- يالك من غبي! إن ثمن البصلة كوبك، فلو قتلت مائة فلاح لملكت مائة كوبك... أي لملكت روبلًا، فما قيمة ذلك؟...

أما الرجل الثاني فقد قتل حقيرًا لطخ شرف امرأته أو أخته أو بنته. وهذا رجل ثالث متشرد يكاد يموت جوعًا، تحاصره فصيلة كاملة من الجند فيدافع عن حريته وحياته. فهل هو مساوٍ لذلك الوغد الذي يقتل الأطفال تلذذًا، للاستمتاع بجريان دمهم الحار على يديه، وبمنظرهم وهم يرتعشون آخر رعشة من رعشات عصفور تذبحه سكين؟ إن هؤلاء القتلة جميعًا يُرسلون إلى سجن الأشغال الشاقة. قد لا تكون مُدد الأحكام متساوية. ولكن أنواع العقوبات قليلة، في حين أن أنواع الجرائم تعد بالألوف. فهنالك من أنواع الجرائم بقدر ما هنالك من أنواع الطِباع. هبنا سلّمنا بأن من المستحيل إزالة هذا الظلم

الأول في العقوبة، هبنا سلّمنا بأن هذه المشكلة لا سبيل إلى حلَها، هبنا سلّمنا بأن هذه المشكلة صعبة صعوبة تربيع الدائرة... هبنا سلّمنا بهذا... هبنا تغاضينا عن هذا الظلم.. إن هناك ظلمًا آخر: هو الظلم الذي يتعلق بنتائج العقوبة... فرب رجلٍ يذوي في السجن ويهلك ويذوب كما تذوب الشمعة؛ ورب رجل آخر ما كان ليخطر له ببال أن الحياة في السجن يمكن أن تكون ممتعة إلى هذه الدرجة بين حلقة من الأصدقاء تحلو معاشرتهم وتطيب صحبتهم!... هناك أشخاص من هذا النوع في سجون الأشغال الشاقة. وانظر بعد ذلك إلى إنسان رقيق القلب مثقف الفكر مرهف الضمير... إن ما يشعر به لهو أشد إيلامًا لنفسه من العقوبة نفسها. إن الحكم الذي أصدره هو نفسه على جريمته أقسى حكم يصدره القضاء تطبيقًا لأشد نصوص قانون من القوانين صرامةً وقوة. إنه يعيش جنبًا إلى جنب مع سجين آخر لم يفكر مرة واحدة في الجريمة التي ارتكبها والتي عوقب عليها، لم يفكر في هذه الجريمة مرة واحدة طوال مدة إقامته في السجن، ولعله يعد نفسه بريئًا لم يقترف إثمًا... وأخيرًا، أليس هناك أناس تعساء بؤساء يرتكبون الجرائم بغية أن يُرسلوا إلى سجون الأشغال الشاقة حيث الحياة أقل مشقة من حياة الحرية خارج السجون؟ إن الحياة ملأى بألوان الشقاء.. رب شخص لا يجد ما يأكله إذا جاع... رب شخص يرهق نفسه في العمل من أن أجل أن يغتني سيده... وهو لذلك يؤثر حياة السجن على الحياة التي يعيشها خارج السجن... فالعمل في السجن أقل مشقة وعسرًا، والمرء في السجن يأكل متى جاع، ولعله يأكل خيرًا مما يأمل أن يأكل خارج السجن... سوف يأكل لحمًا في أيام الأعياد، وسوف تتوارد عليه الصدقات، وسوف يجني من عمل المساء بعض المال... وهذا المجتمع الذي سوف يعرفه في السجن هل تعدونه غير ذي بال؟ إن السجناء أناس بارعون ماكرون يعرفون كل شيء... والقادم الجديد ينظر إلى رفاق الأغلال نظرة إعجاب لا يخفيها... إنه لا عهد له بشيء كهذا من قبل... فهو لذلك يتصور أنه في أحسن صحبة!...

فهل يُعقل أن يشعر هؤلاء الرجال جميعًا شعورًا واحدًا بالعقوبة التي أُنزلت فيهم؟ ولكن علام الخوض في مشكلات لا سبيل إلى حلها، علام طرح أسئلة لا سبيل إلى الجواب عليها!... لقد قُرع الطبل، فيجب أن أعود إلى الثكنة...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4

المشاعر الأولى

تتمة

تفقدونا مرة أخرى، ثم أغلقوا أبواب الثكنات، وأقفلوا كل باب بقفل خاص، وظل السجناء محبوسين حتى مطلع الفجر.

لقد قام بتفقد السجناء ضابط صف، يصحبه جنديان. فإذا اتفق أن شهد التفقد ضابط من الضباط، صُفَّ السجناء في الفناء. أما في أكثر الأحيان فكان التفقد يتم في داخل المباني نفسها. ولما كان الجنود كثيرًا ما يخطئون التعداد، فإنهم يخرجون ثم يعودون ليكرروا تفقدنا واحدًا واحدًا، إلى أن يتضح لهم أن العدَّ كان صحيحًا، فيحبسوننا عندئذٍ في الثكنات. وكل ثكنة من الثكنات تضم نحو ثلاثين سجينًا، لذلك كانت المضاجع متراصة قريبًا بعضها من بعض. ويأخذ السجناء يعملون، لأن موعد النوم ما يزال بعيدًا.

عاد الجندي المشوه الذي سبق أن أتيت على ذكره، والذي كان يبيت معنا في الثكنة، ويمثل إدارة السجن أثناء الليل، وكان يوجد في كل ثكنة سجين قديم يعينه الضابط الميجر (عريفًا)، مكافأةً له على حسن سلوكه. ومع ذلك لم يكن بالأمر النادر أن يرتكب (العرفاء) أنفسهم مخالفات يعاقبون عليها بالجلد؛ فهم يفقدون عندئذٍ رتبتهم، ويحل محلهم سجناء آخرون ممن يكون سلوكهم مُرضيًّا. كان (عريف) ثكنتنا هو أكيم آكيمتش. وقد أدهشني أنه كان ينهر السجناء ويقرعهم تقريعًا شديدًا، ولكن السجناء لا يردون على تقريعاته إلا بسخريات. أما الجندي المشوه فقد كان أقرب إلى حصافة الرأي وسداد النظر فهو لا يتدخل في أمر من الأمور، فإذا فتح فمه بكلام، فهو إنما يتكلم عندئذٍ مراعاة للواجب وتبرئة للذمة، وكان يظل جالسًا على مرقده صامتًا، عاكفًا على ترقيع أحذية عتيقة، وكان السجناء لا يولونه أي اهتمام ولا يلتفتون إليه أي إلتفات.

وفي ذلك لاحظت أمرًا ثبتت لي صحته وثبت لي صدقه بعدئذٍ، وهو أن جميع من ليسوا سجناء ويتعاملون مع السجناء، سواء أكانوا من جنود الحرس أم من الموظفين، ينظرون إلى السجناء نظرة خاطئة مبالغة، كأنهم يتوقعون أن ينقض عليهم السجناء بسكين لأتفه أمر أو لأيسر سبب. وكان السجناء لعلهم بهذا الخوف الذي يوقظونه في نفوس هؤلاء، يشعرون بزهو وخيلاء. لذلك فإن خير رئيس للسجن إنما هو ذلك الذي لا يشعر أمام السجناء بأي انفعال. والسجناء رغم المظاهر التي يصطنعونها يؤثرون هم أنفسهم أن يُمحضوا الثقة، حتى لقد تستطيع بهذه الثقة التي توليهم إياها أن تشدهم إليك وأن تربطهم بك. وقد أتيح لي غير مرة أن ألاحظ دهشتهم حين يدخل عليهم رئيس

بلا حرس يرافقه.. وليس في هذه الدهشة شيء من التملق في الواقع فإن الزائر الشجاع يفرض احترامه ويفرض مهابته على السجناء. وإذا وقع شيء مزعج في يوم من الأيام، فإن ذلك لا يمكن أن يقع في حضوره. إن الرعب الذي يوقظه السجناء في النفوس عام شامل؛ ومع ذلك فأنا أرى أنه لا يقوم على أساس. هل يرجع هذا الذعر إلى أن سحنة السجين وهيئته التي تدل على الإجرام تولدان شيئًا من النفور والاشمئزاز؟ أغلب الظن عندي أن هذا الذعر راجع إلى شعور معين يستبد بنا منذ ندخل السجن، هو الشعور بأن من المستحيل على المرء، رغم جميع الجهود ورغم اتخاذ جميع الإجراءات الممكنة، أن يحيل إنسانًا حيًّا إلى جثة، أن يخنق عواطف هذا الإنسان أن يُزيل ظمأه إلى الانتقام وإلى الحياة، وأن يبدد أهواءه وحاجته القوية العارمة إلى إرضاء هذه الأهواء. ومهما يكن من أمر فإنني أؤكد أنه لا داعي إلى الخوف من نزلاء سجون الأشغال الشاقة. ما من إنسان ينقض بسكين على قرينه بمثل هذه السرعة وبمثل هذه السهولة. ولئن وقعت حوادث من هذا القبيل في بعض الأحيان، فهي من الندرة بحيث يمكن أن لا تحسب. أنا لا أتكلم هنا طبعًا إلا عمن تم صدور الحكم عليهم، فهم ينالون عقابهم، ويكاد يشعر بعضهم بالسعادة من وجوده في السجن آخر الأمر، فإن شكلًا جديدًا من أشكال الحياة لا بد أن يجذب الإنسان دائمًا. فهؤلاء يعيشون هادئين خاضعين راضخين مذعنين. أما المشاغبون فإن السجناء أنفسهم يجبرونهم على المحافظة على الهدوء، فلا يمكنهم أن يمضوا في تبجحهم بعيدًا. إن السجين، مهما يكن جسورًا ومهما يكن متهورًا، يخاف في السجن كل شيء. ولا كذلك المتهم الذي لم يتقرر مصيره بعد. إن هذا المتهم لا يتورع عن الانقضاض على أي شخص، دون أن يكون ثمة دافع من كره يدفعه إلى ذلك، لا لشيء إلا لأنه سيصدر في حقه حكم غدًا. فإنه إذا ارتكب جريمة جديدة، تعقدت قضيته، وتأخر إنزال العقاب فيه، وكسب وقتًا... إن لمثل هذا العدوان ما يفسره ويعلله. إن له سببًا، وله هدفًا... إن السجين في هذه الحالة يريد أن (يغير مصيره) بأي ثمن، ويريد أن يغير هذا المصير فورًا. وبهذه المناسبة فقد أتيح لي أن أشهد واقعة نفسية غريبة جدًّا.

كان في قسم المحكومين العسكريين جندي قديم أُرسل إلى سجن الأشغال الشاقة يقضي فيه سنتين. كان هذا الرجل متبجحًا وجبانًا في آن واحد. إن الجندي الروسي قليل المباهاة بوجه عام، ولا يتسع وقته للمباهاة ولو أراد. فإذا وجد بين الجنود الروس جندي كثير المباهاة شديد الافتخار فاعلم أنه جبان وأنه محتال قضى دوتوف - وذلك هو اسم السجين الذي أتحدث عنه الآن - قضى مدة سجنه وعاد إلى فرقة مرابطة على الحدود. ولكنه كان قد فسد فسادًا كاملًا كسائر من يُرسلون إلى السجن لإصلاحهم. إن كثيرًا من هؤلاء السجناء يعودون إلى السجن بعد أن يتمتعوا بالحرية أسبوعين أو ثلاثة أسابيع، ولكنهم لا يعودون عندئذٍ لقضاء مدة قِصيرة بعض القصر، وإنما

يعودون ليقضوا في السجن خمسَة عشر عامًا أو عشرين. فذلك ما حدث لصاحبنا دوتوف. فبعد إطلاق سراحه بثلاثة أسابيع، سرق أحد رفاقه عنوةً، ثم شقَّ عصا الطاقة وتمرد على النظام العسكري، فحوكم وصدر في حقه حكم جسدي قاسٍ، فإذا هو من شدة هلعه من العقاب المقبل (لأنه جبان) ينقض بسكين في يده على ضابط الحرس الذي دخل عليه مقرَّه عشية اليوم الذي كان يجب أن ينفذ فيه الحكم الذي أصدرته المحكمة بجلده. ولكن الشيء الوحيد الذي كان يريده هو أن يؤجِّل اللحظة الرهيبة، لحظة إنزال العقوبة، بضعة أيام أو بضعَ ساعات على الأقل. وكان من الجبن بحيث أنه لم يستطع حتى أن يطعن الضابط الذي أشهر عليه سكينه. إنه لم يرتكب هذا العدوان إلا ليضيف إلى (ملفِّه) جريمة جديدة، توجب أن تُعاد محاكمته.
إن اللحظة التي تسبق تنفيذ العقاب هي لحظة رهيبة في نظر المحكوم بعقوبة الجلد بالسياط. لقد أتيح لي أن أرى كثيرًا من المحكومين قبل تنفيذ الحكم فيهم بيوم. كنت ألقاهم عادةً في المستشفى حين أكون مريضًا، وكثيرًا ما كنت أمرض... إن أرأف الناس بالمحكومين في روسيا إنما هم الأطباء حتمًا. إنهم لا يفرقون أبدًا بين المحكومين تلك الأنواع من التفريق التي يعمد إليها غيرهم ممن هم على صلة مباشرة بهؤلاء المحكومين. ولعل الشعب وحده يرأف بهم أيضًا مع الأطباء، لأنه لا يلوم المجرم أبدًا على الجرم الذي ارتكبه مهما يكن هذا الجرم، بل يغفر له هذا الجرم ما دام قد كفر عنه بالعقاب الذي ناله.
ليس عبثًا أن الشعب في روسيا كلها يصف الجريمة بأنها سوء حظ، ويصف المجرم بأنه إنسان سيء الحظ. إن لهذا التعريف دلالة بليغة عميقة، دلالة هامة خطرة، لا سيما وأنه غريزي لا شعوري... أعود إلى حيث كنت من الحديث فأقول إن الأطباء هم الملجأ الطبيعي الذي يلجأ إليه السجناء، وخاصةً حين يكون عليهم أن يتحملوا عقوبة جسدية...
إن المتهم الذي أحيل إلى مجلس عسكري يعرف على وجه التقريب الوقت الذي سيصدر فيه الحكم، فمن أجل أن يجتنب هذا الموعد تراه يتمارض ويطلب الذهاب إلى المستشفى عسى أن تُرجأ اللحظة الرهيبة بضعة أيام. وهو حين يصرِّح أنه شُفي من مرضه لا يجهل أن تلك اللحظة موعدها غداة خروجه من المستشفى. لذلك ترى السجناء مضطربين أشد الاضطراب في ذلك اليوم. صحيح أن بعضهم يحاول إخفاء اضطرابه محافظةً على كبريائه، ولكن ما من أحد ينطلي عليه هذا التظاهر الكاذب بالشجاعة. إن كل إنسان يفهم قسوة هذه اللحظة، ويسكت من قبيل الشعور الإنساني. لقد عرفت سجينًا شابًا كان في الماضي جنديًّا، وقد أرسل إلى سجن الأشغال الشاقة بتهمة القتل... وكان عليه أن يُعاقب بالحد الأقصى من الجلد بالسياط، فقرر قبل تنفيذ العقوبة فيه بيوم أن يشرب زجاجة كاملة من الخمر أضاف إليها مِقدارًا من التبغ، إن السجين المحِكوم بالجلد لا بد أن يشرب قبل اللحظة

الحاسمة شيئًا من خمر يكون قد أعده منذ زمن طويل، واشتراه بثمن باهظ في أكثر الأحيان: إنه يؤثر أن يحرم نفسه من الأشياء الضرورية ستة أشهر برمتها حتى يتاح له أن يعب ربع لتر من الكحول قبل تنفيذ العقوبة فيه. فالسجناء يعتقدون اعتقادًا جازمًا بأن الإنسان لا يتألم من ضربات العصا أو السوط مثلما يتألم منها وهو في حالة الصحو. وأعود إلى قصتي فأقول إن الشاب المسكين سقط مريضًا بعد شربه زجاجة الخمر ببضع لحظات، وأخذ يتقيأ دمًا، ونُقل إلى المستشفى مغشيًّا عليه. وبلغ صدره من التمزق أن سُلًا أصابه ثم أودى بحياته بعد بضعة أشهر. ولم يعرف الأطباء الذين تولوا علاجه سبب مرضه أبدًا.

وإذا لم تكن الأمثلة على الجبن نادرة بين السجناء، فيجب أن نضيف أننا نقع عندهم على أفراد يملكون بسالة مذهلة. إنني أتذكر ألوانًا من الشجاعة وصلت إلى حد فقدان الإحساس، وما يزال مشهد وصول أحد قطاع الطرق إلى المستشفى محفورًا في ذاكرتي إلى الآن. ففي ذات يوم جميل من أيام الصيف، انتشرت في مستشفانا شائعة تقول إن قاطع الطرق الشهير أورلوف سيجلد في مساء ذلك اليوم نفسه، وأنه سينقل بعدئذٍ إلى المستشفى. وقال السجناء الذين كانوا في المستشفى إن تنفيذ العقوبة سيبلغ غاية القسوة، لذلك كان جميع السجناء في المستشفى مضطربين. وإني لأعترف بأنني كنت أنا نفسي أنتظر بكثير من حب الإطلاع أن يصل إلى المستشفى هذا الرجل الذي كانت تُروى عنه حكايات رهيبة. إنه مجرم قل مثيله بين المجرمين، قادر على أن يقتل شيوخًا وأطفالًا دون أن يهتز فيه عرق، ودون أن يشعر بأي انفعال. وكان يملك إرادة جبارة لا يمكن ترويضها ولا يمكن السيطرة عليها، وكانت نفسه تفيض زهوًا وكبرياء من شعوره بقوته. ولما كان قد اقترف جرائم عدة فقد حكم بالجلد. وجاءوا به أو قل حملوه في المساء. كانت القاعة غارقة في الظلام، وقد أخذ السجناء يشعلون شموعًا. كان أورلوف شاحبًا شحوبًا خارقًا، يكاد يكون فاقد الوعي مغشيًّا عليه؛ إن شعره كثيف مضفور، أسود على غير لمعان. وكان ظهره متشققًا متورمًا أزرق اللون تغطيه بقع من الدم. وظل السجناء يعتنون به طوال الليل، يغيرون له الكمادات، ويرقدونه على جنبه، ويحضرون له المرهم الذي أمر به الطبيب، واهتموا به وعطفوا عليه كما يهتم المرء بقريب له، وكما يعطف على محسن إليه.

واسترد الرجل حواسه كاملةً في الغداة، فطاف بالقاعة مرة أو مرتين. فأدهشني ذلك كثيرًا، لأنه كان مُهدَّمًا مُحطَّم القوى حين جيء به إلى المستشفى. لقد جلدوه نصف عدد الجلدات التي حدَّدها القرار. ولكن الطبيب أوقف الجلد لاقتناعه بأن أورلوف سيموت حتمًا إذا استمروا في جلده. وكان هذا المجرم ضعيف البنية قد هدّمه طول إقامته في السجن. إن من رأى سجناء حكم عليهم بالجلد، سيظل يتذكر وجوههم المزولة المهدودة،

ونظرتهم المحمومة المسعورة. وسرعان ما شفي أورلوف: لا شك أن طاقته الجبارة قد ساعدت جسمه على استرداد عافيته. إن أورلوف ليس بالشخص العادي. وتعرفت عليه حبًّا بالاطلاع، واستطعت أن أدرسه على مهل خلال أسبوع بكامله ما رأيت في حياته كلها رجلًا يضارعه قوة إرادة وصلابة شكيمة. كنت قد إلتقيتُ في توبولسك برجل مشهور من هذا النوع كان رئيس عصابة من قطاع الطرق. لقد كان ذلك الرجل وحشًا كاسرًا حقًّا، ما إن يلامسه المرء ملامسة، ولو دون أن يعرفه، حتى يوجس أنه رجل خطر. والأمر الذي أرعبني فيه خاصةً إنما هو غباؤه. إن المادة تبلغ فيه من غلبتها على الروح أن المرء ما يكاد يراه حتى يحس أن لا وجود لشيء عنده إلا إرضاء حاجاته الجسمية وإشباع شهواته الحيوانية... ومع ذلك فأنا مقتنع اقتناعًا تامًا بأن كورنيف (وهذا هو اسمه) كان لا بد أن يغمى عليه لو سمع صدور حكم يقضي بتعذيبه جسديًّا كالتعذيب الجسدي الشديد الذي أوقعوه في أورلوف، وكان لا بد أن يذبح عندئذٍ أول قادم دون أن يطرف جفنه. ولا كذلك أورلوف، فلقد كان انتصارًا رائعًا للروح على الجسم... كان يسيطر على نفسه سيطرة كاملة: كان لا يشعر نحو القصاص إلا بالاحتقار، ولا يخشى في العالم شيئًا على الإطلاق. إن الشيء البارز فيه هو هذه الطاقة التي ليس لها حدود، هو هذا الظمأ إلى الانتقام، هو هذا النشاط الذي لا يهدأ، والإرادة التي لا تتزعزع، حين يكون عليه أن يبلغ غاية من الغايات أو أن يحقق هدفًا من الأهداف. وقد أدهشني مظهره المتعالي المتغطرس، كان ينظر إلى الناس من علٍ، لا اصطناعًا للمهابة والوقار، فلقد كان العجب والكبر فطرة فيه. وما أحسب أن أحدًا قد أثر فيه أي تأثير في يوم من الأيام. إنه ينظر إلى كل شيء نظرة لا تبالي، فلا شيء في هذا العالم يمكن أن يثير دهشته أو يوقظ استغرابه. وكان يعلم حق العلم أن السجناء الآخرين يحترمونه، ولكنه لا يستغل ذلك لاصطناع الوجاهة وإظهار الاستعلاء. على أن حب الظهور والزهو بالنفس آفتان لا يخلو منهما سجين. وكان ذكيًّا وكانت صراحته العجيبة ليست من الثرثرة واللغو في شيء. لقد أجاب عن جميع الأسئلة التي ألقيتها عليه، بغير لفٍ ولا دوران: فاعترف لي بأنه ينتظر شفاءه بصبر فارغ، حتى ينتهي من باقي العقوبة التي صدر الحكم بإنزالها فيه. قال لي غامزًا: (عندئذٍ ينتهي الأمر: أنال باقي العقوبة ثم أُرحَّل إلى فرتشنسك مع قافلة من السجناء... وسأنتهز هذه الفرصة فأهرب... نعم سوف أفر، ما في ذلك شك! ولكن... ليت جروح ظهري تبرأ بمزيد من السرعة!). وظل خلال خمسة أيام يتحرق شوقًا إلى تحسن حاله بحيث يستطيع مغادرة المستشفى. وكان في بعض الأحيان مرحًا رائق المزاج. فكنت أستغل لحظات صفائه هذه لأسأله عن مغامراته. فكان يُقطب حاجبيه قليلًا، ولكنه يجيب على أسئلتي دائمًا بصدق وإخلاص. فلما أدرك أنني أحاول أن أنفذ إلى أعماقه وأن أجد في نفسه بعض آثار ندامة، ألقى عِليَّ نظرة استعلاء واحتقار، كما لو كنت طفلًا غبيًّا بعض الغباء يشرفه

كثيرًا أن يرضى التحدث معه؛ ولمحت في وجهه نوعًا من الإشفاق عليَّ، والرأفة بي. وما هي إلا لحظة قصيرة حتى انفجر يقهقه ملء حنجرته، دون أي استهزاء أو سخر. ويُخيَّل إليَّ أنه لا بد قد ضحك بعد ذلك غير مرة حين كان يتذكر كلماتي. وأخيرًا سجل اسمه بين الراغبين في الخروج من المستشفى، رغم أن جروح ظهره لم تندب بعد تندبًا كاملًا. ولما كنت قد شفيت من مرضي فقد غادرنا المستشفى معًا في يوم واحد. أما أنا فعدت إلى السجن، وأما هو فأعيد إلى المحل الذي كان مسجونًا فيه من قبل. فلما تركني صافحني مصافحة قوية، وكان ذلك في نظره دليلًا على حسن الثقة؛ وأحسب أنه إنما فعل ذلك لأنه كان في تلك اللحظة رائق المزاج مغتبط النفس. فالحق أنه كان يحتقرني ولا شك، لأنني إنسان ضعيف يستحق الشفقة والرثاء من جميع النواحي، إنسان أذعن لقدره ورضخ للمصير الذي كُتب له. وفي الغداة أنزلوا فيه النصف الثاني من العقوبة.

حين أُقفلت علينا أبواب ثكنتنا اتخذت على الفور طابعًا آخر مختلفًا عن طابعها الأول كل الاختلاف، إذ أصبحت مسكنًا حقيقيًّا، ومنزلًا آهلًا بسكانه. وعندئذٍ فقط إنما رأيت رفاقي السجناء كأنهم في بيوتهم حقًّا. ذلك أن ضباط الصف أو غيرهم من المشرفين على السجن كان يمكن أن يباغتوا السجناء أثناء النهار في كل لحظة؛ لذلك يكون السجناء أثناء النهار على شيء من القلق، لا يشعرون بالاطمئنان كاملًا. حتى إذا أغلقت الأبواب وأُقفلت بالأقفال، جلس كل سجين من السجناء في مكانه، وأخذ يعمل... وقد أُضيئت الثكنة عندئذٍ إضاءةً لم تكن في حسباني، فلقد كان لكل سجين شمعة وشمعدان من خشب؛ فهؤلاء يأخذون يرتقون بعض الأحذية، وأولئك يأخذون يخيطون بعض الثياب، وهكذا دواليك...

ويفسد الهواء مزيدًا من الفساد... ها هم أولاء بعض السجناء قد أقعوا في ركن من الأركان يلعبون بالورق على بساط ممدود. إن في كل ثكنة من الثكنات سجينًا يملك بساطًا طوله ثمانون سنتيمترًا، وشمعة كبيرة ومجموعة من ورق اللعب يتقاضى من المقامرين خمسة عشر كوبكًا عن كل ليلة، فتلك تجارته التي يمارسها. وكان المقامرون يلعبون في العادة لعبة (الورقات الثلاث)، لعبة (الجوركا)، وهي من ألعاب الحظ. إن كل سجين يضع أمامه كدسة من قطع النقد النحاسية، هي ثروته كلها، ولا ينهض عن اللعب إلا بعد أن يخسرها أو يربح كل ما يملكه رفاقه الباقون... واللعب يستمر إلى ساعة متأخرة من الليل، حتى لقد يطلع الفجر قبل أن يفرغ أصحابنا من المقامرة، وكثيرًا ما لا ينقطعون عن اللعب إلا قبل فتح أبواب الثكنة بدقائق معدودات.

وكان في ثكنتنا - كما كان في سائر الثكنات - شحاذون فقدوا كل ما يملكون في القمار أو في الشراب؛ أو قل كان هنالك شحاذون (فُطروا) على الشحاذة. أقول (فُطروا)، وأعني ذلك. ذلك أنه يوجد بين أبناء شعبنا وسيظل يوجد بينهم مهما تكن الظروف عدد من تلك الشخصيات العجيبة المسالمة

التي قد لا تكون كسولة في كثير من الأحيان، ولكن القدر فرض عليها أن يكون مصيرها مصير الشحاذين دائمًا. إن هؤلاء الشحاذين أناس شاذون يظلون طوال حياتهم متبلدين مأخوذين مرهقين، يخضعون لسلطان أحد من الناس، ويبقون تحت وصايته، ولا سيما أولئك الذين وصلوا إلى شيء من الاغتناء. إن كل جهد هو عبء على هؤلاء الشحاذين، وكل مبادرة حمل تنوء به أكتافهم. إنهم لا يحيون إلا شريطة أن لا يبادروا إلى القيام بعمل من الأعمال من تلقاء أنفسهم، ولكنهم يخدمون دائمًا، ويعيشون دائمًا في ظل إرادة شخص. لقد يُسِّروا لأن يعملوا بغيرهم ولغيرهم. وما من ظرف من الظروف يمكن أن يغنيهم، حتى ولو كان ظرفًا طارئًا ليس في الحسبان... فهم يظلون شحاذين... لقد إلتقيتُ بأناس من هذا النوع في جميع طبقات المجتمع، وفي جميع الفئات، وفي جميع الهيئات، وحتى في عالم الأدب. وأنت تجدهم في كل سجن، وفي كل ثكنة...

فمتى تشكلت حلقة القمار نودي أحد هؤلاء الشحاذين الذين لا غنى عنهم للمقامرين؛ إنه يتلقى خمسة كوبكات فضة عن عمل ليلة بكاملها.. ويا له من عمل!... إن عمله هو أن يحرس الدهليز في جو بارد تبلغ درجة برودته 30 ريثامور، وفي ظلام دامس خلا ست ساعات أو سبع. فإذا سمع هذا المتربص أيسر ضجة أو أقل صوت، لأن الضابط الميجر أو ضابط الحرس يقومون بجولاتهم التفتيشية في ساعة متأخرة من الليل أحيانًا، بخطوات كخطوات اللصوص، فيداهمون اللاعبين والعاملين وينقضون عليهم متلبسين بالجرم المشهود، وذلك بفضل رؤيتهم ضوء الشموع الذي تمكن رؤيته من الفناء، أسرع ينبه المقامرين، ذلك أنه حين يُسمع صرير المفتاح في قفل الباب، لا يتسع الوقت للاختباء وإطفاء الشموع والاستلقاء على المضاجع. وتلك مداهمات نادرة جدًّا على كل حال، والأجر الذي يتقاضاه الشحاذ خمس كوبكات، أجر تافه حتى في سجننا... ومع ذلك ترى المقامرين يتشددون مع من يعينونه لهذا النوع من الحراسة، ويقسون في معاملته أشد القسوة، وذلك أمر أدهشني، كما أدهشتني أمور أخرى كثيرة على كل حال.. إنهم يقولون له: (لقد نقدناك أجرك، فعليك أن تخدمنا!). وتلك حجة لا تحتمل جوابًا ولا ردًا.. يكفي أن تنقد أحد الناس بضعة دريهمات حتى تستفيد منه وتستغله إلى أقصى درجة من درجات الاستفادة والاستغلال؛ بل يكفي أن تنقده هذه الدريهمات القليلة حتى يكون من حقك عليه أن يعرب لك عن مشاعر الشكر والامتنان. حتى لقد رأيت بعض السجناء ينفقون بلا حساب، ويبددون المال يمنة ويسرة، ثم هم يغشون الشخص الذي (يخدمهم). رأيت ذلك بعيني غير مرة في أكثر من سجن.

سبق أن قلت إن جميع الناس يأخذون يعملون، باستثناء الذين يتحلقون للمقامرة. وكان هنالك خمسة سجناء لا يعملون شيئًا، فما تكاد أبواب السجن تغلق حتى يرقدوا على الفور. وكان مكاني على ألواح الخشب قريبًا من

الباب، وبعده يأتي مكان آكيم أكميتش... فإذا رقدنا تلامس رأسانا. ظل أكيم يعمل حتى الساعة العاشرة أو الحادية عشرة في إلصاق مصباح صيني متعدد الألوان كان قد عهد إليه بصنعه أحد سكان المدينة، وكان سيتقاضى ثمنه مبلغًا كبيرًا. إن أكيم بارع براعة فذة في هذا العمل، فهو يتبع في عمله نظامًا دقيقًا وطريقة ممتازة بلا كسل ولا تراخ ولا إهمال. فلما فرغ منه جمع أوراقه بعناية، وبسط فراشه، وقرأ صلاته، و نام نومًا عميقًا. إن أكيم يبالغ في التقيد بأدق تفاصيل النظام تقيدًا يبلغ حد الحذلقة... ولا شك أنه كان في قرارة نفسه يعد نفسه إنسانًا ذكيًّا، كسائر ذوي العقول المتوسطة المحدودة. إنه لم يعجبني في أول الأمر، رغم أنه حملني على أن أفكر كثيرًا في ذلك اليوم. لقد أدهشني أن يوجد رجل كهذا الرجل في سجن الأشغال الشاقة، بدلًا من أن يكون خارج السجن متفوقًا في صناعة من الصناعات. وسأتحدث عن أكيم أكيمتش غير مرة، في ما سيلي من هذه القصة.

ولكن يجب عليَّ أن أصف أشخاص ثكنتنا. لقد كُتب عليَّ أن أعيش في هذه الثكنة عددًا من السنين، فهؤلاء الذين يحيطون بي لا بد أن يكونوا رفاق كل دقيقة من دقائق حياتي. وطبيعي أنني كنت أنظر إليهم بكثير من حب الإطلاع!

كانت تبيت على يميني عصبة من سكان جبال القفقاس قد نفي جميع أفرادها تقريبًا لأنهم كانوا من قطاع الطرق، وحكم عليهم بعقوبات متفاوتة كان منهم اثنان من أهل لزخين، وشركسي واحد، وثلاثة من تتر داغستان. أما الشركسي فهو رجل عابس الوجه مقطب الأسارير لا يكاد يتكلم أبدًا، وهو يختلس إليك النظر اختلاسًا ويبتسم ابتسامة وحش مفترس. وأما اللزخينيان فأحدهما شيخ مستقيم الأنف طويل القامة نحيل الجسم، تدرك من أول وهلة أنه من قطاع الطرق؛ ولا كذلك الثاني، واسمه نورا، فقد شعرت نحوه شعورًا طيبًا، وأحسست بارتياح إليه. إنه مربوع القد، ما يزال شابًا، قوي البنية، أشقر الشعر، أزرق العينين، معقوف الأنف قليلًا، تشبه قسماته أن تكون قسمات فنلندي... وكانت ساقاه مقوستين كجميع من عاشوا على ظهور الخيل. وكان جسمه ممتلئًا بالندوب، محروثًا بضربات الحراب أو طلقات الرصاص. لقد انضم هذا الرجل إلى العصاة رغم أنه من رجال الجبال الخاضعين، وقام مع هؤلاء العصاة بعدد من الغارات المتصلة على أراضينا. كان جميع من في السجن يحبه بسبب مرح طبعه وبشاشة وجهه. وكان يعمل بغير دمدمة أو تذمر، هادئًا مسالمًا بغير انقطاع. وكان يشمئز من السرقة والفسق والاحتيال والسكر، بل كان يغضب من هذه الأعمال غضبًا شديدًا، ولا يطيق أن يحتمل أي أمر معيب مشين منافٍ للشرف والكرامة. ولكنه لا يحاول أن يشاجر أحدًا، بل يكتفي بإشاحة وجهه مستنكرًا مستاءً. لم يقترف خلال إقامته سرقة ولا أتى أي عمل يمكن أن يؤخذ عليه. وكان شديد التقوى كثير العبادة، فهو يؤدي صلاته كل مساء، ويصوم شهر رمضان، ويتمسك بدينه الإسلامي، وكثيرًا ما كان يقضي الليل ِكله متهجدًا. كان جميع من في السجن يحبونه ويرون أنه

إنسان شريف حقًّا... كان السجناء يلقبونه (نورا الأسد)، وقد بقي له هذا اللقب. وكان مقتنعًا اقتناعًا قويًّا بأنه سيرسل إلى القفقاس متى أنهى مدة سجنه، فكان في الواقع لا يعيش إلا على هذا الأمل، ويقيني أنه لو حرم من هذا الأمل لمات. لقد لاحظته يوم وصولي إلى السجن. وكيف كان يمكن أن لا أميِّز هذا الوجه الهادئ النبيل الشريف وسط تلك الوجوه القاتمة الكتيبة العابسة المنفِّرة! لقد مرَّ إلى جانبي في نصف الساعة الأول، فربت على كتفي برفق ولطف وهو يبتسم لي إبتسامة عذبة طيبة. فلم أفهم في أول الأمر ما كان يريد أن يقوله لي، لأنه كان لا يحسن الكلام بالروسية. ولكنه لم يلبث أن عاد يمر قربي من جديد، ويربت على كتفي مرة أخرى وهو يبتسم إبتسامة المودة والصداقة تلك. وظل يكرر هذه الحركة ثلاثة أيام. لقد كان يريد أن يشير، كما أدركت ذلك فيما بعد، إلى أنه يشفق عليَّ ويرثي لحالي، ويدرك مدى ما أعانيه من آلام في هذه اللحظات الأولى من إقامتي بالسجن كان يريد أن يبرهن لي على مودته وصداقته، وأن يقوي عزيمتي ويشد أزري ويؤكد حمايته ورعايته لي. ما كان أطيب نورا، وما كان أعظم سذاجته!

وأما تتر داغستان الثلاثة، فقد كانوا إخوة الكبيران منهم كهلان، والثالث شاب اسمه علي، لا يتجاوز الثانية والعشرين من عمره، بل إن المرء حين يراه يقدر أن عمره أقل من ذلك. كان يبيت إلى جانبي. وقد اجتذبني وجهه الذكي الصريح الطيب الساذج منذ البداية. وشكرت للقدر أنه وهب لي هذا الجار بدلًا من أن يرميني إلى جانب سجين آخر. إن نفسه كلها تُقرأ على صفحة وجهه المفتوح. وفي ابتسامته الوادعة الهادئة المطمئنة بساطة كبساطة الأطفال. وإن في عينيه الواسعتين السوداوين من الرقة والعذوبة والحنان ما كان يجعلني أشعر بلذة كبيرة حين أراه، فكان ذلك يخفف عني ويسري في لحظات الحزن والهم والقلق والغم. لقد أمره أخوه الأكبر (وله خمسة إخوة كان اثنان منهما في مناجم سيبيريا) أمره في ذات يوم أن يحمل سيفه وأن يمتطي جواده وأن يتبعه. إن إحترام الجبليين لإخوتهم الكبار يبلغ من القوة أن الفتى عليًا لم يجرؤ أن يسأل أخاه عن الدافع إلى هذه الرحلة، ولعله لم تدر في خلده أية فكرة عنها؛ لا ولا رأى إخوته أن من الضروري أن يطلعوه على شيء. هكذا مضى الإخوة الثلاثة يقطعون الطريق على قافلة تاجر أرمني ثري استطاعوا أن يضللوه، فقتلوا التاجر ونهبوا بضاعته. وشاء سوء حظهم أن تكتشف فعلتهم وأن يفضح أمرهم، فاعتقل الإخوة الستة، وحُكم عليهم، وجُلدوا، ثم أرسلوا إلى سجون الأشغال الشاقة في سيبيريا. ولم تعمد المحكمة إلى تخفيف الحكم إلا عن الفتى علي، فحكم بالسجن مدة هي أقصر مدة: أربع سنين سجنًا. وكان أخواه يحبانه كثيرًا، حتى يمكن أن يوصف حبهما له بأنه حب أبوي أكثر مما هو حب أخوي. وكان عزاءهم الوحيد في المنفى. فكانا يبتسمان له دائمًا، رغم أنهما في العادة عابسان مقطبان حزينانِ. فإذا تحدثا إليه - وكان لا يحدث ذلك إلا نادرًا لأنهما يعدانه طفلًا لا

يمكن أن يفضيا إليه بشيء ذي بال - كان وجهاهما العابسان المكفهران يضيئان، وأدركت أنهما لا يكلمانه إلا كما يُكلّم طفل صغير؛ حتى إذا أجابهما تبادلا نظرات سريعة وابتسما إبتسامة طيبة. وما كان له أن يتوجه إليهما بكلام من فرط ما يكن لهما من إحترام. ولعمري لست أدري كيف استطاع هذا الفتى أن يحتفظ بقلبه الحنون الرقيق، وبشرفه الفطري البريء، وبمودته الصريحة السخية، دون أن تفسد أخلاقه طوال هذه المدة التي قضاها في سجن الأشغال الشاقة.. إن ذلك لأمر لا تفسير له ولا تعليل... ورغم كل ما كان يتصف به من رقة وعذوبة ولين، فقد كان قوي الإرادة شديد البأس في تحمل المكاره، كما استطعت أن أتحقق من ذلك فيما بعد، وكان على عفة وخفر كالعذارى، وكان كل فعل سيء أو مستهتر أو معيب أو ظالم يلهب عينيه السوداوين استياءً واستنكارًا، فيزيدهما ذلك جمالًا. وعلى أنه ليس من أولئك الذين يتهاونون في حق كرامتهم أو يسمحون لأحد أن يهينهم أو يسيء إليهم، فقد كان يتحاشى التشاجر ويتجنب الشتائم، ويعف عن السب واللعن، ويحافظ على وقاره و مهابته وكرامته. وليت شعري مع من كان يمكن أن يشتجر؟ لقد كان الجميع يحبونه ويلاطفونه ويدارونه... ولم يكن في أول الأمر معي إلا مهذبًا مؤدبًا لطيفًا، ولكننا وصلنا من ذلك إلى أن أخذنا نتجاذب أطراف الحديث في المساء. لقد استطاع خلال بضعة أشهر أن يُحسن الكلام باللغة الروسية، على حين أن أخويه لم يتوصلا يومًا إلى إجادة الكلام بهذه اللغة. لقد رأيتُ فيه فتى خارق الذكاء من جهة، وجم التواضع مرهف الشعور عاقلًا حكيمًا من جهة أخرى. لقد كان الشاب علي إنسانًا نادر المثال. وما زلت أعد لقائي به حظًا من أجمل حظوظ حياتي. إن هناك أناسًا يبلغون من جمال الطبائع من تلقاء أنفسهم، ويبلغ ما وهب لهم اللّه من مزايا عظيمة أن المرء لا يتصور أن يفسدوا في يوم من الأيام... فهو مطمئن عليهم كل الاطمئنان واثق منهم كل الثقة، لذلك لم أكن أخشى على الفتى علي من شيء... ترى أين هو الآن؟

في ذات يوم، بعد وصولي إلى السجن بمدة طويلة، كنت مستلقيًّا على مضجعي وكانت تهزني وتبث الإضطراب في نفسي خواطر شاقة أليمة. وكان علي الذي لا يكف عن العمل والنشاط، لا يعمل في تلك اللحظة، ولم يكن أوان النوم قد آن. كان الإخوة الثلاثة يحتفلون بعيد إسلامي، فهم لذلك لا يعملون. إن عليًا راقد الآن، ممسك رأسه بيديه، مسترسل في أحلامه. وها هو ذا يسألني فجأة:

- هه! يبدو عليك أنك حزين جدًّا الآن؟

نظرت إليه متعجبًا. لقد بدا لي هذا السؤال من علي غريبًا. ذلك أن عليًا لبق دائمًا، يتحاشى أن يحرج أحدًا، ولكنني أنعمت النظر إليه فلاحظت في وجهه حزنًا شديدًا وعذابًا عميقًا. لا شك أن هذا الألم إنما أيقظته في نفسه الذكريات التي كانت تطوف بخياله. وأدركت أنه كان هو نفسه في تلك

اللحظة يعاني كربًا شديدًا وكَمَدًا عظيمًا. ذكرت له ذلك فتنهد تنهدًا عميقًا وابتسم إبتسامة كئيبة. كنت أحب دائمًا ابتسامته اللطيفة الودود: كان إذا ابتسم يفتر ثغره عن صفين من الأسنان يمكن أن يحسده عليهما أجمل مخلوق في العالم.
قلت له:
- لعلك كنت تتذكر يا علي كيف يحتفلون بهذا العيد في داغستان لا شك أن الإحتفال بالعيد رائع هناك...
قال علي متحمسًا وقد سطعت عيناه:
- نعم هو كذلك ولكن كيف عرفت أنني كنت أحلم بهذا؟
- كيف لا أدرك ذلك يا علي؟ أليس العيد هناك أجمل من هنا؟
- أوه! لماذا تقول لي هذا الكلام؟
- لا شك أن في بلادكم أزهارًا جميلة، أليس كذلك يا علي؟ إن بلاكم جنة!
- اسكت اسكت أرجوك.
كان واضحًا أنه انفعل انفعالًا شديدًا.
قلت له:
- اسمع يا علي، هل لك أخت؟
- نعم ولكن لماذا تسألني هذا السؤال؟
- لا بد أنها بارعة الجمال إذا كانت تشبهك!
- لا مجال للمقارنة بيني وبينها. ليس في داغستان كلها فتاة جميلة كجمالها. ما أجمل أختي! أنا واثق أنك لم ترَ فتاة في مثل حسنها. ولقد كانت أمي جميلة جدًّا كذلك.
- هل كانت أمك تحبك؟
- ما هذا السؤال؟ لعلها قد ماتت حزنًا وكربًا وكمدًا. لقد كانت تحبني كثيرًا. كنت أنا الأثير على نفسها. نعم... كانت تحبني أكثر من أختي، وأكثر من سائر إخوتي... لقد جاءت إليَّ في الحلم هذه الليلة وذرفت على رأسي دموعًا سخية.
قال عليٌّ ذلك وصمت ثم لم يفتح فمه بكلمة واحدة طوال السهرة، لكنه أصبح منذ تلك اللحظة يسعى إلى مصاحبتي ويحرص على التحدث معي رغم أنه لم يسمح لنفسه يومًا أن يكون هو البادئ في الكلام، وذلك من باب الأدب والاحترام فما كان أسعده حين أتحدث معه! كان يتكلم كثيرًا عن القفقاس، وعن حياته الماضية، وكان أخواه لا يمنعانه من الكلام معي بل أظن أن ذلك كان يسرهما فحين رأيا أنني أعطف على عليٍّ وأحبه أصبحا أكثر توددًا إلي وتقربًا مني.
وكثيرًا ما كان علي يساعدني في الأعمال. وكان في الثكنة يفعل كل ما يظن أنه يسرني ويخفف عني ويحمل بعض العزاء إلى قلبي، ولم يكن في عنايته بي وإلتفاته إليَّ، لا شيء من عبودية ولا أمل في منفعة، بل عاطفة حارة

ودود لا يخفيها قَطّ. وكان علي يملك استعدادًا خارقًا لتعلم الفنون الميكانيكية: لقد تعلم الخياطة وتعلم ترقيع الأحذية، حتى لقد ألمَّ بفن النجارة بعض الإلمام... ذلك ما كان يمكن تعلمه في السجن... وكان أخواه يعتزان به.
قلت له ذات يوم:
- اسمع يا علي: لماذا لا تتعلم القراءة والكتابة باللغة الروسية؟ إن ذلك قد يفيدك كثيرًا في سيبيريا في المستقبل.
- أتمنى! ولكن من ذا الذي يعلمني!
- إن من يعرفون القراءة والكتابة كُثُر هنا، وإذا شئت علمتك أنا.
- أوه علمني القراءة أرجوك.
بهذا هتف علي وهو ينهض ويضم يديه أحديهما إلى الأخرى وينظر إليَّ نظرة توسل وتضرع.
وشرعنا نعمل في مساء اليوم التالي. كان عندي ترجمة روسية للإنجيل، وهو الكتاب الوحيد الذي لم يكن محرَّمًا في السجن. فبواسطة هذا الكتاب وحده وبدون تعلم الألفباء أتقن علي القراءة في غضون أسابيع وما إنقضت ثلاثة أشهر حتى كان يفهم لغة الكتابة فهمًا كاملًا لأنه كان يكب على الدراسة بحماسة قوية ونشاط متأجج. وفي ذات يوم قرأنا معًا موعظة الجبل كاملة، فلاحظت أنه كان يقرأ بعض الآيات بنبرة نافذة ولهجة مؤثرة، فسألته هل أعجبه ما قرأ فرمقني بنظرة ثاقبة واشتعل وجهه بحمرة مفاجئة.
قال: نعم إن عيسى نبي ينطق بلسان اللّه. ما أجمل هذا الكلام!
- ولكن قل لي: ما الذي أعجبك أكثر من غيره؟
- الآية التي تقول: (اغفروا لأعدائكم أحبوا أعداءكم! لا تسيئوا إلى أحد قط). آه ما أجمل كلامه!
وإلتفتَ عليٌّ إلى أخويه اللذين كانا يصغيان إلى حديثنا وقال لهما بضع كلمات في حرارة وحماسة، وتحدث الإخوة الثلاثة طويلًا في جد واهتمام، فكان أخواه يؤيدان كلامه بهز الرأس في بعض الأحيان، ثم أكدا لي وهما يبتسمان إبتسامة مهيبة لطيفة، إبتسامة مسلمة (ما أكثر ما أحب مهابة هذه الابتسامة) أكدا لي أن عيسى نبي عظيم وذكرا أنه حقق معجزات كبرى منها أنه خلق طائرًا من طين ثم نفخ في الطائر روحًا فطار الطائر. كانا مقتنعين بأنهما يحدثان لي سرورًا عظيمًا حين يمدحان عيسى. أما علي فقد أسعده كثيرًا أن يرى أخويه يؤيدان كلامي ويهبان لي ما كان يعده رضى وارتياحًا في نفسي. إن النجاح الذي أصبته مع تلميذي في تعليمه القراءة كان نجاحًا رائعًا حقًّا. وقد اشترى علي ورقًا وأقلامًا وحبرًا (اشترى ذلك من ماله لأنه لم يشأ أن أنفق أنا هذه النفقة) فما انقضى شهران إلا وكان علي قد تعلم الكتابة. ودهش الأخوان أشد الدهشة من هذا التقدم السريع الذي أحرزه علي، وشعرا بزهو ورضى وارتياح بغير حدود، حتى أصبحا لا يعرفان كيف يعربان لي عن عظيم شكرهما وعميق امتنانهما، حتى إذا كنا نعمل في الورشة كانا يتنافسان في مساعدتي

ويشعران من ذلك بلذة كبيرة. ناهيك عن علي الذي كان يكن لي عاطفة لا تقل عمقًا عن عاطفته نحو أخويه. لن أنسى ما حييت اليوم الذي أُطلق فيه سراحه. لقد قادني يومئذٍ إلى خارج الثكنة فارتمى على عنقي وأجهش باكيًّا. لم يكن قد قبلني قبل ذلك يومًا ولا بكى أمامي أبدًا.
قال:
- لقد صنعت في سبيلي أشياء كثيرة، أشياء كثيرة جدًّا، فلا أبي ولا أمي كانا خيرًا منك في معاملتي: لقد خلقت مني رجلًا، فليباركك اللّه، ولن أنساك مدى الحياة، مدى الحياة...
تُرى أين هو الآن؟ أين هو صديقي الطيب العزيز علي؟ وكان في ثكنتنا، عدا الشراكسة، عدد من البولنديين يشكلون عصبة على حدة، ولا يكاد يكون بينهم وبين سائر السجناء صلة. سبق أن قلت إنهم بسبب تعصبهم وبسبب ما يضمرونه من بغض للسجناء الروس، كانوا مكروهين منبوذين. إنهم أناس ذوو طبائع مضطربة معذبة مريضة. وكان عددهم ستة، اثنان منهم متعلمان سأتحدث عنهما تفصيلًا فيما سيأتي من هذه القصة، ومن هذين إنما استعرت بضعة كتب في الفترة الأخيرة من إقامتي بالسجن. لقد أحدث أول كتاب قرأته من هذه الكتب أثرًا غريبًا عميقًا في نفسي... وسأتحدث فيما بعد عن هذه الإحساسات التي أعدها عجيبة جدًّا ولكن القارئ سيجد شيئًا من العناء في فهمها، أنا من ذلك على يقين، لأن هناك أشياء لا يستطيع المرء أن يقضي فيها ما لم يُكابدها بنفسه. وحسبي أن أقول إن الحرمان من متع الفكر أشق على النفس من أقسى الآلام الجسدية. إن من يرسل إلى السجن من عامة الناس يجد نفسه في مجتمعه، بل لعله يجد نفسه في مجتمع أرقى، فلئن افتقد عندئذٍ الركن الذي ولد فيه، والأسرة التي نشأ وترعرع بين أحضانها، فإن بيئته تظل هي نفسها. أما الرجل المثقف الذي حكم عليه القانون بالعقوبة نفسها التي يحكم بها على رجل من عامة الناس فإنه يتألم ألمًا لا يُقاس به الألم الذي يعانيه ذلك الرجل. إن عليه أن يخنق جميع حاجاته وأن يقضي على جميع عاداته وأن يهبط إلى مستوى أدنى لا يُرضيه، وأن يتعود استنشاق هواء آخر. إنه أشبه بسمكة أُلقيت على الرمل. فالعقوبة التي يتلقاها، وهي تساوي بحكم القانون عقوبات جميع المجرمين، تحدث له في كثير من الأحيان من الألم الممض والعذاب الكاوي عشرة أضعاف ما يعانيه من ذلك ابن العامة. تلك حقيقة لا جدال فيها، ولو اقتصر الكلام على العادات المادية التي ينبغي له أن يضحي بها.
غير أن هؤلاء البولنديين كانوا يشكلون عصبة على حدة، ويعيشون معًا، ولا يحبون من بين جميع السجناء في ثكنتنا إلا سجينًا يهوديًّا، وإذا كانوا يحبونه، فلأنه كان يسليهم ويُضحكهم ويسري عنهم. وكان هذا اليهودي محبوبًا على وجه العموم رغم أن جميع السجناء يسخرون منه ويتهكمون عليه. ولم يكن بيننا يهودي غيره. وما زلت لا أستطيع حتى الآن أن أتذكره من دون أن

أضحك. كنت كلما نظرت إليه تذكرت اليهودي يانكل الذي وصفه جوجول في قصته تاراس بولبا والذي متى خلع ملابسه ليضاجع يهوديته في ما يشبه الخزانة، كان أقرب ما يكون إلى فرخ دجاجة. حقًّا إن بين أشعيا فومتش وبين فرخ الدجاجة المنتوف الريش من الشبه ما بين قطرتي ماء. إنه متقدم في السن قليلًا، فهو في نحو الخمسين من عمره قصير ضعيف ماكر على غباوة عظيمة، متبجح على جبن شديد. كان وجهه مليئًا بالغضون وكانت على جبينه وخديه ندبات الحرق التي نشأت عن وشمه. لم أستطع في يوم من الأيام أن أفهم كيف أمكن أن يحتمل هذا الرجل ستين جلدة بالسوط بعد الحكم عليه بتهمة ارتكابه جريمة القتل. كان يحمل في جيبه وصفة طبية وصفها له يهود آخرون بعد تنفيذ الوشم رأسًا. وكان المفروض في المرهم الذي تضمه هذه الوصفة أن يزيل الندبات في أقل من أسبوعين ولكن أشعيا فومتش لم يجرؤ أن يستعمل مرهمه الشافي بعد أن يستوطن في المنطقة. كان يقول لي: (لن أستطيع أن أتزوز (أتزوج) ما لم أستعمل هذا المرهم، ولا بد لي أن أتزوز قطعًا)، كنا صديقين. إن مزاجه الرائق لا ينضب له معين، وإن الحياة في السجن لا تبدو له شاقة كثيرًا، وكانت مهنته الصياغة فما أكثر الطلبات التي ترد إليه، إذ لم يكن في مدينتنا صائغ غيره. فبذلك كان ينجو من الأعمال الصعبة. وكما يليق بيهودي كان يقرض السجناء بالربا فيجني منهم فوائد طائلة، وكان لا يقرضهم إلا إذا أودعوه رهنًا، وكانت مدة القرض أسبوعًا لا تزيد. وقد وصل إلى السجن قبلي فما كان أروع دخوله المظفر الذي رواه لي أحد البولنديين. تلك حكاية طويلة سأقصها فيما بعد لأن لي عودة إلى أشعيا فومتش.

أما السجناء الآخرون فكان منهم أولًا أربعة من المنشقين ينتمون إلى الملة التي ينتمي إليها العجوز القادم من ستارودوب، ثم اثنان أو ثلاثة من روسيا الصغرى وهم أناس عابسو الوجه متجهمو المزاج، ثم فتى مرهف الوجه دقيق الأنف في الثالثة والعشرين من عمره كان قد ارتكب ثماني جرائم قتل، ثم عصابة من مزيفي النقود كان أحد أفرادها مهرج ثكنتنا، وأخيرًا بضعة سجناء مكتئبة نفوسهم حزينة قلوبهم محلوقة رؤوسهم مشوهة وجوههم صامتون حاسدون ينظرون نظرة شزراء إلى كل من يحيطون بهم، وقد ظلوا ينظرون هذه النظرة ويحسدون هذا الحسد ويقطبون هذا التقطيب خلال سنين طويلة.

هذا كله إنما لمحته لمحًا في ذلك المساء الحزين الكئيب، مساء وصولي إلى سجن الأشغال الشاقة وسط دخان كثيف وهواء موبوء وشتائم بذيئة وسباب مقذع وإهانات مسمومة وضحكات ساخرة يصحبها صليل الأغلال وصريف القيود. استلقيت على ألواح الخشب العارية مسندًا رأسي إلى وسادة صنعتها من ردائي (لم أكن قد ملكت مخدة بعد) وإلتحفت معطفي. غير أنني بعد تلك المشاعر الأليمة في ذلك النهار الأول لم أستطع أن أنام فورًا. إن حياتي

الجديدة إنما تبدأ الآن. وكان المستقبل يدخر لي أشياء كثيرة لم تكن في حسباني ولا خطرت لي على بال...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

5

المشهد الأول

بعد وصولي بثلاثة أيام تلقيت الأمر بالمضي إلى العمل. إن الإحساس الذي بقي لي عن ذلك اليوم ما يزال واضحًا جدًّا، رغم أنه لا يشتمل على أي شيء خاص، إذا نظرنا بعين الإعتبار إلى أن وضعي كله غير عادي أصلًا. ولكنها الإحساسات الأولى: فكنت في تلك اللحظة أنظر إلى كل شيء بكثير من حب الإطلاع وكثير من التعجب. لا شك أن تلك الأيام كانت أشق أيام سجني. كنت أقول لنفسي: (انتهت أيام السفر. ها قد وصلت إلى المعتقل الذي سأقيم فيه سنين طويلة. في هذا الركن يجب أن أعيش. إنني أدخل إلى هذا المكان منقبض الصدر ملتاع النفس مفعمًا شكًا وحذراً). (ومن يدري؟ لعلني سأفارقه موجع القلب أسفًا عليه وحنينًا إليه، حين أفارقه). هذا ما كنت أضيفه، تدفعني إليه تلك اللذة الخبيثة التي تحض المرء على أن ينكأ جرحه، كأنه يستطيب الآلام ويستعذب العذاب. إن المرء ليجد لذة حادة في بعض الأحيان حين يشعر بضخامة الشقاء الذي يعانيه، وفداحة النازلة التي ألمت به؛ فحين كنت أتصور أنني قد أبارح هذا المكان، حين أبارحه، آسفًا حزينًا على فراقه، كان ذلك نفسه يرعبني ويملؤني خوفًا. وأوجست منذ تلك اللحظة أن (الإنسان حيوان يتعود)... وأن هذا التعريف يصدق على الإنسان إلى درجة لا يصدقها العقل... على أن ذلك كله هو من المستقبل، أما الحاضر الذي يحيط بي فلقد كان رهيبًا، وكان يناصبني العداء... أو هذا ما بدا لي على الأقل...

إن ما كان يرشقني به رفاقي السجناء من نظرات مستطلعة متوحشة، وما كانوا يعاملون به هذا (النبيل) السابق الذي يدخل الآن عضوًا في جماعتهم من معاملة قاسية تبلغ أحيانًا حد البغض والكره، كان يعذبني تعذيبًا شديدًا. حتى صرت أتمنى أنا نفسي أن أمضي إلى العمل، بغية أن أعرف مدى شقائي دفعة واحدة، وأن أعيش كما يعيش الآخرون، وأن أسقط في الهاوية معهم بأقصى سرعة. كانت تفوتني أمور كثيرة، وتستعصي على فهمي وقائع شتى كنت لا أستطيع مثلًا أن أميِّز بين العداوة الشاملة التي يظهرونها لي، وبين المودة والعاطفة التي يبدونها نحوي على أن ما أحاطني به بعض السجناء من تودد وبشاشة قد شد أزري وبث الشجاعة في نفسي وأنعش قلبي. كان أكثر هؤلاء تقربًا مني وتوددًا إليَّ وعطفًا عليَّ هو أكيم أكيمتش. وسرعان ما لاحظت أيضًا بضعة وجوه أخرى طيبة كريمة لطيفة محببة في ذلك الجمهور الكئيب المبغض من السجناء الآخرين أسرعت أقول لنفسي متأسيًّا: (إن في كل مكان أشرارًا، ولكن الأشرار أنفسهم يشتملون على خير! ومن يدري، فقد لا يكون هؤلاء الناس شرًا من الآخرين الذين هم طلقاء أحرار). قلت ذلك

لنفسي وأنا أهز رأسي متحيرًا!... ولم أكن أدري إلى أية درجة كنت على حق!...
انظروا إلى السجين سوشيلوف مثلًا: إنه رجل لم أعرفه حق معرفته إلا بعد مدة طويلة، رغم أنه يجاورني طوال الوقت تقريبًا. إنني متى تكلمت عن الذين ليسوا شرًا من الآخرين، ينصرف ذهني إليه على غير إرادة مني. كان سوشيلوف يخدمني، كما يخدمني سجين آخر اسمه أوزيب زكّاه لي أكيم أكميتش منذ دخولي السجن، وتعهد، لقاء كوبك في الشهر، بأن يطبخ لي غداءً خاصًا حين لا يرضيني الغداء الذي يقدمه السجن للسجناء عادةً، أو حين أكون قادرًا على أن أطعم بمالي. كان أوزيب واحدًا من الطباخين الأربعة الذين يختارهم السجناء بأنفسهم في المطبخين. يجب أن أذكر هنا مستطردًا أن الطباخين يمكن أن يقبلوا هذه الوظيفة أو أن يرفضوها، كما يمكن أن يتركوها متى حلا لهم أن يتركوها. كان الطباخون لا يذهبون إلى العمل، فمهمتهم تقتصر على خبز الخبز وإعداد الحساء. وكان السجناء يطلقون عليهم لقب "الطباخات"، لا احتقارًا لهم أو استخفافًا بهم، فإن أذكى السجناء وأشرفهم هم الذين كانوا يُختارون لهذه المهمة، وإنما كان يُطلق عليهم هذا اللقب من قبيل المزاح والدعابة، ولم يكن يُغضبهم هذا اللقب أبدًا. ولقد ظل أوزيب يُنتخب (طباخة) عدة سنين؛ فكان لا يترك هذه الوظيفة إلا حين يلم به ضجر شديد ويستولي عليه سأم كبير، أو حين يجد سبيلًا إلى القيام بعمل تهريب الخمرة إلى الثكنة. وهو، رغم أنه أُرسل إلى سجن الأشغال الشاقة بسبب التهريب، فقد كان على جانب عظيم نادر المثال من العفة والاستقامة والشرف وكان إلى ذلك جبانًا جبنًا رهيبًا، فهو يخشى جلد السياط في ما يُقبل عليه من أمر وما يهم به من عمل. وكان هادئ الطبع مسالمًا لطيفًا في معاملة جميع الناس، لا يتشاجر مع أحد يومًا. ولكنه ما كان ليستطيع بحال من الأحوال أن يقاوم الإغراء الذي يدفعه إلى القيام بأعمال تهريب الخمر، رغم كل ما يتصف به من جبن، لأنه يعشق التهريب عشقًا كبيرًا. فكان يتعاطى تجارة الخمر كسائر الطباخين... ولكن تجارته كانت أضيق كثيرًا من تجارة جازين، لأنه لا يجرؤ أن يجازف مرارًا وكثيرًا كما يجازف جازين. لقد كنت دائمًا على صلة طيبة بأوزيب.
ليس يحتاج المرء إلى أن يكون غنيًا جدًّا حتى يعد لنفسه طعامًا خاصًا: لقد كنت أنفق على طعامي روبلًا واحدًا في الشهر على وجه التقريب؛ ذلك طبعًا عدا الخبز الذي كان السجن يزودنا به؛ وكنت في بعض الأحيان آكل حساء الملفوف الذي يُقدم للسجناء، وذلك حين يستبد بي جوع شديد، رغم الاشمئزاز الشديد الذي كان هذا الحساء يوقظه في نفسي. على أن هذا الاشمئزاز قد زال زوالًا تامًا بعد ذلك. كنت أشتري في العادة رطلًا من اللحم في اليوم، فيكلفني ذلك كوبكين. إن الجنود المشوهين الذين كانوا يراقبون داخل الثكنات يقبلون طائعين مختارين أن يذهبوا إلى السوق كل يوم

يشترون للسجناء ما هم بحاجة إليه. وكانوا لا يتقاضون على ذلك أي أجر، اللهم إلا أن ينفحهم أحد مكافأة يسيرة زهيدة من حين إلى حين... كانوا يفعلون ذلك ضمانًا لراحتهم نفسها وهدوئهم نفسه، فلو رفضوا أن يقوموا بهذه المهمة لأصبحت حياتهم في السجن عذابًا متصلًا وجحيمًا لا يُطاق. كانوا يشترون للسجناء تبغًا وشايًّا ولحمًا، أي كل ما يريده السجناء عدا الخمرة، ولم يكن أحد يطلب منهم ذلك على كل حال...

ظل أوزيب عدة سنين يهيئ لي شريحة من اللحم المقلي كل يوم بدون تغيير... أما كيف كان يستطيع طهيها فذلك سره. وأغرب ما في الأمر أنني لم أبادله كلمتين طوال تلك المدة: لقد حاولت أن أتكلم معه غير مرة. ولكنه كان عاجزًا عن عقد أي حديث مع أي إنسان. فكان يكتفي بالإبتسام، وكان يقتصر من الجواب على (نعم) أو (لا) في كل ما يُلقى عليه من أسئلة. لقد كان شخصًا عجيبًا هذا الرجل الذي يملك جسمًا كجسم هرقل، وعقلًا كعقل طفل في السابعة من عمره.

وكان سوشيلوف أيضًا في عداد من يساعدونني. لم أندبه لذلك، ولا بحثت عنه، وإنما ارتبط بشخصي من تلقاء نفسه لا أدري متى. وكان العمل الأساسي الذي يقوم به من أجلي هو غسل ملابسي وتنظيفها. كان يوجد لهذا الغرض حوض في وسط الفناء يجتمع السجناء حوله فيغسلون ملابسهم في أجران تملكها الدولة. وقد استطاع سوشيلوف أن يقدم لي طائفة من الخدمات الصغيرة: كان يغلي الماء في غلاية الشاي التي أملكها، ويركض ذات اليمين وذا الشمال يُنفذ شتى المهمات التي أعهد إليه بها، ويهيئ لي كل ما أنا بحاجة إليه، فيُرقع صدرتي متى احتاجت إلى ترقيع ويدهن حذائي بالشمع أربع مرات في الشهر. كان ينهض بهذه الأعباء كلها بهمة ونشاط وحماسة وانهماك شاعرًا بما يقع على عاتقه من واجبات. الخلاصة أنه ربط مصيره بمصيري، فكان يتدخل في كل شأن من شؤوني، ويهتم بكل أمر من أموري. ما كان يخطر بباله مثلًا أن يقول لي: (عندك هذا العدد من القمصان... سترتك ممزقة، وإنما كان يقول عندنا هذا العدد من القمصان... سترتنا ممزقة...). لم يكن يرى شيئًا جميلًا غيري، بل أعتقد أنني أصبحت الغاية الوحيدة لحياته كلها. ولما كان لا يجيد أية مهنة، فإنه كان لا يتلقى أي مال غير ما أعطيه أنا، وهو نزر يسير طبعًا... ومع ذلك كان دائم الرضى. مهما يكن المبلغ الذي أعطيه إياه. ما كان لهذا الرجل أن يطيق الحياة دون أن يخدم أحدًا من الناس، ولعله آثرني على غيري لأنني كنت أكثر لُطفًا في معاملته، وأكثر عدلًا وإنصافًا في مكافأته. إنه واحد من أولئك الناس الذين لا يمكن أن يغتنوا يومًا، ولا يمكن أن يحسنوا تدبير أمورهم؛ ولقد كان أحد أولئك الذين يستأجرهم المقامرون ليسهروا طول الليل في الدهليز، ينصتون إلى أية نأمة يمكن أن تدل على وصول الضابط الميجر؛ وكانوا يتقاضون خمسة كوبكات أجرًا على سهرهم ليلة بكاملها. أما إذا جرى تفتيش في الليل، فإنهم لا

يتقاضون أي أجر. وكانت ظهورهم هي التي تتحمل جزاء غفلتهم وسهوهم وقلة انتباههم. إن الشيء الذي يميز هذا النوع من الناس هو أنه لا شخصية لهم البتة، في أي مكان وفي أي زمان، فهم دائمًا في المحل الثاني أو المحل الثالث. وذلك فطرة فيهم. إن سوشيلوف إنسان وديع مسكين إذا نظرت هذا إليه رأيته مذعورًا كأن أحدًا قد ضربه منذ لحظة... هكذا خُلِق. ومع هذا ما كان ليخطر ببال أحد في ثكنتنا أن يمد إليه يديه بلطمة... كنت أُشفق عليه دائمًا، لا أدري لماذا... كنت لا أستطيع أن أنظر إليه دون أن أشعر نحوه بشفقة عميقة. لماذا كنت أحمل له هذه الشفقة؟ ذلك سؤال لا أدري بِمَ أجيب عليه. وكنت لا أكلمه، لأنه لا يحسن الكلام... وما كان أشد ارتياحه وانتعاشه حين أعهد إليه بعمل من الأعمال، أو أكلفه بالركض إلى أمرٍ من الأمور... كل ذلك في سبيل أن يتحرر من الحديث. وأصبحت على يقين من أنه يُسرُّ أكبر السرور متى أصدرت إليه أمرًا من الأوامر... إنه ليس بالطويل ولا بالقصير؛ ليس بالذميم ولا بالجميل، ليس بالغبي ولا بالذكي؛ ليس بالعجوز ولا بالشاب... إن من الصعب على المرء أن يصف هذا الإنسان بأية صفة محدَّدة معينة. وكان وجهه مغطى قليلًا ببثور الجدري... أشقر الشعر... صفة واحدة كانت تبدو لي بارزة فيه هي أنه إذا صدق ظني ينتمي إلى الفئة التي ينتمي إليها سيروتكين... إنه ينتمي إلى هذه الفئة من ناحية أنه مشدوه مذهول لا يشعر بالمسؤولية. كان السجناء يسخرون منه ويتهكمون عليه في بعض الأحيان، لأنه أجرى مقايضة في طريقه إلى سيبيريا، ولأن هذه المقايضة كانت على قميص أحمر وروبل فضة. كانوا يضحكون من هذا المبلغ الزهيد الذي باع به نفسه. والمقايضة تعني أن يجري تبادل في الاسم بين معتقلين اثنين، أي أن يتحمل كل منهما عقوبة الآخر. قد يبدو لكم هذا الأمر غريبًا كل الغرابة، ولكنه واقع لا مجال للشك فيه. كانت هذه العادات التي رسختها التقاليد ما تزال قائمة بين المعتقلين الذين صحبوني إلى منفاي في سيبيريا. لقد رفضت أن أصدق وجود أمر كهذا الأمر في البداية، ولكنه ثبت لي بعد ذلك فأيقنت منه.

وإليكم الطريقة التي تتم بها هذه المقايضة: قافلة من المحكوم عليهم تسير في طريقها إلى سيبيريا. إن بين أفراد القافلة سجناء من كل فئة: فبعضهم محكوم بالأشغال الشاقة في السجن، وبعضهم محكوم بالعمل في المناجم، وبعضهم محكوم بالاحتجاز في معسكر لا أكثر... وفي أثناء الطريق، في مكان ما، في مقاطعة برم مثلًا، يعرب أحد المعتقلين عن رغبته في المقايضة على الحكم الصادر في حقه. هذا رجل اسمه ميخائيلوف مثلًا محكوم بالأشغال الشاقة لجريمة كبرى. إنه لا يطيق أن يتصور أن يبقى محرومًا من الحرية سنين طويلة. ولما كان ماكرًا واسع الحيلة، فإنه يعرف ماذا يجب عليه أن يعمل. فهذا هو يبحث في القافلة عن رفيق بسيط ساذج غر طيب، هادئ الطبع... محكوم بعقوبة أقل من عقوبته... محكوم مثلًا بالعمل في المناجم أو بالأشغال الشاقة بضع سنين، أو محكوم بالنفي وحده. وهذا هو يعثر على

واحد اسمه سوشيلوف هو قن قديم لا يتعدى الحكم عليه احتجازه في معسكر.. لقد سار سوشيلوف على قدميه حتى الآن ألفًا وخمسمائة فرسخًا من دون أن يكون في جيبه كوبك واحد، لسبب بسيط هو أن رجلًا مثل سوشيلوف لا يمكن أن يكون له أي مال. إنه الآن متعب مكدور مرهق مهدَّم القوى لأنه لا يملك من الطعام غير ما تقدمه الحكومة إلى أفراد القافلة ولا يملك من الكساء غير الرداء الموحد الذي يرتديه السجناء. إنه عاجز حتى عن الحصول على لقمة طيبة من حين إلى حين... وهو يخدم جميع السجناء لقاء دريهمات قليلة بخسة... وهذا ميخائيلوف يبدأ معه حديثًا. وها هي أواصر الصداقة تنعقد بين الرجلين.. ثم تأتي مرحلة أخرى.. إن ميخائيلوف يُسكر الآن صديقه. ثم يسأله هل يريد أن يقايض؟... يقول له: (أنا إسمي ميخائيلوف، وأنا محكوم بالأشغال الشاقة، ولكنها ليست أشغالًا شاقة لأنني سأكون في قسم خاص... هي أشغال شاقة إذا شئت، ولكنها ليست كغيرها... ففرقتي خاصة، فلا بد أن تكون خيرًا من غيرها!).

قبل إلغاء الفرقة الخاصة كان كثير من الذين يعملون في وظائف الحكومة، حتى بمدينة سان بطرسبرج، لا يتصورون وجود هذه الفرقة الخاصة ولا يخطر لهم وجودها ببال. كانت الفرقة الخاصة تقيم في ركن منزوٍ جدًّا بمقاطعة من أبعد مقاطعات سيبيريا، فيصعب على الناس أن يعلموا بوجودها. على أن عدد المحكومين من أفراد هذه الفرقة الخاصة ضئيل (كان في زماني لا يتجاوز سبعين سجينًا). وقد إلتقيتُ فيما بعد بأناس خدموا في سيبيريا، وعرفوا تلك البلاد معرفة تامة، ومع ذلك لم يكونوا قد سمعوا بوجود (فرقة خاصة)... وكل ما تنص عليه مجموعة القوانين المتعلقة بهذه الفرقة الخاصة لا يتجاوز ستة أسطر: (يتم إنشاء فرقة خاصة في سجن... للمجرمين الخطرين جدًّا، بانتظار تنظيم أشغال شاقة أعنف... إلخ). والسجناء أنفسهم لا يعرفون شيئًا عن هذه الفرقة الخاصة: أهي مؤبدة أم مؤقتة؟ الواقع أن مدة الإعتقال في سجن الفرقة الخاصة ليست محددة، وإنما هي فترة تطول إلى (حين تنظيم أشغال شاقة أعنف)، أي تطول مدة لا تُعرف نهايتها. فلا سوشيلوف ولا أحد من أفراد القافلة ولا ميخائيلوف نفسه، لا أحد من هؤلاء كان في وسعه أن يحزر معنى هاتين الكلمتين. غير أن ميخائيلوف يتصور كيف يمكن أن تكون طبيعة هذه الفرقة، يتصور ذلك على أساس خطورة الجريمة التي عوقب عليها بثلاثة آلاف أو أربعة آلاف جلدة بالسوط. لا شك أنهم لا يرسلونه الآن إلى مكان يعيش فيه حياة رضية ناعمة... وكان على سوشيلوف أن يستوطن، فهل يمكن أن يرغب ميخائيلوف فيما هو خير من هذا. ألا تريد أن تقايض؟... هكذا يسأل ميخائيلوف صاحبه سوشيلوف، وسوشيلوف سكران، وهو إنسان طيب القلب طاهر السريرة تفيض نفسه شكرًا وعرفانًا وامتنانًا لرفيقه الذي يسقيه الخمرة ويغدق عليه، فليس في وسعه أن يرفض. ثم إنه قد سمع من سجناء آخرين أن المقايضة ممكنة، وأن هناك سجناء آخرين قد قايضوا، فلا عجب أن

يقايض هو أيضًا، وليس في هذا العرض الذي يعرضه عليه رفيقه شيء خارق للعادة خارج عن المألوف. وهكذا يتم الإتفاق بين الرجلين على المقايضة. فيشتري ميخائيلوف الماكر اسم رفيقه بقميص أحمر وروبل فضة يستلمهما منه سوشيلوف بحضور شهود يشهدون الصفقة. ويصحو سوشيلوف من سكرته في الغداة، ولكن صاحبه يسكره من جديد، فلا يستطيع إذنْ أن يرفض. لقد شرب بالروبل خمرة؛ وما هي إلا وهلة يسيرة إذا هو شرب خمرة بالقميص الأحمر أيضًا. ويقول له ميخائيلوف: (إذا كنت تريد العدول عن الصفقة والنكول عما تم الإتفاق بيننا عليه، فأعد إليَّ المال الذي أعطيتك إياه). ولكن من أين يمكن أن يحصل سوشيلوف على روبل فضة. وإذا هو لم يردَّ الروبل، فإن أفراد القافلة سيجبرونه على ذلك. إن السجناء أناس لا يحبون أن يحنث المرء بعهد قطعه على نفسه. فلا بد أن يفي سوشيلوف بوعده، وويل له إذا لم يفعل... فإن مصيره القتل... أو الإذلال والتعذيب في أقل تقدير.
ذلك أنه يكفي أن تتسامح الجماعة مرة واحدة في أمر النكول عن المقايضة التي يكون قد تم الإتفاق عليها، حتى تزول صفقة تبادل الأسماء هذه زوالًا تامًا... فإذا كان في وسع المرء أن يتراجع عن تنفيذ العهد الذي قطعه على نفسه، وأن يفسخ الصفقة التي تم إبرامها بينه وبين صاحبه، بعد أن قبض المبلغ المتفق عليه، فمن ذا الذي يمكن أن يفي بعد ذلك بعهد قطعه وشرط ارتضاه؟ إن القضية هي في نظر الجماعة قضية حياة أو موت إنها مسألة تهمهم جميعًا، فلا يمكن أن يتهاونوا فيها ولا أن يتسامحوا؛ ويدرك سوشيلوف أخيرًا أنه لا يستطيع التراجع أو التملص، ويدرك أنه لا شيء يمكن أن ينقذه مما تورط فيه، لذلك يذعن لما يراد منه، ويرضخ شاء أم لم يشأ. وعندئذٍ يُذاع أمر الصفقة في القافلة كلها، فإذا كان يخشى أن يشي بالقضية أحد، أعطيت رشوة لمن يظن فيهم أنهم قد يشون... وهؤلاء لا يهمهم الأمر في شيء... فسيان عندهم أن يكون ميخائيلوف أو سوشيلوف هو الذاهب إلى الفرقة الخاصة. لقد شربوا خمرة ودُفعت لهم رشوات فلذلك يبقى السر مكتومًا لا يعلم به أحد. وفي المرحلة التالية يجري التفقد فإذا نودي على ميخائيلوف أجاب سوشيلوف: حاضر! وإذا نودي على سوشيلوف أجاب ميخائيلوف: حاضر!... وتمضي القافلة ولا يعود يتحدث أحد في الأمر من قريب ولا من بعيد؛ حتى إذا وصلت القافلة إلى توبولسك تم فصل السجناء فيمضي ميخائيلوف يستوطن البلاد ويُقاد سوشيلوف إلى الفرقة الخاصة تحت حراسة مضاعفة، ويستحيل عندئذٍ على سوشيلوف أن يُطالب بشيء أو أن يحتج على شيء، لأنه لا يملك بُرهانًا. ولو طالب واحتج فسيطول أمر القضية سنين عدة ولن يجني من شكواه شيئًا فلا شهود يشهدون على صحة ما يقول، إذ لا يعرف أحد أين هم الآن، وهبهم وجدوا فلن يقولوا شيئًا ولن يشهدوا بشيء بل سيلوذون بِالصمت. إليكم إذنْ كيف أرسل سوشيلوف إلى القسم الخاص لقاء

تناوله روبلًا فضة وقميصًا أحمر. كان السجناء يسخرون منه ويستهزئون به لا لأنه أجرى تلك المقايضة رغم أنهم على وجه العموم يحتقرون أولئك البلهاء الذين ارتكبوا حماقة استبدال عمل شاق بعمل سهل، بل لأنه لم يقبض ثمن تلك الصفقة إلا قميصًا أحمر وروبلًا فضة وذلك مبلغ نَزِرٌ يسير تافه، فإنما يقبل المرء عادة أن يقايض على مبالغ ضخمة (ضخمة بالقياس إلى موارد السجناء) حتى لقد يتقاضى بضع عشرات من روبلات. على أن سوشيلوف كان يبلغ من التلاشي والتفاهة وانعدام الشخصية أنه لا سبيل إلى التهكم عليه ولا حاجة إلى الهزء به.

لقد عشنا معًا أنا وهو ردحًا طويلًا من الزمن، فتعودت عليه وتعلق بي. ومع ذلك فإنه جاء يسألني بعض المال في ذات يوم، ولم يكن قد نفذ أوامري، فما كان أشد قسوتي حين قلت له: (إنك تعرف كيف تطلب مالًا ولكنك لا تفعل ما تؤمر به). آه! إنني لم أغفر لنفسي يومًا فعلتي تلك. وقد صمت سوشيلوف عندئذٍ، وأسرع يُنفذ أوامري طائعًا راضخًا، ولكنه أصبح حزينًا جدًّا على حين فجأة. انقضى يومان لم أستطع أن أصدق أن يتأثر سوشيلوف هذا التأثر كله مما قلته له. وكنت أعلم أن سجينًا اسمه فاسيليف كان يطالبه مُلحًا برد دين صغير له عليه، ولعل سوشيلوف كان خالي الوفاض لا يملك قرشًا واحدًا ولا يجرؤ أن يطلب مني شيئًا، فناديته وقلت له: (اسمع يا سوشيلوف! أعتقد أنك أردت أن تطلب مني بعض المال لسداد دين أنطوان فاسيليف عليك، فإليك هذا المال!) كنت جالسًا على مضجعي ولبث سوشيلوف واقفًا أمامي مدهوشًا أشد الدهشة من أنني أعرض عليه المال بنفسي، وأنني تذكرت وضعه الحرج وحالته الشائكة، لا سيما وأنه كان في الآونة الأخيرة قد طلب مني في رأيه سلفًا كثيرة فهو لا يجرؤ أن يأمل أن أنقده سلفة جديدة. نظر سوشيلوف إلى الورقة النقدية التي مددتها إليه، ونظر إليَّ ثم استدار فجأة وخرج. أدهشني ذلك غاية الدهشة، وخرجت أجري وراءه إلى أن وجدته خلف الثكنات. كان واقفًا مُسندًا وجهه إلى السور متكئًا بيديه على الأوتاد.

سألته:

- ما بك يا سوشيلوف؟

فلم يجبني. وما كان أشد دهشتي حين لاحظت أنه يهم أن يبكي.

قال بصوت مختلج وهو يحاول أن لا ينظر إليّ:

- أنت.. تظن... يا... ألكسندر... بتروفتش... أنني أقوم بخدمت... في سبيل.. المال... أما أنا.. فإنني...

قال ذلك واستدار من جديد وهوى بجبينه على السور وطفق يبكي منتحبًا. تلك أول مرة في السجن أرى فيها رجلًا يبكي، فأخذت أواسيه وأعزيه، وبذلت في سبيل ذلك عناءً كبيرًا. صار بعدئذٍ يخدمني بمزيد من الحماسة والهمة والنشاط، وأصبح (يرصد) حركاتي وسكناتي ويداريني أشد المداراة، ولكنني استطعت أن أدركِ من بعض الأمارات التي لا تكاد تُلاحظ ومن بعض العلامات

التي لا تكاد تُرى أن قلبه لن يغفر لي في يوم من الأيام أنني نهرته وزجرته على حين أن آخرين كانوا يضحكون عليه ويعاكسونه ويناكدونه كلما سنحت الفرصة، بل ويهينونه ويشتمونه فلا يغضب ولا يتأثر بل تظل صِلاته بهم طيبة. نعم إن من المستحيل أن يعرف المرء إنسانًا معرفة صحيحة حتى بعد أن يعاشره سنين طويلة.

ذلكم هم السبب في أن السجن لم يكن له في نظري في أول الأمر الدلالة التي ستكون له بعد ذلك. ذلكم هو السبب في أنني رغم شدة انتباهي لم أستطع أن أدرك كثيرًا من الوقائع التي فقأت عيني من بعد.

إن الذين لفتوا نظري أول الأمر إنما كانوا هم الأشخاص البارزين. لكن نظرتي كانت خاطئة. إنهم لم يخلفوا في نفسي إلا أثرًا ثقيلًا حزينًا ميتًا. و مما ساهم خاصةً في وصولي إلى هذه النتيجة، لقائي مع أ... ف وهو سجين وصل إلى السجن قبلي وقد أدهشني في الأيام الأولى إدهاشًا مؤلمًا غاية الألم. لقد سمم بداية إقامتي في السجن وفاقم مزيدًا من المفاقمة الآلام الروحية القاسية الرهيبة التي كنت أعانيها. إنه أقدر مثال للخسة والدناءة والحقارة التي يمكن أن ينحدر إليها إنسان ماتت فيه كل عاطفة من عواطف الشرف من دون مقاومة أو ندامة. كان هذا الشاب وهو نبيل سابق (سبق أن تحدثت عنه) ينقل إلى الضابط الميجر كل ما كان يجري في الثكنات، لأنه كان على صلة بخادمه فدكا. وإليكم قصته: لقد وصل إلى بطرسبرج قبل إتمام دراسته بعد مشاجرة قامت بينه وبين أبويه الذين أصابهما الذعر والرعب من اندفاعه في أنواع الفجور والعهر والدعارة. ومن أجل أن يحصل على المال لم يتورع عن ارتكاب وشاية كاذبة. لقد قرر أن يبيع دم عشرة رجال في سبيل أن يرضي ظمأه الذي لا يشبع إلى الملذات البهيمية الحقيرة الدنيئة، وبلغ من نهمه في التمتع بهذه الملذات القذرة، وبلغ من فرط انحداره إلى حضيض الفساد في الحانات والمواخير ببطرسبرج، أنه لم يتردد عن التورط في قضية كان يعرف ما تشتمل عليه من طيش وجنون لأن الذكاء لم يكن يعوزه فحكم عليه بالنفي إلى سيبيريا وبالاعتقال في سجن الأشغال الشاقة. تلك كانت بداية حياته. وقد يتوهم المرء أن هذه الضربة الرهيبة التي أصابته كان لا بد أن تهزه وأن توقظ في نفسه شيئًا من المقاومة، وأن تُحدث له أزمة، ولكنه ارتضى مصيره الجديد غير عابئ ولا مكترث، حتى إنه لم يشعر بشيء من ذعر أو رعب. وكل ما كان يخيفه هو أنه سيضطر إلى العمل وإلى هجر فسقه ومجونه إلى الأبد. فلما أصبح يسمى سجينًا لم يزده هذا الاسم إلا إمعانًا في المزيد من أنواع الحقارات والدناءات الكريهة المقيتة، فكان يقول: (أنا الآن سجين محكوم بالأشغال الشاقة فلا جناح عليَّ إذا انغمست في ما أحب الانغماس فيه على ما يشاء لي هواي بلا خجل ولا حياء). كذلك كان ينظر إلى وضعه. إنني أتذكر هذا الإنسان المقزز كما أتذكر ظاهرة شاذة من الظاهرات الخارقة العجيبة. لقد عشت عدة سنين بين قتلة سفاكين وعهرة ماجنين

وأوباش وأوغاد، ولكنني لم أصادف في حياتي كلها حالة تمثل الخسة الأخلاقية والفساد المتعمّد والحقارة الوقحة تمثيلًا يبلغ هذا المبلغ من الكمال. كان بيننا شاب من أصل نبيل قتل أباه (سبق أن تحدثت عنه) ولكنني استطعت أن أقتنع من نواحٍ كثيرة وسمات شتى أن هذا الشاب كان أكرم نفسًا وأكثر إنسانية من صاحبنا آ... ف. إنني طوال مدة إقامتي في السجن لم أر في آ... ف شيئًا آخر غير كتلة من لحم لها أسنان ومعدة، شرهة إلى أوسخ الملذات الحيوانية، نهمة إلى أقذر المتع الوحشية التي لا يتورع صاحبها عن اغتيال أي إنسان في سبيل الحصول عليها، ولست في ما أقول مُبالغًا قَطّ، فقد عرفت في آ... ف نموذجًا من أتم نماذج الحيوانية التي لا يردعها مبدأ ولا تُنظمها قاعدة ولا تزعها أخلاق. ولشد ما كانت ابتسامته الساخرة أبدًا، الهازئة دائمًا، تثير في نفسي الاشمئزاز والتقزز! إنه مخلوق عجيب مشوه! إنه في روحه مثل كازيمودو في جسده! ولقد كان ذكيًّا ماكرًا وسيمًا، يملك بعض ثقافة، وينعم ببعض كفاءات... لا! لا! ألا إن الحرائق والأوبئة والمجاعات وسائر الكوارث والنوازل أفضل من وجود إنسان كهذا الإنسان في المجتمع. لقد سبق أن قلت إن التجسس والوشايات رائجة في السجن، كثمرة طبيعية للإنهيار الروحي والخسة الأخلاقية لا يستاء منها السجناء أيَّ استياء. بالعكس... لقد كانوا على صلات طيبة بصاحبنا آ... ف؛ وكانوا يتوددون إليه ويتقربون منه ويلاطفونه ويدارونه أكثر مما يفعلون ذلك معنا. وكان صاحبنا الضابط الميجر السكير يحسن معاملته، فكان ذلك يسبغ عليه شيئًا من مهابة في نظر السجناء، بل كان يهب له شيئًا من قيمة. وقد زعم للميجر فيما زعم أنه رسّام قادر على تصوير وجوه (كما أوهم السجناء بأنه كان ضابطًا برتبة ملازم في حرس القيصر) فأعفاه الميجر من الذهاب إلى الأشغال الشاقة، واستدعاه مخفورًا إلى منزله ليتيح له إعمال مواهبه الفنية برسم صورة له. حتى إذا استقر به المقام في منزل الميجر انعقدت بينه وبين فدكا الخادم أواصر الصداقة، وكان للخادم تأثير كبير في مولاه وسلطان عظيم عليه، وكان له تبعًا لذلك تأثير وسلطان على جملة السجناء. فكان آ... ف يكتب تقارير عنا، بتكليف من الميجر الذي كان إذا سكر لا يتورع عن صفعه وشتمه، ووصفه بأنه جاسوس وأنه واشٍ. بل كان يتفق في كثير من الأحيان، بعد أن يصفعه ويشتمه، أن يجلس على كرسي، فيطلب إليه متابعة عمله في رسم صورته. فرغم أن الضابط الميجر كان يعده رسامًا من الطراز الأول يشبه أن يكون من مستوى برولوف ([16]) (وكان قد سمع عن هذا الرسَّام الشهير برولوف) فقد كان يحسب أن من حقه عليه أن يصفعه، قائلًا له بينه وبين نفسه: (مهما تكن رسَّامًا، فأنت في السجن وأنا أظل رئيسك أفعل بك ما يحلو لي أن أفعل). حتى لقد كان يأمره في بعض الأحيان أن يخلع له نعليه، أو أن يأتيه بالوعاء الذي يبول فيه ليلًا... واحتاج الضابط إلى وقت طويل حتى

يدرك أن الرجل لا يملك أية موهبة. فقد ظل "الرسَّام" يعمل فيها قرابة السنة، فلاحظ الضابط أخيرًا أن الرجل قد ضحك عليه، فكلما تقدم العمل في رسم الصورة، كانت الصورة تزداد بُعدًا عن الشبه بصاحبها.. وغضب الضابط، فضرب الرسَّام، وطرده وأرسله إلى الأشغال الشاقة... وكان طبيعيًّا أن يستاء آ... ف: إنه يأسف الآن على انقضاء أيام الفراغ والكسل، وعلى الحرمان من الهدايا الصغيرة، وعلى الإبتعاد عن أصناف الحلوى التي كان يختلسها من على مائدة الضابط اختلاسًا، وعلى الإنفصال عن فدكا، وعلى هجر الطيبات التي كانا ينعمان بها كلاهما في مطبخ الميجر...

وحين فقد آ... ف حظوة الضابط، كف الضابط عن اضطهاد م... الذي كان آ... ف يحرّضه عليه للسبب التالي: حين وصل آ... ف إلى السجن كان م... ([17]) يعاني حزنًا شديدًا ويأسًا قاتلًا... كان لا يشعر بوجود أية صلة تربطه بهؤلاء السجناء، وكان ينظر إليهم باحتقار واشمئزاز. إنه لم يعرف كيف يجد فيهم ما يمكن أن يحمل بعض الهدوء إلى قلبه، وما يمكن أن يعزيه ويسرِّي عنه ويخفف بلواه. كان يكرههم بدلًا من أن يحاول معرفتهم وفهمهم، وكانوا من جهتهم يبادلونه كرهًا بكره. كان وضعه حرجًا رهيبًا. وكان م... لا يعرف السبب الذي سيق من أجله آ... ف إلى سجن الأشغال الشاقة. وإذ أدرك آ... ف طبيعة الرجل، تقرَّب منه، وأكد له في البداية أنه لم يحكم بالأشغال بسبب وشاية كاذبة، بل بسبب جرم كالجرم الذي أدى إلى الحكم على م... فما كان أشد سعادة م... بأن يعثر أخيرًا بين هؤلاء السجناء على رفيق من رفاق المحنة والشقاء!... و لاعتقاده بأن صاحبه يعاني ولا شك آلامًا روحية كبيرة، فقد أسرع إليه محاولًا أن يواسيه، حتى لقد أعطاه بعض المال، وجعله يتناول طعامًا خاصًا غير طعام السجناء، وأشركه في جميع أشيائه... غير أن آ... ف الذي تفوق حقارته كل حد، وتتجاوز دناءته كل وصف، أخذ يكره صاحبه م... بسبب هذا الكرم نفسه، وبسبب هذا السخاء الذي أغدقه عليه... فلم يجد خيرًا من أن ينقل إلى الميجر في الوقت المناسب كل ما أسر به إليه صاحبه م... عن الضابط الميجر وعن السجن أثناء الأحاديث التي جرت بينهما... فكره الضابط صاحبنا م... وأضمر له الحقد، ولولا وجود آمر السجن إذنْ لمضى بهذا الحقد إلى أقصى حد، فأجهز على الرجل... وبعد ذلك، حين اكتشف م... حقارة آ... ف لم يشعر آ... ف بأي نوع من أنواع الحرج، حتى لقد صار يحرص على أن يلقى رفيقه ليرمقه بنظرة شزراء، وليبتسم له إبتسامة صفراء تعبر عن جميع معاني الشماتة والتشفي والوقاحة والحقد... وكان ذلك يحمل إلى قلبه الرضى والسرور. وقد لفت م... انتباهي إلى هذا غير مرة. وقد فَرَّ هذا الإنسان الحقير بعد ذلك من السجن في صحبة جندي من جنود الحراسة، ولكنني سأقص حكاية فراره هذه في الوقت المناسب والموضع المناسب... أما الآن فأحب أن أذكر أن هذا الرجل قد أخذ يحوم حولي في أول الأمر، ظانًا

أنني لا أعرف قصته. وأعود فأقول إنه سمَّم حياتي وأفسد عليَّ أوائل أيامي في السجن، حتى هويتُ إلى الحضيض من الحزن والكمد والكرب واليأس. لقد أرعبتني هذه البيئة الحقيرة الجبانة التي رُميتُ فيها، وتصورت أن كل ما في هذه البيئة دنيء هذه الدناءة نفسها، فاسد هذا الفساد نفسه، ولكنني أخطأت الظن حين خُيِّل إليَّ أن جميع من في السجن يشبهون م...

في تلك الأيام الثلاثة الأولى كنت لا أزيد على أن أطوف في السجن حين لا أكون راقدًا على مضجعي الخشبي. وقد عهدت إلى واحد من السجناء كنت واثقًا منه (لأن أكيم آكيمتش زكاه لي) عهدت إليه بالقماش الذي سلمتني إياه إدارة السجن ليصنع لي منه بضعة قمصان. وعملت بنصيحة أكيم آكيمتش أيضًا، فهيأت لنفسي فِراشًا يُطوى. إنه فراش من لباد مغطى بقماش، رقيق رقة فطيرة، خشن كل الخشونة على من لم يألف مثله ولا اعتاده. وتعهد أكيم أكيمتش بأن يمدني بجميع الأمتعة التي لا بد منها، حتى لقد صنع لي بيديه لِحافًا من قطع بالية من الجوخ الذي توزعه إدارة السجن على السجناء، قطع اختارها وقصها من السراويل والسترات التي استغنى عنها أصحابها من فرط ما بلغت من الرثاثة، وقد اشتريتها من عدد من السجناء. إن الأمتعة التي توزعها الدولة على السجناء تصبح ملك هؤلاء السجناء متى انقضت على ارتدائها المدة التي يحددها نظام السجن فما يلبث السجناء أن يبيعوها، لأن لباسًا من الألبسة تظل له قيمة مهما بلغ من الاهتراء والبلى. وقد أدهشني ذلك كثيرًا، ولا سيما في البداية، في أوائل اتصالي واحتكاكي بهذا العالم. فلئن صرت بعد ذلك واحدًا من هؤلاء الناس، وأصبحت جزءًا من هذا العالم. وغدوت سجينًا كسائر السجناء، فأصبغت عاداتي وأفكاري بعاداتهم وأفكارهم من الخارج، فإن ذلك كله لم يبلغ أعماقي، ولا نفذ إلى قرارة نفسي. لقد دهشت و تحيرت، كأنني لم أسمع بهذه الأمور في يوم من الأيام، ولا تصورت وجود مثلها في لحظة من اللحظات. وعلى أنني كنت أعرف ما سوف أراه في السجن بعد أن سمعت ما سمعت عنه قبل وصولي إليه، فقد أحدث الواقع في نفسي من الأثر ما لم يُحدِثه السماع. هل كان في وسعي أن أتصور مثلًا أن خِرقًا بالية رثة ممزقة يمكن أن تبقى لها قيمة؟ ومع ذلك فقد كان لحافي مصنوعًا كله من مثل هذه الخرق! إن من الصعب عليَّ أن أصف نوع الجوخ المستعمل ثيابًا للسجناء: إنه يشبه الجوخ الرمادي السميك الذي يصنع للجنود، ولكنه ما إن يُلبس زمنًا قصيرًا حتى تنسل خيوطه ويتمزق ويتقطع. إن على الرداء الموحد أن يُلبس عامًا كاملًا، ولكن الرداء لم يكن يدوم أبدًا كل هذا الزمان، فإن السجين يعمل، ويحمل أثقالًا باهظة، فسرعان ما يهترئ القماش في هذه المهنة ويتمزق. وكان على المعاطف أن تُلبس ثلاث سنين، فهي خلال هذه السنين الثلاث تُتخذ ملابس وأغطية وألحفة ومخدات ووسائد، ولكنها متينة، ومع ذلك لم يكن نادرًا أن تراها في نهاية السنة الثالثة مرقعة بقماش عادي. ورغِم أنها تهترئ أخيرًا، فإن أصحابها يجدون من يشتريها منهم،

بسعر أربعين كوبكًا للقطعة الواحدة، فإذا كانت ما تزال محافظة على شيء من جدتها ارتفع السعر إلى ستين، وربما إلى سبعين كوبكًا.

سبق أن قلت إن للمال سلطانًا أعلى في حياة السجن. وفي وسعي أن أؤكد جازمًا أن السجين الذي يملك بعض المال يتألم أقل عشر مرات مما يتألم السجين الذي لا يملك شيئًا. إن رؤساءنا يقولون: (ما دامت الدولة تؤمن للسجين كل حاجاته، فما شأنه وشأن المال؟). كذلك يفكر رؤساءنا. ومع ذلك فإنني أعود فأقول: لو حُرم السجناء من القدرة على امتلاك شيء يخصهم ويكون لهم، لفقدوا عقولهم حقًّا، أو لماتوا كالذباب، أو لارتكبوا جرائم لا نظير لها ولا سمع بمثلها أحد... بعضهم ضجرًا وسأمًا، وبعضهم حُزنًا وشجنًا، وبعضهم بغية أن يُعاقبوا مزيدًا من المعاقبة فتتبدل حالهم ويتغير وضعهم على حد تعبيرهم. ولئن كان السجين الذي كسب بضع كوبكات بالعرق الدامي يتصبب من جسمه وبمخاطرات ومجازفات قام بها ليحصل على هذه الدريهمات القليلة، لئن كان هذا السجين ينفق بعد ذلك ما جناه يمنة ويسرة بغباء كغباء الأطفال، فإن ذلك لا يعني أبدًا أنه لا يدرك قيمة المال، كما يمكن أن نتوهم لأول وهلة. إن السجين شره إلى المال، شره إليه شراهة تفقده عقله وصوابه... ولئن كان يتلفه بعد ذلك ويبذره، فمن أجل أن يحصل على ما يعده خيرًا من المال... وما هو الشيء الذي يعده السجين خيرًا من المال، ويضعه فوق المال قيمة وقدرًا؟ إنه الحرية... أو إنه حرية موهومة... إنه حلم حرية.. إن جميع السجناء أناس حالمون... وسأتحدث عن هذا تفصيلًا في حينه. أما الآن فحسبي أن أقول أنني سمعت سجناء محكومين بالاعتقال في سجن الأشغال الشاقة عشرين عامًا يقولون لي وقد لاح الهدوء في وجوههم: (حين تنتهي مدة سجني، إن شاء اللّه، فعندئذٍ سوف...). إن لقب السجين وحده يعني إنسانًا محرومًا من حرية الإرادة. فإذا أنفق هذا الإنسان ماله، كان يتصرف على ما يشاء له هواه، كان يتصرف على ما تشاء له إرادته، كان يتصرف حُرًا... إنه رغم الوشم والأغلال، رغم السور الذي يخفي العالم الحر عن نظره ويحبسه في قفص كما يُحبس حيوان كاسر، إنه رغم ذلك، يستطيع أن يحصل على خمرة، أن يستمتع بمومس، بل وأن يرشو في بعض الأحيان (لا في جميع الأحيان) مراقبيه من مشوهي الجنود وحتى من ضباط الصف، ليغضوا الطرف عن مخالفاته للنظام... بل إنه ليستطيع أيضًا - وذلك ما يعشقه عشقًا - أن يتبجح أمامهم، أي أن يبرهن لرفاقه وأن يبرهن لنفسه كذلك إلى حين، أنه يتمتع بحرية هي أكبر من الحرية التي يتمتع بها في الواقع. إن السجين بحاجة إلى أن يتوهم وأن يوهم أن له حرية وشأنًا أكبر كثيرًا مما يظن، فهو مباح له أن يتسلى، وأن يصخب ويعربد، وأن يؤذي الناس وأن يسيء إليهم حتى ليدخلهم تحت الأرض إذا شاء! إن المسكين يريد أن يقتنع بأمور يعرف أنها مستحيلة: وذلك هو السبب في أن السجناء يحبون أن يتباهوا وأن يتفاخروا، فيبالغون في تقدير شخصياتهم التعيسة مبالغة ساذجة وهمية

مضحكة.. ثم إنهم حين يُتلفون مالهم ويبذرونه، يُجازفون بشيء من الأشياء، وذلك عندهم مظهر حياة وحرية، وهو عندهم خير ما يرجونه ويتمنونه ويطمحون إليه. تصوروا رجلًا يملك الملايين قد شدت على عنقه حبل: أفلا يتمنى هذا الرجل أن يهب كل ما يملك من ملايين في سبيل نشقة هواء؟

رب سجين يعيش هادئًا سنين طويلة متتالية، ويبلغ من حسن سلوكه وسلامة تصرفه أنه يُعيَّن (عريفًا)، ثم إذا بهذا الرجل يصبح على حين فجأة شيطانًا من الشياطين، يعصي ويتمرد ويثور، ولا يتورع عن ارتكاب أي جريمة قتلًا كانت أو اغتصابًا أو ما إلى ذلك! إن رؤساءه ليدهشون عندئذٍ أشد الدهشة، وإن الناس عندئذٍ يعجبون أشد العجب. فماذا كان سبب هذا الإنفجار الذي لم يكن ينتظره منه أحد؟ إن سبب هذا الإنفجار المباغت لدى رجل لا يتوقع أحد منه مثله إنما هو رغبة جامحة عارمة قلقة حزينة غريزية استحوذت عليه فجأة، تدفعه إلى إظهار شخصيته، وتأكيد ذاته... تلكم عواطف لا يفهمها من يراه فيحتار في أمره، ولا يعرف كيف يحكم عليه... إنها أشبه بنوبة صرعة، أنها أشبه بتشنج. تصوروا إنسانًا دُفن حيًّا ثم صحا على حين فجأة: إن هذا الإنسان لا بد أن يضرب غطاء تابوته ضربًا مستميتًا. إنه يُحاول دفع الغطاء، يُحاول دفع الغطاء رغم أن عقله مقتنع بأن هذه الجهود كلها لن تجديه نفعًا، ولكن العقل لا يملك أن يُسكِّن هذه التشجنات. يجب ألا ننسى أن كل محاولة يحاولها السجين لإظهار شخصيته بإرادته تشبه أن تكون في نظر المسؤولين جريمة، يستوي عندهم في ذلك أن يكون سبيله إلى إظهار شخصيته خطيرًا أو يسيرًا. فإذا كان الأمر كذلك، إذا كانت المخاطرة هي المخاطرة، وإذا كان الخروج على النظام هو الخروج على النظام، فليمضِ السجين في المجازفة إلى أبعد حدودها، ولو وصل من ذلك إلى جريمة القَتل. الخطوة الأولى هي الصعبة، ثم يُجن جنون السجين شيئًا فشيئًا، وينتشي، فإذا هو عاجز عن السيطرة على نفسه وكبح جماحه. ولذلك يحسن أن لا يُدفع السجناء إلى مثل هذا التطرف... والغلو... ليظل الجميع في سلام وأمان....

نعم، ولكن كيف السبيل إلى ذلك؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

6

الشهر الأول

تتمة

كنت أملك حين دخولي السجن مبلغًا ضئيلًا من المال، ولكني لم أحمل منه في جيبي إلا جزءًا يسيرًا مخافة أن يُصادر. أما الباقي فقد ألصقته أوراقًا نقدية في تليدة إنجيلي، وهو الكتاب الوحيد المسموح باقتنائه في السجن. وكان قد أعطاني هذا الإنجيل في مدينة توبولسك ([18]) أشخاصٌ منفيون منذ عشرات السنين، ألفوا أن يعدوا كل (سيء حظ) أخًا. إن في سيبيريا أناسًا نذروا حياتهم لنجدة (عاثري الحظ) نجدة الأخ أخاه. إنهم يشعرون نحوهم بالعطف الذي كان يمكن أن يشعروا به نحو أبنائهم. إن شفقتهم شفقة مقدسة منزهة عن الغرض مبرأة من المنفعة. ولا يسعني هنا إلا أن أروي في بضع كلمات لقاءً تم لي حينذاك.

في البلدة التي كان يوجد فيها سجننا، كانت تقطن أرملة اسمها ناستازيا إيفانوفنا. لم يكن أي واحد منا على صلات مباشرة بهذه المرأة طبعًا. فقد نذرت هذه المرأة حياتها لمساعدة جميع المنفيين، ولمساعدة نزلاء سجن الأشغال الشاقة بخاصة. تُرى هل كان أحد أفراد أسرتها أمرءًا عائر الحظ؟ ترى هل كان أحد الأشخاص الأعزة على قلبها قد أنزلت فيه عقوبة شبيهة بعقوبتنا؟ لست أعرف ذلك. ولكنها كانت تفعل كل ما تستطيع أن تفعله في سبيلنا. على أن ما كانت تستطيع أن تفعله في سبيلنا قليل جدًّا، لأنها كانت هي نفسها فقيرة فقرًا شديدًا.

ولكننا كنا نحن نزلاء السجن نشعر أن لنا في خارج السجن صديقة مخلصة متفانية، كانت في كثير من الأحيان تنقل إلينا الأنباء التي كنا بحاجة كبيرة إليها (ولقد كنا فقراء جدًّا إلى الأبناء)، فلما تركت السجن وسافرت إلى مدينة أخرى أتيح لي أن أزورها في بيتها وأن أتعرف إليها. كانت تقيم عند أحد أقربائها في مكان بالضاحية.

ليست ناستازيا أيفانوفنا مسنة ولا شابة، وليست جميلة ولا دميمة ويصعب على المرء بل يستحيل عليه أن يعرف أهي ذكية أم غبية، أهي مثقفة أم غير مثقفة، ولكن كل فعل من أفعالها يدل على طيبة لا حدود لها، وعلى رغبة لا تقاوم في المسايرة والمجاراة والملاطفة والمواساة. وفي أن تصنع شيئًا يُسر ويبهج. إن المرء يقرأ هذه العواطف في نظرتها الطيبة الرقيقة العذبة الحنون. قضيت سهرة كاملة لديها مع رفيق آخر من رفاق السجن، فكانت تنظر إلينا وجهًا لوجه، وتضحك إذا ضحكنا، وتوافق فورًا على كل ما نقول من قول أو نعلن من رأي؛ فهي، أيًّا كان الكلام الذي نقوله، تسارع إلى تبني رأينا،

وهي ما تنفك تقوم وتقعد وتذهب وتجيء لتغدق علينا مما عندها من طعام ومن شراب.
قدمت لنا شايًّا وحلوى. وإن المرء ليدرك أنها لو كانت غنية لما كان يفرحها الغني إلا لأنه يتيح لها أن تهيئ لنا مزيدًا من المسرة والبهجة، وأن تواسينا مزيدًا من المواساة، نحن معشر السجناء.
فلما استأذناها بالانصراف أهدت إلى كل منا علبة لحفظ السيكار مصنوعة من الكرتون، على سبيل الذكرى. كانت قد صنعت هاتين العلبتين بيديها وغلفتهما بورق من ذلك الورق الذي تُجلد به كتب الحساب للمدارس، وزينتهما بحافة رقيقة من ورق مذهب لعلها اشترته من إحدى الدكاكين تجميلًا لهما.
قالت لنا وهي تعتذر خجلى من هديتها:
- ما دمتما تدخنان فلعل هاتين العلبتين تناسبكما.
هناك أناس يقولون (قرأت هذا وسمعته) إن الإيثار الشديد ليس إلا أثرة شديدة في الوقت نفسه، وأن الغيرية أنانية. فأين، أين الأثرة أو الأنانية هنا؟ لن أفهم ذلك يومًا.
رغم أنني حين دخلت السجن كنت لا أملك مالًا كثيرًا، فإنني لم أستطع أن أغتاظ حقًّا من أولئك السجناء الذين كانوا يقبلون عليَّ، منذ وصلت، هادئين، بعد أن خدعوني مرة أولى، ليقترضوا مني ثانية فثالثة فرابعة. غير أنني أعترف صراحةً بأن الشيء الذي كان يغيظني حقًّا ويثير غضبي وحنقي هو أن هؤلاء جميعًا كانوا بحيلهم الساذجة يحسبونني أمرءًا غبيًّا أبله، ويسخرون مني في قرارة أنفسهم، لا لشيء إلا لأنني أُقرضهم بعض المال مرة خامسة. لا شك أنهم كانوا يتخيَّلون أن مكرهم كان ينطلي عليَّ. وإني لعلى يقين من أنهم كانوا سيشعرون نحوي باحترام أعظم وتقدير أكبر لو رفضت أن أقرضهم، ولو طردتهم شرَّ طردة، ولكنني كنت لا أستطيع أن أرفض لهم طلبًا، رغم أنه اتفق لي غير مرة أن غضبت غضبًا شديدًا.
كان يهمني أثناء الأيام الأولى أن أعرف أين يجب أن أضع قدمي وكيف يجب أن يكون سلوكي مع رفاقي. كنت أحس إحساسًا كاملًا وأُدرك إدراكًا تامًا أن هذه البيئة جديدة عليَّ كل الجدة، وأنني أسير فيها في ظلمات، وأن من المستحيل على المرء أن يعيش في الظلمات عشر سنين. ولقد قررت أن أتصرف التصرف الصريح الواضح الذي يمليه عليَّ ضميري وتأمرني به عواطفي ولكنني كنت أعلم أن هذه السنة قاعدة نظرية صالحة، أما الواقع فمليء بمفاجآت ليست في الحسبان. لذلك فرغم جميع الهموم الصغيرة التي شغلتني بها إقامتي في الثكنة، وهي الهموم التي سبق إن تحدثت عنها والتي أعانني فيها أكيم أكيمتش رأسًا، فلقد كان هنالك قلق رهيب يستبد بنفسي وغم عميق يقبض صدري ويعذبني مزيدًا من العذاب شيئًا بعد شيء.
(المنزل الميت!) كذلك كنت أقول لنفسي حين يهبط الليل وأنا أنظر أحيانًا من عتبة لكنتنا إلى السجناء العائدين من العمل وقد أخذوا يطوفون في الفناء

منتقلين من المطبخ إلى الثكنة أو من الثكنة إلى المطبخ كنت أحاول وأنا أتأمل حركاتهم ووجوههم أن أعرف إلى أي نوع من البشر ينتمون وما عسى أن تكون طباعهم. كانوا يطوفون أمامي، فبعضهم مغضن الجبين وبعضهم شديد المرح - وهذان مظهران يلاحظان دائمًا في السجن وربما كانا يميزانه - وهم يتشاءمون أو يتحدثون، أو لا يزيدون على أن يسيروا منعزلين مستغرقين في تأملاتهم في ظاهر الأمر، فبعضهم يبدو مهدود القوى متبلد الشعور لا يحسّ بشيء، وبعضهم مختال يشعر بالتفوق والاستعلاء (حتى هنا!)، جاعلًا طاقيته على أذنه، ملقيًّا معطفه فوق كتفه، مطوِّفًا نظرته الجريئة الماكرة هنا وهناك، موزعًا أقواله الساخرة الوقحة بغير تعفف ولا حياء. قلتُ لنفسي: (هذه هي بيئتي الآن، هذا هو عالمي الآن، هذا هو العالم الذي لا أحب أن أعيش فيه، ولكن يجب عليَّ أن أعيش فيه...).

حاولت أن أُسائل أكيم أكيمتش الذي كنت أحب أن أشرب الشاي معه حتى لا أكون وحيدًا، وأن أستطلعه أمر مختلف السجناء. يجب عليَّ أن أذكر هنا مستطردًا بعض الاستطراد أن الشاي كان غذائي الوحيد في أول عهدي بالسجن؛ وكان أكيم أكيمتش لا يضنُّ عليَّ باحتساء الشاي معي حتى لقد كان يتولى بنفسه إشعال سماورنا البالي الذي صُنع في السجن نفسه من الحديد الأبيض، وكنت قد استأجرته من م....

كان أكيم آكيمتش يشرب قدحًا من الشاي في العادة (ولقد كان عنده أقداح)، يشربه وقورًا رضيًّا صامتًا، حتى إذا فرغ من شربه شكرني وعاد يستأنف صنع لحافي على الفور. ولكنه لم يستطع أن يقول لي ما كنت أرغب في معرفته، حتى إنه لم يفهم اهتمامي هذا بمعرفة طبائع الناس الذين يحيطون بنا. لقد أصغى إلى أسئلتي وهو يبتسم إبتسامة ماكرة ما زالت ماثلةً أمامي إلى الآن. قلت لنفسي: (لا... لا... فإنما يجب أن أعاني كل شيء بنفسي، وأن لا أسأل غيري).

في اليوم الرابع اصطف السجناء صفين في ساعة مبكرة من الصباح في الفناء، أمام مقر الحرس قرب أبواب السجن. وكان من أمامهم ومن ورائهم جنود يمسكون ببنادقهم محشوة بالرصاص، مزوَّدة بالحربة.

إن من حق الجندي أن يطلق النار على السجين إذا حاول السجين أن يهرب، ولكنه يكون في مقابل ذلك مسؤولًا إذا هو أطلق النار من غير حاجة تضطره إلى ذلك. ويسري هذا على حالات العصيان والتمرد التي قد يقوم بها السجناء ولكن من ذا الذي يخطر بباله أن يهرب علنًا على رؤوس الأشهاد؟!...

وصل ضابط من سلاح الهندسة يرافقه (السائق) ([19])، وعدد من ضباط الصف العسكريين، والمهندسين، والجنود المفروزين للأعمال. ونوديَّ على السجناء. فأما الذين يذهبون إلى ورشات الخياطة فقد ذهبوا أول الذاهبين: كان هؤلاء يعملون في السجن نفسه ويعدون الملابس لجميع السجناء. ثم جاء دور الذين

يذهبون إلى العمل في المصانع، وأخيرًا جاء دور الذين يذهبون إلى الأشغال الشاقة في الخلاء. وكنت أنا من بين هؤلاء... وكان عددنا عشرين سجينًا. فوراء القلعة، على الشاطئ المتجلد، كان يوجد سفينتان تملكهما الدولة، وقد أصبحتا غير صالحتين للعمل، ولا قيمة لهما البتة، فكان علينا أن نفكهما حتى لا يضيع خشبهما سدى. الحق أن هذا الخشب لا يساوي شيئًا، لأن حطب التدفئة كان في المدينة زهيد الثمن، فالمنطقة ملأى بالغابات.
وإنما كانوا يكلفوننا بهذه الأعمال حتى لا نبقى عاطلين... وكان السجناء يعرفون ذلك حق المعرفة، لذلك يقومون بهذه الأعمال متراخين متكاسلين. ولا كذلك حين يكون للعمل شأنه وتكون له قيمته، ويكون له ما يسوغه... أو حين يُطلب إلى السجين أن ينجز مهمة محددة معينة... فالسجناء ينشطون عندئذٍ وينتعشون ويمتلئون حيوية... حتى لقد رأيت سجناء يرهقون أنفسهم إرهاقًا شديدًا لينجزوا العمل بأقصى سرعة مع أنهم لا يجنون منه أية فائدة، وذلك لأن كرامتهم أصبح لها دخل في الأمر.
على أن طلب إنجاز مهمة معينة محددة لا يمكن أن يحدث حين يكون العمل من نوع العمل الذي نحن بصدده الآن، أي من الأعمال التي يُطلب إلى السجناء أن يقوموا بها صورة وشكلًا، لا ضرورة وحاجة. ففي مثل هذه الأحوال يستمر العمل إلى أن يُقرع الطبل مؤذنًا بالعودة إلى السجن في الساعة الحادية عشرة من النهار.
كان اليوم دافئًا، وكان الجو مليئًا بالضباب، ويوشك الثلج أن يأخذ بالذوبان. اتجهت جماعتنا كلها نحو الشاطئ وراء القلعة تهز أغلالها. إن الأغلال المختبئة تحت الثياب ترن رنينًا واضحًا جافًا لدى كل خطوة نخطوها. ومضى اثنان أو ثلاثة من السجناء ليجيئوا بالأدوات من المستودع.
سرت مع السائرين. حتى لقد انتعشت قليلًا، لأنني كنت أتمنى أن أرى وأن أعرف نوع الأشغال الشاقة التي سنقوم بها. ما نوع هذه الأشغال الشاقة؟ كيف تراني سأعمل لأول مرة في حياتي؟
ما زلت أتذكر جميع التفاصيل. إلتقينا في الطريق برجل من أهل المدينة ذا لحية، توقف حين رآنا ومد يده إلى جيبه. فسرعان ما انفصل عنا أحد السجناء ومضى إليه مادًا قبعته، فوضع الرجل في القبعة الصدقة التي أراد أن يتصدق بها علينا وهي خمسة كوبكات، وعاد السجين إلينا مُسرعًا. وقد أنفقت هذه الكوبكات الخمسة في ذلك الصباح نفسه في شراء أرغفة صغيرة من الخبز الأبيض وزعت علينا بالتساوي.
وكان بين أفراد جماعتنا أناس عابسون صموتون، وكان بينهم أفراد مرحون لا يبالون شيئًا ولا يحفلون بشيء... وكان بينهم أناس إذا تكلموا ففي كسل وتراخٍ وغير اكتراث. وكان بيننا رجل مرح راضٍ سعيد فرح إلى أقصى الحدود - لا يدري إلا الله لماذا! - فهو لا يني يغني ويرقص طوال الطريق، فترن أغلاله عند كل وثبة يثبها: إن هذا السجين المربوع السمين هو ذلك الرجل نفسه

الذي تشاجر يوم وصولي عند تزاحم السجناء حول الماء ليغسلوا وجوههم وأيديهم، مع رفيق من رفاقه تجرأ أن يزعم أنه طائر من طيور الكاجان، إن اسم هذا الرجل هو سوراتوف، وها هو ذا يأخذ أخيرًا بإنشاد أغنية فرحة مرحة ما زالت لازمتها باقية في ذاكرتي:

بينما كنت بعيدًا
أحمل القمح إلى الطاحون يومًا
زوجوني في غيابي
دون إذني، رغم انفي.
لم ينقصه إلا بالالايكا.

وكان طبيعيًّا أن يستاء عدد من السجناء من مزاجه المرح ذاك، حتى لقد عدوا مرحه إساءة إليهم وإهانة لهم. فهذا أحدهم يقول بلهجة اللوم، رغم أن الأمر لا يعنيه في قليل ولا كثير:

- أخذ صاحبنا يعوي.

وهذا آخر يقول بلهجة تدرك منها أنه من روسيا الصغرى:

- ليس للذئب إلا أغنية واحدة، وقد أخذها عنه هذا التولائي (نسبة إلى مدينة تولا).

فلم يلبث سكوراتوف أن أجاب على الفور:

- صحيح... أنا من تولا... أما أنتم يا أهل بولتافا فإنكم ما تنفكون تزدردون لقم العجين حتى تفطسوا بها اختناقًا.

- كذاب! ما الذي كنت تأكله أنت؟ حساء الكرنب تغرفونه بالنعال المصنوعة من قشر أشجار الزيزفون!

وقال ثالث:

- لكأن الشيطان قد أطعمك جوزًا ولوزًا...

فقال سكوراتوف وهو يتنهد قليلًا من دون أن يخاطب أحدًا بعينه، كأنما هو يشعر بالندم على أنه كان مترفًا:

- الحق يا رفاق أنني إنسان مدلل رخو... لقد نشأت منذ طفولتي في أحضان التَّرَف، فكنتُ آكل الخوخ اللذيذ والخبز الشهي. ولإخوتي الآن تجارة واسعة في موسكو. إنهم من تجار الجملة ينعمون بثراء عريض وغنى كبير، كما ترون...

- وأنت ماذا كنت تبيع؟

- لكل إنسان سجاياه ومزاياه... فأنا مثلًت حين تلقيت أول مائتي...

- مائتي روبل؟ مستحيل.

كذلك قاطعه سجين طلعة انتفض مدهوشًا حين سمع كلامًا عن مبلغ ضخم هذه الضخامة.

- لا.. لا يا عزيزي... لا مائتي روبل... بل مائتي عصا! هيه... لوقا! لوقا!

- بين الناس من يحق لهم أن ينادوني لوقا فقط... أما أنت فلا يحق لك أن تناديني إلا باسمي كاملًا: لوقا كوزمتش.
كذلك أجاب، باستياء، سجينٌ من السجناء، قصير القامة نحيل الجسم مقرن الأنف.
فقال له صاحبه:
- طيب... لوقا كوزمتش... شيطان يأخذك!
- لا... لا يحق لك أن تناديني لوقا كوزمتش... بل يجب عليك أن تخاطبني بقولك: يا عمي المحترم.
- شيطان يأخذ عمي المحترم!... حقًّا إنك لا تستحق أن يخاطبك المرء بكلمة واحدة... ولقد كنت أريد مع ذلك أن أتحدث إليك بمودة وعاطفة وصداقة، أما أنتم يا رفاق، فاسمعوا كيف حدث أن لم ألبث مدة طويلة بموسكو.. جلدوني آخر خمس عشرة جلدة... ثم أرسلوني إلى هنا... ذلك ما حدث!
قال سجين كان يصغي إلى قصته في انتباه:
- ولكن لماذا نفوك؟
-... لا تسأل أسئلة سخيفة! ذلكم هو السبب في أنني لم أصبح غنيًّا... كنت أتلهف على ذلك تلهفًا لا تستطيعون أن تتصوروا مداه!
أخذ كثير من السجناء يضحكون...
إن سكوراتوف واحد من أولئك المرحين الطيبين، والمازحين الخلَّص الذين أخذوا على عاتقهم أن يُسروا عن رفاقهم الحزانى المكتئبين، ولكنهم لا يتلقون في مقابل ذلك إلا الشتائم بطبيعة الحال. إنه ينتمي إلى نموذج خاص من البشر قد أتحدث عنهم في ما بعد.
قال لوقا كوزمتش:
- وها هو ذا الآن سمور شجاع من سمامير سيبيريا!... إن ثيابه وحدها تساوي أكثر من مائة روبل...
كان سكوراتوف يرتدي معطفًا لا يمكن أن يرى المرء معطفًا أعتق منه ولا أخلق ولا أبلى... إنه مرقع في مواضع شتى برقع متهدلة متدلية...
ونظر إلى لوقا نظرة فاحصة من قمة الرأس إلى أخمص القدمين. ثم أجاب يقول:
- ولكن رأسي أيها الرفاق هو الذي يساوي مالًا كثيرًا، وحين ودَّعت موسكو عزَّاني بعض العزاء أن رأسي سيرافقني طوال الطريق فوق كتفي... وداعًا يا موسكو.. شكرًا على حمامك النظيف، وعيشك الطليق... وعلى الجلدات التي جُلدتها... أما معطفي، يا عزيزي، فلست في حاجة إلى أن تنظر إليه.
- لعلك تريد أن أنظر إلى رأسك!
صاح لوقا كوزمتش:
- ويا ليت رأسه له... لقد تصدقوا عليه به في مدينة تومين حين مرَّت بها القافلة.

- سكوراتوف، هل كان عندك مصنع؟
قال أحد السجناء الحزانى:
- أي مصنع يمكن أن يكون عنده؟ لقد كان إسكافيًّا بسيطًا... يدق الجلد على الحجر.
قال سكوراتوف، من دون أن يلاحظ لهجة محدِّثه اللاذعة:
- هذا صحيح، لقد حاولت أن أرقع أحذية، ولكن مجموع ما رقعت لم يتجاوز زوجًا واحدًا من الأحذية.
وهل وجدت من يشتريه منك؟
- نعم... وقعت على شاب لا شك في أنه كان لا يخشى اللّه، لا شك في أنه لم ينل رضى أمه أو أبيه، فعاقبه اللّه، فاشترى ما صنعت!
انفجر جميع من كانوا يحيطون بسكوراتوف ضاحكين مقهقهين.
وتابع سكوراتوف يقول بهدوء لا يعكره شيء:
- ثم عملت مرة أخرى في سجن الأشغال الشاقة، فركبت جلدًا لحذائي ستيفان فيدورتش بومورستيف، الملازم الأول.
- هل أرضاه شغلك؟
- لا واللّه يا رفاق... بالعكس... لقد شتمني شتمًا يمكن أن يكفيني طوال حياتي... ثم لطم قفاي بركبته! ما كان أشد غضبه! آه من هذه الغادرة العاهرة... حياتي في سجن الأشغال الشاقة... خانتني هذه المومس!
قال سكوراتوف ذلك، ثم عاد يغني وهو يضرب الأرض بقدميه راقصًا:
ما هي إلا لحظة من الزمن
إذا بزوج (آكلينا) بغتة
يُغادر البيت إلى صحن الدار
جمجم السجين الوافد من روسيا الصغرى يقول وهو ينظر إليه نظرة شزراء، وكان يسير بجانبي:
- ما أقل حياءه.
وقال آخر بلهجة جادة قاطعة:
- هذا رجل لا خير فيه! لم أستطع أن أفهم أبدًا لماذا كانوا يذمون سكوراتوف، ولماذا كانوا يحتقرون السجناء المرحين كما أتيح لي أن ألاحظ ذلك. وقد عزوت غضب السجين الوافد من روسيا الصغرى وعزوت غضب الآخرين إلى عداوة شخصية بينهم وبين سكوراتوف غير أنني أخطأت الظن والتقدير. فإنما هم كانوا ساخطين على سكوراتوف لأنه لم يكن يصطنع هيئة الوقار الزائف التي كان يصطنعها كل من في السجن، ولأنه كان رجلًا لا خير فيه على حد تعبيرهم. ومع ذلك فقد كانوا لا يحنقون على جميع المازحين، ولا يعاملونهم جميعًا كما كانوا يعاملون سكوراتوف. لقد كان من بين المازحين من يعرفون كيف يدافعون عن أنفسهم، ولا يغفرون لأحد أن يسيء إليهم في شيء، فكان الآخرون يحترمونهم ويوقرونهم شاءوا أم أبوا. كان بين عصبتنا واحد من هذا

النوع، فتى لطيف دائم الفرح لم أعرفه على حقيقته إلا في ما بعد. كان شابًا فارع الطول، حسن القامة، على خده شامة كبيرة جميلة وكان في وجهه تعبير مضحك جدًّا، وإن يكن على جانب من وسامة الطلعة ونباهة العقل. كان هذا الشاب يدعى بإسم (المستكشف)، لأنه كان قد خدم في سلاح الهندسة، وهو ينتمي الآن إلى القسم الخاص. وسأتحدث عنه فيما بعد.
هذا إلى أن السجناء (الجادين) لم يكونوا جميعًا يفصحون عن أنفسهم كصاحبنا السجين الوافد من روسيا الصغرى، حين يسوؤهم أن يروا الرفاق مرحين. لقد كان في سجننا أفراد يهدفون إلى الظهور ويرغبون في التميز ويسعون إلى التفوق، سواءً بما أوتوه من حذق في العمل أو براعة في التصرف أو قوة في الطبع أو توقد في الذهن. وكان عدد كبير منهم يملكون ذكاء وقوة، ويصلون إلى تحقيق الأهداف التي يرمون إليها، ألا وهي أن يكون لهم على رفاقهم سلطان وغلبة ونفوذ، وكان هؤلاء يناصب بعضهم بعضًا أشد العداء، وكان لهم حسَّاد كثيرون. وكانوا ينظرون إلى سائر السجناء بوقار ورصانة يمازجها لطف وتواضع، ولا يشتجرون في غير داعٍ إلى الاشتجار. ولما كان رأي إدارة السجن فيهم حسنًا، فإنهم يتولون تسيير الأعمال بمعنى من المعاني. ما من أحد منهم ينزل إلى مستوى التشاجر بسبب أغانٍ تُغنّى مثلًا: إنهم لا ينحدرون إلى هذه الدرجة. ولقد كان جميع هؤلاء لطافًا مهذبين في معاملتي طوال المدة التي قضيتها في السجن، ولكنهم لا يسارّونني كثيرًا، وسيأتي حديث هذا بالتفصيل أيضًا.
وصلنا إلى الشاطئ، إن المركب العتيق الذي يجب علينا أن نفككه غاطس، تحت، في جليد النهر. وعلى الطرف الآخر من النهر كانت تمتد المروج زرقاء، ويلوح الأفق حزينًا مُقفرًا. كنت أتوقع أن أرى جميع السجناء ينهضون للعمل بجد ونشاط وحماسة. ولكن لم يحدث شيء من ذلك، فهاهم أولاء بعض السجناء يجلسون بغير اكتراث ولا مبالاة على جذع شجرة كانت ملقاة قرب الشاطئ. وها هم جميع السجناء تقريبًا يسلون من أحذيتهم أكياسًا تحتوي على تبغ من التبغ الذي يدخنه سكان هذه المنطقة (وكان يباع في السوق أوراقًا، سعر الرطل منه ثلاثة كوبكات)، فيشعلون غلايينهم بينما يتحلق الجنود من حولنا ويستعدون لمراقبتنا وقد ظهرت في وجهوهم أمارات الضجر وعلامات السأم.
قال أحد السجناء بصوت عالٍ من دون أن يتجه بكلامه مع ذلك إلى أحد:
- من ذا الذي خطر بباله تفكيك هذا المركب؟ أتراهم في حاجة إلى حطب؟
فقال آخر:
- إن من خطرت ببالهم هذه الفكرة الجميلة هم أولئك الذين لا يخافون منا يا صاحبي!
وقال الأول بعد صمت:
- أين يذهب هؤلاء الفلاحون؟

إنه لم يسمع الجواب عن سؤاله. فهو يلقي سؤالًا جديدًا، مُشيرًا بأصبعه إلى جماعة من الفلاحين كانوا يسيرون رتلًا متلاحقًا، في بعيد، فوق الثلج الذي لم تطأه قدم بعد. إلتفتَ جميع السجناء إلى تلك الجهة في توانٍ وكسل، وأخذوا يتهكمون على هؤلاء المارة تزجية للوقت. كان أحد هؤلاء الفلاحين، وهو آخرهم في الرتل، يمشي مشية غريبة مضحكة مباعدًا ذراعيه مائلًا برأسه إلى جانب؛ وكان يضع على رأسه قلنسوة عالية جدًّا لها شكل قالب من الفطير. وكان ظل قامته يرتسم ارتسامًا واضحًا على الثلج الأبيض.

قال أحد رفاقي وهو يقلد نطق الفلاحين:

- انظروا إلى لباس أخينا بتروفتش ما أجمله!

والغريب في الأمر أن السجناء كانوا ينظرون إلى الفلاحين نظرة استعلاء وتكبر، رغم أن أكثرهم، هم أنفسهم، من الفلاحين.

- وانظروا إلى آخرهم خاصةً... لكأنه يزرع فِجلًا!

قال ثالث:

- ما أضخم قلنسوته... لا شك أن عنده مالًا كثيرًا.

وأخذ السجناء جميعًا يضحكون، ولكن في رخاوة وتوانٍ، كأنما هم يضحكون على مضض. وفي أثناء ذلك وصلت بائعة أرغفة من الخبز الأبيض: إنها امرأة نشيطة الحركة، يقظة الهيئة. فاشترى منها السجناء خبزًا بالكوبكات الخمسة التي تصدق عليهم بها أحد سكان المدينة، واقتسموها بالتساوي.

واشترى الفتى الذي يبيع أرغفة الخبز الأبيض في السجن، اشترى من المرأة عشرين رغيفًا بعد أن أجرى بينه وبينها مناقشة حارة حادة في سبيل أن تنقص له الثمن؛ ولكنها لم تقبل، فقال لها:

- طيب... ألا تعطينني (هذا) على الأقل؟

- ما هو؟

- هذا الذي تعاف أكله الفئران.

قالت المرأة صامتة مقهقهة:

- طاعون يصيبك.

وأخيرًا وصل صف الضابط المكلف بمراقبة العمل، يحمل بيده عصا، فقال:

- لماذا تقعدون؟ هيا ابدؤوا العمل!

فأجابه أحد (المتزعمين)، يقول وهو ينهض متثاقلًا:

- عيَّن لنا أعمالًا يا إيفان ماتفئتش.

- إنما عملكم أن تخرجوا المركب، فماذا تريدون أكثر من ذلك؟

ونهض السجناء أخيرًا ونزلوا نحو النهر بخطى بطيئة متثاقلة. وظهر (مديرون) كُثر، مديرون قولًا لا فعلًا، على الأقل. كان ينبغي أن لا يُحطم القارب كيفما اتفق، وإنما يجب الإحتفاظ بألواح الخشب سليمة لم يمسسها أذى، ولا سيما الألواح العرضانية المثبتة في قاع المركب على طوله، وذلك عمل طويل مضجر.

صاح أحد السجناء يقول، ولم يكن (مديرًا) ولا (متزعمًا) بل كان عاملًا بسيطًا:
- إنما يجب سحب هذا اللوح قبل كل شيء... هيا يا شباب!...
إن هذا الرجل المسالم الذي كان على جانب من غباء لم يقل قبل الآن كلمة واحدة؛ وها هو ذا ينحني فيمسك بيديه لوحًا ثقيلًا من ألواح الخشب مُنتظرًا أن يهب الآخرون إلى مساعدته، ولكن أحدًا لم يُلب نداءه.
دمدم واحد يقول من بين أسنانه:
- حاول! إنك لن ترفعه ولو جاء جدّك الدب لما استطاع إلى رفعه سبيلًا.
- هه! ألا نبدأ يا إخوان! إنني لا أعرف كيف...
كذلك قال الرجل الذي بادر إلى العمل، وكان مرتبك الهيئة وهو يترك اللوح وينهض منتصبًا.
لن تقوم بالعمل كله وحدك فلماذا هذا التعجل؟
فأجاب المسكين حائرًا مضطربًا يقول معتذرًا:
- ولكنني يا رفاق ما قلت قولي إلَّا هكذا..
صرخ صف الضابط المكلف بمراقبة العمل، وهو ينظر إلى هؤلاء الرجال العشرين الذين لا يعرفون كيف يبدؤون عملهم وبماذا يبدؤونه:
- هل يجب أن ندثركم بأغطية تستدفؤون بها؟ أم هل يجب أن ندخركم مؤونة لفصل الشتاء؟
رد أحد السجناء:
- من تأنى نال ما يتمنى، والعجلة من الشيطان يا إيفان ما تفئتش ليس المتسرع بمنجز عمله.
- ولكنك لا تعمل شيئًا البتة يا سافليف! ما لك تظل محملقًا بعينيك؟ أتراك تريد أن تبيعهما؟... هيا ابدؤوا.
- ما عساي أفعل وحدي.
- حدد لنا عملًا يا إيفان ما تفئتش.
- قلت إنني لن أحدد لكم أعمالًا بعينها. كل ما عليكم هو أن تفكوا المركب فمتى فرغتم من ذلك انصرفتم إلى المنزل. هيا ابدؤوا.
أخذ السجناء يعملون، ولكنهم يعملون على مضض، في توانٍ وتراخٍ وكسل. إن المرء ليفهم حنق الرؤساء وغيظهم حين يرى هذه الجماعة من الرجال الأشداء الأقوياء مقبلين على العمل بهذا التواني كأنهم لا يعرفون كيف يبدؤون. وما إن انتزعت العارضة الأولى وهي صغيرة جدًّا حتى انكسرت، فأسرع السجناء يقولون للمفوض من قبيل التسويغ والتبرير: (انكسرت من تلقاء ذاتها. كان لا بد من العمل بطريقة أخرى، كان لا بد من تدبّر المهمة والاحتيال عليها على نحو آخر. ما العمل؟). وأعقبت ذلك مناقشة طويلة بين السجناء استحالت شيئًا فشيئًا إلى مسبات وشتائم، وكاد الأمر يمضي إلى أبعد من ذلك... وصرخ المراقب من جديد ملوحًا بعصاه، ولكن العارضة الثانية انكسرت كما انكسرت العارضة الأولى. وأدرك الجميع عندئذٍ أنهم بحاجة إلى

فؤوس وأدوات غير هذه الأدوات، فأرسل إلى القلعة شابانَ يحرسهما خفير للمجيء بآلات أخرى وجلس سائر السجناء بانتظار عودتهما على المركب جلسة هادئة مريحة واستلوا غلايينهم وعادوا يدخنون.
بصق المراقب احتقارًا ثم دمدم يقول ممتعضًا متأففًا:
- إن العمل الذي تقومون به لن يقتلكم... تبًا لكم من ناس... تبًا لكم من ناس!
قال ذلك ثم حرك يده بإشارة تدل على التذمر، ومضى إلى القلعة وهو يهز عصاه ويلوح بها.
وبعد ساعة من الزمان أقبل الناظر فأصغى إلى كلام السجناء بهدوء ثم أعلن أنه عليهم أن يفكوا أربع عوارض بكاملها من دون أن تنكسر وأن يقوضوا جزءًا كبيرًا من المراكب حتى إذا أنجزوا هذا العمل كان في وسعهم أن يعودوا إلى المهاجع. إن المهمة ضخمة في الواقع. ولكن ليتك رأيت السجناء كيف اندفعوا إلى العمل اندفاعًا وكيف خفوا إليه سراعًا! أين هذا مما كانوا فيه منذ هنيهة من كسل وتراخٍ وجهل؟ ها هي الفؤوس ترتفع وتهوي حتى لكأنها ترقص، فتخرج المساميرَ والأوتادَ؛ والذين لا يملكون فؤوسًا يدسون تحت العوارض هراوات ثخينة فإذا بالعوارض تخرج سليمة لم يمسسها سوء. ما كان أشد دهشتي حين كنت أراها تُرفع كاملة وتُنزع صحيحة لم تتحطم ولم تنكسر! كان السجناء يسرعون في عملهم، وكأنهم قد أصبحوا على جانب عظيم من الذكاء دفعة واحدة. هم الآن لا يتحدثون ولا يتشاتمون، وكل واحد منهم يعرف حق المعرفة ما كان عليه أن يقوله وما كان عليه أن يعمله وما كان عليه أن ينصح به، ويعرف المكان الذي يجب أن يقف فيه والموضع الذي يجب أن يكون عنده. وفرغ السجناء من إنجاز المهمة التي عُهد إليهم بإنجازها قبل أن يُقرع طبل العودة بنصف ساعة، فرجعوا إلى المنزل ([20]) متعبين مكدودين لكنهم رجعوا مسرورين مبتهجين بأنهم اختصروا نصف ساعة من الوقت الذي يفرض عليهم النظام أن يعملوا أثناءه. أما في ما يتصل بي فقد لاحظت أمرًا غريبًا وهو أنني حيثما حاولت أن أعمل وأساعد شعرت أنني في غير مكاني، فلقد كانوا يضيقون بي وينزعجون مني ويطردونني من كل جهة أمضي إليها وهم ينهرونني نهرًا يوشك أن يكون إهانة أو شتمًا.
وهذا واحد منهم وهو أرثهم ثيابًا وأحقرهم هيئة، واحد منهم ما كان له أن يجرؤ أن يتفوه بكلمة واحدة أمام السجناء الآخرين الذين هم أكثر منه ذكاءً وحذقًا، يشعر أن من حقه أن يزجرني إذا أنا اقتربت منه زاعمًا أنني أضايقه في عمله. وأخيرًا قال لي أحدهم وهو من أكثرهم حذقًا ومهارة، قال لي بصراحة وفظاظة:
- ما مجيئك إلى هنا؟ ما عساك تستطيع أن تعمل؟ هيا امضِ! لماذا تأتي حين لا يستدعيك ولا يناديك أحد؟
وسرعان ما قال آخر:

- دع عنك هذا.
وصاح ثالث يقول:
- أولى بك أن تحمل جرّة فتمضي تحمل ماءً إلى المنزل الذي يبنيّ هناك أو أن تذهب إلى الورشة التي يُفْرَم فيها التبغ: فلا حاجة بنا إليك هنا ولا عمل لك في هذا المكان.
اضطررت أن أتنحى. ألا أن الإبتعاد جانبًا حين يعمل الآخرون لأمر يشعر منه المرء بالخزي والعار، وحين مضيت إلى الطرف الآخر من المركب ازدادوا شتمًا لي وازدراءً بي وكانوا يقولون: (انظروا إلى هؤلاء العمال الذين يرسلونهم إلينا! ما حاجتنا إلى مثل أولئك الفتيان الأشداء؟...).
ولقد كانوا يقولون ذلك كله عامدين. كان يسعدهم أن يسخروا بنبيل من النبلاء، فكانوا ينتهزون هذه الفرصة ليرضوا حاجتهم إلى ذلك ويحققوا رغبتهم فيه. ولا شك أن القارئ يفهم الآن لماذا كانت الفكرة الأولى التي قامت في ذهني عند دخولي السجن هي أنني تساءلت كيف ينبغي أن يكون سلوكي مع هؤلاء الناس؟ لقد كنت أحس أن حوادث كهذه الحوادث لا بد أن تتكرر كثيرًا لكنني قررت أن لا أُغيِّر خطتي مهما كانت هذه الاحتكاكات وهذه الاصطدامات. كنت أعلم أنني على صواب في تفكيري هذا، فقررت أن أحيا بينهم على بساطة واستقلال من دون أن أظهر أيسر رغبة في التقرب إليهم، ولكن من دون أن أصدهم أيضًا إذا هم أرادوا أن يتقربوا إليَّ من تلقاء أنفسهم؛ وقررت أن لا أخشى أبدًا تهديداتهم وأن لا أخاف كرههم وبغضهم وأن أتظاهر ما أمكنني التظاهر بأنني لا ألاحظ هذه التهديدات ولا ألقي بالًا إلى هذا الكره وهذا البغض، وقررت أن أنأى عنهم في بعض اللحظات وأن لا أشاطرهم بعض ما أَلَفوه من عادات، أي قررت أن لا أنشد مصاحبتهم وأن لا أسعى إلى مرافقتهم. لقد شعرت أنهم سيحتقرونني إن لم أسلك هذا السبيل. وأيقنت فيما بعد أن محتدّي النبيل يخوّلني في نظرهم حق الاستعلاء عليهم ويبيح لي أن أقتضيهم مداراتي ومراعاتي وأن أكون في معاملتهم صعب المراس وأن لا أعمل بيدي قَطّ. صحيح أن مثل هذا السلوك سيحملهم على شتمي وسبِّي في سرهم ولكنه سيجبرهم على أن يحترموني. غير أنني كنت عاجزًا عن تمثيل هذا الدور. لم أستطع في يوم من الأيام أن أصطنع تلك المظاهر التي كانوا يعدونها لائقة بالسادة النبلاء، ولكنني عزمت عزمًا قاطعًا على أن لا أتنازل عن شيء من تربيتي وعلى أن لا أفرِّط في شيء من اقتناعاتي الحميمة. ولو قد حاولت أن أنال الحظوة عندهم برفع الكلفة بيني وبينهم لعدوني جبانًا ولعاملوني كما يعامل جبان.
لم يكن أ... ف بالمثل الصالح الذي يجب أن أقتدي به. لقد كان يشي بهم إلى الميجر فكانوا يخشونه، ويخافون منه. ولم أكن من جهة أخرى أحرص على أن أنفر منهم وأن أبتعد عنهم مستعليًّا متكبرًا متجبرًا كما كان يفعل البولنديون. ولقد شعِرت بِما يحملون لي من عداوة وبغضاء، فكنت أحاول أِن أكون مُفيدًا

نافعًا بدلًا من أن أشكو حظي وأندب نفسي. ولئن كنت مقتنعًا بأنهم سيغيِّرون رأيهم فيَّ بعد حين فلقد كنت أشعر بغير قليل من المذلة والهوان حين كنت أرى أنني أحاول أن أعمل دون أن أعرف كيف أصل لذلك وكيف أتدبره، وحين كنت أُلاحظ أن هذا يحملهم على ازدرائي إزدراءً مشروعًا.

حين عدت في المساء إلى المنزل بعد العمل متعبًا مضطربًا استولى عليَّ حزن عميق. قلت لنفسي: (لسوف أعيش على هذا النحو نفسه آلاف الأيام). وفيما كنت أتريض وحيدًا واجمًا مُفكرًا مع هبوط الليل على طول السور وراء الثكنات رأيت بولو يهرع نحوي قُدُمًا على حين فجأة. إن بولو هذا كلب السجن. ذلك أن للسجن كلبه كما كان لكتائب الفرسان وفصائل المشاة وبطاريات المدفعية كلابها. إنه يعيش في هذا السجن منذ زمن طويل. وهو لا ينتمي إلى أحد بعينه بل يَعدُ كل واحد من السجناء مولاه، وهو يعيش من فضلات المطبخ وفتات الطعام. إنه كلب كبير أسود ذو بقع بيضاء، ليس بالمسن كثيرًا، له عينان ذكيتان وذنب كثيف. لم يكن يلاعبه أحد ولم يكن ينتبه إليه أحد وقد جعلته صديقًا لي مسرورًا محبورًا. وإذ أنه لم يرني طوال ذلك النهار أنا الذي كنت أول من خطر بباله أن يلاطفه منذ سنين فقد مضى يبحث عني في كل مكان حتى إذا لمحني أسرع يلقاني وهو ينبح. لا أدري ما الذي شعرت به عندئذٍ ولكنني أخذت أقبله وضممت رأسه إلى صدري فوضع رجليه على كتفي وأخذ يلعق وجهي. قلت لنفسي هذا هو الصديق الذي ترسله إليَّ الأقدار. وصرت طوال الأسابيع الأولى الشاقة التي قضيتها في السجن أمضي وقتًا مع بولو كلما عدت من العمل في المساء وقبل أن أعنى بأي شيء آخر، أمضي مع بولو مُسرعًا إلى ما وراء الثكنات، فكان بولو يتواثب أمامي فرحًا وكنت أتناول رأسه بذراعي وأقبله ثم أقبله ثم أقبله. كان شعور عذب جدًّا يستولي على قلبي وكان هذا الشعور في الوقت نفسه ممضًا مُرًّا. ما زلت أتذكر كم كان يسرني أن أتصور (لقد كنت أتلذذ بعذابي) أنه لم يبق في هذا العالم إلَّا مخلوق واحد يحبني ويتعلق بي منذ وصولي لأني نفحته قطعة من الخبز. كنت إذا لاعبته جمد في مكانه ساكنًا وأخذ يلقي عليَّ نظرات وديعة ويحرك ذيله في رفق وهدوء هو صديقي، صديقي الوحيد، كلبي الوفي بولو.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

7

أصحاب جدد

بتروف

ولكن الزمان كان ينقضي حتى ألفت حياتي الجديدة شيئاً فشيئاً. أصبحت المشاهد التي أراها أمام عيني كل يوم لا تحزنني كما كانت تحزنني من قبل، ويمكن أن أقول بإيجاز أن السجن وسكانه وعاداته أصبحت تتركني غير مبالٍ ولا مكترث، صحيح أن النصائح مع هذه الحياة كان أمرًا مستحيلًا، ولكن كان عليَّ أن أقبل هذه الحياة من حيث أنها لا محيد عنها ولا مناص منها. دفنت في أعماق نفسي جميع أنواع القلق التي كانت تهزني وتبث الاضطراب في قلبي.. أصبحت لا أطوف في أرجاء السجن ضائعًا تائهًا ولا أدع للغم أن يستولي عليّ. وقد قل الفضول المتوحش الذي كان يحيطني به السجناء فأصبحوا لا ينظرون إليَّ بتلك الوقاحة المتصنعة التي كانوا ينظرون إليَّ بها قبل ذلك. أصبح أمري لا يعنيهم كثيراً. وقد أرضاني هذا كل الرضى.

صرت أتجول في الثكنة كأنني أتجول في منزلي، حتى إذا جاء الليل عرفت مكاني الذي آوي إليه. حتى لقد ألفت أمورًا كان تصورها وحده يمكن أن يبدو لي قبل ذلك أمرًا لا سبيل إلى قبوله. أصبحت أذهب كل أسبوع إلى الحلاق أسلمه رأسي ليحلقه لي. لقد كنا ندعي في كل يوم من أيام السبت إلى مقر هيئة الحرس بعضًا وراء بعض، فكان حلاقو الفوج يغسلون جماجمنا بماء الصابون البارد في غير شفقة ولا رحمة ثم يكشطونها بأمواسهم المثلمة كشطًا. إنني ما أن أتذكر هذا العذاب حتى تسري في جلدي رعشة. على أنني لم ألبث أن وجدت دواء، فإن أكيم أكيمتش قد دلني على سجين من القسم العسكري كان يحلق للراغبين بموساه الخاصة ويتقاضى أجره على ذلك كوبكًا واحدًا. هذا هو مورد رزقه. كان كثير من السجناء يختلفون إليه تحاشيًا للحلاقين من العسكريين دون أن يكونوا مع ذلك أناسًا مترفين. وكان حلاقنا يطلق عليه اسمه (الميجر) لا أدري لماذا! ولو سألتني عن وجوه الشبه بينه وبين الميجر لارتبكت فما أعرف بماذا أجيب. إنني وأنا أكتب هذه الأسطر أرى ذلك (الميجر) ووجهه الضامر رؤية واضحة. إنه شاب طويل القامة كثير الصمت بليد العقل دائم الاستغراق في مهنته. ما كان يُرى قط إلا وفي يده سير جلدي يسن عليه في الليل والنهار موسى حادة. لا شك أنه قد اتخذ هذا العمل غاية قصوى لحياته. ولقد كان يشعر فعلاً بسعادة عظمى حين يحسن سنَّ موساه وحين يجيئه أحد يلتمس خدماته. وكانت صابونته ساخنة دائمًا وكانت يده خفيفة جدًّا كالمخمل لينًا ورفقًا، وكان هو يزهو بحذقه ويتباهى

بمهارته حتى إذا ألقي إليه بأجره، وهو كوبك واحد، تناوله غير مقبل عليه ولا حافل به فكأنه كان يعمل شغفًا بالفن لا طمعًا بالأجر.
وفي ذات يوم بينما كان آ.... ف يتكلم عن هذا الحلاق زلت لسانه فسماه بالميجر وكان ذلك بحضور الميجر نفسه من سوء الحظ فاستشاط الميجر غيظًا واستبد به حنق شديد فعاقب الرجل عِقابًا صارمًا. صاح يقول له وهو يهزه هزًا قويًا والزبد يرغي في فمه:
- هل تعلم يا وغد ما معنى ميجر؟ هل تدرك يا وغد ما قيمة الميجر؟ فكيف تجرؤ أن تسمي باسم الميجر سجينًا حقيرًا أمامي وبحضوري؟
وكان آ... ف الشخص الوحيد الذي يستطيع أن يتفاهم مع إنسان كهذا الإنسان.
لقد بدأت أحلم بإطلاق سراحي منذ أول يوم من أيام اعتقالي. كان الشاغل الوحيد الذي أوثره على غيره هو أن أعد الأيام التي سأبقاها في السجن، أعدها ألف مرة ومرة، بألف طريقة وطريقة، كنت لا أستطيع أن أفكر في شيء آخر. إن كل سجين محروم من حريته لأجل معلوم لا يفعل غير ما أفعل. ذلك أمر لا يراودني فيه شك. لا أستطيع أن أقول هل كان السجناء يعدون الأيام مثلما أعدها. ولكن جموح أحلامهم وطيش آمالهم واندفاعهم في الأمنيات كان يدهشني كثيرًا. إن الأمال التي تداعب نفس السجين تختلف اختلافًا أساسيًا عن الآمال التي يتغذى بها قلب إنسان حر طليق. إن الإنسان الحر الطليق قد يرجو تحسين أوضاعه أو تحقيق مشروع من مشاريعه، ولكنه بانتظار ذلك يحيا ويعمل. فالحياة الواقعية تجره في إعصارها، أما السجين: إنه يحيا إذا شئتم، ولكن ما من سجين محكوم بالأشغال الشاقة عددًا من السنين يسلِّم بقدره على أنه شيء حاسم، على أنه جزء من حياته الحقيقية. تلك غريزة لديه. هو يحس أنه في غير منزله؛ هو يحسب أنه في زيارة إن صح التعبير؛ هو ينظر إلى السنين العشرين التي حُكم عليه بها نظرته إلى سنتين في أكثر تقدير؛ هو واثق من أنه حين يقضي مدة حكمه في الخامسة والخمسين من عمره لن يكون أقل نضارة ولن يكون أقل فتوة منه في الخامسة والثلاثين؛ هو يحدث نفسه قائلًا: (ما يزال أمامنا زمان طويل نحياه)، وهو يطرد في إصرار وعناد الخواطر التي تُثبط العزيمة والشكوك التي تفت في العضد. وحتى المحكوم بالسجن المؤبد يأمل أن يصل في ذات يوم أمر من بطرسبرج يقول: (انقلوا فلانًا إلى مناجم نرتشسنسك وحدِّدوا موعدًا للإفراج عنه. ما أجمل هذا! أولًا لأن الوصول إلى نرتشسنسك يستغرق ما يقرب من ستة أشهر ولأن حياة القافلة المتجهة إلى مكان من الأمكنة أفضل من الحياة في السجن مائة مرة؛ وثانيًا لأنه سيقضي فترة الاعتقال في نرتشسنسك ثم...).
ما أكثر الشيوخ الشيب الذين يفكرون على هذا النحو!

ورأيت في توبولسك رِجالًا مشدودين إلى الجدران بسلاسل. إن طول السلسلة متران. وعلى مقربة منهم مضاجع يرقدون فوقها. إنهم يُشدّون بهذه السلاسل لجريمة ارتكبوها بعد ترحيلهم إلى سيبيريا، وهم يلبثون على هذه الحال من التكبيل بالأغلال خمس سنين أو عشرة، جميعهم تقريبًا من قطاع الطرق. لم أرَ بينهم إلا واحدًا كان يبدو عليه أنه إنسان طيب المحتد. كان في الماضي موظفًا في إحدى دوائر الدولة. وهو يتكلم بلهجة حلوة، ويصفر أثناء حديثه، ويصطنع ابتسامة محببة. لقد أظهرنا على السلسلة التي كُبل بها، وذكر لنا الطريقة المثلى للاضطجاع والرقود لا شك أنه إنسان لطيف. ولقد كان جميع هؤلاء الأشقياء يسلكون سلوكًا لا غُبار عليه، حتى لكأن كُلًا منهم راضٍ عما كُتِبَ له. ولكن الرغبة في إنهاء مدة التكبيل تحرقه حرقاً وتأكل نفسه أكلاً، فإذا سألتموني لماذا؟ قلت لأنه سيخرج عندئذٍ من زنزانته الواطئة الخانقة الرطبة التي لا تعدو أن تكون نوافذها أجرات منزوعة من أماكنها، وسيستطيع عندئذٍ أن يخرج إلى فناء السجن وأن.... بل هذا كل شيء فلن يسمح له يوماً بالخروج من فناء السجن. إنه لا يجهل أن جميع الذين كُبلوا بالسلاسل لن يبرحوا السجن في يوم من الأيام، وأنه سيقضي في السجن عمره كله، وأنه سيقضي فيه نحبه. إنه يعلم ذلك، لكنه يتمنى أن يتخلص من سلسلته؛ وهل كان يمكنه لولا هذا التمني أن يبقى مشدودًا إلى جدار خمس سنين أو ستًا دون أن يموت أو يجن؟ هل يمكنه أن يقاوم هذا؟

سرعان ما أدركت أن العمل وحده يستطيع أن ينقذني، أن يقوي صحتي وجسمي، على حين أن القلق النفسي المستمر والاهتياج العصبي الدائم، والهواء المحبوس الموبوء في الثكنة، سيهدمني تهديمًا. كنت أُحدث نفسي قائلًا: (إن الهواء النقي والتعب اليومي وتعود حمل الأثقال لا بد أن يقويني، فبفضل ذلك سأخرج من السجن سليمًا مُعافى قوي الجسم موفور الحيوية). ولم يخطئ ظني فإن العمل والحركة قد نفعاني كثيرًا.

وما أشد ما كنت أشعر به من جزع حين كنت أنظر إلى أحد رفاقي (وهو سيد من السادة) فأراه يذوب كما تذوب شمعة، مع أنه حين وصل إلى السجن يوم وصولي أنا كان شابًا وسيم المحيا قوي البنية صلب العود، حتى إذا خرج من السجن كانت صحته قد تدمرت، وكان شعره قد إبيضَّ، وكانت ساقاه قد ضعفتا فما تحملانه، وكان الربو يخنق صدره خنقًا. كنتُ حين أنظر إليه أقول لنفسي: (لا، إنني أريد أن أعيش، ولسوف أعيش). ولقد كان من شأن حبي للعمل أن جلب لي في أول الأمر احتقار رفاقي وازدراءهم بي وسخرياتهم اللاذعة مني، ولكنني كنت لا ألقي بالًا إلى هذا، وكنت أمضي نشيطًا إلى حيث أُرسل لعمل من الأعمال، كحرق الرخام ودقه مثلًا. إن هذا العمل كان من أول الأعمال التي عهد إليَّ بها، وهو عمل سهل. ولقد كان المهندسون يحاولون جهدهم أن ييسروا العمل على السجناء الذين ينتمون إلى طبقة النبلاء. والحق أن ذلك لم يكن من قبلِ التسامح والمحاباة، بل كان ضرباً من

العدالة والإنصاف. وإلا أفلا يكون غريباً أن يكلف بعمل واحد بعينه رجل ألف العمل بيديه ورجل آخر لا تبلغ قواه نصف قوى الأول ولا عمل بيديه في يوم من الأيام على أن هذا (التدليل) لم يكن مستمرًا، حتى لقد كان يتم خفيه لأن الرقابة علينا كانت شديدة. وإذ لم تكن الأعمال المضنية المرهقة نادرة فكثيرًا ما كان يتفق أن تكون المهمة فوق ما تطيقه قوة النبلاء. فكان هؤلاء يلقون من العناء والعذاب ضعفي ما كان يلقاه منهما رفاقهم. كان يرسل لدق الرخام ثلاثة رجال أو أربعة في العادة، هم في غالب الأحيان تقريبًا شيوخ أو أشخاص ضعفاء - ونحن من هؤلاء طبعًا، يضم إليهم عامل خبير عارف بالمهنة. وقد ظل يصحبنا إلى عملنا هذا شخص واحد خلال عدة سنين هو ألمازوف. إنه رجل قاسٍ، مسن، قد لوحته الشمس، هزيل هُزالًا شديدًا، وهو إلى ذلك قليل الكلام صعب المراس. كان يحتقرنا احتقارًا عميقًا، ولكنه يبلغ من قلة التعبير عن دخيلته أنه كان لا يكلف نفسه عناء شتمنا أو إهانتنا. والسقيفة التي كنا نحرق الرخام تحتها قد بنيت على الشاطئ الوعر المنحدر المقفر من النهر. وكان منظر النهر في الشتاء حزينًا حيث يكثر الضباب. وتبدو الضفة المقابلة عندئذٍ بعيدة بعيدة، إن في هذا المنظر المتوحش المتجهم الأجرد لشيئًا يقبض الصدر ويمزق القلب، ولكن المرء يشعر بمزيد من الحزن حين تشرق شمس ساطعة فوق هذا السهل الأبيض الممتد إلى غير نهاية. إن المرء يتمنى عندئذٍ لو يطير إلى بعيد في هذه السهوب التي تبدأ عند الضفة الأخرى وتمتد إلى أكثر من ألف وخمسمائة فرسخ جنوبًا، منبسطة كأنها غطاء واسع. كان ألمازوف يأخذ في العمل صامتًا عابس الوجه مكفهر الأسارير، وكنا نشعر بالخجل من أننا لا نستطيع أن نساعده مساعدة ذات قيمة، ولكنه كان ينهي عمله وحده لا يطلب منا عونًا كأنما هو يريد أن يفهمنا ذنوبنا في حقه وأخطاءنا تجاهه وأن يجعلنا نشعر بالحسرة والأسف من أننا أناس لا خير فينا، ولا فائدة منا. وكان هذا العمل هو إشعال الفرن لحرق الرخام الذي نكوِّمه فيه.

حتى إذا احترق الرخام احتراقًا تامًا في اليوم التالي كان علينا أن نخرجه من الفرن. فكان كل واحد منا يتناول مجرفة ثقيلة فيملأ صندوقًا من الرخام المحترق ويأخذ يدقه. إن هذا العمل لممتع، فالرخام الهش سرعان ما يستحيل إلى تراب أبيض ساطع. إنه يتفتت بسرعة وسهولة. كنا نرفع مطارقنا الثقيلة ونهوي بها على الرخام بضربات رهيبة نعجب بها نحن أنفسنا؛ حتى إذا تعبنا شعرنا بمزيد من الخفة والنشاط. إن خدودنا تحمر وإن الدم يتدفق في عروقنا تدفقًا أسرع. وكان أرمازوف يتفضل عندئذٍ بالنظر إلينا متواضعًا مترفِّقًا متلطفًا كأنما هو ينظر إلى صبية صغار. وكان يدخل غليونه في هذه الأثناء وقد لاح في وجهه الرضى والتسامح دون أن يستطيع منع نفسه من التأفف والتذمر مع ذلك متى فتح أحد فمه. وكذلك كان أمره مع جميع الناس على كِلِّ حالِ. وأظن أنه في قِرارةِ نفسه رجل طيب شهم.

وقد كُلَفت أيضًا بعمل آخر هو أن أدير رحى المخرطة. كانت هذه الرحى عالية ثقيلة، وكان لا بد لي من بذل جهود كثيرة من أجل أن أديرها، لا سيما حين يكون العامل وهو من عمال ورشات سلاح الهندسة بصدد صنع درابزين سلّم أو قائمة منضدة كبيرة مما يحتاج إلى جذع شجرة كامل تقريبًا. وإذ لم يكن في وسع رجل واحد أن ينهض بهذا العمل، فقد كانوا يرسلون سجينين هما أنا والسجين (ب...) ([21]) الذي كان ينتمي إلى طبقة السادة في الماضي. كان هذا العمل يقع على عاتقنا في جميع الأحيان تقريبًا خلال عدة سنين متى كان هنالك شيء يجب خراطته، وكان ب... ضعيف البنية هزيل الجسم ما يزال شابًا، وكان مصابًا بمرض في صدره. لقد سُجن قبلي بسنة مع رفيقين آخرين هما من النبلاء أيضًا، فأما الأول فكان يُصلي ليل نهار (وكان السجناء يحترمونه احترامًا كبيرًا بسبب ذلك). وقد مات أثناء وجودي بالسجن. وأما الثاني فكان فتى في ريعان الشباب نضر الوجه زاهي اللون قوي الجسم شجاع القلب قد حمل رفيقه ب... على ظهره مسافة سبعمائة فرسخ لأن رفيقه سقط في الطريق من شدة التعب بعد نصف مرحلة من مراحل الرحلة. ولذلك كانت صداقتهما وثيقة قوية. إن ب... شاب كريم النشأة رفيع التهذيب نبيل الخلق طيب النفس لكن المرض قد أفسد روحه وجعله سريع الغضب شديد الحنق. كنا ندير الرحى متعاونين وكان هذا العمل يشوقنا ويلقى هوى من نفوسنا، وكنت أعده أنا رياضة ممتازة.

وكنت أحب جرف الثلج حبًا خاصًا. وذلك ما كنا نفعله بعد الأعاصير التي كانت تهب كثيرًا في فصل الشتاء، فإذا هب إعصار من هذه الأعاصير يومًا كاملًا دفن عدد من البيوت تحت الثلج حتى النوافذ، هذا إن لم يطمر طمرًا كاملًا. حتى إذا توقفت الزوبعة وظهرت الشمس من جديد أُمرنا بنزع الثلج عن المباني التي غطتها أكوامه. وكنا نُرسل إلى هذا العمل أفواجًا كبيرة وربما أُرسل إليه جميع السجناء بلا استثناء، فكان كلٌ منا يحمل مجرفة، وكان على كلٍ منا أن ينجز عملًا محددًا يبدو له في كثير من الأحيان أن من المستحيل عليه أن ينجزه إلى آخره. كان السجناء يشرعون في العمل خِفافًا نشطين. والثلج لا يكون قد تلبد بعد ولا يكون قد تجلد منه إلا سطحه. فكنا نجرفه جرفات كبيرة نبعثرها فيما بيننا وننثرها نثرًا فإذا هي تستحيل في الهواء ذرات ساطعة البريق. المجرفة تغوص بسهولة في الكتلة البيضاء المتلألئة تحت أشعة الشمس. والسجناء يقومون بهذا العمل فرحين مرحين في أكثر الأحيان. فهواء الشتاء البارد ينعشهم، والحركة توقظ نشاطهم. كل واحد يشعر بالبهجة والحبور، وهذه ضحكات وصرخات وأمازيح تُسمع هنا وهناك. والعاملون يتراشقون كرات الثلج ولكن ذلك كان بعد مدة من الوقت يثير استياء العقلاء الرصينين الذين لا يحبون الضحك ولا يؤثرون المرح، فلذلك

كانت هذه الحماسة التي تشمل السجناء تنتهي في أكثر الأحيان بتبادل الشتائم والمسبات.
واتسعت دائرة أصحابي شيئًا بعد شيء، رغم أنني لم يخطر ببالي قط أن يكون لي أصحاب: لقد كنت دائمًا قلق النفس كئيب المزاج كثير الشك والحذر. وإنما قامت هذه العلاقات وانعقدت هذه الصلات من تلقاء نفسها. إن أول من جاء يزورني إنما هو السجين بتروف. وإذا قلت (يزورني) فإنني ألحُ على هذه الكلمة. كان بتروف يُقيم في القسم الخاص الذي هو أبعد الثكنات عن ثكنتي. والمفروض في ظاهر الأمر أن لا تقوم بيني وبينه أية صلة، فما من رابطة كانت تجمعنا أو كان يمكن أن تُقرب أحدنا من الآخر ومع ذلك فقد اعتقد بتروف خلال الفترة الأولى من إقامتي في السجن أن من واجبه أن يجيء إليَّ كل يوم تقريبًا في الثكنة التي قيم فيها أو أن يستوقفني على الأقل أثناء فترة الراحة التي كنت أقضيها وراء الثكنات أبعد ما يمكن أن أكون عن جميع الأنظار. وقد أزعجني إلحاحه هذا في أول الأمر ولكنه عرف كيف يتصرف بحيث أصبحت زياراته لي سلوى تسرِّي عني رغم أنه لم يكن منفتح النفس منطلق اللسان. هو رجل قصير القامة قوي البنية نشيط الهمة خفيف الحركة حاذق. إن وجهه هو من الوجوه التي يُسِرُّ مرآها: وجه شاحب اللون ناتئ الوجنتين جريء النظرة له أسنان بيضاء صغيرة منضَّدة؛ وكان يمضغ قطعة من التبغ دائمًا يضعها بين اللثة والشفة السفلى من فمه (إن كثيرًا من السجناء قد ألفوا عادة مضغ التبغ على هذا النحو). وكان يبدو أصغر سِنًا من عمره الحقيقي، فلو رآه الرائي لما ظن أنه تجاوز من عمره الثلاثين، مع أنه كان في الأربعين. وهو يحدثني بغير كلفة ولا تحرج، ويقف مني موقف الند للند، مع كثير من الأدب واللطف والذوق على كل حال؛ فإذا لاحظ مثلًا أنني أبغي الوحدة والخلوة تحدث إليَّ دقيقتين اثنتين ثم لم يلبث أن يتركني وشأني. وكان في كل مرة يشكر لي حسن استقبالي له وحسن معاملتي له، وذلك أمر ما كان يفعله مع أحد قط. يجب أن أضيف إلى هذا أن تلك العلاقات التي قامت بيني وبينه لم تتغير ولم تتبدل لا أثناء الفترة الأولى من إقامتي في السجن فحسب بل أثناء عدة سنين؛ كما أنها لم تزدد توثقًا وعمقًا في يوم من الأيام رغم أنه كان مُخلصًا لي كل الإخلاص حقًّا. لم أستطع أن أحدد على وجه الدقة ما كان ينشده من صحبتي، ولا أن أعرف على وجه الدقة لماذا كان يجيئني كل يوم. ولقد اتفق أن سرقني أحيانًا. ولكن ذلك كان على غير إرادة منه دائمًا. ولم يكن يجيئني قط لاقتراض شيء من مال: معنى ذلك أن ما كان يجذبه نحوي ويشده إليَّ ليس هو المال ولا أية منفعة أخرى.
لا أدري لماذا كان يتراءى لي أن هذا الرجل لا يعيش في نفس السجن الذي أعيش أنا فيه وإنما يعيش في منزل آخر، في المدينة، بعيدًا جدًّا، حتى لكأنه يزور السجن مصادفةً يستطلع الأخبار ويسأل عني ويرى كيف نعيش. إنه مستعجِل دائمًا، كأنه ترك أحدًا لحظة من اللحظات، وكأن أحدًا ينتظره بفارغ

صبر، أو كأنه هجر عملَا من أعماله إلى حين فهو حريص على العودة إلى العمل يستأنفه بأقصى سرعة. ومع ذلك كان لا يبدو عليه التسرع. إن في نظرته ثباتًا غريبًا وتحديقًا عجيبًا، على شيء يسير من جرأة وسخرية. هو ينظر إلى بعيد من فوق الأشياء، كأنه يُحاول أن يتبين شيئًا وراء الشخص الماثل أمامه؛ وهو يبدو دائم الذهول. كنت أتساءل في بعض الأحيان تُرى أين يذهب بتروف بعد أن يتركني؟ وأين يُنتظر بفارغ صبر؟ والواقع أنه كان يذهب إلى ثكنة من الثكنات أو إلى المطبخ، بخطى خفيفة فيجلس بجانب المتحدثين يُصغي إلى حديثهم بانتباه ويُشارك في هذا الحديث بحرارة ثم إذا هو يسكت لائذًا بصمت مطبق على حين فجأة. ولكن سواءً أتكلم أم اعتصم بالصمت، فإن المرء يقرأ في وجهه دائمًا أن ذهنه منصرف إلى مكان آخر، وأنه ينتظر هناك، في بعيد. وأغرب ما في الأمر أنه لم يكن يُشغل نفسه بعمل من الأعمال في يوم من الأيام، فهو فيما عدا الأشغال التي يُحمل عليها في السجن حملًا، لا يقوم بأي عمل، بل يُنفق وقته عاطلًا فارغًا. وكان لا يُحسن أية مهنة، ولا يملك أي مال قط، ولكن ذلك لا يحزنه ولا يبئسه. فإذا سألتني الآن عم كان يكلمني وفيم كان يحدثني قلت إن حديثه كان غريبًا كشخصه. وكان متى لاحظ أنني ماضٍ وحدي إلى خلف الثكنات استدار نحوي فجأة، وتبعني مسرعًا. إنه سريع المَشي سريع الالتفات دائمًا. وها هو ذا يصل إليَّ سائرًا بخطى وئيدة، رغم ما يظهر من أنه كان يركض ركضًا.

- نهارك سعيد!

- نهارك سعيد!

- هل أُزعجك!

- كلا.

- أردت أن أسألك عن شيء يتعلق ببونابرت ([22]). أردت أن أسألك أليس يمت بقربى إلى ذلك الذى أتى إلينا سنة 1812؟ (كان بتروف ابن جندي فهو يعرف القراءة والكتابة).

- هو كذلك.

- يُقال إنه رئيس، فأي رئيس هو؟ ورئيس ماذا هو؟

إن أسئلة صاحبي متعجلة متقطعة دائمًا، كأنه يريد أن يعرف ما يسأل عنه بأقصى سرعة ممكنة.

شرحت له رئاسة نابليون، وأضفت أنه قد يصبح إمبراطوراً.

- كيف ذلك؟

أطلعته على ما أعرفه بقدر ما أمكنني ذلك، فكان يصغي إليَّ بانتباه، وأدرك ما قلته له إدراكًا تامًا، وأضاف يقول وهو يميل عليَّ بأذنه:

- هم... آ... أردت أن أسألك أيضًا يا ألكسندر بتروفتش، هل هناك حقًّا قرود لها أيدٍ تتدلى حتى تصل إلى القدمين، وطولها طول إنسان؟

- نعم.
- كيف هي هذه القرود؟
وصفتها له وذكرت له كل ما أعرفه عن هذا الموضوع؟
- أين تعيش هذه القرود؟
- في البلاد الحارة. يوجد منها في جزيرة صومطرة.
- أهذا في أمريكا؟ إذ يُقال أن الناس هناك يسيرون على رؤوسهم.
- طبعًا لا... لعلك تقصد أنهم على الوجه الثاني من الكرة الأرضية.
وشرحت له ما هي أمريكا وما هما الوجهان المتقابلان من الكرة الأرضية، فكان يصغي إليَّ بانتباه شديد، كأنه لم يجئني إلا ليسألني عن الوجهين المتقابلين من الكرة الأرضية.
- آ... آ... لقد قرأت في السنة الماضية قصة عن الكونتيسة دولا فالير. كان آريفييف قد جاء بهذا الكتاب من عند العريف. أهي حقيقة أم خيال؟ إن الكتاب من تأليف دوما.
- هي قصة من اختراع الخيال طبعًا.
- طيب، الوداع، شكراً.
قال بتروف ذلك ثم مضى. والحق أننا ما كنا نتكلم يومًا على غير هذا النحو تقريبًا.
لقد سألت عنه، فاعتقد م... أن من واجبه أن يحذرني حين علم بهذه العلاقة القائمة بيني وبين هذا الرجل، وقال فيما قال إن كثيرًا من السجناء قد أثاروا في نفسه الكره والاشمئزاز والرعب منذ وصوله إلى السجن؛ ولكن ما من أحد، حتى جازين، قد أثار في نفسه من الهلع مثل الذي أثاره بتروف هذا.
قال لي م...:
- إنه أمضاهم عزيمة وأشدهم هولًا. إنه لا يتورع عن شيء. ما من شيء يمكن أن يصده عن إنقاذ نزوة من النزوات تبدو له في لحظة من اللحظات. إنه قد يغتالك إذا خطر بباله أن يفعل. يكفي أن تدور في خلده هذه الفكرة حتى يقدم عليها غير متردد ولا هيَّاب، فإذا فعل لم يشعر بشيء من الندامة، وأحسب أنه لا يملك عقله...
همني هذا الكلام كثيرًا، ولكن م... لم يستطع أن يقول لي لماذا يرى في بتروف هذا الرأي. ألا إنه لشيء غريب! لقد ظللت أرى هذا الرجل خلال عدة سنين وكنت أتحدث معه في كل يوم من الأيام تقريبًا وكان صادق المودة والإخلاص لي دائمًا (رغم أنني لم أدرك سبب ذلك) وفي أثناء ذلك الوقت كله كنت أزداد يومًا بعد يوم اقتناعًا بأن م... على حق رغم أن الرجل قد إلتزم في حياته غاية الحكمة والتعقل والاعتدال ولم يصدر عنه فعل شاذ قط؛ وكنت أزداد يومًا بعد يوم اقتناعًا بأن هذا الرجل ربما كان أشد من في السجن بأسًا وأصعبهم مِراسًا وأعزهم على الضبط. لماذا؟ لا أستطيع جوابًا على هذا السؤال.

إن بتروف هذا هو بعينه ذلك السجين الذي أراد أن يقتل الميجر حين نوديّ لتوقيع العقوبة فيه، وقد ذكرت كيف أن الميجر قد (أنقذ بأعجوبة) لأنه انصرف قبل توقيع العقوبة بدقيقة واحدة. في ذات مرة حين كان بتروف جنديًا، قبل وصوله إلى السجن، ضربه كولونيله أثناء التدريب، وأحسب أنه كان قد ضُرب قبل تلك المرة كثيرًا ولكنه كان في ذلك اليوم في حالة من المزاج لا تتيح له أن يحتمل إهانةً أو أن يقبل إيذاءً، فها هو ذا يذبح الكولونيل في وضح النهار على مرأى من جميع أفراد الكتيبة أثناء التدريب. إنني لا أعرف جميع تفاصيل هذه القصة، لأنه لم يروها لي في يوم من الأيام. إن هذه الإنفجارات لا تظهر فيه طبعًا إلا حين تسيطر عليه الغرائز فينقاد لها ويندفع معها. وكانت هذه الانفجارات نادرة. أما في الأحوال العادية فإنه رجل عاقل بل وهادئ. إن أهواءه القوية المستعرة العارمة مختبئة مختفية كأنها الجمر يرقد ساكنًا تحت الرماد.

لم ألاحظ في يوم من الأيام أنه متبجح مزهو مفاخر بنفسه ككثير من السجناء الآخرين.

كان لا يتشاجر إلا نادرًا. ولم يكن بينه وبين أحد علاقات صداقة، ربما باستثناء سيروتكين، وذلك حين تكون به حاجة إلى سيروتكين. ومع هذا فقد رأيته في ذات يوم مهتاجًا اهتياجًا شديدًا. كان قد طالب بشيء من الأشياء فمُنع عنه فشعر بأنه أُهين، فأخذ يتشاجر مع خصمه في هذا الشأن. إن خصمه سجين طويل القامة قوي البنية عريض المنكبين كرياضي، اسمه فاسيلي أنتونوف، عُرف بشراسة طبعه وسوء سلوكه وحبه للمشاجرة وميله إلى المناكدة والمناكفة. كان هذا الرجل ينتمي إلى فئة المحكومين المدنيين، ولم يكن بالرجل الجبان قط. تصايح الرجلان فقدَّرت أن هذه المشاجرة لا بد أن تنتهي إلى ما تنتهي إليه أمثالها من المشاجرات من تبادل الضرب واللكم. غير أن الأمر جرى مجرى لم يكن في الحسبان، فها هو ذا بتروف يمتقع لونه على حين فجأة وترتجف شفتاه وتزرقان وتنقطع أنفاسه وينهض من مكانه بخطى بطيئة، بطيئة جدًّا، خُطى لا يُسمع وقعُها (لقد كان بتروف يحب أن يمشي حافي القدمين في الصيف) ويقترب من أنتونوف، فما هي إلا لحظة حتى حل محل الضجة والصياح في الثكنة صمت كصمت الموت، فلو طارت ذبابة لسمع صوت طيرانها. إن كل سجين من السجناء ينتظر ما سيقع، ووثب أنتونوف إلى لقاء خصمه وقد انقلبت سحنته حتى لكأن وجهه ليس وجه إنسان. لم أستطع احتمال هذا المشهد فخرجت من الثكنة وكنت على يقين من أنني سأسمع صرخات إنسان يُذبح قبل أن أصل إلى السلم. ولكن شيئًا من ذلك لم يحدث فقبل أن يستطيع بتروف الدنو من أنتونوف رمى له أنتونوف الشيء الذي كانا يختلفان فيه ويتنازعان عليه (وهو خرقة بالية، بطانة مهترئة). ولم يفت أنتونوف بعد دقيقتين أن يوجه إلى بتروف بعض الشتائم تبرئة لذمته وقيامًا بما تقتضيه المواضعات، وليظهر أنه لم يخف

كثيرًا، ولكن بتروف لم يعبأ بشتائمه قط، حتى إنه لم يرد عليها فلقد انتهى كل شيء إلى ما فيه مصلحته، والشتائم لا شأن لها عنده، وهو راض بالحصول على خرقته مغتبط بذلك. وها هو ذا بعد ربع ساعة يتجول في الثكنة خليّ البال عاطلًا عن العمل باحثًا عن رفاق يمكن أن يسمع منهم شيئًا طريفًا. كان يبدو أن كل شيء يهمه، ومع ذلك كان يظل في جميع الأحيان تقريبًا غير مُبالٍ ولا محتفل بما يُسمع، فهو يطوف هنا وهناك في الأفنية فارغًا بلا هدف يسعى إليه أو غاية ينشدها. يمكن تشبيهه بعامل من العمال، قوي الجسم شديد البأس (يرتجف أمامه العمل ارتجافًا)، ولكنه في الوقت الذي لا يقوم فيه بأي عمل، وبانتظار الفرصة التي تتيح له بذل جهوده وإظهار قواه، يرضى أن يلعب مع أطفال صغار. لم أفهم لماذا يبقى في السجن، لماذا لا يهرب؟ ويقيني أنه ما كان ليتردد عن الهرب أبدًا لو أراد ذلك. إن العقل لا سلطان له على أناس مثل بتروف إلا بمقدار ما تكون نفوسهم خالية من الرغبة في شيء من الأشياء. حتى إذا شبت في نفوسهم هذه الرغبة لم تحل بينهم وبين تحقيق إرادتهم أية عقبات. إني لعلى يقين أنه كان في وسعه أن يفر من السجن بمهارة وحذق خادعًا جميع الناس باقيًا بلا طعام أسابيع برمتها مختبئًا في غابة أو بين أشجار الحلفاء على ضفة نهر. غير أن هذه الفكرة لم تكن قد راودته بعد أو هو لا يرغب فيها رغبة تامة. لم ألاحظ فيه قدرة على الحكم الصادق أو الحس السليم. إن أمثال بتروف يولدون مع فكرة تدحرجهم طوال حياتهم ذات اليمين وذات الشمال على غير شعور منهم فيظلون يطوفون هكذا إلى أن يلتقوا بشيء يوقظ الرغبة في أنفسهم إيقاظًا عنيفًا قويًا. فإذا إلتقوا بهذا الشيء لم يبالوا أن يندفعوا إليه ولو كانت رؤوسهم ثمنًا له. لقد كنت أستغرب في بعض الأحيان كيف يتسنى لرجل كان قد قتل كولونيله لأنه ضُرب، أن يرقد بغير احتجاج خاضعًا للجلد. لقد كان بتروف يُجلد حين يقبض عليه متلبسًا بجرم تهريب الخمرة إلى السجن. ذلك أن بتروف، كسائر من ليس لهم مهنة معينة، يقوم بتهريب الخمرة إلى السجن. لقد كان بتروف يستسلم للجلد كأنه يقبل هذه العقوبة ويرضاها، وكأنه يعترف بأنه مذنب، ولولا ذلك لكان إرقاده أصعب من قتله. وقد استغربت غير مرة أن يسرقني رغم ما يضمره لي من حب ويحمله لي من عاطفة. كان ذلك يتفق أن يصدر عنه صدور نزوات تراوده من حين إلى حين. هكذا سرق في ذات يوم توراتي التي طلبت منه أن يردها إلى مكانها. ولم يكن بينه وبين ذلك المكان إلا بضع خطوات، لكنه إلتقى بمن يشتريها فباع الكتاب. وسرعان ما أنفق ثمنه في شراء خمرة. لعله كان يحس في ذلك اليوم برغبة شديدة في الشراب... وهو إنسان إذا أراد شيئًا فلا بد أن تتحقق إرادته. إن امرء مثل بتروف لا يحجم عن قتل إنسان في سبيل الحصول على خمسة وعشرين كوبكًا لا لشيء إلا أن ينفق هذا المبلغ في شرب نصف لتر من الخمرة. وهو في غير هذه الحالة يحتقر مئات الألوف من الروبلات. وقد اعترف لي في ذلك المساء نفسه

بسرقته ولكن دون أن تظهر عليه أية علامة من علامات الخجل أو أية أمارة من أمارات الندم. وإنما ذكر الأمر بلهجة بسيطة كل البساطة ليس فيها شيء من الاكتراث أو الاهتمام، كان ما فعله حادث عادي. ولقد حاولت أن أؤنبه التأنيب الذي يستحقه، لأنني أسفت على توراتي أشد الأسف، فإذا هو يُصغي إلى كلامي هادئًا هدوءًا كبيرًا لا يشعر بشيء من غيظ أو حنق، وإذا هو يسلم لي بأن التوراة كتاب مفيد جدًّا، وإذا هو يأسف صادقًا لحرماني من هذا الكتاب ولكنه لا يُظهر في لحظة من اللحظات أي ندم على أنه سلبني هذا الكتاب وكان ينظر إليَّ أثناء ذلك نظرة فيها من الثقة ما جعلني أكف عن تقريعه فورًا. لقد تحمل تأنيبي لاعتقاده بأن هذا التأنيب أمر لا بد منه، وبأنه يستحق التقريع على مثل هذا العمل، وأن من واجبي إذن أن أسبه وأن أشتمه لأسري عن نفسي ولأتخفف من حزني على فقدي الكتاب، ولكنه كان في قرارة نفسه يعد هذه الأمور كلها ترهات وسخافات لا بد أن يشعر أي إنسان جاد بالخجل من الحديث فيها؛ بل أغلب ظني أنه كان يعدني طفلًا صغيرًا وصبيًا غرًا لا يفقه من شؤون هذا العالم أبسطها. كان يُجيبني إذا أنا حدثته في أمور أخرى غير الكتب أو العلوم. ولكنه كان يجيبني عندئذٍ من قبيل التأدب وحده، وكانت إجابته موجزة مقتضبة، فكنت أتساءل: تُرى ما الذي يدفعه إلى سؤالي عن الكتب بالذات؟ وكنت أثناء الحديث أختلس النظر إليه كأنما لأتأكد من أنه لا يستهزئ بي، ولكنني لاحظت أنه كان يصغي إليَّ جادًا كل الجد منتبهًا أشد الانتباه رغم أن هذا الانتباه لا يستمر طويلًا في كثير من الأحيان وكان ذلك يحنقني في بعض الأحوال. إن الأسئلة التي يُلقيها عليَّ واضحة دقيقة دائمًا، وإن الأجوبة التي كانت تقتضيها هذه الأسئلة لم تكن تدهشه... أغلب الظن أنه كان قد اقتنع اقتناعًا حاسمًا أنني امرؤ لا يمكن أن أُخاطب كما يُخاطب سائر الناس وإنني لا أفهم شيئًا خارج نطاق الكتب.

إنني لعلى يقين أنه كان يحبني. ولقد كان يدهشني كثيرًا. تُرى هل كان يعدني طفلًا؟ هل كان يعدني رجلًا لم يكتمل نضجًا؟ هل كان يشعر نحوي بذلك النوع من الشفقة التي يشعر بها كل إنسان قوي نحو إنسان آخر أضعف منه؟ هل كان يحسبني... لا أدري! إني لعلى يقين من أنه كان يشعر نحوي بشفقة، رغم أن هذه الشفقة لم تمنعه من أن يسرقني، ولا شك أنه حين كان يسرقني كان يُحدث نفسه قائلًا: (هيه يا له من رجل مضحك غريب شاذ! إنه لا يجيد حتى المحافظة على ما يملك)، وأحسب أنه كان يحبني بسبب ذلك. قال لي ذات يوم كأنما على غير إرادة منه:

- أنت يا ألكسندر بتروفتش مسرف في الطيبة! أنت تبلغ من البساطة والسذاجة أن المرء يشفق عليك حقًّا!

وأضاف يقول بعد دقيقة:

- لا تحمل كلامي محملًا سيئًا يا ألكسندر بتروفتش، فإنما أنا أقوله بحسن نية...

إن المرء يرى أحيانًا في الحياة رِجالًا مثل بتروف يظهرون ويؤكدون أنفسهم في لحظة من لحظات الاضطراب أو الثورة فهم يهتدون عندئذٍ إلى النشاط الذي يناسبهم ويجدون العمل الذي يتفق وطبيعتهم. ليس هؤلاء الرجال رجال أقوال، فهم لا يستطيعون أن يكونوا محرضين أو أن يكونوا قادة ثورات، ولكنهم هم الذين ينفذون ويعملون، يعملون ببساطة بغير ضوضاء، ينقضون على الحواجز أول المنقضين، ويهجمون على العقبات أول الهاجمين، ويتقدمون إلى الأمام حاسري الصدور لا يمنعهم عن الإقدام تفكير ولا تصدهم عن الإقدام خشية، والناس جميعًا يسيرون وراءهم، يسيرون وراءهم سيرًا أعمى، حتى يبلغوا الأسوار، حيث يلقون مصارعهم في العادة. لا أظن أن بتروف قد انتهى إلى خير: إن حياته مهيأة لخاتمة عنيفة. وإذا لم يكن قد مات حتى اليوم فإنما يكون مرد ذلك إلى أن الفرصة لم تُعرض بعد. من يدري على كل حال؟ قد يبلغ أقصى الشيخوخة ثم يموت موتًا هادئًا جدًّا بعد أن يكون قد طوف هنا وهناك من دون هدف أو غاية. ولكنني أعتقد أن م... كان على حق، وأن بتروف كان أشد من في السجن بأسًا وأصلبهم عودًا وأقواهم شكيمة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

8

أولو العزم

لوقا

الكلام على أولي العزم صعب. إنهم نادرون في المعتقل وفي كل مكان، يعرفهم المرء من الخوف الذي يوحون به للنفوس، ومن الحذر الذي يعاملهم به الناس. إن شعورًا لا يقاوم قد دفعني في أول الأمر إلى النأي عن هؤلاء الرجال. ولكنني غيرت نظرتي بعد ذلك حتى إلى القتلة السفاكين الرهيبين. وهناك رجال لم يقتلوا في يوم من الأيام، ولكنهم أشد شراسةً من أولئك الذين قتل واحدهم ستة أشخاص. إن هناك جرائم يصعب على المرء أن يتصورها من شدة الغرابة في اقترافها؛ وإنما أقول ذلك لأن الجرائم التي يرتكبها أفراد من الشعب تكون أسبابها باعثة على الدهشة في كثير من الأحيان.

إليكم نموذج قاتل يُصادف كثيرًا: هو رجل يعيش حياة هادئة مسالمة موادعة، لكن قدره قاسٍ فهو يتألم ويتعذب (هو مثلًا فلاح يعمل في أرض أو قن قد اتخذ خادمًا أو واحدًا من سكان المدن أو جندي في الجيش) وها هو ذا يشعر فجأة بتمزق في صدره فلا يطيق صبرًا فإذا هو يغمد سكينه في صدر الشخص الذي يضطهده، أو في صدر الشخص الذي يناصبه العداء. إن سلوك هذا الرجل يصبح بعدئذٍ سلوكًا شاذًا عجيبًا يتجاوز كل حد. لقد قتل مضطهده أو عدوه، وتلك جريمة طبعًا، لكن لها تفسيرًا. لقد كان هناك سبب دفعه إليها. أما بعد ذلك فإن هذا الرجل لا يقتل أعداءه وحدهم بل يقتل أي إنسان، يقتل أول قادم، يقتل للقتل، يقتل لكلمة ساءته أو نظرة لم تعجبه، يقتل ليجعل عدد قتلاه شفعًا ولا وترًا، أو يقتل لا لشيء إلا أن يقول: (ابعد عن طريقي). إنه يتصرف تصرف سكران يهذي، حتى إذا تجاوز هذا الحد المرسوم وانتقل إلى الجهة الأخرى لم يبق في نظره شيء يمكن أن يُعد مقدسًا؛ وقد يذهل هو نفسه من ذلك ويشده له، فهو الآن يتخطى كل شرع، ويتعدى كل سلطة، ويتمتع بالحرية التي خلقها لنفسه طافحةً غير ذات حدود، يجد لذة في ارتجاف قلبه، في الرعب الذي يحسه، في الهول الذي يشعر به. وهو يعرف أن عِقابًا رهيبًا ينتظره، لعل إحساساته تشبه إحساسات إنسان يميل من أعلى برج على الهوة السحيقة التي يراها فيتمنى أن يلقي بنفسه منكّس الرأس حتى يفرغ من الأمر بأقصى سرعة. يقع هذا لأفراد هم بين الناس أكثرهم مسالمةً وموادعة. وليس يندر أن نرى هذا التناقض: ليس يندر أن نرى أُناسًا كانوا مضطهدين مروّعين فإذا هم يصبحون حريصين على أن يضطهدوا غيرهم وأن يروعوا غيرهم بمقدار ما اضطهدهم غيرهم وروَّعهم غيرهم. وإذا نحن أمام

إنسان يائس مستميت يجد لذة في ما يلقيه في نفوس الناس من جزع وهلع ويجد سعادة في ما يبعثه في نفوس الناس من اشمئزاز وتقزز، فهو يتدفع في أعمال جنونية من قبيل اليأس وهو في أكثر الأحيان ينتظر عِقابًا وشيكًا ويحترق شوقًا إلي أن تحل مشكلته ويحدد مصيره وينتهي أمره، لأنه يحس أن عبء هذا اليأس أثقل من أن يستطيع كاهله وحده أن يحمله. والغريب أن هذا الهياج الشديد وهذا العدوان القوي يظلان مسئوليين عليه مستبدين به إلى أن ينال العقوبة، حتى إذا نالها بدا كأن الخيط قد انقطع، فكأن العقوبة تضع حدًا لعذابه، فإذا هو يهدأ على حين فجأة، وإذا هو ينطفئ، وإذا هو يصبح خرقة رخوة لا تماسك فيها، بل إنه لينهار منذ توقع فيه العقوبة، فإذا هو يستغفر الناس ويطلب الصفح والعفو من البشر، حتى إذا صار في سجن الأشغال الشاقة انقلب شخصًا آخر فما يتصور أحد حين يراه أشبه بدجاجة مبتلة أنه قد قتل خمسة رجال أو ستة.

بين هؤلاء المجرمين أناس لا يروّضهم السجن بسهولة، فهم يحتفظون بشيء من المباهاة، وهم يُظهرون كثيرًا من الادعاء، حتى لتسمع أحدهم يقول: (هيه! اسمع! ما أنا من تظن! لقد بعثت إلى العالم الآخر بستة أرواح!) ولكن هؤلاء يرضخون دائمًا في آخر الأمر. ولقد يسلّون أنفسهم من حين إلى حين بتذكر ما قاموا به من أعمال جريئة وما اندفعوا فيه من أفعال طائشة، حين كانوا أناسًا يائسين مستميتين؛ ولقد يحب أحدهم أن يقع على مستمع ساذج فيأخذ يتباهى أمامه بما فعل مختالًا على احتشام ويروي له ما أقدم عليه من أعمال وهو يحاول طبعًا إخفاء رغبته في إدهاش السامع من قصته ويختم كلامه بقوله: (ذلك ما كنت!). ألا ما أرهفه في التعبير عن غروره على حَذَرٍ واستخفاء! ألا ما أبرع هذا الإهمال المتواني الذي يظهر عليه وهو يروي قصة كهذه القصة! إن في اللهجة نفسها، وإن في كل كلمة يقولها، ادعاء يعرف كيف يغلفه بالتواضع! ترى أين تعلم هؤلاء الناس هذا كله؟

وقد أصغيت في إحدى الأمسيات الطويلة من الأيام الأولى التي قضيتها في السكن إلى حديث من هذه الأحاديث، فتصورت بسبب قلة خبرتي ونقص تجربتي، أن الشخص الذي كان يقص حكايته مجرم جبار ذو طبع من حديد بينما كنت في ذلك الحين أكاد أزدري بتروف وأستخف به. كان الشخص الذي يقص حكايته وهو يسمى لوقا كوزميتش قد أردى ضابطًا برتبة ميجر لا لسبب آخر غير المتعة واللذة. إن لوقا كوزميتش هذا هو من بين جميع سجناء ثكنتنا أقصرهم وأنحفهم وقد ولد في الجنوب وكان قِنًا من الأقنان الذين لا يعملون في الأرض بل يعملون خدمًا في منازل سادتهم. إن فيه حدة وتعاليًا، هو (طائر صغير لكن له منقار ومخالب). والسجناء يعرفون حقيقة الرجال بغريزة فطروا عليها فكانوا لا يحترمون لوقا هذا إلا قليلًا جدًّا. إنه سريع التأذي كثير الغرور شديد الكبرياء، كان في ذلك المساء جالسًا على سريره يخيط قميصًا، فلقد كان يعمل في الخياطة؛ وعلى مقربة منه كان يجلس جاره السجين

كوبيلين وهو شاب محدود الذكاء بليد الحس غبي العقل، ولكنه طيب القلب لطيف المعشر، إلى كونه ضخم الجسم قوي البنية. كان لوقا يتشاجر مع جاره هذا في كثير من الأحيان، ويعامله باستعلاء وتجبر، ويسخر منه ويستبد به ويطغى عليه، ولكن كوبيليين لا يلاحظ شيئاً من ذلك كله، لما أوتيَ من طيب القلب وبراءة السريرة وحسن النية. كان كوبيلين ينسج عندئذٍ جوربًا، ويُصغي إلى لوقا بغير اهتمام؛ وكان لوقا يتحدث بصوتٍ عالٍ وكلام متميز. كان يريد أن يسمعه جميع الناس رغم أنه يتظاهر بأنه لا يُخاطَب إلا كوبيلين. قال وهو يغرز إبرته:

- هكذا طردت من بلدي بتهمة التشرد يا أخي.

سأله كوبيلين:

- من زمان طويل؟

- حين تنضج الباسلاء يكون قد انقضى على ذلك عام. وصلنا كـ... ـف وأودعت السجن كان حولي دستة من رجال هم جميعًا من روسيا الصغرى أقوياء الجسم أصحاء الأبدان سمان كأبقار... وهادئون هادئون... وكان الطعام الذي يقدم إلينا رديئًا... كان الميجر يفعل ما يحلو له... وانقضى يوم ثم انقضى يوم آخر... لاحظت أن جميع هؤلاء الرجال الأشداء جبناء.... قلت لهم: (أتخافون من حيوان كهذا؟..). قالوا: (هيا كلمه إن استطعت!) وانفجروا ضاحكين، هؤلاء البهائم. سكت ولم أجب.

وأضاف المتحدث يقول وهو يترك كوبيلين ويخاطب الآخرين:

- وكان بينهم رجل من روسيا الصغرى تافه مضحك سخيف قد أخذ يقص عليهم كيف حوكِمَ وماذا قال للقضاة وكيف استرحمهم واستعطفهم قائلًا إن له أطفالًا وامرأة. إنه رجل ضخم الجسم أشيب الشعر. واستمر الرجل يقص على أصحابه حكايته، فذكر كيف كان هنالك كلب ما ينفك يكتب ويكتب ثم يكتب... يكتب كل ما كان يقوله المتهم، وكيف خاطبه المتهم بقوله: (قاتلك اللّه...). فلم يزد الآخر على أن استمر يكتب ثم يكتب... وختم الرجل كلامه قائلًا: (فكذلك ذهب رأسي!...).

- هاتِ خيطانًا يا فاسيا ([23]) إن هذه الخيطان فاسدة.

أجابه فاسيا وهو يعطيه الخيطان التي طلبها:

- إليك خيطانًا اشتُريت من السوق.

- إن خيطان المصنع أفضل. لقد أرسلنا نيفاليد منذ مدة قصيرة ليشتري لنا خيطانًا من المصنع، فلا أدري من عند أية امرأة دنيئة اشترى هذه الخيطان، إنها خيطان رديئة.

قال لوقا ذلك وهو يُدخل الخيط في سم الإبرة على ضوء المصباح.

- لا شك أنه اشتراها من صاحبته.

- من صاحبته حتمًا.

قال كوبيلين الذي كان قد نسي تمامًا:
- هيه! والميجر؟
ولم يكن ينتظر لوقا غير هذا السؤال. ومع ذلك لم يشأ أن يستأنف سرد حكايته فورًا كأن كوبيلين لا يستحق مثل هذا الاهتمام، فغرز إبرته بهدوء، وتربع بتراخٍ وكسل، وقال أخيرًا:
- وطفقت أستفز رفاقي السخفاء وأتحداهم حتى استدعوا الميجر. وكنت في ذلك الصباح نفسه قد استعرتُ (اللئيمة) (السكين) من جاري وأخفيتها استعدادًا للطوارئ. كان الميجر هائجًا كالمسعور. وصل الميجر. قلت لهم هامسًا: (ما هذا أوان الخوف يا أهل روسيا الصغرى). ولكن لا فائدة كانت شجاعتهم قد هبطت إلى الأطراف من راحات أقدامهم. أخذوا يرتجفون. لقد هرع الميجر سكرانًا كل السكر. قال: (ماذا هنالك؟ كيف تجرؤون أن...؟ أنا قيصركم أنا ربكم). فلما قال إنه قيصرنا وإنه ربنا اقتربت منه مخفيًا سكيني في كمي وقلت له وأنا أقترب مزيدًا من الاقتراب: (لا يا صاحب النبالة الرفيعة... لا يمكن أن تكون قيصرنا وأن تكون ربَّنا). صرخ الميجر يقول: (ها... إذن أنت... أنت المحرض...). قلت وأنا ما أنفك أزداد اقترابًا منه: (لا يا صاحب النبالة الرفيعة. كل إنسان يعلم وأنت نفسك تعلم أن ربنا تبارك وتعالى لا شريك له... وأن هنالك قيصرًا واحدًا لنا وضعه الرب نفسه فوقنا جميعًا فهو مولانا يا صاحب النبالة الرفيعة وما أنت يا صاحب النبالة الرفيعة حتى الآن إلا ميجر... ولست رئيسًا لنا إلا بفضل القيصر وبفضل مؤهلاتك). قال الميجر: (ماذا؟ ماذا؟؟ ماذا؟؟؟). لقد أُرتج عليه وصُدِمَ فأصبح لا يستطيع الكلام وأصبح يتفأفأ ويُتأتأ من فرط ما أصابه من دهشة. قلت له: (هو كذلك). وهجمت عليه فأغمدت سكيني في بطنه، أغمدت السكين كلها! وقد فعلت ذلك بسرعة، فما هو إلا أن ترنّح وسقط على الأرض مستديرًا على عقبيه. قلت للرفاق بعد أن رميت سكيني: (ارفعوه الآن يا رفاق!).
سأستطرد الآن قليلًا مبتعدًا عن قصتي فأقول إن هذه التعابير (أنا قيصركم، أنا ربكم) وغيرها من التعابير المشابهة كانت تستعمل كثيرًا في سالف الزمان بكل أسف. كان يستعملها كثير من الضُباط. ويجب أن نعترف بأن عدد الذين يستعملونها الآن قد نقص كثيرًا وربما أصبح لا يستعملها أحد قط. ولنلاحظ أن أولئك الذين كانوا يختالون هذا الاختيال ويصطنعون أمثال هذه التعابير إنما هم خاصةً الضباط الذين ارتقوا من رتبة صف ضابط إلى رتبة ضابط فإذا بالرتبة الجديدة تقلب أدمغتهم رأسًا على عقب. إنهم بعد أن قاسوا عناءً كبيرًا وتكبدوا مشاق كثيرة يرون أنفسهم على حين فجأة ضُباطًا وقادة بل ونبلاء أيضًا، فإذا هم لأنهم لم يألفوا ذلك، يسكرون مما نالوا من ارتقاء سكرًا شديدًا، فيبالغون في تقدير قوتهم وسلطانهم وجبروتهم. هذا مع مرؤوسيهم أما مع رؤسائهم فإنهم يخضعون خضوعًا ذليلًا لا يملك المرء إلا أن يثور عليه ويشمئز منه. حتى إن المتملقين المتزلفين منهم يسارعون إلى الاعتراف

لرؤسائهم بأنهم كانوا مرؤوسين وبأنهم (لا ينسون أصلهم). ولكن هؤلاء هم الطغاة إلى غير حد، المستبدون إلى غير نهاية في معاملة الخاضعين لهم من الناس. ويجب أن نذكر أنه لا شيء يُحْنِق السجناء ويُغيظهم ويثير حفيظتهم كما يفعل مثل هذا الإسراف. إن الإنسان مهما يكن خاضعًا مستكينًا ومهما يكن صابرًا مُذعنًا لا بد أن تستثيره وأن تفقده صبره وأن تبث الحقد في قلبه هذه الخيلاء المتبجحة وهذه الكبرياء الصلفة. من حسن الحظ أن هذه الأمور كلها قد مضت وانقضت وأصبحت من الماضي الذي أوشك أن ينساه الناس.
ويجب أن نذكر أن السلطة العليا كانت في ذلك الحين تُعاقب أولئك المخطئين عِقابًا صارمًا. وإني لأعرف أمثلة على ذلك.
إن ما يهيج حفيظة المرؤوسين خاصة، إنما هو الاحتقار والاشمئزاز الذي يعاملون به. والذين يظنون أنهم ليس عليهم إلا أن يُطعموا السجين وأن يرعوه وأن يتصرفوا في كل أمر وفقًا للقانون ليخطئوا أيضًا. فالإنسان مهما يصغر شأنه، ومهما يهبط قدره، ومهما تهن قيمته، يحب بغريزته أن تُحْتَرَم كرامته من حيث هو إنسان. إن كل سجين يعرف حق المعرفة أنه سجين ويعرف حق المعرفة أنه منبوذ ممقوت مكروه، ويعرف المسافة التي تفصل بينه وبين رؤسائه. ولكن لا القضبان ولا الأغلال تنسيه أنه إنسان فلا بد أن يُعامل إذن معاملة إنسانية. رباه! ألا إن في استطاعة معاملة إنسانية أن تنقذ من الهوة حتى ذلك الذي اختفت من نفسه صورة اللّه منذ زمن طويل. إلا أن عاثري الحظ هم الذين يجب أن يعاملوا معاملة إنسانية قبل غيرهم من الناس، فذلك هو خلاصهم، وذلك هو فرحهم. لقد اتفق لي أن صادفت أمرين ينعمون بطبع نبيل وقلب طيب فاستطعت أن أرى مدى ما يحدثون في نفوس هؤلاء المذلين من تأثير حسن. رب كلمة طيبة يقولونها تبعث روح السجناء بعثًا جديدًا فإذا السجناء يفرحون بها كما يفرح الأطفال وإذا هم يمحضون رئيسهم حبًا صادقًا. ملاحظة أخرى: إن السجناء لا يحلو لهم من رؤسائهم أن يرفعوا الكلفة بينهم وبينهم، ولا يحبون أن يسرف رؤساؤهم في ما يعاملونهم به من طيبة، ولا يريدون لهؤلاء الرؤساء أن يكونوا سُذجًا مفرطين في السذاجة، ذلك أنهم يحبون أن يحترموا رؤساءهم. إنهم ليشعرون بكثير من الاعتزاز مثلًا حين يكون رئيسهم كثير الأوسمة حسن الهندام مهيب المظهر وحين يحظى رئيسهم بالتقدير والاعتبار في نظر رئيس أعلى وحين يكون قاسيًا وقورًا عادلًا مُنصفًا، وحين يشعر بكرامته شعورًا قويًا. إن السجناء يؤثرونه عندئذٍ على سائر من عَداه، لأنه يعرف قيمته، ولا يهين الآخرين أو يسيء إليهم، لذلك تجري أموره كأحسن ما تجري الأمور.
سأل كوبيلين بهدوء:
- أظن أنك عوقبت على ذلك عقابًا شديدًا؟
- هه... أما عن العقاب فلا تسئل... لقد عوقبت عقابًا شديدًا والحق يُقال، يا رفاق!... هات المقص يا علي! ولكن قولوا: ألن يكون لعبٌ بالورق هذا

المساء؟
قال فاسيا:
- شُرِبَ المال اللازم للعب.. شُرب خمرًا فلولا أنه شرب لوجد هنا...
قال لوقا:
- (لولا)! إن (لولا) هذه تساوي مائة روبل في سوق موسكو.
وعاد كوبيلين يسأل:
- فكم كان عقابك يا لوقا؟
- خمسمائة جلدة يا صديقي العزيز.
قال لوقا ذلك ثم أردف يخاطب الآخرين مستخفًا بجاره مرة أخرى:
- حقًّا يا رفاق... لقد أوشكوا أن يقتلوني! وحين جلدوني هذه الجلدات الخمسمائة، احتفلوا بي احتفالًا كبيرًا. لم أكن قد جُلدت قبل ذلك اليوم. تجمعت أفواج من الناس. أسرعت المدينة كلها تشهد عقاب المجرم، عقاب القاتل. ما كان أغبى أولئك الناس! لا أستطيع أن أصف لكم غباءهم! خلع عني تيموشكا (الجلاد) ثيابي، وأضجعني على الأرض، وصرخ يقول لي: (استعد... سوف أشويك!) انتظرت. فلما هوى عليَّ بأول سوط وددت لو أصرخ، ولكنني لم أستطع... فإنني مهما أفتح فمي لا يخرج صوت من حلقي. لقد اختنق صوتي... فلما هوى عليَّ بالسوط الثاني - صدقوا أو لا تصدقوا - فإنني لم أسمع صوت العداد قائلًا (اثنين)... حتى إذا ثاب إليَّ شعوري بعد مدة سمعتهم يعدون (سبعة عشر). وقد فكوني أربع مرات حتى يدعوا لي أن أتنفس مدة نصف ساعة، وحتى يغرقوني بماء بارد. فكنت أنظر إليهم جميعًا وقد كادت عيناي تخرجان من رأسي، وأقول لنفسي: (سأفطس هنا).
سأله كوبيلين:
- ولم تمت؟
فألقى عليه لوقا نظرة احتقار، وانفجر الآخرون يضحكون مقهقهين.
- معتوه حقًّا.
وكأن لوقا ندم على أنه تنازل فارتضى أن يُكلم رجلًا أبله كهذا الرجل، فها هو ذا يضيف قائلًا:
- لا شك أن في الطابق الأعلى من جسمه مرضًا.
فقال فاسيا من جهته مؤيدًا:
- إن في عقله لوثة.
هكذا، ومع أن لوقا قد قتل ستة أشخاص، فما من أحد في السجن قد خاف منه يومًا، لكنه كان يهوى أن يُعدَّ رجلًا مرعبًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

9

أشعيا فومتش - الحمام
قصة باكلوشين

كانت أعياد الميلاد تقترب. إن السجناء ينتظرونها في شوق عظيم و اهتمام كبير. فلما رأيتهم كذلك أصبحت أنا نفسي أتوقع شيئًا خارقًا. وكان يجب أن نؤخذ إلى حمام البخار قبل الأعياد بأربعة أيام فكان السجناء جميعًا سعداء بذلك وكانوا يستعدون. إن علينا أن نذهب إلى الحمام بعد الغداء. يحسن أن أذكر في هذه المناسبة أننا لا نعمل بعد الظهر. ولا شك أن الشخص الذي كان بين جميع السجناء أشدهم ابتهاجًا وأكثرهم حركة إنما هو أشعيا فومتش بومشتاين، اليهودي الذي تكلمت عنه في الفصل الرابع من قصتي هذه. كان أشعيا يحب الاستحمام، ويسرف في المكوث في الحمام، إلى أن يقع مغشيًا عليه في بعض الأحيان. كلما نبشت كومة ذكرياتي القديمة فتذكرت حمام السجن (الذي يستحق أن لا يُنسى) فإن أول وجه يتراءى لي إنما هو وجه رفيقي في السجن، أشعيا فومتش المجيد الذي لا تُنسى ذكراه. ما كان أعجبه من إنسان يا رب! لقد سبق أن قلت بضع كلمات عن هذا الرجل: هو في الخمسين من عمره، هزيل الجسم مغضن الوجه، على خديه وجبينه ندبات رهيبة، أعجف، نحيل، شديد البياض، يشبه أن يكون جسمه جسم صوص. إن وجهه يعبر عن اكتفاء دائم وثقة راسخة لا تتزعزع، بل لعله كان يُعبر أيضًا عن غبطة وحبور وسعادة. أحسب أنه لم يكن يأسف قط على أنه أودع سجن الأشغال الشاقة. وإذ كان صائغًا، وإذ لم يكن في المدينة صائغ غيره، فإنه لم يكن يعوزه العمل، وكان يؤجر على عمله أجرًا حسنًا، لم يكن في حاجة إلى شيء، حتى لقد كان يعيش حياة غنية، فهو ينفق عن سعة، ولكنه لا ينفق مع ذلك كل ما يجنيه من أرباح، بل يقتصد ويوفر ويدخر، ويقرض السجناء بالربا على رهن. كان يملك سماورًا وفِراشًا وثيرًا وفناجين وغطاء. وكان يهود المدينة لا يضنون عليه بحمايتهم ورعايتهم. وكان يذهب في كل يوم من أيام السبت إلى الكنيس مخفورًا (وذلك أمر يبيحه القانون). كان يعيش إذن حياة رغدة مرفهة، ولكنه كان يحترق شوقًا إلى انقضاء مدة سجنه، وهي اثنتا عشرة سنة، من أجل أن (يتزوج). إنه مزيج عجيب مضحك من سذاجة وغباوة ومكر ووقاحة وبساطة وخجل وادعاء وزهو وشراسة. وأغرب ما في الأمر في نظري أن السجناء كانوا لا يسخرون منه قط. فإذا ناكدوه في بعض الأحيان فإنما هم يناكدوه لهوًا وعبثًا وضحكًا، فلقد كان أشعيا فومتش يسري عنهم ويسليهم ويبهجهم. كانوا يقولون: (ليس عندنا إلا أشعيا فومتش واحد، فلا تمسوه). وكان هو يزهو بخطورة شأنه وعلو منزلته رغم أنه يدرك حقيقة

أمره، فكان ذلك يروح عن السجناء كثيرًا. كان أشعيا فومتش قد دخل السجن دخولًا أشاع بين السجناء كثيرًا من الضحك (وقد دخل السجن قبل وصولي ولكن دخوله إلى السجن قد وُصف لي بعد ذلك). ففي ذات مساء، انتشرت في السجن على حين فجأة شائعة تقول إن يهوديًا قد اقتيد إلى السجن، وهو الآن في مقر الحرس، يُحلق له شعره. ولم يكن في السجن كله يهودي واحد، فانتظر السجناء دخوله عليهم بفارغ صبر، حتى إذا اجتاز الباب الكبير أحاطوا به واحتشدوا حوله، جاء به ضابط الصف على السجن المدني فدله إلى مكانه فوق ألواح الخشب. كان أشعيا فومش يحمل كيسًا يضم الأمتعة التي أعطيت له، ويضم الأمتعة التي يملكها. فوضع كيسه على الأرض، واتخذ مكانه فوق السرير، وجلس متربعاً لا يجرؤ أن يرفع بصره. أخذ السجناء يضحكون من حوله ويتندرون على أصله اليهودي. وفجأة تقدم سجين شاب فأبعد الجمهور واقترب من أشعيا حاملًا بيده سروالًا صيفيًا قذرًا ممزقًا مهترئًا مرقعًا بخرق عتيقة، فجلس بجانب أشعيا فومتش وربت على كتفه، وقال له:

- هيه أيها الصديق العزيز! لقد انتظرتك ست سنين طوال! أنظر! كم تقرضني إذا رهنت عندك هذا السروال؟

قال له ذلك وعرض عليه أسماله الرثة.

كان أشعيا فومتش يشعر بوجل، يبلغ من الشدة أنه لم يجرؤ أن ينظر إلى هذه الجمهرة الساخرة ذات الوجوه المشوهة المرعبة المتحلقة حوله، دائرة كثيفة. لم يكن قد نطق بكلمة واحدة من شدة جزعه وهلعه فلما رأى الرهن الذي يعرضه عليه السجين الشاب، ارتعش وأخذ يجس سروال الخرق الرث بهمة ونشاط. حتى لقد اقترب من المصباح ليفحصه في الضوء. كان كل واحد من السجناء ينتظر ما سيقوله أشعيا.

أردف السجين الشاب يخاطب أشعيا وهو يغمز رفاقه:

- هه؟ هل تقرضني روبلًا فضة إذا رهنت السروال لديك؟

- روبلًا فضة؟ لا... بل سبعة كوبيكات!

هذه هي الكلمات الأولى التي نطق بها أشعيا فومتش في السجن. فما إن سمعها الحضور حتى ضجوا ضاحكين في قهقهة صاخبة.

قال السجين الشاب:

- سبعة كوبيكات؟ طيب هاتها... يمينًا إنك لمحظوظ! ولكن حافظ على سروالي، وحذارِ أن تفسده، وإلا دفعت رأسك ثمنًا له.

قال اليهودي بصوت متقطع متهدج وهو يدس يده في جيبه ليخرج منها المبلغ المتفق عليه، وينظر إلى السجناء نظرة فاحصة وجلى:

- والفائدة ثلاثة كوبيكات فيكون ديني عليك عشرة...

كان اليهودي يشعر بذعر رهيب وهلع شديد، ولكن رغبته في إتمام الصفقة الرابحة تغلبت على ذعره وهلعه.

قال السجين الشاب:

- الفائدة ثلاثة كوبيكات... سنويًا؟
- بل شهريًا.
- ألا إنك لطماع فظيع. ما اسمك؟
- أشعيا فومتش.
- طيب يا أشعيا فومتش! ستفلح هنا أيما فلاح! إلى اللقاء.

عاد اليهودي يفحص مرة أخرى الأسمال التي أقرض على رهنها سبعة كوبيكات، ثم طواها ودسها في كيسه بكثير من العناية. وظل السجناء يضحكون ضحكًا شديدًا.

الحق أن جميع السجناء قد أحبوه، ولم يسئ إليه أحد يومًا، رغم أنهم أصبحوا جميعًا مدينين له بأموال اقترضوها منه بفائدة باهظة. ولقد كان على كل حال لا يحمل قلبه من الحقد والضغينة أكثر مما يحمل منهما قلب دجاجة. فلما رأى جميع من حوله يُلاينونه ويُلاطفونه، أخذ يتصنع الوقار وطفق يتعالى ويتكبر، ولكن أوضاعه هذه كلها كانت مضحكة سخيفة، فسرعان ما كان السجناء يغفرونها له فلا يؤاخذوه عليها.

وكان لوقا الذي سبق أن عرف كثيرًا من اليهود قبل دخوله السجن يُناكده ويُناكفه ويُغيظه في كثير من الأحيان، ولكنه لا يفعل ذلك عن سوء نية وخبث سريرة، وإنما على سبيل المزاح والتسلية والتفكه، فهو يداعبه مداعبة كما يداعب المرء كلبًا أو ببغاء أو أي حيوان من الحيوانات المدربة. وكان أشعيا فومتش يدرك ذلك فما يستاء قط بل يسرع إلى الرد عليه ويكيل له الصاع صاعين.

كان لوقا يقول مثلًا:
- سوف ترى يا يهودي... لأشبعنك ضربًا.
فيجيبه أشعيا بقوله:
- إن ضربتني ضربة ضربتك عشرًا.
فيقول له لوقا:
- يا للأجرب الكريه!
فيجيبه أشعيا:
- فلأكن أجرب!
فيقول له لوقا:
- يا لليهودي المغرور!
فيجيبه أشعيا:
- أجرب! مغرور! قل ما شئت، ولكنني غني أملك مالًا.
ويستمر الحوار.
- يا بائع المسيح!
- قل ما شئت.

- مرحى صاحبنا أشعيا فومتش! ألا إنك لدماغ! لا تمسوه يا رفاق فليس لدينا منه إلا واحد!
- هيه يا يهودي! سوف تُجلد وتُرسل إلى سيبيريا.
- أنا في سيبيريا منذ الآن.
- سيرسلونك إلى مكان أبعد!
- أليس اللّه تعالى موجود هناك أيضًا؟
- طبعًا.
- ليكن إذن ما يكون. فحيثما يوجد اللّه والمال يكون كل شيء على ما يرام.
- ألا إنه لدماغ، صاحبنا أشعيا فومتش! دماغ حقًّا! ذلك واضح...
كذلك كان يصيح السجناء من حوله.
وكان اليهودي يدرك إدراكًا واضحًا أنهم يهزأون به ويتهكمون عليه، ولكن ذلك كان لا يفقده شجاعته، فهو ما ينفك يصطنع الجرأة ويتظاهر بالجسارة، وكان المدح الذي يكيله له السجناء يحدث له لذة كبيرة وها هو ذا يأخذ في الغناء بصوت نحيل يَصرُّ في الثكنة كلها: لا، لا، لا، لا!... على لحن أبله مضحك؛ تلك هي الأغنية الوحيدة التي سُمع صادحًا بها طوال مدة إقامته بالسجن، وحين تعرَّف بي حلف لي أغلظ الأيمان أن هذه الأغنية هي اللحن الذي كان يغنيه ستمائة ألف يهودي من أصغرهم إلى أكبرهم حين عبروا البحر الأحمر، وأن على كل إسرائيلي أن يغني هذه الأغنية بعد كل انتصار على العدو.
وكان السجناء في عشية كل يوم من أيام السبت يجيئون إلى ثكنتنا من سائر الثكنات ليروا أشعيا فومتش وهو يحتفل بعيد السبت. وكان هو من فرط امتلائه بالغرور الساذج والخيلاء البريئة فإن اهتمام الناس هذا يسره ويطربه. وها هو يمضي إلى منضدته الصغيرة الموضوعة في أحد الأركان فيفرش عليها غطاءً وهو يصطنع مظاهر الوقار والتفيهق والتعالم ثم يفتح كِتابًا ويُشعل شمعتين ويدمدم ببضع كلمات سرية، ثم يتناول مسوحه المبرقش الذي لا أكمام له والذي كان يُعنى بالمحافظة عليه في قرارة صندوقه؛ وها هو يُعلق بيديه أساور من نحاس ويثبت على جبينه علبة صغيرة ([24]) بواسطة عصبة، فكأنها قرن يخرج من رأسه، ثم ها هو ذا يأخذ أخيرًا بالصلاة والدعاء. إنه يقرأ في بطء ويصيح ويبصق ويتمايل بحركات عنيفة مضحكة. ذلك كله تأمر به طقوس العبادة في ديانته. وما كان لشيء من هذا كله أن يبعث على الضحك أو أن يبدو غريبًا لولا الأوضاع التي يتخذها أشعيا فومتش أمامنا ولولا الهيئات التي يصطنعها وهو يعرض هذه الطقوس على أنظارنا! وها هو ذا يُغطي رأسه بيديه على حين فجأة ويأخذ يقرأ ناشجًا منتحبًا. إن بكاءه يزداد قوة، وإنه ليوشك من شدة ألمه أن يرقد على الكتاب برأسه المعصوب نائحًا معولًا، ولكنه ما يلبث في وسط هذه الانتحابات البائسة أن ينفجر ضاحكًا مقهقهًا على حين بغتة، ويأخذ ينشد بصوت أحن لحنًا مُظفرًا مُنتصرًا كأنما رققه

وأضعفه فيض من سعادة... كان السجناء في بعض الأحيان يقولون لأنفسهم: (لا يفهم المرء من هذا شيئًا). وقد سألت أشعيا فومتش ذات يوم عن معنى هذه الانتحابات وسألته لماذا ينتقل فجأة من مرارة اللوعة إلى ظفر السعادة والغبطة، وكان أشعيا فومتش يحب هذه الأسئلة كثيرًا مني، فسرعان ما يشرح لي أن الدموع والانتحابات إنما يستثيرها فقد أورشليم، وأن الدين يأمر بالتأوه والأنين ولطم الصدور لهذه الذكرى، حتى إذا بلغ ذروة الحمد والحزن والكرب كان عليه فجأة، هو أشعيا فومتش، أن يتذكر بما يشبه المصادفة (والدين نفسه يأمر بهذا التذكر (الفجائي)) أن نبوءة من النبوءات قد وعدت اليهود بالعودة إلى أورشليم، فعليه أن يسارع فورًا إلى إظهار فرح طافح، وإلى أن يُغني ويضحك، وأن يتلو صلواته بصوت يعبر عن السعادة، وأن يسبغ على وجهه أكبر قدر ممكن من الأبهة والنبل.
كان هذا الانتقال المفاجئ من البكاء إلى الفرح يسره كثيرًا، وكان تقيده بهذا الواجب يُرضي نفسه أشد الإرضاء. وقد شرح لي هذه القاعدة الحكيمة من قواعد الدين بابتهاج لم يحاول أن يخفيه. وفي ذات مساء بينما كان أشعيا فومتش مُندفعًا في صلاته دخل الميجر يتبعه ضابط الحرس ويخفره عدد من الجنود، فسرعان ما اصطف السجناء أمام مضاجعهم، إلا أشعيا فومتش، فقد استمر يصيح ويتحرك. كان يعلم أن من حقه أن يتعبد، فما من أحد يستطيع أن يقطع عليه صلاته، وإنه إذا ظل يعول أمام الميجر فليس يجازف بشيء، وليس يتعرض لخطر. كان يبهجه كثيرًا أن يظل يتحرك على مرأى من الرئيس. اقترب منه الميجر حتى صار على بعد خطوة. فأدار أشعيا فومتش ظهره إلى المنضدة، وانتصب واقفًا أمام الميجر، وطفق ينشد نشيد الظفر محركًا يديه متمايلًا بجسمه ملحًا على بعض المقاطع؛ حتى إذا أصبح عليه أن يسبغ على وجهه معنى السعادة والنبل، فعل ذلك فورًا وهو يغمز بعينيه ويطلق ضحكات مجلجلة ويحني رأسه متجهًا نحو الميجر. فما كان من الميجر إلا أن دهش في أول الأمر، ثم انفجر مقهقهًا، ووصف أشعيا بأنه (أبله)، وانصرف بينما استمر اليهودي في صراخه، وبعد ذلك بساعة، بينما كان أشعيا يتناول عشاءه سألته عما كان يمكن أن يفعله لو بدا للميجر أن تثور ثائرته. فإذا بأشعيا يسألني:
- أي ميجر؟
قلت:
- كيف؟ ألم ترَ الميجر؟
قال:
- لا...
قلت:
- كان ينظر إليك وهو على مسافة قدمين منك.

ولكن فوما فومتش أكد لي جادًا كل الجد أنه لم يرَ الميجر، لأنه في مثل هذه اللحظة من الصلاة يبلغ من شدة الوجد في العادة أنه لا يرى شيئًا ولا يسمع شيئاً مما يجري حوله.
ما زلت أرى أشعيا فومتش يتجول أيام السبت في السجن كله محاولًا أن لا يعمل شيئًا كما تأمر الشريعة كلَّ يهودي بذلك. ألا ما أكثر ما كان يروي لي من حكايات لا تُصَدَّق! لقد كان كلما عاد من كنيسة اليهود يحمل إليَّ أنباء عن بطرسبرج، ويحمل إليَّ شائعات سخيفة، مؤكدًا أنه عرفها من أبناء ملته في المدينة، وأن هؤلاء قد استقوها من ينابيعها.
ولكنني أطلت الكلام عن أشعيا فومتش.
لم يكن في المدينة كلها إلا حمَّامان عامان. فأما الأول، وصاحبه يهودي فقد كان مُقَسمًا إلى مقصورات يبلغ أجر المقصورة منها خمسين كوبكًا، وهو الحمام الذي كان يرتاده أبناء الطبقة الأرستقراطية بالمدينة؛ وأما الثاني الذي يرتاده أبناء الشعب فهو عتيق وسخ ضيق، وهو الحمام الذي كان يؤخذ إليه السجناء. كان الجو باردًا والنهار مُضيئًا: إن السجناء ليفرحهم أن يخرجوا من القلعة وأن يطوفوا في المدينة، فها هي ذي ضحكاتهم وأمازيحهم لا تنقطع لحظة أثناء الطريق، وقد صحبتنا سرية من الجند شاكيةً السلاح. هذا منظر يتسلى به سكان المدينة. فلما وصلنا إلى الحمام قُسمنا فئتين، لأن الحمام ضيق لا يستوعب جميع السجناء دفعة واحدة، ففئة تستحم، وفئة تنتظر دورها في الحجرة الباردة التي تسبق المبخر. ومع ذلك كانت القاعة من الضيق بحيث يصعب على المرء أن يتصور كيف يمكن أن تضمُ نَصف السجناء، لم يبتعد عني بتروف قيد أنملة. لقد أسرع إليَّ دون أن أسأله مساعدتي، حتى لقد عرض عليَّ أن يغسلني. وهناك سجين آخر من القسم الخاص عرض عليَّ خدماته في الوقت نفسه. إنه باكلوشين ما أزال أتذكر هذا السجين الذي كان يُطلق عليه اسم (الميجر). لقد كان أكثر رفاقي مرحًا وبشاشة. وقد جمعت بيننا الصداقة. ساعدني بتروف في خلع ملابسي، لأنني كنت أُنفق وقتًا طويلًا في هذا العمل الذي لم أكن قد ألفته بعد ولا تعودت عليه. ثم إن البرد في حجرة الانتظار لم يكن أقل من البرد في الخارج. إنه لمن الصعب جدًّا على سجين مبتدئ أن يخلع ملابسه، ذلك أن عليه أن يعرف كيف يُحسن نزع السيور الموضوعة تحت السلاسل. إن هذه السيور من جلد طوله سبعة عشر سنتيمترًا، وهي تُربط فوق الملابس الداخلية تحت الحلقة التي توثق الساق. إن ثمن الزوجين من هذه السيور ستون كوبكًا. ولا بد لكل سجين أن يشتري من هذه السيور زوجين، لأنه لا يستطيع بدونها أن يمشي، فإن الحلقة لا تحيط بالساق إحاطة كاملة دقيقة، وفي وسع المرء أن يدخل إصبعه بين الحديد واللحم، لذلك تتحرك الحلقة وتحف الجلد فيكفي أن يمشي السجين يومًا واحدًا بدون سيور حتى تجرح ساقه وينزف دمه. لا صعوبة في نزع السيور، وإنما الصعوبة في خلع الملابس الداخلية، ولا بد لنزع الملابس الداخلية من

براعة كبيرة وحذق عظيم. إن على السجين بعد نزع فردة السروات اليسرى أن يمدها كلها بين الحلقة والساق، وأن يعيد إمرارها في الاتجاه المعاكس تحت الحلقة، فبذلك تتحرر الساق اليُسرى تحررًا تامًا، ويكون على السجين بعدئذٍ أن يمرر فردة السروال اليسرى تحت حلقة الساق اليمنى، وأن يعيد إمرارها ثانيةً إلى الوراء مع فردة السروال اليمنى. وهذه العملية المعقدة تتم أيضًا حين تبديل الملابس الداخلية الوسخة بملابس داخلية نظيفة. ولقد كان أول من علمنا ذلك هو كورنيف، في مدينة توبولسك، وهو سجين كان زعيم عصابة من قطاع الطرق وحُكم بالتكبيل بالسلاسل خمسة أعوام. والسجناء قد ألفوا هذه الرياضة فهم يجرونها بخفة وسرعة. أعطيتُ بتروف بضعة كوبكات ليشتري صابونًا وليفة. صحيح أن السجناء كانوا يُعطون قطعة صابون، ولكن قطعة الصابون التي كانوا يُعطونها لا يزيد حجمها على حجم قطعة النقد من فئة الكوبكين، ولا يزيد سمكها على سمك شرائح الجبن النحيلة التي تُقدَّم بدايةً لوجبة العشاء على موائد أبناء الطبقة المتوسطة في الولائم. كان الصابون يباع في حجرة الانتظار نفسها، كما يباع شراب (السبيتين) (المصنوع من عسل وتوابل وماء ساخن)، وكما تُباع أرغفة من خبز أبيض، وكما يُباع الماء الغالي، وفقًا للاتفاق المبرم بين صاحب الحمام وإدارة السجن؛ فإذا أراد أحد السجناء أن يُنظف جسمه مزيدًا من التنظيف كان في وسعه أن يشتري بكوبكين قادوسًا آخر يمده إليه صاحب الحمام من كوة مشقوقة في الجدار لهذا الغرض.

ما إن فرغت من خلع ملابسي حتى أمسك بتروف ذراعي قائلًا إن من الصعب عليَّ أن أسير بأغلالي؛ وأضاف ينصحني وهو يسندني من أبطي كأنني شيخ عجوز: (ارفعها إلى فوق، إلى ربلتي الساقين. حذارِ هنا سنجتاز الآن عتبة الباب!). خجلت من هذه الرعاية التي يُحيطني بها بتروف، فأكدت له أنني أستطيع أن أسير وحدي، ولكنه لم يشأ أن يُصدقني. كان يرعاني كما يُرعى طفل صغير أخرق ينبغي لكل إنسان أن يهب إلى مساعدته. ولم يكن بتروف بالخادم قط. ولو قد أهنته لعرف كيف يتصرف معي، وأنا لم أعده بشيء مكافأةً له على خدماته، ولا هو سألني شيئًا من ذلك، فما الذي كان يدفعه إلى هذه العناية بي وهذه الرعاية لي؟

حين فتحنا باب المبخر خيَّل إليَّ أننا ندخل الجحيم. تصوروا قاعة طولها اثنتا عشرة قدمًا وعرضها مثل ذلك، وقد حُشر فيها مائة شخص في آن واحد، أو ثمانون شخصًا على الأقل، لأن عددنا كان نحوًا من مائتين قُسموا فئتين. أعمانا البخار. كان السخام والقذارة وضيق المكان، كان ذلك كله يبلغ حدًا لا نعرف معه أين نضع أقدامنا، ذُعرت وأردت أن أخرج. ولكن بتروف لم يلبث أن طمأنني. واستطعنا بعد لأي أن نشق طريقنا نحو المصاطب كيفما اتفق، متطاولين بخطانا على رؤوس السجناء، راجين إياهم أن ينحنوا حتى يُتاح لنا أن نمر. ولكن جميع المصاطِب كانت قد شُغلت. فأعلمني بتروف أن عليَّ أن

أشتري مكانًا، وسرعان ما أخذ يساوم في هذا سجينًا كان جالسًا على مصطبة قرب النافذة. فقبل السجين أن يتنازل لي عن مكانه لقاء كوبك واحد. أخذ الكوبك من بتروف الذي كان يقبض على الكوبك بيده إذ كان قد أعدَّه سلفًا من باب الاحتياط. أخلى لي السجين مكانه ثم انسل من تحتي إلى مكان مظلم قذر تراكمت فيه أوساخ علوُّها نصف بوصة على الأقل. حتى الأماكن التي تحت المصاطب كانت غاصة بالسجناء يتقلبون فيها ويلغطون. أما أرض الحمام فلم يكن فيها خلاء بسعة راحة اليد إلا وهو مشغول بالسجناء الذين يصبون الماء من قواديسهم. فالواقفون يغتسلون ممسكين أوانيهم بأيديهم، فيتساقط الماء الوسخ من أجسامهم على رؤوس القاعدين الحليقة. وعلى المصطبة والدرجات المفضية إليها قد أقعى سجناء آخرون يغتسلون مجتمعين على أنفسهم متكومين، ولكنهم قلة، والسواد الأعظم من السجناء لا يحب الاغتسال بالماء والصابون، وإنما يؤثر البقاء في جو البخار زمنًا طويلًا، ثم يصب الماء البارد على الجسم، فهكذا كانت تستحم العامة من السجناء. وعلى أرض الحمام يرى المرء خمسين ليفة تعلو وتهبط في آن واحد، تحك أجسام المستحمين فيشعر المستحمون من ذلك بنشوة تشبه أن تكون سكرًا، والبخار يزداد في كل لحظة، حتى ليصبح الشعور بالحرارة إحساسًا بالاحتراق والصراخ والزعيق يرتفعان في كل جهة من الجهات، ويختلطان بجلجلة الأغلال التي تقرع الأرض... فإذا أراد بعض السجناء أن ينتقلوا من موضع إلى آخر تشابكت سلاسلهم بسلاسل أُخرى، وصدمت رؤوس من يكونون تحتهم، فإذا هم يسقطون، فيأخذون يشتمون، وإذا هم يجرون إلى السقوط معهم أولئك الذين تعلقوا بهم. إن السجناء جميعًا في نوع من سكر، وفي حالة من هيجان مجنون. الصرخات والصيحات تتقاطع وتختلط. وعند الكوة التي يُعطى منها الماء الساخن، يُكدس السجناء تكدسًا حتى ليكاد يسحق بعضهم بعضًا، والماء الساخن يتدفق فوق رؤوس القاعدين على أرض الحمام قبل أن يصل إلى حيث يُنقل، وكنا نحس أننا أحرار طلقاء، غير أن وجهًا ذا شاربين هو وجه أحد الجنود، كان يظهر وراء كوة الحجرة أو وراء الباب المشقوق، من حين إلى حين؛ إن الجندي يحمل بندقيته حِرصًا على منع حدوث أية فوضى. إن رؤوس السجناء الحليقة وأجسامهم التي صبغها البخار بلون كلون الدم تبدو غريبة مزيدًا من الغرابة والشذوذ. فعلى ظهورهم المحمرَّة من حرارة البخار تبدو الآن، بوضوح ظاهر، الندبات التي خلفتها ضربات السوط القديمة وقد انتعشت الندبات حتى لكأن الجلود قد مُزقَّت منذ قليل. يا لها من ندبات رهيبة! إن قشعريرة شديدة تسري في جسمي متى نظرت إليها! وازداد البخار، فأصبحت قاعة الحمام مغطاة بسحاب كثيف محرق فيه يضطرب كل شيء ويصرخ ويزعق، ومن هذا السحاب تخرج جلود ممزقة ورؤوس محلوقة وأذرع ملتوية وسيقان محنية، وإكمالًا للوحة، كان أشعيا فومتش يِعول ملءِ صِدره فرحًا فوق أعلى مصطبة، إنه يلبث في

البخار زمنًا طويلًا من شأنه أن يجعل أي شخص آخر يسقط مغشيًا عليه، ولكن أشعيا فومتش لا يكتفي بأية درجة من درجات الحرارة. وقد استأجر سجينًا يفرك له جسمه بالليفة لقاء كوبك واحد، غير أن الرجل لم يُطق صبرًا، فما هي إلا لحظة حتى رمى الليفة وأسرع يصب على جسمه ماءً باردًا. لم ييأس أشعيا فومتش، فها هو ذا يستأجر سجينًا ثانيًا، فثالثًا. إن أشعيا فومتش لا يبالي بالنفقات في مثل هذه الأحوال، حتى لقد يستأجر لفرك جسمه خمسة رجال واحدًا بعد الآخر. وها هم أولاء السجناء يهتفون قائلين له: (يا لهذا الفتى الشجاع أشعيا فومتش، كم يحب الاستحمام!). ويشعر اليهودي هو نفسه أنه تفوق على سائر السجناء، وأنه غلبهم... فها هو عندما يشعر بهذا الانتصار حتى ينطلق صادحًا بصوته الحاد، مترنمًا بأغنيته: لا، لا، لا، لا... مغطيًا بغنائه كل ما في الحمام من ضجة وجلبة. قلت لنفسي: (لو حُشرنا معًا في الجحيم، لكان وجودنا في الجحيم كوجودنا في هذا المكان). ولم أستطع أن أقاوم الرغبة في نقل هذه الفكرة إلى بتروف: فنظر بتروف حواليه ولم يجب بشيء.

وددت لو أستأجر لصاحبي بتروف مكانًا إلى جانبي، ولكنه قعد عند قدميَّ وأعلن لي أنه مرتاح كل الارتياح. وفي أثناء ذلك اشترى لنا باكلوشين ماءً ساخنًا، فكان يحمله إلينا كلما احتجنا إلى ماء ساخن. وأعرب لي بتروف عن رغبته في أن يغسلني من القدمين إلى الرأس حتى أصبح (نظيفًا كل النظافة). وحضني على أن ألبث في البخار زمنًا. ولكنني لم أعزم أمري على ذلك. فأخذ يفرك جسمي كله بالصابون. فلما انتهى من ذلك قال: (والآن سأغسل قدميك الصغيرتين)، فأردت أن أجيبه بأنني أستطيع أن أغسل نفسي بنفسي، ولكنني لم أعارضه بل استسلمت لإرادته. لم يكن في قوله (قدميك الصغيرتين) شيء من مذلة. إن بتروف لا يستطيع أن يسمي قدمي باسمهما، لأن جميع الرجال العاديين لهم أقدام، أما أنا فليس لي قدمان بل (قدمان صغيرتان)!...

فلما فرغ بتروف من غسلي مرة ثانية أعادني إلى الحجرة الخارجية وهو يُسندني من ذراعي وينبهني عند كل خطوة، كما لو كنت من خزف. وأعانني على لبس ثيابي، حتى إذا انتهى من تدليلي هذا التدليل كله، اندفع إلى الحمام ليستحم هو أيضًا.

فلما وصلنا إلى الثكنة قدمتُ إليه فنجانًا من الشاي فلم يرفضه بل احتساه وشكرني. وخطر ببالي أن أنفق ثمن قدح من الخمرة تكريمًا له. فوجدت خمرة في ثكنتنا نفسها. فما كان أشد سروره بذلك! أفرغ الخمرة في جوفه، وتنحنح رضى واغتباطًا، وقال لي إنني رددته إلى الحياة، ثم مضى مُسرعًا إلى المطبخ، كأنما لا يمكن أن يُقرَّر في المطبخ شيء بدونه. فما إن غاب حتى جاءني محدث آخر: إنه باكلوشين الذي سبق أن تكلمت عنه، وكنت قد دعوته أيضًا إلى فنجانٍ من الشاي.

لا أعرف خُلقًا أدمث من خلق باكلوشين. والحق أنه لم يكن يغفر لأحد شيئًا، حتى لقد كان يتشاجر مع الناس كثيرًا، وكان لا يحب أن يتدخل أحد في شؤونه الخاصة. الخلاصة أنه كان يعرف كيف يُدافع عن نفسه. ولكن مُشاجراته كانت لا تطول. وأعتقد أن جميع السجناء كانوا يحبونه. وكانت تُحسن وفادته حيثما ذهب. وحتى في المدينة كان يُعد ألطف إنسان. إنه فتى فارغ القامة في الثلاثين من عمره، له وجه ينم عن ذكاء وحزم، وهو بلحية ذقنه وسيم الطلعة جميل المحيا. وكانت له موهبة فذة هي القدرة على تشويه وجهه تشويهًا يبلغ من الإضحاك في تقليد أول قادم أن الحلقة التي تحيط به ما تلبث أن تنفجر في قهقهة شديدة. إنه ممثل هزلي بفطرته. ولكنه يرفض أن يسيء إليه أولئك الذين يصطنعون الاشمئزاز ولا يحبون أن يضحكوا. لذلك لم يكن يتهمه أحد بأنه امرؤ (لا فائدة منه ولا دماغ له). كان باكلوشين يفيض حياةً ونارًا، وقد تعرف إليَّ منذ الأيام الأولى، فقص عليَّ سيرة حياته العسكرية جنديًا في كتيبة الرواد حيث لاحظه و عنى به أناس من أعلى الرتب. وسرعان ما ألقى عليَّ عدة أسئلة عن بطرسبرج حتى لقد كان يقرأ كُتبًا، فلما جاء في هذه المرة يحتسي الشاي عندي أضحك جميع من في الثكنة إذ روى كيف أساء الليوتنان ش... معاملة الميجر في الصباح، وأنبأني مبتهجًا وهو يجلس إلى جانبي أن من الجائز أن تُقام في السجن حفلة تمثيلية، إن في نية السجناء أن يمثلوا مسرحية أثناء أعياد الميلاد، وقد عثروا على الممثلين اللازمين، وهم الآن بسبيل إعداد الديكور شيئًا بعد شيء، وقد وعدهم بعض الأشخاص في المدينة بإعارتهم ثياب نساء للتمثيل، حتى إن هناك أملًا في الحصول على بزة ضابط بواسطة خادم من خدم الضباط، مع ما على البزة من شارات مذهبة، اللهم إلا أن يخطر ببال الميجر أن يمنع إقامة الحفلة كما منعها في السنة الماضية! لقد كان الميجر في السنة الماضية معتكر المزاج لأنه خسر في القمار، هذا عدا أن شيئًا من الشغب كان قد حدث في السجن، فإذا هو يمنع كل شيء في صورة من الغضب والاستياء. ولعله لن يحب أن يمنع إقامة حفلة تمثيلية في هذا العام. كان باكلوشين متحمسًا، وكان من الواضح أنه أحد المحرضين الأوائل على إقامة المسرح المرتقب. ولقد قررت بيني وبين نفسي أن أحضر المسرحية. إن الفرح الشديد الذي ظهر على باكلوشين أثناء حديثه عن هذا المشروع قد أثر في قلبي تأثيرًا قويًا. وشيئًا فشيئًا أصبحنا نتصارح ونتكاشف، فذكر لي في ما ذكر أنه لم يخدم في بطرسبرج فحسب، وإنما أُرسل أيضًا إلى مدينة ر... برتبة صف ضابط مع فصيلة من الجيش، ثم أضاف إلى ذلك قوله:

- ومن هناك إنما أُرسلت إلى هنا.

سألته:

- لماذا؟

فأجاب:

- لماذا؟ إنك لن تحزر السبب يا ألكسندر بتروفتش! لقد أرسلت إلى هنا لأنني عشقت...
فقلت له ضاحكًا:
- دعك من هذا الكلام، فما أحد يُنفى لمثل هذا السبب.
فقال باكلوشين:
- الحقيقة أنني بسبب ذلك الغرام قتلت هناك ألمانيًا بطلقة من مسدس، ولكن هل يستحق ألماني أن أحكم من أجله بالأشغال الشاقة في المنفى؟ إنني أحتكم إليك...
- كيف وقع هذا؟ قص عليَّ القصة، فلا شك أنها قصة شائقة.
- هي قصة مضحكة يا ألكسندر بتروفتش!
- هلا قصصتها عليَّ؟
- أتريد ذلك؟ اصغ إذن إليَّ...
وأصغيت إلى قصة القتل؛ ما هي بالقصة (المضحكة)، وإنما هي في الحقيقة قصة عجيبة جدًّا...
بدأ باكلوشين يروي قصته:
- إليك القصة... كنت قد أُرسلت إلى ريجا، وهي مدينة كبيرة جميلة لا يعيبها إلا شيء واحد هو كثرة الألمان فيها. كنت ما أزال شابًا، وكان رؤسائي يقدرونني ويثنون عليَّ. كنت أتبختر جاعلًا قبعتي مائلة على رأسي حتى الأذن، وكنت أقضي وقتي في متعة وبهجة. وكنت أُغازل الفتيات الألمانيات، فأعجبتني إحداهن إعجابًا شديدًا، وكان اسمها لويزا. إنها تعمل مع عمتها في تنظيف الملابس الراقية وكيِّ الثياب الأنيقة. فأما العمة فكان شكلها أشبه بصورة كاريكاتورية، وكانت تملك مالًا وفيرًا. لم أزد في أول الأمر على المرور تحت النوافذ، ولكن سرعان ما انعقدت الصلة بيني وبين الفتاة. كانت لويزا تجيد الكلام بالروسية، على لكنة خفيفة. وكانت بارعة الجمال فاتنة لم أصادف نظيرًا لها في حياتي. استعجلتها في أول الأمر بحرارة وقوة، ولكنها قالت لي: (لا يا ساشا، لا تطلب مني هذا، فإنني أريد أن أحتفظ ببراءتي، لأكون زوجة جديرة بك!). وكانت لا تني تلاطفني وهي تضحك ضحكًا صافيًا صريحًا... وكانت طاهرة كل الطهارة، أؤكد لك ذلك!... وقد حرضتني هي على الزواج منها... فكيف لا أتزوجها؟ هلَّا قلت لي كيف أرفض أن أتزوجها؟ وها أنا ذا أتهيأ للذهاب إلى الكولونيل حاملًا طلب الموافقة على ذلك، وفجأة أخلفت لويزا الموعد، مرة أولى، فمرة ثانية، فمرة ثالثة... بعثت إليها برسالة.. فلم تجب... قلت لنفسي: (ما العمل؟ لو كانت تخدعني، لو كانت تخونني لكان في وسعها أن تذر الرماد في عيني فتجيء إلى الموعد). ولكنها كانت لا تعرف الكذب. لا شك في أنها قطعت صلتها بي إذن. هذا كل ما في الأمر. حدثت نفسي قائلًا: (تلك حيلة دبرتها عمتها). لم أجرؤ أن أذهب إلى العمة. فرغم أنها كانت على علم بعلاقتنا، فقد كنا نتصرف تصرف من يجهل أنها على علم بهذه العلاقة...

أصبحت كمن مسّه جن... كتبت لها رسالة أخيرة قلت فيها: (إذا لم تأتِ، فسأذهب إلى العمة بنفسي). فخافت وجاءت. وها هي ذي تطفق تبكي، وتقص عليَّ أن ألمانيًا اسمه شولتس، وهو يمت إليها بقربى بعيدة، ويعمل مصلح ساعات، كما أنه متقدم في السن ولكنه غني، قد أظهر رغبته في تزوجها من أجل أن يسعدها على حد تعبيره، ومن أجل أن لا يبقى بغير زوجة أثناء شيخوخته؛ وإن هذا الألماني كان يحبها منذ زمن طويل وأنه قد منى نفسه بهذه الفكرة سنين كثيرة، ولكنه صمت ولم يعزم أمره على مكاشفتها؛ ثم ختمت كلامها بقولها: (ها أنت ذا ترى يا ساشا أن سعادتي رهن بهذا الزواج لأن الرجل غني. فهل تريد أن تحرمني من سعادتي؟) نظرت إليها... ثم صارت تبكي، وتقبلني، وتعانقني...

قلت لنفسي: (ألا إنها لعلى حق! فأي فائدة تجنيها من الزواج بجندي، حتى ولو كان عريفًا؟)، ثم قلت لها: (طيب يا لويزا! وداعًا.. حماكِ اللّه ورعاكِ! ليس من حقي أن أحرمكِ من سعادتكِ... ولكن قولي لي كيف هو الرجل؟ أهو جميل؟)، فأجابت: (لا... إنه مسن، ثم إن أنفه طويل) حتى لقد انفجرت ضاحكة، تركتها. وقلت لنفسي: (هيَّا... لم يكتب لي هذا الحظ). وفي الغداة مررت بالقرب من دكان شولتس (كانت قد ذكرت لي الشارع الذي يُقيم فيه)، ونظرت من خلال الزجاج، فرأيت ألمانيًا يُصلح ساعة. إنه في نحو الخامسة والأربعين من العمر، له أنف أقنى، وعينان منتفختان، وهو يرتدي فراكًا ذا ياقة قائمة عالية جدًّا، بصقت حين رأيته احتقارًا: كنت في تلك اللحظة مستعدًا لأن أحطم زجاج واجهة دكانه، ولكنني قلت لنفسي: (ما فائدة هذا؟ لم يبق لي في الأمر حيلة! لقد انتهى كل شيء!). وصلت إلى الثكنة مع هبوط الليل، واستلقيت على مضجعي، وطفقت أنتحب وأنتحب. هل تصدق هذا يا ألكسندر بتروفتش!

وانقضى يوم فيوم ثانٍ فيوم ثالث. أصبحت لا أرى لويزا. ومع ذلك علمت من عجوز تعمل في تنظيف الملابس وكيِّها هي أيضًا، وكانت حبيبتي تذهب إليها في بعض الأحيان، علمت أن هذا الألماني كان يعرف حبنا وأنه لهذا السبب قد قرر أن يتزوجها بأقصى سرعة ممكنة، ولولا ذلك لكان يمكن أن ينتظر سنتين. ولقد أجبر لويزا على أن تحلف له ألا تلقاني أبدًا. وعلمت أن الألماني يسيء معاملة لويزا وعمتها، وأنه قد يغيّر رأيه فينكص على عقبيه وينكل عن الزواج. وقالت لي العجوز أيضًا أنه دعاهما إلى تناول الشاي في منزله غداة غد، وهو يوم أحد، وإن قريبًا آخر قد يأتي أيضًا وهو رجل كان في الماضي تاجرًا وأملق الآن إملاقًا شديدًا فأصبح يعمل مُراقبًا في مستودع للخمور. فلما عرفت أنهم سيبتون في هذا الأمر يوم الأحد بلغت من الغضب أنني لم أستطع أن أسترد هدوئي. ولم أزد في ذلك اليوم وفي اليوم الذي يليه على أن أفكر وأفكر. لقد كان يمكن لو رأيت ذلك الألماني أن ألتهمه إلتهامًا على ما أظن.

في صباح يوم الأحد لم أكن قد قررت شيئًا بعد، ولكن ما إن انتهيت من سماع القداس حتى خرجت راكضًا فألقيت عليَّ معطفي وذهبت إلى ذلك الألماني. كنت أقدر أن أراهم جميعًا هناك، أما لماذا ذهبت إلى الألماني وماذا كنت أريد أن أقول فذلك أمر لم أكن أعرف عنه شيئًا أنا نفسي. وقد دسست في جيبي مسدسًا من باب الاحتياط، وهو مسدس صغير حقير له زياد على الطراز القديم؛ لقد كنت أستخدمه في الرمي أيام الطفولة، وهو الآن لا يصلح لشيء، ومع ذلك حشوته رصاصًا، لأنني قدرت أنهم قد يطردونني وأن هذا الألماني قد يغلظ لي القول وأنني قد أطلق رصاص مسدسي عندئذٍ من أجل أن أخيفهم جميعًا، وصلت، كان السلم خاليًا. إنهم جميعًا في الحجرة التي تقع خلف الدكان. وما من خادم. كانت الخادمة الوحيدة غائبة. عبرت الدكان، فرأيت الباب مُغلقًا، وهو باب عتيق يدعمه رتاج. أخذ قلبي يخفق. توقفت وأصغيت: إنهم يتكلمون بالألمانية. رفست الباب بقدمي، فانفتح ونظرت فرأيت المائدة مبسوطة. كان عليها إبريق قهوة كبير تغلي القهوة فيه فوق سراج يشتعل بالكحول. وكان على المائدة بسكويت؛ وعلى صينية أخرى توجد قارورة خمرة وأسماك مجففة وسجق وزجاجة نبيذ. إن لويزا وعمتها ترتديان ثياب يوم الأحد، وهما جالستان على الأريكة. وأمامهما الألماني مسترخيًا على كرسي وقد بدا عليه ما يبدو على خطيب، فهو مصفف الشعر يرتدي فِراكًا ويتزين بياقة عالية. وفي الجهة الأخرى كان يجلس ألماني ثانٍ هو شيخ منذ الآن بدين الجسم أشيب الشعر. إنه صامت. اصفرت لويزا اصفرارًا شديدًا حين دخلت، ونهضت العمة عن مقعدها بوثبة سريعة ثم ما لبثت أن عادت تجلس وغضب الألماني، فها هو ذا يقوم ويهب إلى لقائي قائلًا:

- ماذا تريد؟

كان يمكن أن أرتبك لولا أن شد الغضب أزري. قلت:

- ماذا أريد. هلا أحسنت وفادة ضيف فسقيته قليلًا من الخمرة؟ أنا إنما جئتك زائرًا....

فكر الألماني لحظة ثم قال لي:

- اجلس.

جلست

- إليك خمرة فاشرب.

- هلا أعطيتني من جيد الخمرة!

وكان غضبي يزداد استعارًا.

قال:

- هذه خمرة جيدة.

رأيت أنه ينظر إليَّ من أعلى إلى أدنى، فأثار هذا حنقي إثارة رهيبة. وكان أنكى ما في الأمر أن لويزا ترى هذا المشهد. شربت وقلت له:

- هيه يا ألماني! لمِاذا تغلظ لي القول؟ يجب أن نتعارف فأنا قد جئتك صديقًا.

أجاب الألماني قائلًا:
- لا يمكن أن أكون صديقك، فما أنت إلا جندي.
ثارت عندئذٍ ثائرتي فصحت أقول:
- أيها الحقير! يا أكل السجق! هل تعلم أن في وسعي أن أصنع بك ما أشاء؟ هل تريد أن أحطم رأسك بهذا المسدس؟
قلت ذلك وأنا أسل مسدسي وأنهض من مكاني وأضع فوهة المسدس على صدغه. أصبحت المرأتان أقرب إلى الموت منهما إلى الحياة. إنهما لا تجرؤان على أن تتنفسا. وأخذ الشيخ يرتجف كورقة في مهب الريح وقد شحب لونه شحوبًا شديدًا.
دهش الألماني، ولكنه سرعان ما ثاب على نفسه فقال:
- لست أخاف منك، وأنا أرجوك كرجل مهذب أن تكف فورًا عن هذا المزاح. أنا لا أخاف منك قط.
- كذاب. إنك خائف. انظروا إليه! إنه لا يجرؤ أن يحرك رأسه من تحت المسدس.
قال:
- لا... أنت لا تجسر أن تفعل هذا!
- لماذا لا أجسر أن أفعله؟
- لأنه ممنوع منعًا باتًا، ولأنك إن فعلته عوقبت عِقابًا قاسيًا!
يا لهذا الألماني الأحمق ما كان أغباه وما كان أشد بلاهته! فلولا أنه دفعني إلى قتله دفعًا لبقي حيًا.
قلت له:
- أنت تعتقد إذن أنني لن أجرؤ؟
- لن تجرؤ.
- لن أجرؤ؟
- لن تجرؤ أن...
- طيب خذها إذن يا سجق!
قلت ذلك وأنا أطلق رصاص مسدسي فإذا هو يتهاوى على كرسيه. وصرخ الآخرون.
أعدت مسدسي إلى جيبي. وحين رجعت إلى القلعة رميته بين الأعشاب قرب الباب الكبير.
وصلت الثكنة واستلقيت على مضجعي وقلت لنفسي: (سيُقبض عليَّ فورًا). انقضت ساعة وانقضت ساعة أخرى ولم أُعتقل. وعند المساء استبد بي حزن شديد وغم ثقيل، فخرجت. كنت أريد أن أرى لويزا مهما كلف الأمر. مررت أمام منزل الساعاتي، فرأيت حشدًا كبيرً من الناس ورأيت شرطة... أسرعت إلى بيت المرأة العجوز وقلت لها: (نادي لويزا)، فما هي إلا لحظة حتى كانت لويزا ترتمي على ِعنقي باكية وتقول لي: (الذنب ِذنبي فقد أطعت عمتي).

وذكرت لي لويزا أن عمتها قد رجعت إلى الدار رأسًا بعد ذلك المشهد وأنها قد بلغت من شدة الخوف أنها مرضت، وأنها لم تنبس بكلمة واحدة، ولم تشِ العجوز بأحد، حتى أنها أمرت ابنة أخيها بأن تسكت وأن تكتم كل شيء، لأنها كانت خائفة؛ وقالت لويزا: (فليفعلوا ما يشاءون ما من أحد رآنا منذ وقع الحادث). كان الساعاتي قد صرف خادمته لأنه يخافها كما يخاف النار، فلو علمت أنه يريد أن يتزوج لفقأت عينيه، ولم يكن في الدكان أي عامل، فالساعاتي قد أبعد جميع العمال. لقد تولى بنفسه إعداد القهوة والوجبة. أما قريبه فهو امرؤ صامت طوال حياته. لذلك تناول قبعته من دون أن يفتح فمه، وانصرف أول المنصرفين. أضافت لويزا تقول: (أنا على يقين من أنه سيظل صامتًا). وذلك ما حدث. انقضى أسبوعان ولم أعتقل، ولا أُشتبه فيَّ قط. وكان هذان الأسبوعان كل سعادة حياتي! صدق أو لا تصدق يا ألكسندر بتروفتش! أصبحت ألقى لويزا كل يوم، فما أشد ما تعلقت بي! كانت تقول لي وهي تبكي: (إذا نُفيتَ فلأذهبنَّ معك! لأتركنَّ كل شيء في سبيل أن أتبعك). فكان هذا يفطر قلبي شفقةً. وقُبض عليَّ بعد أسبوعين. لقد اتفق الشيخ والعمة على أن يبلغا عني ويشيا بي.

قلت مُقاطعًا:

- ولكن اسمع يا باكلوشين! من أجل هذا الأمر لا يحكم أحد إلَّا بعشر سنين أو باثنتي عشرة سنة، ذلك هو الحد الأقصى للعقوبة؛ ويُسجن الجاني في القسم المدني فمالي أراك في القسم الخاص؟ ما سبب ذلك؟)

قال باكلوشين:

- تلك قضية أخرى، فحين اقتادوني إلى المجلس الحربي، أخذ النائب العام وهو برتبة رائد يهينني أمام المحكمة، ويقول لي ألفاظًا نابية، فلم أُطق صبرًا، فصرخت أقول له: (لماذا تشتمني أيها الوغد؟ ألا ترى أنك أمام "مرآة عدالة"؟) ([25]) فكان أن رُفعت على قضية أخرى وأُعيدت مُحاكمتي للجرمين كليهما فحكم عليَّ بأربعة آلاف جلدة وبإيداعي (القسم الخاص). ويجب أن أذكر لك أنه حين جيء بي إلى الشارع لتلقي العقوبة قد جيء بذلك الضابط أيضًا، وكان قد حُكم عليه بتجريده من رتبته العسكرية وبإرساله إلى القوقاز جنديًا بسيطًا، وذلك لجرم اقترفه. إلى اللقاء يا ألكسندر بتروفتش: لا تتخلف عن حضور حفلتنا التمثيلية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

10

عيد الميلاد

أقبل عيد الميلاد أخيرًا. إن السجناء لا يكادون يذهبون إلى العمل في اليوم السابق على العيد. الذين يعملون في الخياطة وأمثالهم يمضون إلى ورشاتهم كالعادة؛ أما الآخرون فإنهم ما إن يتجمعوا في أماكن العمل حتى يعودوا إلى الثكنة وحدانًا أو جماعات. حتى إذا فرغوا من تناول غدائهم لم يعملوا بعد ذلك قط. لم يهتم القسم الأكبر من السجناء، منذ الصباح، إلا بأعمالهم الخاصة، أما الأعمال التي تفرضها إدارة السجن فلم يحفلوا بها: فبعضٌ يحتال لإدخال خمرة إلى السجن، أو لطلب المزيد منها، وبعض يطلب الإذن له برؤية أصدقائه من الرجال أو النساء، وبعض يلم الديون الصغيرة التي له على غيره لقاء أعمال سبق أن قام بها. وكان باكلوشين والسجناء الذين يشاركون في إعداد الحفلة التمثيلية يحاولون أن يُقنعوا أصحابهم من خدم الضباط بإعارتهم الملابس التي هم بحاجة إليها.

وكان بين السجناء أُناس يضطربون ذاهبين آيبين لا لشيء إلا لأن آخرين أيضًا كانوا يضطربون ذاهبين آيبين. ما من أحد يدين لهم بمال يتوقعون أن يتقاضوه، ومع ذلك يبدو عليهم أنهم ينتظرون أن يتقاضوا شيئًا. الخلاصة أن جميع الناس يأملون حدوث تغير ما، يأملون وقوع شيء خارق. وفي المساء عاد الجنود القدماء (مشوهو الحرب) يحملون للسجناء ما أوصوهم بشرائه لهم من أنواع الأطعمة: لحمًا وخنازير رضيعة وأوزًا. إن كثيرًا من السجناء، وحتى أكثرهم عِوزًا وأشدهم تقتيرًا، ممن ظلوا طوال السنة يكدسون كوبكاتهم، يعتقدون أن من واجبهم أن يبسطوا أكفهم في هذا اليوم وأن يُنفقوا بسخاء وأن يحتفلوا بسهرة العيد احتفالًا يليق بها. إن الغد هو في نظر السجناء عيد حقيقي لهم فيه حق، عيد معترف لهم به بحكم القانون. لا يمكن إرسال السجناء إلى العمل في ذلك اليوم؛ وليس في السنة كلها إلا ثلاثة أيام كهذا اليوم.

وأخيرًا من ذا الذي يدري ما هي الذكريات التي لا بد أن تستيقظ وأن تغلي وتفور في نفوس هؤلاء المنبوذين عند اقتراب احتفال كهذا الاحتفال؟ إن أبناء الشعب يحفظون ذكرى الأعياد الكبرى منذ الطفولة. فلا بد لهؤلاء السجناء أن يتذكروا في كثير من الحزن والقلق والاضطراب تلك الأيام التي يرتاح فيها المرء من الأعمال المضنية في حضن الأسرة. إن احترام السجناء لهذا اليوم يفرض نفسه عليهم فرضًا، فإذا الذين يسرقون في الشراب والسكر منهم قلة قليلة، وإذا أكثرهم جادون، حتى لتراهم منهمكين رغم أن معظمهم ليس عنده ما يعمله. وحتى الذين يسمحون لأنفسهم بالاستهتار يحتفظون بشيء

من الرزانة والرصانة والوقار.... فكأن الضحك ممنوع محظور. لقد ران على السجن تزمت لا يتهاون ولا يتسامح، فإذا أساء أحد إلى الراحة العامة والهدوء الشامل، هب السجناء ينهرونه ويردونه إلى مكانه صارخين شاتمين، وغضبوا منه أشد الغضب كأنما هو أخلَّ بواجب احترام العيد نفسه. تلك حالة نفسية لدى السجناء واضحة بارزة بل ومؤثرة. فإنهم، إلى جانب تقديسهم الفطري لهذا اليوم العظيم، يحسون أنهم إذا هم أكبروا العيد وأعظموه كانوا يتصلون بباقي العالم، فلا يظلون منبوذين ضائعين محتقرين مهملين، ما دام السجن يحتفل بالعيد كما يحتفل به من هم في خارج السجن. إن السجناء يشعرون بهذا كله، رأيت ذلك وأدركته بنفسي.

وقد قام أكيم أكيمتش أيضًا باستعدادات كبيرة للاحتفال بالعيد. ليس لأكيم أكيمتش ذكريات أسرة، فقد ولد يتيمًا في بيت أناس غرباء، ودخل الخدمة منذ السنة الخامسة عشرة من عمره، ولم يشعر يومًا بأفراح كبيرة لأن حياته قد جرت على نسق واحد ووتيرة واحدة في جو الخوف من مخالفته الواجبات المفروضة عليه، لا ولا هو بالمتدين كثيرًا، لأن تقيده بالنظام قد خلق فيه جميع مواهبه الإنسانية، وجميع أهوائه، وجميع ميوله حسنة كانت أو سيئة، لذلك كان يتهيأ للاحتفال بعيد الميلاد من دون لهفة كبيرة أو انفعال قوي أو ضيق شديد. ما من ذكرى كانت تثير حزنه وشجنه، على أن الاستعداد للاحتفال بعيد الميلاد فرصة له من أجل أن يقوم بعمله على نظام دقيق وترتيب معين يفرضهما واجب الاحتفال بعيد مقرر مفروض. ثم إن آكيم آكيمتش لا يحب التأمل كثيرًا، إنه حين ينفذ القواعد تنفيذًا دقيقًا لا يعنيه الموضوع وإنما يعنيه الشكل، فلو طلبت إليه في الغداة أن ينفذ نقيض ما نفذه بالأمس، لرأيته يكب على تنفيذه مُظهرًا ذلك الخضوع نفسه وتلك الدقة نفسها التي أظهرها بالأمس. لقد أراد مرة واحدة في حياته أن يعمل بوحي اندفاعه، فإذا هو يُرسل إلى سجن الأشغال الشاقة. ذلك درس لم ينسه. فرغم أنه لم يكتب له أن يفهم ذنبه وأن يدرك جرمه في يوم من الأيام، فقد استخرج من مغامرته تلك قاعدة أخلاقية تضمن له السلامة، وهي أن لا يفكر يومًا، في أي ظرف من الظروف، لأن فكره لا يؤهله أبدًا لأن يقضي برأي في القضية التي يجب عليه أن يقضي فيها برأي. إنه مكب على القيام بواجبات الاحتفال بالعيد، إكبابًا أعمى، حتى أنه ينظر نظرة احترام إلى الخنزير الرضيع الذي حشاه جريشا وقلاه بنفسه (لأنه ملم بفن الطهو بعض الإلمام)، فكان هذا الخنزير الرضيع الذي يعده طعامًا للعيد ليس خنزيرًا عاديًا من الخنازير التي يمكن شراؤها وقليها في كل وقت، وإنما هو حيوان لم يولد إلا لعيد الميلاد. لعل آكيم آكيمتش قد ألف منذ نعومة أظفاره أن يرى على المائدة في مثل هذا اليوم خنزيرًا رضيعًا، فاستنتج من ذلك أن الخنزير الرضيع شيء لا بد منه ولا غنى عنه للاحتفال بالعيد كما ينبغي الاحتفال بالعيد. وإني لعلى يقين من أنه إن لم يأكل هذا النوع من اللحم في يوم العيد لظل طوال حياته يشعر بعذاب الضمير من إخلاله بالقيام بواجباته،

وكان آكيم آكيمتش حتى يوم العيد، يرتدي سترته العتيقة وسرواله القديم اللذين كانا رغم ترقيعهما الدقيق المحكم يشفان عن سداهما منذ زمن طويل. وقد علمت أنه يحتفظ في صندوقه بالرداء الجديد الذي أُعطيه قبل أربعة أشهر، وأنه لم يمسسه لأنه يريد أن يرتديه في عيد الميلاد. وذلك ما فعله. فها هو ذا، في ليلة العيد، يُخرج الملابس الجديدة من صندوقه، فيفضها، ويفحصها ويُنظفها، وينفخ عليها لينفض عنها الغبار، حتى إذا أتم ذلك كله، جرَّبها على جسمه. إن الرداء يناسبه تمامًا. إن جميع أجزائه لائقة، فالصدرة تعقد أزرارها حتى العنق، والياقة مستقيمة صلبة، كأنها من كرتون، فهي تسند الذقن وترفعها إلى فوق. إن تفصيلة الرداء تشبه تفصيلة الزي العسكري. لذلك ابتسم آكيم آكيمتش ابتسامة الرضى وهو يدور على نفسه ثم يدور مُختالًا أمام مرآته الصغيرة التي أكبَّ على تزيينها بإطار مذهب منذ زمن طويل. كان زر واحد من أزرار السترة منحرفًا عن مكانه، فلاحظ آكيم آكيمتش ذلك فقرر أن يعدله، فلما فرغ من عمله جرب الصدرة مرة أخرى، فلم يكن عليها في هذه المرة مأخذ. عندئذٍ طوى آكيم آكيمتش رداءه كما كان، وأعاده إلى موضعه من الصندوق هادئ البال مرتاح النفس، من أجل أن يرتديه في الغد. ولقد كانت جمجمته محلوقة حلقًا كافيًا، ولكنه أيقن بعد أن أنعم النظر فيها أنها ليست ناعمة كل النعومة، فإن شعره قد عاد فنبت على غير شعور منه، فسرعان ما مضى إلى (الميجر) ليحلق شعر رأسه على نحو ما يوجب النظام الحق أن أحدًا لن يخطر بباله أن ينظر إليه في الغد، ولكن آكيم آكيمتش يفعل ما يمليه عليه ضميره تبرئةً للذمة وقيامًا بكل ما يقع عليه من واجبات في ذلك النهار. إن هذا التقديس الذي يشعر به نحو أصغر زر وأيسر عروة وأتفه بريم على الكتف، قد رسخ في عقله على أنه واجب صارم، ورسخ في قلبه على أنه صورة أكمل جمال يمكن ويجب أن يبلغه إنسان محترم. ولما كان آكيم آكيمتش (كبير) سجناء الثكنة من حيث إنه أقدمهم، فقد حرص على أن يأمر بتبن تفرش به أرض الثكنة. كان هذا يتم في جميع الثكنات. لا أدري لماذا كانوا يلقون تبنًا على الأرض في عيد الميلاد دائمًا. فلما فرغ آكيم آكيمتش من عمله، تلا صلواته، ورقد على مضجعه ونام ذلك النوم الهادئ الذي هو نوم الطفولة، من أجل أن يستيقظ في ساعة مبكرة من صباح الغد. وهذا ما فعله سائر السجناء على كل حال. لقد رقد جميع السجناء في مضاجعهم قبل الأوان المألوف، تاركين أعمالهم العادية في ذلك المساء. أما اللعب بالورق فما كان لأحد أن يجرؤ على الكلام عنه. إن جميع من في السجن ينتظر صباح الغد.

وجاء صباح الغد أخيرًا!... قرع الطبل في ساعة مبكرة جدًّا، حتى قبل أن يطلع النهار. ودخل صف الضابط الذي يعد السجناء فحيَّاهم وتمنى لهم عيدًا سعيدًا. فرد السجناء تحيته بتحية لطيفة ودود وتمنوا له مثل ما تمنى لهم. وأسرع آكيم آكيمتش وغيره ممن كان لهم أوزات وخنازير رُضَع، أسرعوا إلى المطبخ

بعد أن تلوا صلواتهم على عجل، من أجل أن يروا في أي مكان كانت ذبائحهم وكيف كانت تُقلى. فمن خلال النوافذ الصغيرة التي كان يغطي الثلج والجليد نصفها، ترى من الثكنة، في الظلمات النيران القوية التي تتلظى في المطبخين وقد أشعلت مواقدهما الستة؛ وها هم أولاء السجناء قد ألقوا معاطفهم على أكتافهم أو ارتدوا ثيابهم كاملة، وظهروا في فناء السجن مسرعين في اتجاه المطبخ. إن عددًا قليلًا منهم قد استطاع أثناء ذلك أن يزور بائعي الخمرة. هؤلاء هم بين السجناء أقلهم صبرًا. إن السجناء يتصرفون اليوم بحشمة وهدوء وأدب أكثر مما عهد فيهم من ذلك في العادة. فلا مشاجرات ولا شتائم. إن كل واحد يعلم أن هذا اليوم يوم عظيم، وأنه عيد كبير. حتى لقد كان بعضهم يذهبون إلى الثكنات الأخرى يحيون زملاءهم ويتمنون لهم عيدًا مُباركًا سعيدًا، لكأن نوعًا من الصداقة قد قام بينهم في هذا اليوم. كنت قد لاحظت عَرَضًا أن السجناء لا تكاد تنشأ بينهم في السجن روابط، لا عامة ولا خاصة. كان يندر أن يرتبط سجين بسجين آخر كما يحدث ذلك في العالم الحر. كنا، على وجه العموم، قساةً خشنين في علاقات بعضنا ببعض، باستثناء حالات قليلة نادرة تلك قاعدة عامة يلتزمها السجناء ولا يحيدون عنها. وخرجت أنا أيضًا من الثكنة. كان النهار قد بدأ يطلع. شحبت النجوم. إن ضبابًا خفيفًا متجلدًا يعلو فوق الأرض، وإن سحائب حلزونية من دخان المدافئ يتصاعد دائرًا، لقيني عدة سجناء فهنأوني بالعيد في كثير من اللطف والمودة، فشكرت لهم تهنئتهم ورددتها بمثلها، وكان بينهم أناس لم يسبق أن خاطبوني قبل ذلك بكلمة واحدة.

فلما صرت قرب المطبخ أدركني سجين من سجناء الثكنة العسكرية. كان ملقيًا فروته على كتفه. لقد لمحني في وسط الفناء فأخذ يناديني صائح ا: (ألكسندر بتروفتش! ألكسندر بتروفتش!)، وأسرع يركض صوبَ المطبخ، وقفت أنتظره. إنه شاب مدوَّر الوجه، رقيق العينين، قليل الكلام مع الناس، لم يوجه إليَّ منذ دخولي إلى السجن كلمة واحدة، ولا إلتفتَ إليَّ حتى الآن أي إلتفات، حتى أنني كنت لا أعرف اسمه. هرع نحوي لاهثًا لُهاثًا شديدًا، وتسمر أمامي ينظر إليَّ مُبتسمًا ابتسامة بلهاء وقد لاحت في وجهه معاني السعادة. سألته بشيء من الدهشة:

- ماذا تريد؟

فظل واقفًا أمامي مبتسمًا، ينظر إليَّ بكل عينيه، دون أن يبدأ الحديث مع ذلك. ثم جمجم يقول:

- كيف؟ اليوم عيد...

وأدرك هو نفسه أن ليس عنده ما يقوله لي غير ذلك، فتركني ومضى مُسرعًا إلى المطبخ.

ويجب أن أذكر أننا لم نكد نلتقي بعد ذلك، وأننا لم نتخاطب حتى ساعة خروجي من السِجن.

حول مواقد متأججة بالمطبخ كان السجناء المنهمكون يضطربون ويتزاحمون. إن كل واحد منهم يراقب رزقه. وكان الطباخون يعدون الطعام العادي الذي يقدم للسجناء، ذلك أن الغداء يُتناول اليوم قبل الموعد المألوف. ولم يكن أحد قد أكل شيئًا بعد، رغم أنهم كانوا يتمنون جميعًا لو يأكلون، ولكنهم يراعون المواضعات أمام الآخرين. إنهم ينتظرون الكاهن، فالصيام لا ينتهي قبل وصوله، وما إن طلع النهار حتى سمع صوت العريف ينادي من وراء باب السجن قائلاً: (الطهاة!) وظلت هذه النداءات تتكرر متصلة غير منقطعة خلال ساعتين. إن الطهاة ينادون لاستلام الصدقات التي كانت تتقاطر من جميع أركان المدينة مقادير ضخمة: هي أرغفة من خبز أبيض، وفطائر، ومعجَّنات، وحلوى وأنواع أخرى من الأطعمة. أعتقد أنه ما من بائعة وما من ساكنة من ساكنات المدينة بأسرها، إلا وأرسلت شيئًا إلى السجناء (التعساء) من قبيل المباركة بالعيد. كان بين هذه الصدقات صدقات ثمينة: عدد كبير من أرغفة الخبز المصنوع من فاخر الدقيق؛ وكان بينها أيضًا صدقات زهيدة: رغيف من خبز أبيض ثمنه كوبكان، أو رغيفان من خبز أسود دُهنا بقليل من القشدة. تلك هدية الفقير للفقير أنفق فيها الأول آخر كوبك يملكه. وكانت هذه الصدقات تقبل بامتنان واحد دون تفريق بينها في القيمة أو في المصدر، وكان السجناء الذين يستلمون الهدايا يرفعون قبعاتهم عِرفانًا بالجميل، ويشكرون لأصحاب الهدايا هداياهم وهم يحيونهم ويتمنون لهم عيدًا سعيدًا ثم ينقلون الصدقات إلى المطبخ. حتى إذا اجتمعت أكداس كبيرة من الخبز نوديَ السجناء القدامى من كل ثكنة، فتولوا توزيع الخبز على جميع الأقسام أنصبة متساوية. وهذه القسمة لا تثير أية مشاجرات أو مشاتمات، وإنما هي تتم بالعدل والقسطاس. وقد تولى آكيم آكيمتش متعاونًا مع سجين آخر، توزيع النصيب الذي نالته ثكنتنا، فقسمه بين السجناء وكان يناول كل سجين ما يستحقه بيده. كان كل واحد من السجناء راضيًا مغتبطًا، فما من احتجاج يُسمع، وما من مطالبة تشب، وما من حسد يظهر؛ ولا خطر ببال أحد أن يغش أو يختلس. وحين فرغ آكيم آكيمتش من أعماله في المطبخ مضى يُعنى بزينته عناية شديدة، فارتدى ثيابه بكثير من الاحتفال والاهتمام والأبهة، عاقدًا جميع أزرار سترته لم يستثن منها واحدًا، حتى إذا انتهى من ارتداء ملابسه الجديدة، طفق يتلو صلواته، ودام هذا زمنًا طويلًا. إن كثيرًا من السجناء كانوا يقومون بواجباتهم الدينية، ولكن أكثر هؤلاء كانوا من المسنين، أما الشباب فكانوا لا يكادون يصلون، وكانوا في أحسن الأحوال لا يزيدون على أن يرسموا إشارة الصليب حين ينهضون من نومهم، حتى إن هذا كانوا لا يفعلونه إلا في أيام الأعياد.

حين انتهى آكيم آكيمتش من صلاته اقترب مني ليعبر لي عن التهاني المألوفة. فدعوته إلى احتساء الشاي معي، فرد لي هذه الملاطفة يدعوني إلى تناول شيء من لحم خنزيره الرضيع. وما هي إلا برهة قصيرة حتى هرع إليَّ بترِوف يعرب لي عن تحياته وتمنياته. أحسب أنه كان قد شرب قليلًا.

ورغم أنه قد وصل إليَّ لاهثًا، فإنه لم يكد يحدثني بشيء، بل لبث واقفًا أمامي بضع لحظات، ثم أسرع يعدو إلى المطبخ. كان السجناء في ثكنة القسم العسكري يستعدون في تلك الآونة لاستقبال الكاهن. إن هذه الثكنة لم تكن مبنية على طراز سائر الثكنات. إن المضاجع فيها مصطفة على طول الجدران لا في وسط القاعة كسائر الثكنات، فهي بفضل ذلك الثكنة الوحيدة التي لا يزدحم وسطها. ولعلها قد بنيت بهذه الطريقة من أجل أن يتسنى جمع السجناء فيها عند الضرورة. وقد نصب السجناء مائدة في وسط الثكنة، ووضعوا على المائدة أيقونة وأشعلوا أمام الأيقونة سِراجًا. ووصل الكاهن آخر الأمر، يحمل الصليب والماء المقدس: فصلَّى ورتل أمام الأيقونة، ثم إلتفتَ نحو السجناء فأخذوا يتوافدون بعضًا وراء بعض فيُقبلون الصليب. وطاف الكاهن بعد ذلك بالثكنات الأخرى جميعها، يرشها بالماء المقدس، فلما وصل إلى المطبخ امتدح خبز السجن الذي كانت له شهرة في المدينة، فسرعان ما أظهر السجناء رغبتهم في أن يرسلوا إليه رغيفين ما يزالان ساخنين، وكلفوا أحد مشوهي الحرب بأن يحملهما إليه فورًا. وشيَّع السجناء الصليب بمثل ما استقبلوه به من احترام وإعظام وما هي إلا برهة قصيرة حتى وصل الميجر وآمر السجن. وكان السجناء يحبون الأمر كثيرًا، حتى لقد كانوا يحترمونه. طاف الأمر بالثكنات يصحبه الميجر، وهنأ السجناء بالعيد، ثم دخل المطبخ وذاق حساء الكرنب. كان الحساء طيبًا جدًّا في ذلك اليوم: لقد كان لكل سجين حق في نحو نصف رطل من اللحم وقد أُعدَ بالإضافة إلى ذلك جريش لم يبخل عليه بالسمن. شبع الميجر آمر السجن إلى الباب، وأصدر أمره إلى السجناء بتناول طعام الغداء. كان هؤلاء يتحاشون أن يراهم الميجر، فلقد كانوا لا يحبون نظرته الخبيثة التي لا تني تفتشهم وتتجسس عليهم من وراء النظارتين، متجهة إلى اليمين وإلى الشمال، كأنها تبحث عن فوضى تقوم أو عن مذنب يُعاقب.

وتغدى السجناء. وكان خنزير آكيم آكيمتش رائع القلي. لم أستطع أن أفهم كيف أمكن بعد خروج الميجر بخمس دقائق أن يكون بين السجناء كل هذا العدد الكبير من السكارى بينما كان الجميع أثناء حضوره هادئين وادعين. ما أكثر الوجوه الحمراء المتألقة وسرعان ما ظهرت آلات البالالايكا. وهذا هو البولندي القصير يتبعه سجين كان قد استأجره فيظل يعزف وراءه على الكمان طول النهار، ويضرب له ألحان رقص مرحة. وأخذت الأحاديث بين السجناء تزداد صخبًا وضجيجًا. ومع ذلك انتهى الغداء من دون فوضى كبيرة. شبع الجميع. وهذا عدد من الشيوخ الرضيين الوقورين يمضون يرقدون على مضاجعهم فورًا... وكذلك فعل آكيم آكيمتش الذي لعله كان يؤمن بأن على المرء أن ينام بعد الغداء حتمًا في أيام الأعياد. وهذا التقيُّ ستارودوب يصعد على المدفأة، بعد أن غفا قليلًا، فيفتح كتابه ويأخذ يقرأ فيه طول النهار وجزءًا من الليل، من دون أن ينقطع عن ذلك لحظة واحدة. كان منظر هذا (العار)

يثقل على نفسه ويحز في قلبه على حد تعبيره. ومضى الشراكسة جميعًا يجلسون على العتبة. كانوا ينظرون بكثير من الفضول وبشيء من الاشمئزاز إلى هؤلاء السكارى وصادفت نورا، فقال وهو يهزّ رأسه ممتعضًا مستاءً: (أمان... أمان... أمان... لسوف يغضب اللّه...). أما أشعيا فومتش فقد أشعل في ركنه شمعة، وهو يصطنع كثيرًا من الكبرياء والخيلاء والعناد، وأخذ يعمل، حتى يبين للناس أن هذا اليوم ليس في نظره عيدًا. وانعقدت حلقات اللعب بالورق هنا وهناك. كان السجناء لا يخشون الآن مشوهي الحرب من الجنود، ومع ذلك وضعوا خفراء يحرسون الباب، مخافة أن يداهمهم صف الضابط على حين فجأة، ولكن صف الضابط هذا كان يحاول أن لا يرى شيئًا. أما ضابط الحراسة فإنه لم يقم إلا بثلاث جولات: فسرعان ما كان السكارى من السجناء يختبئون، وسرعان ما كان ورق اللعب يختفي، في مثل ومض البرق. وأغلب ظني أن ضابط الحراسة كان في قرارة نفسه يتعمد أن لا يلاحظ المخالفات التي لا يعدها ذات شأن. إن السكر ليس إثما كبيرا في ذلك اليوم. واستولى المرح على جميع السجناء شيئًا بعد شيء. وبدأت المشاجرات تنشب بينهم. غير أن أكثرهم كان هادئًا وديعًا مُسالمًا. والحق أن رؤية السكارى وحدها كانت تبعث على الضحك. كان هؤلاء السكارى يشربون بغير اقتصاد أو اعتدال. وكانت تبدو على جازين أمائر الانتصار، فهو يتجول راضيًا مسرورًا قرب مضجعه الذي أخفى تحته خمره، وكان قد دفن الخمر تحت الثلج وراء الثكنات في موضع سري. إنه يبتسم ابتسامات ماكرة وهو يرى المستهلكين يقبلون عليه زرافات. وكان هو صاحيًا لم يشرب قطرة واحدة، لأنه كان ينوي أن يقصف في آخر يوم العيد، بعد أن يكون قد أفرغ جيوب جميع السجناء. وأخذت الأغاني تدوّي في أرجاء الثكنات. اشتد السكر اشتدادًا رهيبًا، وأصبحت الأغاني تشارف على البكاء. كان السجناء يتجولون جماعات جماعات وهم يوقعون على آلات البالالايكا ألحانهم الأثيرة، وقد ظهرت في وجوههم معاني التأثر وألقوا معاطفهم على أكتافهم في غير اكتراث. حتى لقد تألفت في القسم الخاص جوقة قوامها ثمانية أشخاص أو عشر، فكان هؤلاء يصدحون بأغانيهم صُداحًا عاليًا، ترافقهم آلات القيثارة والبالالايكا. كانت الأغاني الشعبية حقًّا نادرة، ولست أتذكر منها الآن إلا أغنية واحدة أجادوا غناءها إجادة رائعة:

(أنا الفتاة الصبية.

قد كنت في الحفل أمس...)

وفي السجن إنما سمعت صورة جديدة لهذه الأغنية لم أكن أعرفها من قبل، وقد أضيفت إلى نهايتها بضعة أبيات:

(في منزلي رتبت كل شيء

ملاعقي غسلتها

حساؤنا سكبته

وبابنا نظفته
طعامنا طبخت)ه.
إن الأغاني التي كان يغنيها السجناء خاصةً، إنما هي الأغاني التي تسمى (أغاني السجناء). إن مطلع إحداها هو: (حدث في غابر الأيام....). وهي أغنية هزلية تروي قصة إنسان كان في ما مضى يلهو ويعبث ويعيش كما يعيش السادة الكبار، ثم أُرسل إلى سجن الأشغال الشاقة. فبينما كان يأكل في الماضي طيب الأطعمة ويشرب فاخر الخمرة أصبح اليوم يقول:
(أشرب اليوم حساء
يملأ البطن ويمضي للأذن)
وهذه أغنية أخرى معروفة جدًّا كان يغنيها السجناء أيضًا:
(كنت في الماضي صبيًا مترفًا
يعشق اللهو ويختال غنيًا
ثم ضيعت ثرائي في الصبا
وأنا اليوم أسير في السجون....)
إلى آخر ما هنالك. وكان بين هذه الأغاني أغانٍ حزينة أيضًا، منها هذه الأغنية المعروفة التي أعتقد أنها من أغاني السجناء حقًّا:
(طلع الفجر، فهذا الطبل يُقرع.
لنقوم.
وسمعنا الباب يفتح.
دخل الحارس يدعونا... نهضنا.
لا يرانا أحد خلف الجدار.
لا يرى أحد كيف نعيش.
ربنا يرحم من بالسجن يحيا في قبور.
ربنا يُنجي، فلن نفنى هنا...
إلخ... إلخ...)
وهناك أغنية أخرى أبعث على الحزن والكآبة، أغنية رائعة اللحن ولكن كلماتها ركيكة ملأى بالأخطاء اللغوية. إنني أتذكر منها بضعة أبيات:
(لن ترى عيني بلادي
لن أرى مسقط رأسي
من دون ذنب قد جنيته
شاءت الأقدار أن أقضي حياتي كلها
في عذاب وشقاء.
تنعق الغربان في بيتي بأصوات كئيبة
فإذا الغابات حوله
ترجع الأصوات أصداء حزينة
فاض قلبي شجنا

لن أرى بيتي يوما).
كان السجناء يرددون هذه الأغنية كثيرًا، ولكنهم لا يغنونها جماعة بل يصدحون بها فُرادى. يفرغُ أحد السجناء من عمله مثلًا، فيخرج من الثكنة ويجلس على درجات المدخل، ويسترسل في تفكير عميق مسندًا ذقنه إلى يده، ثم إذا هو ينطلق في غنائها، فيصغي إليه رِفاقه، ويشعرون بشيء يتحطم في قلوبهم. لقد كان بين السجناء من يملكون أصواتًا جميلة رخيمة.
هبط الغسق. إن الضجر والسأم والحزن والألم، إن ذلك كله يعود إلى الظهور الآن من خلال السكر والعربدة. إن السجين الذي كان منذ ساعة يمسك خاصرتيه من فرط الضحك، يجهش الآن باكيًا في ركن من الأركان وقد أخذ منه الثمل كل مأخذ. وهؤلاء سجناء آخرون قد وصلوا إلى حد التماسك بالأيدي مِرارًا، أو راحوا يطوفون في أرجاء الثكنات مترنحين صفر الوجوه يسعون إلى مشاجرة ويبحثون عن مشاتمة. أما الذين يلقيهم السكر إلى الحزن فإنهم يمضون إلى أصدقائهم ليتخففوا من آلام سكرهم بالبكاء. لقد كان هذا العالم البائس كله يريد أن يفرح وأن يمرح، وأن يقضي يوم العيد العظيم في بهجة ونشوة، ولكن ما كان أشق ذلك اليوم على السجناء جميعًا، سبحان اللّه!...
كانوا قد أمضوا ذلك النهار آملين أن يستمتعوا بهناءة كبيرة، ولكن الهناءة لم تتحقق لهم. ولقد هرع بتروف إليَّ مرتين: كان صاحيًا لأنه لم يشرب إلا قليلًا، ولكنه ظل إلى آخر لحظة ينتظر شيئًا، لا بد أن يحدث شيئًا خارقًا فرحًا مسليًا. لم يعبِّر عن توقعه هذا بكلمة، ولكن المرء يدرك ذلك في نظرته. كان يركض من ثكنة إلى ثكنة بغير تعب ولا كلال... ولم يحدث شيء... لم يحدث شيء غير السكر الذي شمل الجميع، وغير الشتائم البلهاء يتبادلها السكارى، وغير الطيش يذهب بهذه الرؤوس المشتعلة الملتهبة. وكان سيروتكين يتجول هو أيضًا هنا وهناك، متزينًا بقميص أحمر جديد كل الجدة، ينتقل من ثكنة إلى ثكنة، فتى جميلًا على العهد به، نظيفًا نظافة تخطف البصر. وكان هو أيضًا ينتظر وقوع شيء ما، ينتظر ذلك في رفق وهدوء، وسذاجة وبراءة، وشيئًا فشيئًا أصبح المشهد لا يُطاق، أصبح المشهد يثير الاشمئزاز والتقزز، ويبعث في النفس الغثيان. كان هنالك ما يحمل على الضحك مع ذلك، ولكنني كنت حزينًا كل الحزن دون أن يكون ثمة سبب ظاهر. كنت أشعر بشفقة عميقة على جميع هؤلاء الرجال، وكنت أشعر أنني بينهم أختنق اختناقًا. هذان سجينان يتشاجران فهذا يزعم أن على الآخر أن يسقيه، والثاني يدعي أن الأول هو الذي يجب عليه أن يسقيه، إنهما يتشاجران منذ مدة طويلة. وقد كادا أن يتماسكا بالأيدي، إن لأحدهما سنًا تركب سنًا أُخرى، فها هو ذا يتشكى متأثثًا ويحاول أن يبرهن لصاحبه على أنه قد ظلمه حين باع في السنة الماضية معطفًا وأخفى عنه المال... ذلك عدا أمور أخرى... إن المشتكي شاب فارع الطول مفتول العضلات رابط الجأش، ليس بالغبي، ولكنه متى سكر أصبح يحب أن يتخذ لنفسه أصدقاء وأن يعبر عن آلامه في أحضانهم. فها هو ذا يشِي

بخصمه ويشهر به، ويذكر عيوبه وإساءاته إليه، وهو ينوي في قرارة نفسه أن يُصالحه بعد ذلك. أما الثاني فرجل بدين قصير، قوي البنية، مدوَّر الوجه، ماكر مكر ثعلب، ولعله شرب من الخمرة أكثر مما شرب صاحبه، ولكن لا يبدو أن السكر قد بلغ منه إلا قليلًا. إن لهذا السجين طبعًا قويًا وإرادة صلبة، وهو يعد بين السجناء على جانب من الغنى. ولعله كان يرى أن من مصلحته أن لا يُحنق رفيقه، فها هو ذا يقوده إلى بائع الخمرة. إن صديقه الذي يكثر من الكلام يؤكد أنه مدين له بمال، وأن عليه أن يسقيه (إذا كان على شيء من شرف).

وهذا بائع الخمرة يتناول قدحًا فيملؤه خمرًا، وهو يُظهر للمشتري بعض الاحترام، ولا يخفي شيئًا من الاحتقار لرفيقه، لأن الرفيق يشرب على حساب غيره ويقصف بمال غيره، قال الرفيق الذي يكثر من الكلام:

- لا يا ستبكا، عليك أنت أن تدفع ثمن الشراب، لأنك مدين لي بمال.

فأجابه صاحبه:

- طيب! طيب! لا أريد أن أتعب لساني بالكلام معك!

قال الأول وهو يتناول القدح التي مدَّها إليه بائع الخمرة:

- لا يا ستبكا! أنت تكذب، إنك مدين لي بمال. لا بد أنك خالٍ من الضمير، لا شك أنك لا ذمة لك. حتى عيناك ليستا لك، وإنما أنت استدنتهما كما تستدين كل شيء. اذهب يا ستبكا! أنت وغد... يا ستبكا... الخلاصة أنك وغد!...

صاح بائع الخمرة يقول للرفيق الذي يكثر من الكلام:

- ما بالك تتباكى؟ أنظر.. لقد سفحت خمرتك.. هلَّا شربت ما دام أحد يسقيك بماله! لا يتسع وقتي لأن أنتظرك إلى الغد.

- سأشرب، لا تخف... ولكن لماذا تصيح هذا الصياح؟ لك أطيب تمنياتي بمناسبة العيد ياستيبان دوروفئتش!

كذلك قال الرجل في كثير من الأدب وهو ينحني أمام ستبكا ممسكًا الكأس بيده، مع أنه كان يصفه منذ دقيقة بأنه وغد، وأضاف يقول:

- أسأل اللّه أن يمتعك بالصحة والعافية، وأن تعيش مائة سنة عدا السنين التي عشتها حتى الآن!

ثم شرب الخمرة، وأطلق من صدره زفرة رضى وارتياح، وجفف فمه بيده. ثم لم يلبث أن قال بلهجة رضية وقور، مخاطبًا جميع الحضور دون أن يتجه إلى واحد منهم بعينه:

- ما أكثر ما شربت في الأيام الخوالي، ولكن انتهى زماني! شكرًا يا ستيبان دوروفئتش!

- العفو.

- والآن دعني أُتم كلامي. أنت في نظري وغد كبير، ولكنني سأقول لك عدا ذلك...

- إليك إذن ما سأقوله لك أيها السكير الحقير...

كذلك قاطعه ستبكا وقد نفد صبره، وتابع كلامه يقول:
- اسمع وانتبه: لنقسم العالم نصفين، فآخذ أنا نصفه وتأخذ أنت نصفه الآخر، ثم تدعني وشأني هادئ البال.
- ألا تنوي إذن أن تردَّ إليَّ مالي؟
- أي مال تريد أيضًا يا سكران؟
- حين... ستردّه إليَّ في العالم الآخر... فلن آخذه. إن أموالنا هي عرق جباهنا وكدح أيدينا. لتندمنَّ على فعلك في الحياة الآخرة، لسوف تشوى في النار شيًّا لأنك استوليت على كوبيكاتي الخمسة.
- اذهب... شيطان يأخذك!.
- لماذا تهمزني؟ ما أنا بحصان من!
هيَّا امضِ!...
- وغد حقير!
- سجين قذر!
وأخذت الشتائم تنهمر أغزر مما كانت تنهمر قبل أن يسقي الرجل صاحبه خمرًا.
وهذان صديقان قد جلسا منفصلين على مضجعين من مضاجع السجن، أحدهما طويل القامة قوي البنية بدين الجسم كجزار: إن وجهه أحمر، وهو يكاد يبكي، لأنه متأثر تأثرًا شديدًا. والثاني ضامر نحيل مزهو بنفسه، له أنف كبير كأنه مُصاب بزكام دائم، وله عينان صغيرتان كعيني خنزير، مطرقتان إلى الأرض: إنه رجل مرهف مهذب، قد كان في الماضي كاتبًا في قلم المحكمة، وهو يُعامل صديقه بشيء من الازدراء، وهذا ما يسوء صديقه. كان الرجلان قد شربا معًا طوال النهار.
صاح الرجل البدين يقول وهو يهز بيده اليسرى كتف رفيقه هزًّا قويًا:
- لقد تجرأ عليَّ!
إن قوله (تجرأ عليَّ) يعني أنه ضربه. وهذا السجين الذي كان في الماضي صف ضابط يحسد جاره في سره، لذلك كان الرجلان يصطنعان في أحاديثهما الرقة والرشاقة.
قال السجين الذي كان كاتبًا في قلم المحكمة، قال في وقار وهو يطرق إلى الأرض إطراقًا عنيدًا من دون أن ينظر إلى محدثه، قال بلهجة حازمة قاطعة:
- إنك أنت المخطئ...
فتابع الثاني كلامه وهو يهز رأس صاحبه بمزيد من القوة:
- لقد ضربني! ألا تسمع؟ إنك الإنسان الوحيد الذي بقيّ لي في هذه الحياة الدنيا، هل تفهم؟ لذلك أقول لك إنه تجرأ عليَّ.
- وأنا أعود فأقول لك إن انتحال عذر كهذا العذر الواهن لا يزيد على أن يُشينك.

هكذا أجاب السجين الذي كان كاتبًا في قلم المحكمة، قائلًا ذلك بصوت نحيل ولهجة مهذبة، وتابع يقول:

- فأعترف يا صديقي العزيز بأن هذه القصة الناشئة عن السكر إنما مردها كلها إلى قلة ثباتك.

ترنح الصديق السمين وهو يتراجع إلى وراء، وألقى من عينيه الثملتين على صاحبه المطمئن الراضي نظرة بلهاء، ثم إذا هو يهوي بقبضة يده الضخمة على خده النحيل فجأة، باذلًا في هذه اللطمة كل ما أوتيَ من قوة. كذلك انتهت صداقة ذلك النهار. لقد غاب الصديق العزيز تحت مضاجع السجن طائش اللب فاقد الوعي.

دخل إلى ثكنتنا رجل ممن كنت أعرفهم، وهو سجين من القسم الخاص، طيب القلب كثير المرح، رجل ليس بالغني قط، بسيط جدًّا، ساخر بغير سوء نية. إنه ذلك الرجل الذي كان عند وصولي السجن يبحث عن فلاح غني، والذي أعلن أنه امرؤ ذو أنفة وكرامة، وانتهى إلى مشاركتي احتساء الشاي، إنه في الأربعين من عمره، له شفة ضخمة وأنف كبير سمين فيه بثور. كان يحمل آلة بالالايكا فهو ينقر على أوتارها في إهمال وتوانٍ؛ وكان يتبعه كظله سجين قصير جدًّا، ضخم الرأس، لم أكن أعرفه إلا قليلًا، ولا كان ينتبه أحد إليه على كل حال. إن هذا الرجل القصير شخص غريب الأطوار، كثير الشكوك والهواجس، مطبق الفم إلى الأبد فلا يتكلم، مفرط في الجد فلا يهزل. كان يعمل في ورشة الخياطة ويُحاول أن يعيش معتزلًا الناس لا يتصل بأحد. لكنه بعد أن سكر الآن قد ارتبط بصاحبنا فارلاموف حتى أصبح كظله، فهو يتبعه حيثما يتوجه، منفعلًا أشد الانفعال، مُحركًا يديه، لاطمًا بقبضته جدار الثكنة ومَضاجع السجن: إنه يكاد يبكي. وكان فارلاموف لا يلاحظه ولا ينتبه إليه كأنه لا وجود له. وأغرب ما في الأمر أن هذين الرجلين لا يتشابهان أي تشابه، فلا قرابة بين مشاغلهما ولا بين طبعيهما. وهما ينتميان إلى قسمين مختلفين ويقيمان في ثكنتين منفصلتين. وكان هذا السجين القصير يسمى: بولكين.

ابتسم فالاموف حين رآني جالسًا في مكاني قرب المدفأة. ووقف على بعد بضع خطوات مني وفكر لحظةً، وترنح، واتجه نحوي بخطى متفاوتة وهو يختال ويتبختر، ثم أخذ ينقر على أوتار آلته الموسيقية، وطفق يُغني بلهجة الإنشاد وهو يقرع الأرض بقدمه قرعًا هينًا خفيفًا:

(حبيبتي

حبيبتي بيضاء مستديرة الوجه

تغني بصوت كصوت الشحرور

ما أجملها في ثوبها الحريري المزركش)

فما كان من هذه الأغنية إلا أن أخرجت بولكين عن طوره، فإذا هو يلوح بذراعيه، ويصرخ مخاطبًا جميع الناس:

- إنه يكذب أيها الإخوة، إنِه يكذب، ليس في كل ما يقوله ظل من حقيقة!

- آيات الاحترام (للشيخ) ألكسندر بتروفتش!
كذلك قال فارلاموف ملجلجًا.
- أحسب أنه أراد أن يقبلني. لقد كان ثملًا. أما قوله (آيات الاحترام للشيخ فلان) فهو تعبير تستعمله عامة الناس في سيبيريا كلها، حتى عند مخاطبة رجل في العشرين من عمره. فكلمة (الشيخ) تعبر عن الاحترام أو التبجيل أو المجاملة وتُقال لرجل يحظى بالتقدير والإعظام.
- هيه يا فارلاموف، كيف حالك؟
- بين بين! السعيد بالعيد سكران منذ الصباح. عفوك ومعذرتك!
كذلك قال فارلاموف وهو ينظر إليَّ ضاحكًا ضحكة ماكرة؛ بل صاح بولكين وهو يضرب المضاجع مكروبًا يائسًا:
- إنه يكذب! إنه يكذب من جديد!
كأن فارلاموف قد آلى على نفسه أن لا ينتبه إلى بولكين، وذلك بعينه أبعث ما في المشهد على الضحك، فإن بولكين لم يبتعد عن فارلاموف قيد أنملة منذ الصباح، من دون أن يكون هناك أي داعٍ إلى ذلك، لا لشيء إلا لأن فارلاموف كان يكذب فيما يتراءى له. كان يتبعه كظله، ويشاكسه في كل كلمة، ويعقف يديه غيظًا، ويلطم بقبضتيه الباب والسُّرُرَ إلى أن تدميا، ويتألم، يتألم ألمًا واضحًا لاقتناعه بأن فارلاموف (كان يكذب). ولو قد كان على رأسه شعر إذن لنتفه حتمًا من شدة ألمه وعمق حنقه. حتى لكأنه قد تعهد بأن يكون مسؤولًا عن أفعال فارلاموف، فضميره يعاني أشد العذاب حين يرى عيوبه ونقائصه. والأمر المضحك أن فارلاموف ظل لا يُبالي بتمثيلية بولكين ولا يُلاحظها ولا يعبأ بها.
- إنه يكذب! يكذب! يكذب! لا شيء مما يقوله حق!
كذلك كان يصيح بولكين.
سأله السجناء ضاحكين:
- فيم يعنيك هذا؟
وقال فارلاموف فجأة:
- أؤكد لك يا ألكسندر بتروفتش أنني كنت في أيام صباي فتى بارع الجمال، وأن البنات كانت تحبني كثيرًا، كثيرًا...
فقاطعه بولكين يقول متنهدًا زافرًا:
- إنه يكذب! ها هو ذا يكذب أيضًا!
وانفجر السجناء يضحكون.
- وكنت أنا أتزين لهنّ. كان لي قميص أحمر، وسروال عريض من مخمل. وكنت أنام حين أشاء، مثل الكونت دولابوتيل، وكنت أسكر مثلما يسكر رجل من السويد... الخلاصة: كنت أعمل كل ما يخطر ببالي أن أعمله.
قال بولكين مصرًا:
- إنه يكذب!

- وكنت قد ورثت عن أبي منزلًا مبنيًا بالحجارة، منزلًا ذا طابقين، فما انقضت سنتان إلا وقوضت الطابقين، ولم يبق لي إلا باب بغير عمودين ولا مصراعين! ماذا تريد؟ المال يأتي ويذهب كالحمام، يحط ثم يطير!...

قال بولكين جازمًا مزيدًا من الجزم:

- إنه يكذب!

- وبعد وصولي إلى هنا ببضعة أيام أرسلت رسالة إلى أهلي أطلب إليهم فيها أن يبعثوا إلي ببعض المال. يظهر أنني كنت قد تصرفت تصرفًا يُخالف إرادة أهلي، وأنني لم أظهر لهم ما يستحقون من احترام. وها قد انقضى على إرسال الرسالة سبع سنين!...

سألته مُبتسمًا:

- وما من جواب حتى الآن؟

- ما من جواب حتى الآن!

كذلك قال ضاحكًا هو أيضًا، مقتربًا بأنفه من وجهي مزيدًا من الاقتراب، ثم أضاف قوله:

- لي هنا خليلة يا ألكسندر بتروفتش!

- أنت؟ لك هنا خليلة؟

- قال أوفوفريف منذ زمن قصير: (لئن كانت خليلتي أنا مجدورة الوجه دميمة، فهي تملك ثيابًا كثيرة؛ أما خليلتك فهي جميلة ولكنها متسولة تحمل على كتفها خرجًا).

- أهذا صحيح؟

صحيح! إنها متسولة تستعطي الصدقات!

قال ذلك وخنق ضحكًا همَّ أن يخرج من صدره؛ وضحك سائر الحضور أيضًا. كان السجناء يعرفون أنه على صلة بشحاذة أعطاها عشر كوبكات في أكثر تقدير، خلال ستة أشهر.

طيب! ماذا تريد مني؟

كذلك سألته، لأنني أردت أن أتخلص منه.

فصمت ثم قال لي بصوت رقيق وهو ينظر إليَّ متوسلًا:

- أن تسقيني قدحًا من خمر، فإنني لم أشرب منذ الصباح حتى الآن إلا الشاي؛ وهذا الشاي (كذلك تابع يقول بصوت عذب وهو يتناول المال الذي مددته إليه) يؤذيني كثيرًا حتى لأكاد أصاب منه بداء الربو. إن بطني تقرقر من كثرة شرب الشاي، كما يقرقر الماء في زجاجة!

حين تناول المال الذي مددته إليه بلغ بولكين من الكرب والكمد حدًّا لا يوصف، فكان يتواثب ويتحرك كمن مسَّه جن، وصاح يخاطب الثكنة المبهوتة قائلًا:

- أيها الناس الأخيار، هل رأيتم إلى كذبه؟ إن كل ما يقوله كذب، إن كل ما يقوله كذب!...

فصاح السجناء يسألونه وقد أدهشتهم حماسته الشديدة:
- فيم يعنيك هذا؟ ألا إن أمرك لغريب!
فتابع بولكين يقول وهو يجيل عينيه بينهم، ويضرب ألواح السرُرُ بقبضة يده بكل ما أوتي من قوة:
- لن أسمح له بأن يكذب! لا أريد أن يكذب!
ضحك الجميع، وحياني فارلاموف بعد أن أخذ المال، وأسرع يمضي إلى الخمار مُكشرًا. وفي تلك اللحظة إنما لاحظ بولكين، قال له وهو يقف على عتبة الثكنة، كأن بولكين شخص لا غِنى له عنه في تنفيذ مشروع قائم في ذهنه:
- هيَّا بنا!
ثم أضاف يقول له باحتقار وهو يدفعه أمامه:
- هيَّا أيها الكرة!
وعاد يُعذِّب أوتار آلته الموسيقية، البالالايكا...
فيم استرسل في وصف هذا الجنون كله؟ لقد انتهى ذلك النهار الخانق أخيرًا. نام السجناء على مضاجعهم نومًا ثقيلًا. إنهم يتكلمون ويهذون أثناء نومهم في تلك الليلة أكثر مما كانوا يتكلمون ويهذون أثناء نومهم في غيرها من الليالي. وبقيت حلقات منهم تلعب بالورق. لقد انقضى العيد الذي طالما انتظروه بصبر فارغ وغدًا يستأنف العمل اليومي، غدًا تستأنف الأشغال الشاقة...
∞ ∞ ∞ ∞ ∞

11

التمثيل

أُقيمت حفلة التمثيل الأولى على مسرحنا في مساء اليوم الثالث من أيام العيد. ولقد بذلت جهود كثيرة في سبيل إقامة هذه الحفلة، ولكن الممثلين هم الذين أخذوا كل شيء على عاتقهم، فكان سائر السجناء لا يعرفون إلى أين وصل الاستعداد لإقامة الحفلة المقبلة، ولا كانوا يعرفون ما الذي كان يجري؛ حتى إننا كنا لا نعرف على وجه الدقة ما الذي سيمثله الممثلون. كان الممثلون، أثناء هذه الأيام الثلاثة، يتوسلون بأنواع الحيل لجمع أكبر مقدار ممكن من الملابس، وذلك حين ذهابهم إلى العمل. كان باكلوشين، كلما إلتقيتُ به يطقطق أصابعه غبطةً وابتهاجًا، ولكنه لا يذكر لي شيئًا. أعتقد أن الميجر كان طيب المزاج مشرق النفس. على أننا كنا نجهل جهلًا تامًا هل وصل إلى مسامعه شيء عن الحفلة التمثيلية، وهل أذن بها أم إنه قرر أن يصمت وأن يغمض عينيه عن نزوات السجناء بعد أن تأكد من أن كل شيء سيجري على خير ما يرام، ولن يخل بالنظام. أظن أنه قد سمع عن الحفلة التمثيلية، ولكنه لم يشأ أن يتدخل في الأمر، لأنه كان يدرك أن الأمور قد تجري مضطربة مختلة إذا هو منع إقامة هذه الحفلة؛ وأن السجناء قد يعمدون إلى الشغب والسكر والعربدة، فمن الأفضل إذن أن يشغلوا أنفسهم بشيء ما. ولئن كنت أقدر أن الميجر قد فكر على هذا النحو، فلأن هذا هو الشيء الطبيعي، حتى ليمكن القول إن على إدارة السجن أن تتولى بنفسها إيجاد تسلية ما إذا لم يقم السجناء حفلة تمثيلية، ولكن لما كان الميجر يتميز بآراء تُعارض آراء سائر أفراد الجنس البشري، فإن من الواضح أنني أحمل مسؤولية كبيرة حين أؤكد أنه كان على علم بمشروعنا وأنه قد أذن به. إن رجلًا مثله لا بد له دائمًا من أن يسحق إنسانًا، أن يخنق مخلوقًا، أن ينتزع شيئًا، أن يحرم أحدًا من حق؛ أي أن يفرض النظام في كل مجال، وهو معروف بهذا في المدينة كلها. كان لا يهمه قط أن تثير أعماله حفيظة السجناء وأن تحدث في السجن اضطرابات وعصيانات، فإن لمثل هذه الذنوب التي قد يرتكبها السجناء عقوبات تنزل في من يرتكبها (هناك أناس يفكرون على طريقة هذا الميجر)، وما ينبغي أن تستعمل مع هؤلاء السجناء الأوغاد إلا قسوة لا ترحم، وحسب المسؤولين عن تنفيذ القانون أن يطبقوا القانون بلا هوادة وكفى!... إن هؤلاء العجزة المسؤولين عن تطبيق القانون لا يدركون أبدًا أن تطبيق نصوص القانون بغير فهم لروح القانون يؤدي إلى الاضطرابات رأسًا، إنهم يقولون: (ذلك ما ينص عليه القانون، فماذا تريدون زيادةً على ذلك؟)، حتى لقد يدهشهم حقًّا أن تطلب منهم، عدا تنفيذ القانون

أن يكون لهم شيء من صدق الإحساس وسلامة التفكير. وسلامة التفكير هذه هي التي تبدو لهم زائدة لا محل لها بوجه خاص، فهي في نظرهم ترف لا لزوم له، ترف يثير موجدتهم ويوقظ حنقهم ويعزز تعصبهم.
مهما يكن من أمر فإن صف الضابط لم يعارض في إقامة الحفلة وذلك كل ما كان يرجوه السجناء، وأستطيع أن أقول صادقًا كل الصدق أنه إن لم يكن قد حدث في السجن طوال أيام العيد أي اضطراب ذي بال، إن لم يكن قد حدث شيء من مشاجرات دامية أو سرقات، فيجب أن نعزو ذلك إلى أن السجناء قد أذن لهم بإقامة حفلة التمثيل. لقد رأيت بعيني رأسي كيف كان السجناء يقمعون الاضطراب الذي يحدثه رِفاقهم ممن أسرفوا في الشراب، وكيف كانوا يحولون دون نشوب الفتن والمشاحنات، مخافة أن يُؤدي ذلك إلى منع إقامة الحفلة التمثيلية. لقد استقطع صف الضابط السجناء عهدًا على أنفسهم أن يكون سلوكهم حسنًا وأن يتقيدوا بالنظام وأن يجري كل شيء هادئًا بغير اضطراب وارتضى السجناء أن يقطعوا على أنفسهم ذلك العهد، ثم وفوا بالعهد حق الوفاء: لقد كان يسرهم كثيرًا ويرضي كرامتهم أشد الإرضاء أن تصدق العهود التي يقطعونها على أنفسهم. يُضاف إلى هذا أن حفلة التمثيل لا تكلف إدارة السجن أية نفقة على الإطلاق. ولم يكن ثمة حاجة إلى إخلاء مكان معين لنصب المسرح، فقد جُعل المسرح قابلًا لأن يُنصب وأن يُفك في أقل من ربع ساعة. وستدوم المسرحية ساعة ونصف ساعة، فإذا صدر الأمر فجأة بوقف التمثيل كان في الإمكان أن يختفي الديكور في مثل لمح البصر سرعةً. وقد خُبئت الملابس في صناديق السجناء، وسأعمد الآن قبل كل شيء، إلى الكلام على المسرح كيف بُنِيَّ، وعلى الملابس كيف كانت، وسأتكلم على البرنامج، أي على المسرحيات التي يُراد تمثيلها.
الحق أنه لم يكن هنالك برنامج مكتوب ولم يظهر برنامج مكتوب إلا للحفلة الثانية أو الثالثة، وهو برنامج كتبه باكلوشين للسادة الضباط وغيرهم من نبلاء الزوار الذين يتنازلون ويشرفون حفلة التمثيل بحضورهم، وهم: ضابط الحرس الذي جاء مرة واحدة، وآمر سرية الحراسة، ثم ضابط من سلاح الهندسة. فتكريمًا لهؤلاء الزوار إنما كتب البرنامج.
كان السجناء يفترضون أن مسرحنا ستذيع شهرته بعيدًا في القلعة، حتى لقد تطير سمعته في المدينة كلها، لا سيما وأن مدينة نـ... ليس فيها مسرح واحد. كل ما هنالك أن بعض الهواة قد أقاموا حفلة تمثيلية في المدينة ذات يوم. كان السجناء يغتبطون لأيسر نجاح يصيبونه كأنهم أطفال صغار، وكانوا يباهون بأنفسهم ويمدحون أعمالهم. كانوا يقولون لأنفسهم: (قد يعلم الرؤساء بالأمر فيجيئون يشاهدون. ولسوف يعرفون عندئذٍ قيمة السجناء، لأن الحفلة التمثيلية التي سنقدمها ليست كحفلة يقيمها الجنود ويعرضون فيها مراكب طافية ودببة وتيوسًا، وإنما هي مسرحية يقدمها ممثلون، ممثلون حقيقيون يقدمون تمثيليات هزلية كُتبت لعلية القوم. لِن يكون في المدينة كلها مسرح

كمسرحنا! يُقال إن الجنرال آبرويسوف قد أقام في منزله حفلة تمثيلية، وإن حفلة أخرى ستُقام أيضًا! طيب... لقد يتفوقون علينا في فخامة الملابس... ذلك جائز... أما (الحوار) فشأنه شأن آخر... وسنرى من الذي يتفوق فيه... لقد يسمع الحاكم نفسه بالحفلة التمثيلية التي سنقدمها. ومن يدري! قد يجيء لمشاهدتها. ليس عندهم مسرح في المدينة). والخلاصة أن خيال السجناء، ولا سيما بعد النجاح الأول، قد مضى بعيدًا حتى صوَّر لهم أن مكافآت قد توزع عليهم، وأن أشغالهم الشاقة سينقص عدد ساعاتها، فما هي إلا لحظة حتى كانوا بعد ذلك أول الضاحكين من هذه الأخيلة التي نبتت في رؤوسهم. الحق أنهم كانوا أطفالًا رغم أن بينهم من بلغ الأربعين من العمر. إنني أعرف موضوع التمثيلية التي كانوا يريدون أن يقدموها، أعرفه على وجه الجملة، رغم أنه لم يكن ثمة برنامج معلن. إن عنوان المسرحية الأولى هو: (الغريمان فيلادكا وميروشكا) ([26]) ولقد كان باكلوشين يتباهى أمامي قبل موعد الحفلة بأسبوع على الأقل بأن دور فيلادكا الذي سيتولى تمثيله سينجح نجاحًا لم يرَ أحد مثله من قبل، حتى ولا على مسارح سان بطرسبرج! كان باكلوشين يتجول في الثكنات في زهو وخيلاء، وقد بدت في وجهه إمارات الطيبة رغم كل شيء. فإذا اتفق أن ألقى بعض الأقوال التي يتضمنها دوره (على الطريقة المسرحية) انفجر الناس جميعًا ضاحكين، سواء أكانت هذه الأقوال مضحكة أم لم تكن مضحكة، فإنما كان الناس يضحكون من هذه الأقوال لأن باكلوشين هو قائلها. يجب أن نعترف على كل حال أن السجناء كانوا يحسنون ضبط أنفسهم والمحافظة على وقارهم فالذين يتحمسون لأقوال باكلوشين إنما هم الشبان الأغرار الذين لا يعرفون كيف يكظمون مشاعرهم أو هم السجناء العظماء الذين لا يخشون على سلطتهم القوية ومراكزهم الراسخة أن تتزعزع إذا هم عبروا عن إحساساتهم أيًّا كانت هذه الإحساسات. أما من عدا هؤلاء فقد كانوا ينصتون إلى الضجات والمناقشات صامتين لا يلومون ولا يعارضون، وإنما يحاولون أن يتصرفوا تصرفًا فيه شيء من الاستخفاف والاحتقار إزاء المسرح؛ ولم يظهر جميع السجناء اهتمامًا بما سيرونه على المسرح وبما سيفعله رِفاقنا إلَّا في آخر لحظة، أي في يوم التمثيل نفسه. وكانوا يتساءلون: تُرى ما عسى يكون رأي الميجر؟ تُرى هل تنجح الحفلة كما نجحت الحفلة التي أُقيمت منذ سنتين؟ إلخ.. إلخ... وقد أكد لي باكلوشين أن جميع الممثلين قد أحسن اختيارهم على خير وجه، وأن المسرح ستكون له ستارة وأن سيروتكين هو الذي سيمثل دور خطيبته فيلادكا. وأضاف باكلوشين يقول وهو يغمز بعينه ويصفق بلسانه سقف فمه: (لسوف ترى كم هو جميل في ثياب امرأة!) وذكر باكلوشين إن الجارة المحسنة سترتدي ثوبًا له تخاريم وتخاريج وأنها ستحمل مظلة صغيرة وأن الجار سيرتدي بزة ضابط لها على الكتفين شارات وسيحمل بيده عصا. أما المسرحة الثانية التي ستُمثل بعد

الأولى فعنوانها: (كدريل ([27]) الشره). وقد حيرني هذا العنوان كثيرًا. ولكنني رغم جميع ما ألقيته من أسئلة لم أستطع أن أعرف عن التمثيلية شيئًا قبل تقديمها. كل ما عرفته أن هذه المسرحية لم تكن مطبوعة، وإنما هي نسخة مخطوطة أُخذت من صف ضابط مُحال على المعاش في الضاحية كان قد اشترك هو نفسه في تمثيلها حتمًا في الماضي على مسرح عسكري بمكان من الأمكنة. والواقع أن لدينا في المدن البعيدة والأقاليم النائية تمثيليات كثيرة من هذا النوع لم يعرف بها أحد قط، ولم تطبع في يوم من الأيام، وإنما هي ظهرت من تلقاء نفسها في الوقت المناسب لتغذي المسرح الشعبي في بعض الأماكن الروسية.

وإذا قلت المسرح الشعبي، فإنه من المفيد جدًّا أن يهتم الباحثون الذين يدرسون الأدب الشعبي بالقيام بدراسات دقيقة مستفيضة عن هذا المسرح الذي قد لا يكون تافهًا إلى الحد الذي يتصوره بعض الناس، أنا لا أستطيع أن أصدق أن كل ما رأيته في سجننا كان من عمل السجناء، فإن هذا الذي رأيته لا بد له من تقاليد سابقة وقواعد مقررة ومعارف تتناقلها الأجيال، وهي تقاليد وقواعد ومعارف يجب إلتماسها لدى الجنود وعمال المصانع في المدن الصناعية وحتى لدى أبناء الطبقة المتوسطة في بعض المدن الصغيرة الفقيرة المجهولة. هي تقاليد حفظت في بعض القرى وفي عواصم الأقاليم لدى خدم بعض كبار السادة من أصحاب الأراضي بل إنني لا أعتقد بأن نُسخ كثير من المسرحيات القديمة إنما تعددت وتكاثرت وانتشرت بفضل هؤلاء الخدم. لقد كان القدماء أصحاب الأراضي ولكبار السادة في موسكو مسارح خاصة يمثل عليها أقنانهم. وذلك هو أصل مسرحنا الشعبي الذي لا سبيل إلى المماراة في إمارات نشأته وملامح أصله. أما مسرحية (كدريل الشره) فإنني رغم فضولي الشديد لم أستطع أن أعرف عنها شيئًا، اللهم إلا أن الشياطين تظهر على المسرح وتقود كدريل إلى الجحيم. ولكن ما معنى اسم (كدريل) هذا؟ لماذا سميَّ (كدريل) ولم يُسمَّ (كيريل)؟ هل أحداث المسرحية روسية أم أجنبية؟ لم أستطع أن أجلو هذا السؤال. وقد أعلنوا أن المسرحية ستنتهي بمشهد تمثيل صامت تصاحبه موسيقى ذلك كله يبشر بأن الحفلة ستكون شائقة. كان عدد الممثلين خمسة عشر مُمثلًا، وكانوا جميعًا على جانب عظيم من الخفة والنشاط والعزم. كانوا جميعًا يتحركون كثيرًا، وكانوا يتمرنون على التمثيل كثيرًا، وكانت التمرينات تتم وراء الثكنات في بعض الأحيان، والممثلون يتوارون عن الأنظار، ويبادرون الناس بمظاهر السر والتخفي. الخلاصة أنهم كانوا يريدون أن يُفاجئونا بشيء خارق لا نتوقعه.

كانت الثكنات في أيام العمل تُغلق في ساعة مبكرة مع هبوط الليل، ولكن أيام عيد الميلاد تستثنى من هذه القاعدة. ففي أيام عيد الميلاد لا توضع الأقفال إلا في نحو الساعة التاسعة. وقد سُمح بهذا خاصة من أجل الحفلة

التمثيلية. ولقد ظل المشرفون على التمثيل يرسلون الرسل في كل مساء من أيام العيد ضارعين إلى ضابط الحرس في كثير من المذلة أن (يأذن بإقامة الحفلة التمثيلية وأن لا يغلق باب الثكنة قبل الأوان)، مضيفين إلى ذلك قولهم إن حفلة قد أقيمت في الليلة البارحة فلم يحدث شيء يعكر صفو الأمن أو يُخِل باستتباب النظام. فكان ضابط الحرس يفكر في الأمر على النحو التالي: لم تقع أية فوضى، ولم تحدث أية مخالفة للنظام في يوم الحفلة؛ وما داموا قد قطعوا على أنفسهم عهدًا بأن سهرة الليلة ستجري كما جرت سهرة البارحة، فسوف يكونون هم أنفسهم شرطةً تحافظ على استتباب الأمن، وهم في هذا أقوى شرطة. ثم إن ضابط الحرس كان يعلم حق العلم أنه لو منع الحفلة فإن هؤلاء الرجال (ومن يدري ما عسى أن يفعله السجناء!) قد يرتكبون حماقات تضع ضباط الحرس في حرج هم في غنى عنه. وثمة سبب آخر كان يشجع ضابط الحرس على الإذن بإقامة الحفلة التمثيلية، هو أن الحراسة مملة جدًّا، فإذا هو أَذِنَ بتمثيل المسرحية الهزلية استطاع أن يسري عن نفسه بمشاهدة تمثيلية لا يمثلها جنود بل سجناء، وذلك أمر شائق ما في ذلك ريب. وسيكون في وسعه أن يشهد الحفلة. فإذا اتفق أن وصل آمر الحرس فسأل عنه كان في الإمكان أن يُجاب بأن الضابط قد مضى يعد السجناء ويغلق الثكنات، وذلك جواب صحيح وتبرير سهل. ولهذا إنما سمح مراقبونا بإقامة حفلة التمثيل في جميع أماسي العيد. فكانت الثكنات لا تغلق مساءً إلا في موعد النوم؛ وكان السجناء يعلمون سلفًا أن الحرس لن يُعارضوا في ما عقدوا النية عليه، وكانوا من هذه الناحية مطمئنين.

في نحو الساعة السادسة جاءني بتروف، فذهبنا معًا إلى القاعة التي سيجري فيها التمثيل. كان جميع سجناء ثكنتنا تقريبًا حاضرين، باستثناء متعبد تشرنيجوف والبولنديين. فإن هؤلاء لم يعزموا أمرهم على حضور التمثيل إلا في آخر مساء، وهو مساء اليوم الرابع من كانون الثاني (يناير)، بل إنهم لم يعزموا أمرهم على ذلك إلا بعد أن اقتنعوا بأن كل شيء كان لائقًا مرحًا هادئًا لا مأخذ عليه ولا مطعن فيه. وكان ما يظهره البولنديون من تعالٍ واحتقار لا يثير سخط السجناء قط، لذلك استقبلهم السجناء في مساء اليوم الرابع من كانون الثاني (يناير) في كثير من الأدب واللطف، حتى لقد أجلسوهم في أحسن الأماكن. أما الشراكسة وأشعيا فومتش فقد سروا بالتمثيل أشد السرور، وابتهجوا له أكبر الابتهاج. وكان أشعيا فومتش يدفع في كل مرة ثلاثة كوبكات، بل لقد أسرف في اليوم الأخير فوضع في الصحن عشر كوبكات، وكانت السعادة مرتسمة على أسارير وجهه واضحةً كل الوضوح. كان السجناء قد قرروا أن يدفع كل مشاهد من المشاهدين المبلغ الذي يشاء. وكان المفروض أن يُغطي ريع الحفلات نفقات إقامتها، وأن يوزع الفائض على الممثلين. وقد أكد لي بتروف أنني سِأُخص بِمكان من أحسن الأمكنة، مهما

يكن المسرح غاصًا بالمشاهدين، أولًا لأنني أغنى من الآخرين، فمن الممكن أن أتبرع بأكثر ما يتبرع به الآخرون، وثانيًا لأنني أفهم في شؤون التمثيل أكثر مما يفهم أي واحد. وقد تحققت نبوءة بتروف. ولكن فلأصف القاعة وبناء المسرح قبل كل شيء.

إن ثكنة القسم العسكري التي جعلت قاعة للمسرح، يبلغ طولها خمس عشرة قدمًا؛ ومن فناء السجن، يدخل المرء إليها على درجات المدخل مارًا بحجرة تقع بعد المدخل. وهذه الثكنة الطويلة مبنية على طراز خاص كما سبق أن ذكرت ذلك، فالمضاجع تصطف فيها على الجدار، تاركة في الوسط مكانًا خاليًا. ولقد جُعل النصف الأول من الثكنة للمشاهدين، أما النصف الثاني الذي يتصل بمبنى آخر فقد جُعل مسرحًا، والستارة هي التي أثارت دهشتي وعجبي أكثر ممن أي شيء آخر. إنها تقسم الثكنة قسمين، على طول عشرة أقدام، وهي معجزة من المعجزات يحق للمرء أن يعجب بها أشد الإعجاب. لقد رسمت عليها بألوان الزيت رسوم شتى: أشجار وأكواخ وغدران ونجوم، وهي ملفقة من أقمشة جديدة وملابس قديمة تبرع بها السجناء: قمصان وأعصبة مما يتخذه فلاحونا جوارب لأقدامهم؛ وقد خيط ذلك كله بعضه ببعض خياطة محكمة فتألف منه بساط كبير؛ وحيث نقص القماش استعيض عنه بورق استعطاء السجناء قطعةً قطعة من مختلف الإدارات والدواوين. وقد تولى الرسامون منا (وبينهم برولوف أيـ.... ف) زخرفة الستارة كلها، فكان منظرها رائعًا حقًّا، سر به السجناء سرورًا عظيمًا، حتى لقد حظي بإعجاب أكثرهم كآبة وأعظمهم تشددًا وتزمتًا. على أن هؤلاء أنفسهم قد ظهروا منذ بداية التمثيل كالأطفال حقًّا، يستوون في هذا مع المندفعين والمتحمسين ولا يختلفون عنهم. لقد كانوا جميعًا مسرورين، حتى لقد كانوا يشعرون بغير قليل من الزهو. وكانت الإضاءة تتألف من بضع شموع قُسمت قطعًا صغيرة، ولقد جيء من المطبخ بمقعدين طويلين وضعا أمام الستارة، كما استعيرت من غرفة ضباط الصف ثلاثة كراسي أو أربعة من باب الاحتياط ليجلس عليها الضباط الكبار إذا هم حضروا الحفلة. أما المقعدان الطويلان فهما لضباط الصف وجنود الهندسة ونظار الأعمال وسائر الرؤساء الذين يشرفون على السجناء من دون أن تكون لهم رتب ضباط والذين قد يجيئون لإلقاء نظرة على حفلة التمثيل. والحق أن المسرح لم يحوزه الزوار. لقد كان عددهم يختلف قلة وكثرة باختلاف الأيام، ولكن المقاعد لم يبق فيها مكان واحد خالٍ في الليلة الأخيرة. ووراء المقاعد كان يزدحم السجناء واقفين حاسري الرؤوس احترامًا للزوار، مرتدين صدرات أم فروات قصيرة، رغم الحر الخانق الذي يملأ جو القاعة. وكما تتوقعون، كان المكان أضيق من أن يتسع لجميع السجناء، فكانوا يتكدسون بعضهم فوق بعض، ولا سيما في الصفوف الأخيرة، حتى لقد احتلوا المضاجع وشغلوا الكواليس، وكان هناك هواة حرصوا على أن

يختفوا وراء المسرح في الثكنة الأخرى، فكانوا يشاهدون التمثيلية من آخر الكواليس.

اقتادونا أنا وبتروف إلى مكان قريب جدًّا من المقاعد؛ فمن كان في ذلك المكان استطاع أن يشاهد التمثيل خيرًا مما يستطيع ذلك من كان في آخر القاعة. لقد كنتُ في نظرهم حكمًا ممتازًا، كنت في نظرهم إنسانًا خبيرًا رأى مسارح أخرى كثيرة: كان السجناء قد لاحظوا أن باكلوشين تداول معي الرأي في أحيان كثيرة، وأنه أظهر كثيرًا من الاحترام لنصائحي، فقدَّروا أن عليهم أن يكرِّموني وأن يخصوني بمكان من أحسن الأماكن. إن هؤلاء الرجال أُناس مغرورون طائشون، ولكن ذلك هو من الأمر ظاهره. لقد كانوا يسخرون مني في العمل، لأنني كنت عاملًا رديئًا مخفقًا. وكان من حق ألمازوف أن يحتقرنا، نحن السادة، وأن يتباهى بحذقه في حرق الرخام. إن هذه الاستهزاءات وهذه الاستفزازات يرجع سببها إلى الأصل الذي ننتمي إليه، فنحن أناس ننتمي بأصلنا إلى طبقة سادته القدامى الذين لا يمكن أن يحتفظ بذكرى حسنة عنهم. ولكن هؤلاء الرجال أنفسهم يخصونني هنا، في المسرح، بمكان ممتاز، لأنهم يعترفون لأنفسهم بأنني في هذا المجال أدرى منهم وأعلم. وحتى الذين كانوا يضيقون بي ويحلمون لي شيئًا من الكره (أعرف ذلك من مصدر موثوق) كانوا يريدون أن يسمعوني ممتدحًا مسرحهم، وكانوا ينزلون لي عن مكانهم من دون أن يكون في هذا شيء من مذلة أو خنوع. إنني أقضي في هذا الأمر الآن على أساس ما أحسست به أيامَ ذاك. لقد أدركت حينئذٍ أن هذه المعاملة العادلة لم تكن تشتمل على أي استكانة منهم. بالعكس... لقد كانت تحمل معنى الشعور بكرامتهم. إن السمة التي يتميز بها شعبنا إنما هي إحساسه بالعدل وظمؤه إليه. إن الشعب لا يشعر بغرور كاذب، ولا يحس بكبرياء حمقاء تدفعه إلى احتلال الصف الأول دون أن يكون له في ذلك حقوق. إن الشعب لا يعاني هذه الآفة ولا يتصف بهذا العيب. انزعوا عنه قشرة الفظاظة الظاهرة وادرسوه بلا أحكام سابقة وانظروا إليه من قرب تروا فيه مزايا لم تخطر لكم يومًا على بال. ليس هنالك إلا أشياء قليلة يستطيع حكماؤنا أن يُعلموها للشعب بل أزيد على ذلك فأقول إن عليهم هم أن يتعلموا في مدرسة الشعب.

حين قادني بتروف إلى المسرح قال لي ببساطة وسذاجة إنهم سيخصونني بمكان في المقدمة، لأنني سأعطي مالًا أكثر مما يعطي غيري. لم يكن للأماكن أسعار محددة، بل كان كل مشاهد من المشاهدين يعطي ما يحب وما يستطيع إعطاءه. وقد وضعوا جميعًا قطعة من النقد في الصحن حين جُمعت التبرعات. وإنني لأتساءل: لئن قدموني على غيري أملًا في أن أدفع من المال أكثر مما يدفع غيري، أفليس يشتمل هذا على شعور عميق بالكرامة الشخصية؟ لكأنهم كانوا يقولون لي: (أنت أغنى منا، فاحتل المكان الأول! صحيح أننا هنا متساوون، ولكنك تدفع أكثر من غيرك، ويترتب على ذلك أن

مُشاهدًا مثلك يسر الممثلين، فلك أن تحتل المكان الأول، لا لأننا نحب هذا المال ونخصه بالتعظيم والاحترام، بل لأن علينا أن نصنف أنفسنا، فإذا كل واحد يحتل المكان الذي يستحقه!). يا لها من كبرياء نبيلة تلك التي تشتمل عليها هذه النظرة إلى الأمور، وهذه الطريقة في السلوك! ليس المال كلَّ شيء هنا، وإنما الأمر أمر احترام للنفس في التحليل الأخير! كان السجناء لا يسرفون في تقدير الثراء. ولست أذكر أن أحدًا منا قد أذل نفسه يومًا في سبيل الحصول على مال. أستطيع أن أؤكد هذا ولو استعرضت جميع من كانوا في السجن. ولئن استعطاني بعضهم أحيانًا فلقد فعل ذلك من باب المكر والدهاء والحيلة أكثر مما فعله في سبيل الربح نفسه. كان ذلك أمارة من أمارات مرح النفس وحسن المزاج وبراءة الطبع. لست أدري، على كل حال، هل وُفقتُ إلى التعبير عما أردت التعبير عنه بجلاء ووضوح... ولكن أراني قد نسيت المسرح فلأعد إليه.

كانت القاعة قبل رفع الستارة تمثل مشهدًا غريبًا مليئًا بالحركة والحياة. الحشد متراص متزاحم متدافع في كل جهة من الجهات، ولكنه صابر ينتظر ابتداء التمثيل مشرق الوجه متهلل الأسارير. وفي الصفوف الأخيرة تتراكم كتلة مضطربة من السجناء: إن كثيرًا منهم قد جاؤوا من المطبخ بحطب أسندوه إلى الجدار وتسلقوا عليه. لقد قضوا ساعتين كاملتين وهم على هذا الوضع المتعب متكئين بأيديهم على أكتاف رفاقهم راضين كل الرضى عن أنفسهم وعن أماكنهم. وهؤلاء آخرون قد وضعوا أقدامهم في ما يشبه القوس أو القنطرة على آخر درجة من درجات المدفأة ثم لبثوا على هذه الحال طوال مدة التمثيل يسندهم أولئك الذين كانوا أمامهم في آخر القاعة قرب الجدار. وعلى المضاجع، في جانب تكدَّس كذلك جمهور كثيف متراص، لأن هذه الأماكن كانت خير الأماكن. وهؤلاء خمسة سجناء هم أحسنهم حظًا قد صعدوا فوق المدفأة ورقدوا عليها ينظرون من أعلى: لقد كان هؤلاء يسبحون في غبطة عظيمة ونشوة كبيرة. وعلى الطرف الآخر كان يزدحم المتأخرون الذين وصلوا بعد غيرهم فلم يجدوا أماكن جيدة يستقرون فيها. وكان الجميع يراعون قواعد الحشمة وآداب السلوك فلا ضجة ولا جلبة ولا ضوضاء. وكان كل واحد منهم يحرص على أن يظهر بمظهر حسن أمام السادة الذين يزورون المسرح. إن انتظارًا ساذجًا بريئًا يرتسم على هذه الوجوه الحمراء التي خصلتها الحرارة الخانقة بعرق غزير. ما أروع هذا الفرح الطفولي! ما أرشق هذا السرور الخالص الذي لا تشوبه شائبة على تلك الوجوه المغضنة وعلى هذه الجباه والخدود الموشومة التي كانت قبل ذلك قائمة مظلمة كاحلة جهمة والتي كانت تسطع أحيانًا بنار رهيبة! ولقد كانوا جميعًا حاسري الرؤوس، وإذ كنت في الجهة اليمنى فقد بدا لي أن رؤوسهم محلوقة تمامًا، وفجأة سمعت على المسرح ضجة وقامت جلبة... سوف تُرفع الستارة... أخذت الأوركسترا تعزف... إن هذه الأوركسترا تستحق أن أتكلم عنها قليلًا.

هم ثمانية موسيقيين جلسوا على المضاجع: اثنان يعزفان على الكمان (إن إحدى الكمانين كانت ملكًا لأحد السجناء أما الكمان الأخرى فقد استعيرت من خارج القلعة، والفنانون جميعًا من السجناء)، وثلاثة يعزفون على آلات بالالايكا صنعها السجناء بأنفسهم، واثنان يعزفان على القيثارة، وواحد يضرب على دف. فأما الكمانان فكانتا لا تزيدان على الأنين والصرير، وأما القيثارتان فلا قيمة لهما؛ ولا نقط آلات البالالايكا كانت رائعة! كانت أصابع الفنانين تتحرك بخفة ورشاقة يمكن أن يعتز بهما أبرع الحواة. كاد الموسيقيون أن لا يعزفوا إلا ألحان رقص. وكانوا في اللحظات المندفعة من عزفهم يقرعون بالإصبع ألواح آلاتهم على حين فجأة؛ وكان عزفهم كله أصيلًا شخصيًا، منسجم الإيقاع، رفيع الذوق، محكم الضرب، متسلسل النغم. وكان أحد العازفين على القيثارة يملك ناصية آلته. إنه ذلك الفتى الذي قتل أباه. أما الضارب على الدف فقد كان معجزًا حقًّا. كان يدير الدف على أصبع من اصابعه أو يجر إبهامه فوق الجلد فإذا نحن نسمع ضربات متكررة واضحة رتيبة سرعان ما تتكسر على حين فجأة ثم إذا هي تعود تتدفق نغمات صماء صغيرة موشوشة متواثبة. وقد انضم إلى هذه الأوركسترا في آخر الأمر موسيقيان يعزفان على آلتي هارمونيكا. حقًّا إنني لم أكن أتصور ما يمكن استخراجه من هذه الآلات الشعبية الغليظة الفظة. فلما سمعت هذه الموسيقى دُهشت أشد الدهشة! لقد استطاع هؤلاء العازفون أن يؤدوا الألحان على أحسن وجه، فإذا هي لا تخلو من براعة الانسجام وحسن التناغم وجمال العزف، وإذا هي تمتلئ بالتعبير خاصة، وتجيد إبراز النغم إبرازًا رائعًا. لقد أدركت عندئذٍ حق الإدراك، لأول مرة، ما يتدفق في ألحان رقصاتنا الشعبية وأغانينا الرائجة من قوة هائلة واندفاع عظيم. ورُفعت الستارة أخيرًا. تحرك كل من في القاعة، والذين كانوا في آخر الصفوف انتصبوا على رؤوس الأقدام. وهذا واحد يسقط عن قطعة الحطب التي كان متسلقًا عليها. وفغر الجميع أفواههم وحملقوا بأعينهم: إن صمتًا كاملًا يسود القاعة كلها... لقد بدأ التمثيل.

كنت جالسًا غير بعيد عن (علي) الذي كان في وسط الحلقة التي تتألف من إخوته ومن الشراكسة الآخرين. كان هؤلاء مولعين بالمسرح ولعًا شديدًا، فلم يتخلفوا عن الحضور مرة واحدة. لقد لاحظت أن جميع المسلمين من تتر وغيرهم كانوا يحبون التمثيل بجميع أنواعه حبًّا عظيمًا. وعلى مقربة من هؤلاء كان يوجد أشعيا فومتش. إنه منذ رفعت الستارة أصبح كله عيونًا تبصر وآذانًا تسمع. كان وجهه يعبر عن انتظار ساذج نهم، شره إلى معجزات ومباهج ومسرات ومتع، فلو قد خاب أمله لشعرت من ذلك بحسرة كبيرة ولوعة شديدة. وكان وجه علي الفاتن الأخاذ يسطع بفرح يبلغ من التعبير عن براءة الطفولة وطهارتها أنني كنت سعيدًا كل السعادة من مجرد النظر إليه. وكنت كلما ترجَّعت أصداء ضحكة عامة لنكتة بارعة أو رد هزلي ألتفتُ نحوه على غير إرادة مني لأرى وجهه. لم يكن عليٌّ يلاحظني. إن هناك أشياء أخرى

تشغله عن التفكير فيَّ! وعلى مقربة من مكاني على اليسار كان هناك سجين متقدم في السن مظلم الوجه ساخط النفس كثير النقد. لقد لاحظ هو أيضا الفتى عليًا فكان يختلس النظر إليه من حين إلى حين مبتسمًا بعض الابتسام، فإلى هذا الحد كان الفتى الشركسي فاتنًا! إن هذا السجين كان يُطلق على علي دائمًا اسم (علي سيميونتش) لا أدري لماذا!

بُدأ التمثيل بمسرحية (فيلادكا وميروشكا)، فكان دور فيلادكا الذي مثله باكلوشين رائعًا كل الروعة. لقد مثل باكلوشين هذا الدور على أكمل وجه. كان واضحًا أنه يزن كل جملة يقولها وكل حركة يجريها. لقد استطاع أن يُضفي معنى على أيسر كلمة وأيسر حركة، معنى يصوِّر طبع الشخصية التي يمثلها أصدق تصوير. أضف إلى هذه الدراسة الدقيقة مرحًا لا تكلف فيه، ولا سبيل إلى مغالبته ومقاومته، وبساطة لا تصنع فيها وانطلاقًا طبيعيًا بغير مبالغة، فلو شاهدتم باكلوشين وهو يمثل هذا الدور لإعترفتم حتمًا بأنه ممثل كبير خُلق للتمثيل وأُوتيَّ موهبة عظيمة. لقد شهدت مسرحية فيلادكا على مسارح موسكو وبطرسبرج غير مرة، ولكني أستطيع أن أؤكد جازمًا أنني لم أرَ في هاتين العاصمتين فنانًا يُضارع باكلوشين براعة في تمثيل هذا الدور. كان الممثلون هنالك يمثلون أدوار فلاحين يمكن أن تنسبهم إلى أي بلد من البلاد، ولا يمثلون فلاحين روسيين حقيقيين (موجيك). كانت رغبتهم في (تمثيل) أدوار الفلاحين تمثيلًا، واضحة مسرفة في الوضوح، ظاهرة مفرطة في الظهور. ولم يكن كذلك باكلوشين. وكان التنافس يحض باكلوشين ويثير حماسته، ذلك أن المشاهدين كانوا يعرفون أن السجين بوتسياكين سيمثل دور كدريل في المسرحية الثانية، وكانوا يعتقدون - لا أدري لماذا - أن بوتسياكين موهوب أكثر من باكلوشين. فكان باكلوشين يتألم من تفضيل صاحبه عليه كما يتألم طفل من الأطفال. كم مرة جاءني في الأيام الأخيرة ليُفصح لي عن عوالج نفسه ومرارة قلبه! وقد انتابت الحمى باكلوشين قبل بدء التمثيل بساعتين. فلما كان الجمهور ينفجر ضاحكًا ويصيح قائلًا: (مرحى باكلوشين! إنك لممثل قدير!) كان وجهه يتألق سعادة، وكان يسطع في عينيه إلهام حقيقي. وحين ظهر المشهد الذي يتعانق فيه ميروشكا وفيلادكا ويقبل كل منهما الآخر، فيصيح فيلادكا قائلًا لصاحبه: (جففي فمك) انفجر الناس ضاحكين ملء صدورهم من براعة الفكاهة. إن المشاهدين هم الذين شدوا انتباهي أكثر من كل شيء، وهم الذين شاقني أمرهم أكثر من غيرهم. لقد استرخوا جميعًا واستسلموا للمرح استسلامًا صريحًا لا تحفظ فيه، وكانت صيحات الاستحسان ما تنفك تزداد قوة. هذا سجين يلكز رفيقًا بكوعه وينقل إليه مشاعره على عجل من دون أن يهمه أن يعرف من ذا الذي كان إلى جانبه. حتى إذا بدأ مشهد هزلي ثانٍ إلتفتَ سجين آخر إلى وراء، بقوة وعنف، وهو يحرك يديه ويلوح بذراعيه، كأنما ليهيب برفاقه أن اضحكوا، ثم ما لبث أن اِستدار نحو المسرحِ. وهذا سجين ثالث يصفق سقف فمه بلسانه ولا يستطيع

أن يبقى ساكنًا ولا أن يستقر على حال. ولكن المكان ضيق فهو لا يملك أن يغير وضعه، فلا يسعه إلَّا أن يقرع الأرض بإحدى قدميه. ولقد بلغ المرح أوجه في ختام المسرحية. الناس جميعًا يضحكون مقهقهين، لستُ أُبالغ في شيء! تصوروا السجن، والسلاسل التي تكبل الأرجل، والأسر الذي يحبس الرجال، والسنين الطويلة التي تنقضي نفيًا وسخرة وأشغالًا شاقة، والحياة الرتيبة التي تجري على وتيرة واحدة وتتساقط قطرة إن صح التعبير، والأيام المظلمة القائمة من أيام الخريف، تصوروا هذا كله وتصوروا هؤلاء السجناء المكبوتين وقد أذن لهم على حين فجأة أن يفرحوا وأن يمرحوا وأن يتنفسوا ملء صدورهم خلال ساعة، وأن ينسوا كوابيسهم وأن ينظموا حفلة يا لها من حفلة، حفلة تثير حسد المدينة كلها، وإعجاب المدينة كلها، فإذا الناس في المدينة يقولون: (انظروا إلى هؤلاء السجناء!) لقد كان كل شيء يشوق هؤلاء السجناء ويستثير اهتمامهم شد انتباههم. الملابس مثلًا: ما كان أشد فرحهم حين يرون فاتكا أو نتسفياتايف أو باكلوشين في رداء آخر غير الرداء الذي كان يرتديه كل منهم منذ سنين طويلة. (هو سجين... سجين حقيقي تصلصل السلاسل في قدميه حين يمشي وها هو ذا مع ذلك يدخل المسرح لابسًا ردنجوتًا واضعًا على رأسه قبعة مدورة متدثرًا بمعطف كواحد من المدنيين. وقد اتخذ لنفسه شعرًا مستعارًا وشاربين مصنوعين وهو يخرج من جيبه منديلًا أحمر فيفضه كما يفعل سيد من السادة وشريف من الأشراف). لذلك بلغت حماسة المشاهدين أقصاها ووصلت إلى ذروتها. ويظهر (الملاك المحسن) لابسًا بزة عسكرية هي بزة عتيقة خلقة رثة والحق يُقال، لكن على كتفيها شارات مذهبة، وفوقها قبعة ذات ريش: لقد أحدث ظهوره أثرًا لا يوصف. هل تصدقون أن اثنين من السجناء قد اختصما وتشاجرا كطفلين، متنافسين على تمثيل هذا الدور من فرط حبهما لارتداء هذه البزة العسكرية؟ لقد كانا كلاهما يحبان أن يظهرا ببزة ضابط ذات شارات؟ لقد تشاجر الرجلان حقًّا وأوشكا أن يقتتلا ولكن الممثلين الآخرين فصلوا بينهم وحالوا دون اقتتالهما، وقررت أكثرية أصواتهم أن يعهد بهذا الدور إلى نتسفياتايف، لا لأنه مؤهل بمزاياه لتمثيل هذا الدور أكثر من صاحبه، ولا لأنه أقرب منه شبهًا بسيد من السادة، ولكن لأنه أكَّد لهم جميعًا أنه يملك عصا من خيزران سيلوح بها أثناء التمثيل ويديرها هنا وهناك ويقرع بها الأرض كما يفعل شريف من الأشراف، أنيقًا على آخر موضة، وذلك أمر لا يستطيع أن يحاوله فانكا أو تسيباتين الذي لم يعرف أناسًا من طبقة النبلاء في يوم من الأيام. وقد حدث ذلك فِعلًا، فحين دخل نتسياتايف إلى المسرح مع زوجته، طفق يرسم على الأرض دوائر سريعة بعصاه الخفيفة التي لا يدري أحد من أين جاء بها. لا شك أنه كان يعد ذلك علامة على المحتد والنبل والتربية الراقية والأناقة الرفيعة. لعله كان في طفولته أيام لم يكن إلا قِنًا حافي القدمين قد افتتن بحذق سيد من السادة في إدارة عصاه، فرسخت هذه الذكرى في خياله إلى الأبد لا تمحى ولا تزول،

ثم إذا هي الآن تستيقظ في ذاكرته وهو في الثلاثين من العمر، فيريد أن يفتن بها هو أيضًا رفاق سجنه. لقد بلغ نتسفياتايف من استغراقه في هذه المهمة أنه كان لا ينظر إلى أحد حتى لقد كان ينطق بكلامه ويلقي أجوبته دون أن يرمش عينيه، فإن طرف عصاه والدوائر التي كان يرسمها هي التي كانت تشغله وتصرفه عن كل ما عدا ذلك. وكان دور الجارة المحسنة رائعًا أيضًا. ظهرت على المسرح في ثوب عتيق مهترئ من الموسلين، يشبه أن يكون أسمالًا رثة بالية، وكانت عارية الذراعين والعنق، مثقلة الوجه بالمساحيق، واضعةً على رأسها قبعة صغيرة من نسيج قطني تشدها خيوط معقودة عند الذقن، حاملةً بإحدى يديها مظلة صغيرة وباليد الأخرى مروحة من ورق ملون ما تنفك تحركها أمام وجهها، لقد استقبل الجمهور ظهور هذه السيدة العظيمة بضحك مجلجل مجنون فلم تملك هي نفسها أن تكظم مرحها فانفجرت ضاحكة غير مرة. إن السجين إيفانوف هو الذي قام بهذا الدور. أما سيروتكين الذي كان يرتدي ثياب فتاة، فقد كان جميلًا جدًّا؛ وقد أحسن الممثلون تبادل الحوار وإلقاء الشعر. الخلاصة أن المسرحية قد انتهت على رضى الجمهور عنها وابتهاجه بها واغتباطه لها ولم يتصدَ أحد بكلمة نقد واحدة. وأنَّى لأحد أن يوجه أي نقد على كل حال!

وعزفت الأوركسترا الافتتاحية مرة أخرى (غرفتي الصغيرة، يا غرفتي الصغيرة) ([28]). وأعيد رفع الستارة. سيمثلون الآن مسرحية (كدريل الشره). إن مسرحية كدريل تشبه مسرحية دون خوان. وهذا التشبيه صحيح، لأن الشياطين تخطف السيد والخادم وتمضي بهما إلى الجحيم في آخر المسرحية. ولقد تلي نص المخطوطة كاملًا، ولكن كان واضحًا أن النص الذي تُليَّ لم يكن إلا جزءًا من المسرحية. فأغلب الظن أن بداية المسرحية وخاتمتها قد ضاعتا، لأن ما شهدناه لم يكن له رأس ولا ذنب. إن المشهد يجري في نزل يقع في مكان ما من روسيا. وصاحب النزل يُدخل سيدًا من السادة إلى غرفة بالنزل، والسيد يرتدي معطفًا ويضع على رأسه قبعة مدورة مشوهة؛ والخادم كدريل يتبع سيده، حاملًا حقيبة ودجاجة ملفوفة بورق أزرق. إن الخادم يرتدي فروة قصيرة، ويضع على رأسه طاقية وَصِيفْ. وهذا الخادم هو الرجل الشره. إن السجين بوتسيايكين، منافس باكلوشين هو الذي يمثل هذا الدور. أما شخصية السيد فقد مثلها إيفانوف الذي كان يمثل دور السيدة العظيمة في المسرحية الأولى، إن صاحب النزل (نتسفياتايف) ينبه النزيل إلى أن الغرفة يسكنها جن، ثم يمضي لشأنه. والسيد النزيل حزين مهموم، وها هو ذا يجمجم قائلًا بصوت عالٍ إنه يعرف ذلك منذ زمن طويل، وها هو ذا يأمر كدريل بفض الحقيبة وإعداد العشاء، وكدريل شره نهم، وجبان رعديد، فما إن سمع كلامًا عن الجن الذين يسكنون الغرفة حتى اصفر وجهه وأخذ يرتجف كورقة في مهب الريح؛ وهو يتمنى لو يفر، ولكنه يخشى مولاه، ناهيك

عن أنه جائع. إنه إنسان يحب الملذات، وهو غبي، لكنه ماكر على طريقته الخاصة، وهو لئيم، ما ينفك يخدع مولاه في كل لحظة، لكنه يخشاه مع ذلك كما يخشى النار. إنه نموذج فذ من نماذج الوصفاء، فيه السمات الأساسية التي يتصف بها ليبوريلو، لكنها مختلطة مبهمة غير متميزة. وقد أحسن بوتسيابكين أداء هذا الدور وتصوير هذا الطبع إحسانًا كبيرًا، فهو امرؤ يملك موهبة عظيمة لا مراء فيها ولا يمكن جحودها، موهبة تتفوق في رأيي على موهبة باكلوشين نفسه. غير أنني قد أخفيت رأيي هذا عن باكلوشين حين إلتقيتُ به في الغداة، لأنني لو أفصحت له عن هذا الرأي لساءه ذلك ولأحزنه حزنًا شديدًا قاسيًا.

أما السجين الذي مثل دور السيد فإن تمثيله لم يكن رديئًا جدًّا. إن كل ما قاله لم يكن له كبير معنى، ولا يشبه شيئًا من الأشياء، ولكن الإلقاء كان فصيحًا واضحًا، وكانت الإشارات والحركات مناسبة موفقة. وبينما كان كدريل عاكفًا على الحقيبة، كان سيده يذرع الغرفة جيئةً وذهابًا، ويعلن أنه سيكف عن الطواف في العالم منذ اليوم. ويصغي كدريل إلى كلامه، ويُصعِّر وجهه، ويُضحك المشاهدين من ملاحظاته وخواطره التي يعلنها للجمهور على حدة دون أن يسمعها مولاه. إنه لا يشفق على سيده ولا يرأف به، ولكنه سمع كلامًا عن الشياطين، فهو يريد أن يعرف ما هم الشياطين وكيف يكونون، وها هو ذا يأخذ يسائل في ذلك مولاه؛ فيذكر له مولاه أنه حين ألمَّ به في يوم من الأيام خطر الموت، استنجد بالجحيم، فإذا بالشياطين تهب إلى نجدته وتنقذه، غير أن زمان حريته قد انصرم، فإذا جاءت الشياطين في هذا المساء، فإنما تجيئ لتقبض روحه، كما تم الاتفاق بينه وبينها على ذلك في عهد مقطوع وميثاق مبرم. أخذ كدريل يرتجف خوفًا وفرقًا، ولكن سيده لا يفقد شجاعته ولا تبارحه رباطة جأشه، وها هو ذا يأمر كدريل بإعداد طعام العشاء. فإذا سمع كدريل بالطعام رُدَّت إليه روحه وانبعثت فيه حميته، فها هو ذا يفض الورقة التي لُفَّت بها الدجاجة، وها هو ذا يُخْرِجُ زجاجة من خمر فيأخذ يشرب ويأكل خلسة. إن الجمهور يغرق في ضحك شديد. ولكن الباب يصر، فإن الرياح قد هزَّت مصراعيه، فيرتجف كدريل، ويُسارع، على غير شعور منه تقريبًا، فيخفي في فمه لقمة كبيرة من لحم الدجاجة يعجز عن بلعها. وينفجر الجمهور ضاحكًا من جديد. صاح يسأله مولاه الذي كان يذرع الغرفة طولًا وعرضًا: (هل أعددت الطعام؟). فيجيبه كدريل قائلًا: (حالًا يا سيدي... أنا... بسبيل إعداده لك). يقول كدريل ذلك وهو يجلس إلى المائدة ولا يتوقف عن إلتهام العشاء. إن الجمهور مفتون بمكر هذا الخادم الذي يضحك على سيد من السادة بمثل هذا الحذق وهذه البراعة. ولقد عرف كيف ينطق بقوله: (حالًا يا سيدي.. أنا.. بسبيل إعداده لك). لقد قال كدريل هذه الجملة بمهارة تبعث على أشد الإعجاب. ويمضي كدريل يزدرد الطعام. ولكنه يرتجف عند كل لقمة يتناولها، مخافة أن ينتبِه مولاه؛ فكِلما إلتفتَ سِيده اختبأ تحت المائدة ممسكًا الدجاجة بيِده. فلما

هدأ جوعه قليلًا كان عليه أن يُفكر في مولاه، ولما صاح به صاحبه (هلّا فرغت من إعداد الطعام يا كدريل)، هتف كدريل يقول بجرأة: (الطعام جاهز)، بعد أن لاحظ أنه لم يكد يبقى من الدجاجة في الصحن شيء، إلا فخذًا واحدًا. والسيد ما يزال مظلم الوجه مهموم النفس، فها هو ذا يجلس إلى المائدة من دون أن يُلاحظ شيئًا، وها هو ذا كدريل يقف وراءه حاملًا على ذراعيه منشفة. إن كل كلمة يقولها الخادم، وكل حركة يجريها، وكل تكشيرة يصطنعها، متجهًا إلى الجمهور، مستهزئًا بمولاء، تثير في هؤلاء المشاهدين من السجناء ضحكًا شديدًا لا يُغالب، وما إن يبدأ السيد الشاب في تناول طعامه حتى تدخل الشياطين. ها هنا يصبح كل شيء غامضًا مستعصيًا على الفهم. إن هؤلاء الشياطين لا يشبهون البشر في شيء، ولا يمتّون إلى الأرض بصلة، لقد فُتح الباب الجانبي، فظهر شبح متلفع بالبياض من أعلى إلى أدنى، رأسه مصباح عليه شمعة، ووراءه شبح آخر فوق رأسه سراج وفي يده منجل. تُرى لماذا تلفع الشبحان بالبياض، ولماذا يحملان مِنجلًا وسِراجًا؟ ما من أحد يستطيع تعليل ذلك، والحق أن الحضور لم يعنوا بهذا كثيرًا، ذلك أمر محقق. وهب السيد يواجه الأشباح بشجاعة، ويهتف قائلًا إنه متأهب وإن في وسعهم أن يأخذوه. ولكن كدريل، الجبان كأرنب، يختبئ تحت المائدة، ولا ينسى رغم جزعه وهلعه أن يأخذ معه زجاجة الخمر. ويغيب الشياطين لحظة، فيخرج كدريل من مخبئه، ويشرع السيد في أكل دجاجته فيدخل إلى الغرفة ثلاثة شياطين ويقبضون عليه ليقودوه إلى جهنم فيصيح: (أنقذني يا كدريل!) ولكن لكدريل همومًا غير هذه الهموم، فقد أخذ الزجاجة والصحن، وحتى الخبز في هذه المرة، واندس تحت المائدة. ها هو ذا الآن وحيدًا، فقد مضى الشياطين، ومضى مولاه أيضًا. ثم يخرج كدريل من تحت المائدة، ويأخذ ينظر في جميع الجهات، فتشرق في وجهه ابتسامة، ويغمز بعينه غمزة رجل ماكر محتال، ويجلس في مكان مولاه، ويهمس قائلًا للجمهور بصوت خافت:

- هيَّا!... أنا الآن وحدي سيدي... أنا الآن بغير سيد!

ويضحك جميع الناس من رؤيته بغير سيد، ويضيف هو بصوت خافت ولهجة تحمل معنى البوح، يضيف قائلًا وهو يطرف بعينه فرحًا مبتهجًا:

- أخذته الشياطين!...

اشتدت حماسة المشاهدين إلى غير حد! لقد نطق كدريل بهذه العبارة نطقًا فيه من اللؤم والخبث، وفيه من تصعير الوجه ومعاني السخرية والانتصار ما يستحيل على المرء معه أن لا يصفق، ولكن سعادة كدريل لا تدوم طويلًا. فما إن تناول زجاجة الخمر وسكب منها كأسًا حملها إلى شفتيه حتى عادت الشياطين واندشت وراءه وقبضت عليه، أعول كدريل كمن مسَّه طائف من جنون. ولكنه لا يجرؤ أن يلتفت إنه يود لو يدافع عن نفسه، ولكنه لا يستطيع ذلك، فإن يديه مشغولتان بالزجاجة والكأس، وهو لا يريد أن ينفصل عنهما. وها هو ذا يظل ينظر إلى الجمهور محملق العينين فاغر الفم، وفي وجهه هلع

وجبن يبلغان من شدة الإضحاك أن هذا الوجه خليق بأن يصوره حقًّا رسام. وتجره الشياطين أخيرًا، وتسير به، وهو يحرك ذراعيه وساقيه، وما يزال مُمسكًا بالزجاجة، وهو يصرخ ثم يصرخ ويظل عويله يسمع من وراء الكواليس. وتسدل الستارة. والناس جميعًا يضحكون مفتونين معجبين مسحورين... وتطفق الأوركسترا تعزف رقصة الكارامنسكايا ([29]).

بدأ العزف هادئًا رفيقًا، ولكن اللحن لم يلبث أن اشتد، والإيقاع لم يلبث أن تسارع؛ وأخذت ضربات على ألواح البالالايكا تدوي وتجلجل. إنها أنغام رقصة الكارامنسكايا في أقوى اندفاع لها. ألا ليت جلنكا يسمع عزف هذا اللحن في سجننا. وبدأ التمثيل الإيمائي الصامت بمصاحبة الموسيقى، وكانت أنغام الكارامنسكايا هي التي تصاحب التمثيل طوال مدة التمثيل. إن المشهد يمثل كوخًا في الداخل. والكوخ يضم رجلًا وامرأته، فأما الرجل فعاكف على لباس برقعه، وأما المرأة فتغزل خيوط كتان. كان سيروتكين هو الذي يمثل دور المرأة، وكان نتسفياتايف يمثل دور الطحان.

كان ديكور المسرح فقيرًا جدًّا؛ فكان لا بد، في هذه المسرحية الإيمائية كما في المسرحيتين السابقتين، أن يتولى الخيال إكمال ما يفتقر إليه الواقع. كان المشاهد يرى في آخر المسرح سجادة أو غطاء، بدلًا من أن يرى جِدارًا. وكان في الجهة اليمنى حواجز، أما في الجهة اليسرى فلم يكن المسرح مسدودًا فكان المُشاهد يرى مضاجع السجناء. ولكن المشاهدين ليسوا متشددين في مطالبهم، فهم يكتفون باليسير ويُعملون خيالهم في إكمال النواقص وتدارك الثغرات. وذلك أمر سهل عليهم لأن السجناء أُناس ألفوا أن يطلقوا العنان لخيالهم، وتعودوا أن يحلموا كثيرًا... فمتى قيل هذه حديقة تصوّروا حديقة، ومتى قيل هذه غرفة أو هذا كوخ تصوروا غرفة وتصوروا كوخًا... ليس ذلك بالأمر العسير عليهم، إنهم أُناس لا يحفلون كثيرًا بالمظاهر... ولقد كان سيروتكين رائعًا في ثياب المرأة، التي كان يرتديها! ويفرغ الطحان من عمله في ترقيع لباسه فيتناول قبعته وسوطه، ويدنو من المرأة، ويشير لها بالإيماء أنه سيعرف كيف يتصرف معها إذا هي استقبلت أحدًا أثناء غيابه... فعل ذلك وهو يظهرها على السوط الذي بيده. وتصغي المرأة إلى كلام زوجها فتهز رأسها مؤمنة عليه. لا شك أنها تعرف هذا السوط، ولا شك أنها قاست منه، فذلك ما تدل عليه هيئة المرأة الفاجرة! ويخرج الزوج. فما إن يستدر على عقبيه حتى تشيعه بقبضة يدها وراء ظهره ويُقرع الباب، فتفتح المرأة الباب، فيدخل الجار... إنه هو أيضًا طحان فلاح له لحية ويرتدي قفطانًا... إنه يحمل للمرأة هدية هي منديل أحمر... تبتسم المرأة. ولكن ما إن يهمَّ الرجل بتقبيلها حتى يُسمع قرع الباب من جديد. أين تراها تخبئ الرجل؟ ها هي ذي تخفيه تحت المائدة، وتعود إلى مغزلها. إن القادم الجديد هو البيطار وقد ارتدى بزة صف ضابط. لقد جرت المسرحية الإيمائية الصامتة حتى ذلك الحين مجرى

حسنًا جدًّا، فالحركات سليمة لا مأخذ عليها ولا عيب فيها، حتى ليمكن أن يعجب المرء لهؤلاء الممثلين الذين لم يتدربوا على التمثيل كيف يستطيعون أن يؤدوا أدوارهم هذا الأداء الصحيح الجميل، ثم إذا هو يقول لنفسه على غير إرادة منه: (ما أكثر المواهب التي تضيع هباءً في بلادنا روسيا، ما أكثر المواهب التي تُدفن بغير أن تُستغل، في غياهب السجون وأعماق المنافي!).
أغلب ظني أن السجين الذي مثل دور البيطار كان قد شهد تمثيلًا في مسرح من مسارح الأقاليم أو في مسرح هواة، فكان يقدر أن جميع هؤلاء الممثلين من السجناء لا يفقهون من أمور التمثيل شيئًا، ولا يسيرون كما يجب أن يسيروا. فها هو ذا يدخل المسرح كما كان يدخله الأبطال القدامى من ممثلي المسرح الكلاسيكي القديم، مُتقدمًا بخطوة عريضة، ثم ها هو يرد رأسه وجسمه إلى وراء حتى قبل أن يرفع ساقه الأخرى، وها هو يجيل طرفه حوله في كبر واستعلاء، ويتقدم خطوة أخرى في عظمة وأبهة وجلال، لئن كان مشيٌ كهذا المشي يبدو سخيفًا لدى الأبطال الكلاسيكيين، فهو أشد سُخفًا في مشهد هزلي يمثله عسكري. ولكن جمهور المشاهدين رأى هذه المشية طبيعية جدًّا فارتضاها، ولم يجد بأسًا في هذا المظهر المتكبر المظفر، بل عده أمرًا ضروريًا فلم ينتقده. وقرع الباب مرةً أخرى بعد دخول القادم بلحظة قصيرة، طاش صواب ربة المنزل أين عساها تخبئ المعجب الجديد؟ فلتخبئه في الصندوق، الذي كان لحسن الحظ مفتوحًا! اختفى القادم الثاني في الصندوق، وأغلقت عليه المرأة الغطاء. إن القادم الثالث عشيق كسائر العشاق، ولكنه عشيق من نوع خاص. إنه براهمي يرتدي مسوح الكاهن ([30]).
استقبل الجمهور دخوله بضحك شديد هائل. ولم يكن هذا الكاهن إلا السجين كوشكين الذي أجاد تمثيل دوره إجادة تامة، لأن وجهه يشبه وجه كاهن، ولأنه يعبر عن حبه لزوجة الطحان بإشارات كإشارات كاهن، رافعًا ذراعيه إلى السماء ثم ضامًا يديه على صدره... ومرة أُخرى يطرق الباب... إنه طرق قوي عنيف في هذه المرة، هو رب البيت من غير شك. ذعرت امرأة الطحان ذُعرًا رهيبًا وطاش صوابها وأخذ الكاهن يركض طائر اللب في كل جهة من الجهات، متوسلًا إلى المرأة أن تخفيه، وها هي ذي المرأة تساعده على الاندساس وراء الخزانة، وطفقت تغزل وتغزل ناسيةً أن تفتح الباب. إنها ماضية في عملها من دون أن تسمع طرقات الباب التي تتكاثر وتشتد؛ والحق أنها أصبحت لا تغزل، وإنما هي تقوم بحركات الغزل، تعقف خيطًا وهميًا وتُحرك مغزلًا لا وجود له، لأن المغزل قد سقط من يديها فهو يرقد الآن على الأرض، لقد مثل سيروتكين هذا الذعر تمثيلًا رائعًا، ويذهب صبر الزوج، فيقتحم الباب ويقترب من زوجته وفي يده سوطه. لقد لاحظ كل شيء لأنه كان يتجسس على الزوار. وها هو ذا يُفهم زوجته بالإيماء أن لديها ثلاثة زوار مختبئين. ثم يأخذ يبحث عنهم. فيعثر أولًا على الجار، فيطرده من الغرفة بضربات من

قبضة يده. ويخاف العسكري فيريد أن يهرب فيرفع برأسه غطاء الصندوق فيفضح نفسه، فيهوي عليه الطحان بسوطه بجلده جلدًا، ويخرج الرجل من الصندوق بحركات ليست كالحركات التي دخل بها المسرح، بحركات ليس فيها شيء من الخيلاء والغطرسة التي رأيناها منذ قليل. بقي الكاهن البراهمي الذي بحث عنه الزوج طويلًا من دون أن يعثر له على أثر، ولكنه وجده أخيرًا في ركنه وراء الخزانة، فحيَّاه تحية مهذبة، وشده من لحيته إلى وسط المسرح، وأراد الكاهن أن يُدافع عن نفسه فصرخ يقول: (لعنك اللّه، لعنك اللّه!) (وهي الكلمات الوحيدة التي قيلت طوال المسرحية الإيمائية الصامتة)، ولكن الزوج لا يسمع له، وأدركت الزوجة أن دورها قد جاء فرمت مغزلها وولت هاربة من الغرفة، وبينما هي تجري اصطدمت بأصيص فانقلب فانكسر، وانفجر السجناء ضاحكين. تناول علي يدي من دون أن ينظر إليَّ وقال لي: (هل رأيت؟ هل رأيت؟ يا لهذا الكاهن البراهمي!). كان من فرط إغراقه في الضحك لا يستطيع أن يستقر قائمًا، وأسدلت الستارة، وبدأ مشهد آخر...

مُثِّل مشهدان آخران أو ثلاثة. كانت جميع المشاهد مضحكة جدًّا مرحة جدًّا. لم يؤلفها السجناء أنفسهم، بل اقتبسوها اقتباسًا، ولكنهم أضافوا إليها من عندهم. كان كل ممثل من الممثلين يرتجل شيئًا جديدًا، فإذا المشهد الواحد لا يُمثل تمثيلًا واحدًا في مساءين اثنين. وكان المشهد الإيمائي الأخير من نوع خيالي مليء بالتهاويل، وقد انتهى برقصة باليه. إن موضوع هذا المشهد هو دفن ميت. قام الكاهن البراهمي يتلو الصلوات على جثمان الميت. وسُمع أخيرًا لحن الشمس الغاربة... فإذا بالميت يبعث إلى الحياة، وإذا بجمهرة الحضور تأخذ ترقص فرحة جذلى. ويرقص الكاهن البراهمي مع الميت، ولكنه يرقص على طريقته الخاصة على الطريقة البراهيمية. فبهذا المنظر تنتهي التمثيلية الإيمائية.

تفرق السجناء فرحين مسرورين يمدحون الممثلين ويشكرون صف الضابط، لم تسمع مشاجرة واحدة، كانوا جميعًا راضين، بل أستطيع أن أقول إنهم كانوا جميعًا سعداء. مضوا إلى مضاجعهم هادئي النفس مطمئني البال، وناموا نومًا لا يشبه ما ألفوا من نوم. ليس ما أقوله الآن طيفًا من أطياف الخيال، وإنما هو الحقيقة، الحقيقة خالصة. لقد أُتيح لهؤلاء البؤساء أن يعيشوا بضع لحظات كما يحبون، أن يستمتعوا بتسلية إنسانية، أن يتحرروا ساعة من ظروف السجين. إن المرء لتتغير روحه عندئذٍ ولو بضع دقائق...

اشتدت ظلمة الليل. شعرت برعدة، واستيقظت من نومي عرضًا ومصادفةً: إن المتعبد الشيخ ما يزال على المدفأة يُصلي، وقد ظل يُصلي حتى مطلع الفجر. إن عليًا ينام قربي نومًا هادئًا. تذكرت أنه حين نام كان لا يزال يضحك ويتحدث مع إخوته عن المسرح. نظرت إلى وجهه الوادع على غير إرادة مني وشيئًا فشيئًا تذكرت كل شيء، تذكرتِ اليوم الماضي وتذكرت أعياد الميلاد،

وتذكرت ذلك الشهر كله... رفعت رأسي مُرتاعًا ونظرت إلى رفاقي الذين كانوا نائمين تحت ضوء مرتجف هو ضوء شمعة وضعتها في الثكنة إدارة السجن. نظرت إلى وجوههم الشقية، إلى سررهم الفقيرة، إلى هذا العري وهذا البؤس.. نعم نظرت إلى هذا كله... وأقنعت نفسي بأن ذلك ليس حلمًا ثقيلًا، ليس كابوسًا رهيبًا، بل هو الواقع، الواقع نفسه، نعم إنه الواقع نفسه. وسمعت أنينًا. إن أحد السجناء يثني ذراعه في ثقل، فتجلجل سلاسله. وهذا سجين آخر يضطرب في حلم ويتكلم أثناء النوم بينما الشيخ يُصلي ويدعو اللّه لجميع (المسيحيين الأرثوذكس). سمعت دعاءه المتصل المطرد، الهادئ العذب، البطيء بعض البطء: (ارحمنا يا يسوع المسيح!)...

قلت لنفسي: (لن أحيا إلى الأبد، بل بضع سنين)، ثم عدت أسند رأسي إلى الوسادة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الجزء الثاني

1

المستشفى

مرضتُ بعد عيد الميلاد بقليل، فاضطررت أن أذهب إلى مستشفانا العسكري الذي يقع بعيدًا على مسافة نحو نصف فرسخ من قلعتنا. هو مبنى ذو طابق واحد، طويل جدًّا، مطلي بلون أصفر. إن إدارة المستشفى تنفق في كل صيف مِقدارًا كبيرًا من التراب الأصفر لإعادة طلائه، وفي فنائه الواسع ملحقات شتى هي مساكن للأطباء، وفيه مبانٍ ضرورية أخرى، أما المبنى الرئيسي فلا يضم إلا القاعات المخصصة للمرضى، وهي قاعات كثيرة. ولكن السجناء ليس لهم إلا قاعتان اثنتان، لذلك كانت هاتان القاعتان مزدحمتين في جميع الأوقات تقريبًا ولا سيما في فصل الصيف، ولم يكن نادرًا أن تضطر إدارة المستشفى إلى أن ترصَّ الأسرة فيهما، كانت هاتان القاعتان تغصان بالأشقياء من كل نوع ففيهما أولًا سجناء قلعتنا، وفيهما موقوفون عسكريون صدرت بحقهم أحكام، وفيهما آخرون تجري محاكمتهم، وفيهما معتقلون عابرون وإليهما يُرسل أيضًا مرضى من المحالين إلى الفرقة التأديبية وهي فرقة مسكينة تضم الجنود الذين ساء سلوكهم وفسدت أخلاقهم، فهم يلحقون بهذه الفرقة لإصلاحهم، ولكنهم يخرجون منها بعد سنة أو سنتين وهم أحط من يمكن أن يحملهم ظهر الأرض من سفلة مجرمين.

كان السجناء الذين يشعرون بأنهم مرضى يُبلِغون صف الضابط أمر مرضهم منذ الصباح. فيُسجل هذا أسماءهم على بطاقات يعطيهم إياها، ويُرسلهم إلى المستشفى بحراسة جندي خفير، حتى إذا وصلوا إلى المستشفى تولى فحصهم طبيب من الأطباء، فأذن ببقائهم في المستشفى إذا أيقن أنهم مرضى حقًّا، ولقد سجل صف الضابط اسمي على بطاقة؛ وفي نحو الساعة الواحدة، حين مضى جميع رفاقي إلى الشغل، ذهبت إلى المستشفى. كان كل سجين من السجناء يحمل معه إلى المستشفى ما يستطيع حمله من مال وخبز (إذ يجب عليه أن لا يتوقع أن يتناول طعامه في المستشفى ذلك اليوم)، ويحمل معه غليونًا صغيرًا جدًّا وكيسًا فيه تبغ وقداحة وفتيلة. وكان السجناء يخفون هذه الأشياء كلها في أحذيتهم. دخلت سور المستشفى وأنا أشعر إزاء هذا الجانب الجديد الذي لم أعرفه من حياة المعتقل، بغير قليل من الاستطلاع.

كان اليوم حارًا ملبدًا بالغيوم حزينًا كئيبًا. هو يوم من تلك الأيام التي تكسو منازل كالمستشفى بمظهر خاص يبعث على النفور والسأم والاشمئزاز. دخلنا أنا وخفيري إلى غرفة الانتظار. إن في الغرفة حمامين من نُحاس. ووجدنا هنالك سجينين كانا ينتظران فحصهما مع خفيريهما. ودخل ممرض من

الممرضين فنظر إلينا في غير اكتراث، نظرة تدل على شعوره بأنه قوام علينا، ثم مضى يُبلغ الطبيب المناوب عن وصولنا بمزيد من قلة الإكتراث أيضًا. فما هي إلا لحظة حتى وصل الطبيب، ففحصنا وهو يعاملنا معاملة لطيفة، ثم أعطانا أوراقًا سُجِّلت عليها أسماؤنا. إن على الطبيب العادي المعهود إليه بالقاعتين المخصصتين للسجناء أن يُشخِصَ المرض، وأن يعين الأدوية الواجب تجرعها، وأن يحدد النظام الغذائي الواجب اتباعه، إلخ. (سبق أن سمعت السجناء يكيلون المديح لأطبائهم، حتى لقد قالوا لي عنهم حين تقرر دخولي المستشفى: (إنهم لنا كالآباء!)). خلعنا ثيابنا لنرتدي رداءً آخر، وأخذوا ملابسنا الداخلية التي كنا نلبسها حين وصولنا، وأعطونا ملابس من المستشفى أضافوا إليها جوارب طويلة ونِعالًا وقبعات من قطن ومعاطف منزلية مصنوعة من جوخ بُني سميك ومبطنة لا بقماش بل بشيء يشبه أن يكون من اللصقات التي تُضَّمد بها الجروح. والحق أن المعطف كان قذرًا قذارة رهيبة، ولكنني سرعان ما أدركت فائدته.
أُخذنا بعد ذلك إلى قاعات السجناء التي تقع في آخر دهليز طويل عالٍ جدًّا، نظيف جدًّا. إن النظافة الخارجية مرضية كل الإرضاء. إن كل ما يرى كان يلمع، أو هذا على الأقل ما تراءى لي بعد القذارة التي كنت أتقلب بينها في السجن. دخل الموقوفان القاعة التي تقع من الدهليز على الشمال بينما دخلت أنا القاعة التي تقع على اليمين. إن ديدبانا على كتفه بندقية كان يتجول أمام الباب المقفل بقفل وغير بعيد منه كان يقف الحارس الذي ينوب عنه ويحل محله. أمر العريف (وهو من حرس المستشفى) بإدخالي قاعة المرضى، فإذا أنا أجد نفسي فجأة في غرفة طويلة ضيقة قد صُفت أمام جدرانها سُرُرٌ عددها اثنان وعشرون ومنها ثلاثة أو أربعة ما تزال خالية. كانت هذه السُرر الخشبية مطلية بلون أخضر، ولا شك أن البق يسكنها، كما يسكن سائر سرر المستشفيات، وذلك أمر معروف في روسيا كلها. استقررت في ركن من الأركان قرب النوافذ.
سبق أن ذكرت أن بعض سجناء قلعتنا كانوا هنالك، وكان بعضهم يعرفني، أو كان قد رآني على أقل تقدير. ولكن المرضى الذين تجري محاكمتهم والمرضى الذين ينتمون إلى فرقة التأديب كان عددهم أكبر كثيرًا.
ولم يكن بين السجناء إلا قلة قليلة مصابة بأمراض خطيرة تلزمها الفراش. أما أكثرهم فكانوا ناقهين أو كانوا متوعكين قليلًا، فهم راقدون على مضاجعهم أو متجولون في القاعة طولًا وعرضًا. إن الفراغ بين صفي الأسرة يتسع لطوافهم ذاهبين آيبين. وكان جو القاعة خانقًا تملؤه الرائحة الخاصة التي تملأ جو المستشفيات عادةً: إنه جو موبوء بشتى أنواع الروائح التي تخرج من أجسام البشر، وهي جميعًا كريهة، ذلك عدا روائح الأدوية والعقاقير، رغم أن المدفأة تظل مشتعلة طول النهار.

كان سريري مغطى بغطاء مخطط، رفعت الغطاء، فوجدت تحته لبادة من جوخ مبطنة بقماش، ومفارش وسخة من قطن، وإلى جانب السرير توجد منضدة صغيرة عليها جرة وكأس من صفيح، وفوق الكأس منشفة صغيرة عهد بها إليَّ. وللمنضدة رف كان المرضى الذين يشربون الشاي يضعون عليها غلايتهم، والكوز الخشبي الذي يشربون به شراب الكفاس أو غيره. ولكن هؤلاء الأثرياء قلة قليلة. وكانت الغلايين وأكياس التبغ تُخبأ تحت الفراش (إن جميع السجناء يدخنون حتى المصدورون منهم). وقلما كان الطبيب أو غيره من الرؤساء يقومون بالتفتيش، فإذا فاجأوا سجينًا من السجناء والغليون في فمه تظاهروا بأنهم لم يروا شيئًا. وكان السجناء حذرين جدًّا على كل حال، فهم لا يكادون يدخنون إلا وراء المدفأة. إنهم لا يسمحون لأنفسهم بالتدخين وهم على أسرَّتهم إلا في الليل، إذ ما من أحد يقوم بجولة تفتيشية أثناء الليل، إلا ضابط الحرس، وكان هذا لا يقوم بجولته التفتيشية إلا في القليل النادر.

لم يسبق لي حتى ذلك الحين أن دخلت أي مستشفى من المستشفيات مريضًا. لذلك بدا لي كل ما حولي جديدًا كل الجدة. لاحظت أن دخولي قد آثار فضول بعض السجناء. كانوا قد سمعوا عني. وها هم أولاء ينظرون إليَّ بغير تحرج، بل يُظهرون شيئًا من ذلك الشعور بالتفوق الذي يحسه تلاميذ مدرسة من المدارس حين يفد إليهم تلميذ جديد، أو يحسه موظفو دائرة من دوائر الحكومة حين يدخل عليهم مُراجع من المُراجعين. كان يرقد على يميني سجين كان في الماضي سكرتيرًا، وهو ابن غير شرعي لضابط متقاعد، وقد اعتقل بتهمة القيام بصنع نقود مزيفة: إنه يقيم في المستشفى منذ أكثر من عام. ولم يكن مريضًا البتة، ولكنه يؤكد للأطباء أنه مصاب بتورم في شرايين القلب. وقد بلغ من إقناعهم بذلك أنه لم يُرسل إلى العمل يومًا، ولا أُنزلت فيه العقوبة الجسدية التي حُكم عليه بها، وقد أُرسل بعد ذلك بسنة إلى مدينة تـ...ك، حيث أُلحق بمستشفى من المستشفيات. إنه فتى قوي البنية في نحو الثامنة والعشرين من عمره، مفتول العضل، شديد المكر والدهاء، عَالِم بالقوانين فكأنه مُحام من المحامين. وهو ذكي حلو العشرة، لكنه على جانب عظيم من الاعتداد بالنفس، شديد الإثرة تكاد تكون أنانيته مرضًا. كان مقتنعًا بأنه ليس في العالم كله إنسان أشرف منه ولا أعدل، فلم يعترف بذنبه ولم يقر بجريمته قط. وقد حافظ على هذه الثقة بنفسه طوال حياته. إن هذا الشخص قد خاطبني أول المخاطبين، وأخذ يسائلني في شؤوني مستطلعًا مستخبرًا، وراح يذكر لي ما يسود المستشفى من عادات وأخلاق. وطبيعي أنه قد ذكر لي قبل كل شيء أن أباه ضابط برتبة نقيب. كان يحرص حِرصًا شديدًا على أن أعده من طبقة الأشراف، أو من طبقة النبلاء في أقل تقدير. وبعد ذلك بقليل جاءني مريض من الفرقة التأديبية فأكد لي أنه يعرف كثيرًا من النبلاء الذين كانوا في المنفى حتى لقد سماهم لي بأسمائهم وأسماء آباءهم

ليزيدني اقتناعًا بصدق ما يقول. إنه ليكفيك أن ترى وجه هذا الجندي الأشيب حتى تدرك أنه يكذب كذبًا كريهًا مقيتًا. إن اسمه تشيكونوف. وقد جاء يلاطفني لأنه كان يُقدر أن معي مالًا. فلما لاحظ أن عندي صرة فيها شاي وسكر أسرع يعرض عليَّ خدماته قائلًا إنه سيأتيني بغلاية وسيغلي لي الماء. كان مـ..سكي ([31]) قد وعدني بأن يُرسل إليَّ غلايتي في الغداة مع أحد السجناء الذين يعملون في المستشفى، ولكن تشيكونوف تدبر الأمر فهيأ لي كل شيء، وجاءني بحلة من صفيح أغلي فيها الماء للشاي وبلغ من فرط حماسته في خدمتي أن ذلك سرعان ما أحنق عليه أحد المرضى فأخذ هذا يستهزئ به ويتهكم عليه، وهو مصدور كان سريره يقع أمام سريري. إن اسمه أوستيانتسف، وهو بعينه ذلك الجندي المحكوم عليه بالجلد، الذي بلغت شدة جزعه من السوط أنه أفرغ في جوفه زجاجة من الخمر أغلى فيها مِقدارًا من التبغ، فأصابه من ذلك مرض السل: لقد سبق أن تحدثت عن هذا السجين. كان إلى ذلك الحين صامتًا لا يتكلم، راقدًا على سريره يتنفس بكثير من العناء، ناظرًا إليَّ يتفرسني بجد واهتمام، متابعًا ببصره تشيكونوف الذي أحنقته مذلته لي. إن ما يظهر في وجهه من معاني الوقار الشديد يجعل استياءه مُضحكًا. وها هو ذا ينفد صبره أخيرًا فيقول:

- انظروا إلى هذا الخادم الذي عثر على سيده!

قال ذلك مُباعدًا بين الكلمات، ناطقًا إياها بصوت مخنوق من الضعف والوهن، لأن ذلك حدث قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة بزمن قصير.

إلتفتَ إليه تشيكونوف وسأله مستاءً مُغتاظًا وهو يلقي عليه نظرة احتقار

- من هو الخادم؟

فأجاب أوستيانتسف:

- أنت الخادم! اسمعوا أيها الناس! إنه لا يريد أن يُصدقني! انظروا إلى الفتى الشجاع كيف يعجب ويدهش!

- ما شأنك أنت؟ ألا ترى (أنهم لا يعرفون) استعمال (أيديهم)؟ (إنهم لم يتعودوا أن يعيشوا بغير خادم! فلماذا لا أخدمه؟ يا لك من أحمق أزغب البوز؟

- أزغب البوز؟ من؟

- أنت.

- أنا أزغب البوز؟

- نعم أنت أزغب البوز...

- أما أنت فجميل حقًّا... طيب... لئن كنت أنا أزغب البوز، إن لك وجهًا كأنه بيضة غُراب!...

- يا لأزغب البوز! لقد أنصفك اللّه، فخير لك أن تبقى هادئًا إلى أن تفطس! لماذا تتدخل في ما لا يعنيك؟

- لماذا؟ إنني أوثر أن أسجد لحذاء جيد على أن أسجد لنعل حقير. ما سَجد أبي يومًا، ولا أمرني أن أسجد!... أنا... أنا...

أراد المصدور أن يكمل كلامه، ولكن نوبة شديدة من السعال هزته هزًّا عنيفًا، وأخذ يبصق دمًا، وتقاطر على جبينه المكدود عرق بارد من فرط الإعياء. لولا أن السعال منعه من الكلام، إذن لظل يسب ويذم. كان ذلك واضحًا في نظرته. ولكنه عجز عن الاستمرار في الكلام، فلم يزد على أن أخذ يلوح بيده، فلم يلتفت إليه تشيكونوف بعد ذلك.

أحسست أن حنق هذا المصدور كان ينصب عليَّ أكثر مما ينصب على تشيكونوف. فما كان لأحد أن يغضب من تشيكونوف ولا أن يحتقره بسبب الخدمات التي يقدمها لي والدريهمات التي يُحاول أن يقتنصها مني. كان كل مريض يدرك حق الإدراك أن تشيكونوف لا يفعل ذلك كله إلا في سبيل الحصول على شيء من مال. إن أبناء الشعب لا يتأذون من هذا الأمر، فهم يعرفونه على حقيقته. كل ما هنالك أن أوستانتسف قد استاء مني، واستاء من الشاي الذي أستمتع به؛ والشيء الذي أحنقه خاصةً هو أنني أنتمي إلى طبقة السادة، رغم السلاسل التي تقيد ساقي، وأنني لا أستطيع الاستغناء عن خادم يخدمني. على أنني لم أرغب في أن يكون لي خادم، ولم أسع إلى أن يكون لي خادم؛ بل كنت أحرص على أن أفعل كل شيء بنفسي، حتى لا أظهر لأحد بمظهر رجل مدلل أبيض اليدين، وحتى لا أمثل دور السيد العظيم. والحق أن في حرصي هذا كان شيء من إثرة. ذلك أنني كنت كلما أحاط بي المتملقون والمُراءون، وتعلقوا بي من تلقاء أنفسهم ليخدموني، أصبح في آخر الأمر مُنقادًا لهم أسيرًا بين أيديهم فإذا أنا الخادم وإذا هم المخدومون (لا أدري كيف كان يتم ذلك). مهما يكن من أمر فقد كنت في نظر الناس، شئت أم أبيت، سيدًا لا يستطيع أن يستغني عن خدمات الآخرين، ويحرص على مظاهر الأبهة والعظمة. فكان هذا يُغيظني ويخنقني. كان أوستانتسف رجلًا مصدوراً، فكان بسبب ذلك حاد الطبع شديد التأذي. أما المرضى الآخرين فإنهم لم يظهروا لي إلا قلة الاكتراث، مع شيء من الإزدراء. ولقد كان يشغل بالهم أمر يعود الآن إلى ذاكرتي: لقد عرفت وأنا أصغي إلى أحاديثهم أن سجينًا سيُؤتى به إلى المستشفى في ذلك المساء نفسه بعد أن يكون قد تم جلده. إنه يُجلد الآن، والسجناء ينتظرون وصوله إلى المستشفى بكثير من الفضول. وقد ذكروا على كل حال أن عقوبته يسيرة: خمسمائة جلدة لا أكثر...

نظرت حولي كان أكثر السجناء، المرضى حقًّا، مصابين بداء الاسقربوط وبعلل في الأعين، وهي أمراض مستوطنة في تلك البلاد. وكان ثمة سجناء آخرون مرضى حقًّا، يعانون الحمى ويشكون من السل ويتوجعون من آلام أخرى. ولم تكن الأمراض المختلفة معزولة بعضها عن بعض في قاعات السجناء، بل كانت مجتمعة كلها في قاعة واحدة، حتى الأمراض الزهرية. ولئن قِلت (المرضى حقًّا)، فلأن بعض السجناء قد جاءوا إلى المستشفى من

دون أن يكون بهم مرض، جاءوا إلى المستشفى (هكذا) من أجل أن (يرتاحوا). وكان الأطباء يقبلونهم في المستشفى من باب الرأفة وحدها، لا سيما حين يكون ثمة أسرة خالية. إن الحياة في السجون تبلغ من القسوة إذا قيست بالحياة في المستشفى أن كثيرًا من السجناء يؤثرون أن يظلوا راقدين رغم الهواء الخانق الذي يتنفسونه ورغم أنهم يُمنعون من الخروج منعًا باتًا. حتى لقد كان هنالك هواة لهذا النوع من المعيشة: وهؤلاء ينتمون جميعهم تقريبًا إلى فرقة التأديب.
أنعمت النظر إلى رفاقي الجدد مستطلعًا. فخطف أحدهم بصري على نحو خاص. إنه مُصاب بالسل، وفي حالة نزع. كان سريره أبعد قليلًا من سرير أوستانتسف، في مواجهة سريري تقريبًا. إن اسمه ميخائيلوف. كنت قد رأيته في السجن قبل ذلك بأسبوعين. وكان مرضه خطيرًا منذ ذلك الحين. كان ينبغي له أن يُعالج نفسه منذ زمن طويل، ولكنه تحدى المرض وكابر وعاند، ولم يذهب إلى المستشفى إلا قبيل عيد الميلاد، ليموت بعد ثلاثة أسابيع بسل سريع اختفطه اختطافًا. لكأن هذا الإنسان قد احترق احتراق شمعة. وما أدهشني فيه خاصةً إنما هو وجهه الذي تبدل تبدلًا تامًا - لأنني كنت قد رأيته منذ دخولي السجن - فخطف بصري حين رأيته الآن. وإلى جانبه كان يرقد جندي من فرقة التأديب، وهو شيخ كالح الوجه مقزز المظهر. ولكنني لا أريد أن أعدد جميع المرضى... ولئن تذكرت الآن هذا الشيخ فما ذلك إلا لأنه أحدث في نفسي عندئذ أثرًا خاصًا، ولأنه أطلعني دفعة واحدة على بعض الخصائص التي تتميز بها قاعة السجناء. كان هذا الشيخ مُصابًا بزكام رهيب مزمن فهو يعطس في كل لحظة (ظل يعطس أسبوعًا بكامله)، حتى أثناء نومه، خمس مرات متتالية أو ست مرات متتالية، حتى لكأن عطسه طلقات بندقية؛ وكان كلما عطس يكرر قوله: (يا رب! ما هذا القصاص!). وكان يحشو أنفه ببذور التبغ، جالسًا على سريره؛ يفعل ذلك بشراهة ونهم، من أجل أن يزداد عطسه قوة وإطرادًا. وكان يعطس في منديل قطني ذي مربعات، منديل هو مُلك له، قد حالت ألوانه من طول ما غُسل. وكان حين يعطس يتجعد أنفه الصغير تجعدًا خاصًا، متخددًا بعدد لا نهاية له من غضون صغيرة وكان يكشف عندئذٍ عن أسنان مثلمة نخرة سوداء كل السواد، وعن لثتين حمراوين يبللهما اللعاب. حتى إذا انتهى من العطس فض منديله ونظر إلى مقدار المخاط الذي خرج من أنفه، ثم سارع يمسح المنديل بمعطف المنزل الذي يرتديه، فإذا بالمخاط كله يتعلق بالمعطف، بينما المنديل لم يكد يبتل. إن هذه المداراة لمتاع شخصي، على حساب المعطف الذي هو ملك المستشفى، لا يوقظ لدى السجناء أي احتجاج، رغم أن بعضهم قد يضطر إلى ارتداء هذا المعطف نفسه في ما بعد. إن المرء لا يكاد يستطيع أن يصدِّق أن العامة عندنا يمكن أن يبلغوا هذا المبلغ من قلة التقزز في هذه الأمور. وقد أزعجني هذا كثيرًا، فأخذت أفحص، على غير إرادة مني، بكثير من الاستطلاع

والاشمئزاز، المعطف الذي كنت قد ارتديته. كانت تفوح منه رائحة قوية كريهة. فإنه وقد دفأه جسمي، أخذت تنتشر منه روائح الأضمدة والعقاقير. لكأنه لم يبارح أكتاف المرضى منذ عهد سحيق لا أول له. لعل بطانته قد غُسلت في يوم من الأيام، ولكنني لا أستطيع أن أؤكد ذلك جازمًا: ومهما يكن من أمر فإنه كان حين لبسته مبللًا بجميع أنواع السوائل والمراهم واللصقات التي يمكن أن يتصورها الخيال. كان السجناء المحكوم عليهم بالجلد يجيئون إلى المستشفى بعد إنزال العقوبة فيهم، وقد دميت ظهورهم؛ وإذ كانوا يعالجون بالمراهم فإن المعطف الذي كانوا يلبسونه على القميص المبتل يمتص كل شيء ويحتفظ بكل شيء. إنني طوال مدة إقامتي بالسجن كنت كلما ذهبت إلى المستشفى (وهذا ما كان يحدث كثيرًا) أرتدي المعطف شاعرًا بكثير من الاشمئزاز والتخوف والريبة. وكان لهذه الريبة منشأ آخر هو القمل الذي كان يتكاثر تكاثرًا عظيمًا... كان السجناء يتلذذون بتعذيب هذا القمل إذ يفقسونه بإظفري الإبهامين من أصابعهم، فإذا نظرت إلى وجوههم أثناء ذلك رأيت أنهم يشعرون بارتياح واضح. وإذ كان السجناء لا يحبون البق أيضًا، فقد كان يحلو لهم أن يطاردوه وأن يسحقوه أثناء سهرات الشتاء الكالحة الطويلة التي لا نهاية لطولها. إن كل شيء في قاعتنا كان يمكن - باستثناء الرائحة الكريهة - أن يبدو من الظاهر نظيفًا نظافة كافية. أما من الباطن فما كان ينبغي للمرء أن يُنعم النظر... وكان المرضى يعدون ذلك أمرًا طبيعيًا لا غرابة فيه. ولم يكن النظام نفسه يحض على النظافة أو يلزم بها كثيرًا على كل حال... ولكنني سأعود إلى الكلام عن هذا.
ما إن هيأ لي تشيكونوف الشاي (يجب أن أذكر مستطردًا أن ماء قاعتنا كان يؤتى به للنهار كله، فسرعان ما كان يفسد بتأثير الهواء الفاسد) حتى فتح الباب، فإذا بالجندي الذي أنزلت فيه عقوبة الجلد يدخل علينا بحراسة خفيرين اثنين. تلك أول مرة أرى فيها إنسانًا أُنزلت فيه عقوبة الجلد منذ قليل.. ولكنني رأيت هذا المنظر مِرارًا بعد ذلك. كان يؤتى إلينا بالمجلودين حتى حين تكون عقوبتهم شديدة مسرفة في الشدة. وكان هذا المنظر يسلّي المرضى كثيرًا في كل مرة. كان هؤلاء الأشقياء يُستقبلون استقبالًا فيه من الوقار والجد والرصانة ما يختلف باختلاف أوضاعهم. وكان هذا الاستقبال يتوقف دائمًا على خطورة الجريمة التي ارتكبها المجلود ومن ثمَّ على عدد الجلدات التي تلقاها. فأما السجناء الذين جُلدوا أشد جلد، واشتهروا بأنهم مجرمون عتاة، فقد كانوا ينعمون باحترام وانتباه لا ينعم بمثلهما شخص لم يرتكب من الذنوب إلا الفرار من الجندية، كصاحبنا هذا الذي أُتيَّ به الآن، ومهما يكن من أمر، سواء في هذه الحالة أو تلك، لا يُظهر السجناء كثيرًا من العطف على المجلود أو التعاطف مع ألمه، لا ولا يقولون ملاحظات مثيرة أيضًا؛ إنهم يعالجون المسكين في صمت، ويساعدونه على الشفاء، ولا سيما إذا كان عاجزًا عن معالجة نفسه بنفسه. وكان الممرضون أنفسهم يعلمون أنهم

يعهدون بهؤلاء المجلودين إلى أيد حاذقة متدربة. والمعالجة المعتادة هي الإكثار من وضع قميص أو قماش مبلل بالماء البارد على ظهر المجلود. وينبغي كذلك أن تستخرج من الجروح، بحذق ومهارة، أليافُ العصي التي تكسرت على ظهره. وتلك عملية تؤلم الرجل إيلامًا شديدًا. ما أشد ما أذهلتني قوة الصبر التي كان يظهرها المجلودون في احتمال آلامهم. لقد رأيت عددًا كبيرًا من هؤلاء المجلودين، وكان بينهم أناس جُلدوا جلدًا قاسيًا رهيبًا، أؤكد لكم ذلك.. فما أذكر أني سمعت واحدًا منهم يئن مرة. كل ما هنالك أن الرجل بعد مثل هذه العملية يتشوه وجهه ويصفر لونه وتلتمع عيناه وتزيغ نظرته وتختلج شفتاه اختلاجًا يبلغ من القوة أنه يعضهما في بعض الأحيان عضًا شديدًا حتى تنزفا دمًا. كان الجندي الذي دخل علينا بعد جلده في الثالثة والعشرين من العمر: إنه قوي العضلات وسيم الطلعة، حسن القامة، فارع الطول، ملوح اللون بسمرة، كان ظهره العاري حتى الخصر قد ضُرب ضربًا مُبرحًا، وهذا جسمه يرتجف من الحمى تحت القماش المبتل الذي غطى به ظهره. لقد ظل ما يقرب من ساعة ونصف الساعة لا يزيد على أن يسير في القاعة طولًا وعرضًا. نظرت إلى وجهه، كان يبدو أنه لا يفكر في شيء. إن في عينيه تعبيرًا غريبًا متوحش متهرب لا تستقر نظراته على شيء إلا في كثير من العناء، خيّل إليَّ أنه يحدق إلى الشاي الساخن الذي أعده لي تشيكونوف. إن بخارًا ساخنًا يتصاعد من الفنجان الملآن: كان المسكين يرتعش وتصطك أسنانه، فدعوته أن يشرب، فإلتفتَ نحوي كتلة واحدة من دون أن يقول شيئًا، تناول فنجان الشاي وأخذ يشربه واقفًا، من دون أن يضع فيه شيئًا من سكر. كان يحاول أن لا ينظر إليّ. حتى إذا فرغ من احتساء الشاي ردَّ الفنجان إلى مكانه صامتًا، حتى من دون أن يومئ لي بحركة من رأسه، واستأنف طوافه في القاعة طولًا وعرضًا: كان ألمه أشد من أن يخطر بباله أن يكلمني أو يشكرني! أما السجناء فقد امتنعوا عن إلقاء أي سؤال عليه، فإنهم بعد أن وضعوا له كماداته لم يزيدوا على أن ينتبهوا إليه. لعلهم كانوا يقدرون أن الأفضل أن يدعوه وشأنه، وأن لا يضايقوه بأسئلتهم و (شفقتهم). ولاح لي أن الجندي كان مُرتاحًا إلى قرارهم هذا راضيًا عنه.

وكان الليل يهبط أثناء ذلك، فأُشعل المصباح. إن بعض المرضى يملكون شموعًا خاصة بهم، غير أن هؤلاء قلة. وجاء الطبيب يقوم بزيارة المساء، ثم جاء صف الضابط فعدَّ المرضى وأغلق القاعة التي حُملتْ إليها قبل ذلك آنية للتبول والتغوط أثناء الليل... وعرفت مدهوشًا أن هذه الآنية ستظل في القاعة طول الليل، مع أن المرحاض يقع على مسافة خطوتين من الباب. ولكن تلك هي العادة التي جرى عليها عمل المستشفى. ففي النهار لا يسمح للسجناء بالخروج إلا دقيقة واحدة في أكثر تقدير. أما في الليل فما ينبغي لأحد أن يفكر في الخروج البتة. إن المستشفى بالنسبة إلى السجناء لا يشبه مستشفى عاديًا: فالسجين المريض ينال فيه عقاب السِجن رغم كل شيء. لا

أدري من الذي وضع هذه السُنة. ولكن الشيء الذي أعلمه حق العلم هو أن هذا الإجراء لا فائدة منه البتة، وسخف التقيد بالشكليات لا يبدو واضحًا في أي مجال وضوحه في هذا المجال، ليس الأطباء هم الذين سنوا هذه القاعدة أو فرضوا هذه العادة. أعود فأقول إن السجناء كانوا لا يملون من كيل المديح لأطبائهم. إنهم ينظرون إلى أطبائهم نظرتهم إلى آباء، وهم يحترمونهم أعظم الاحترام. كان هؤلاء الأطباء يعرفون دائمًا كيف يقولون لهؤلاء المنبوذون كلمة طيبة تواسي قلوبهم، وكان السجناء يقدرون هذه الكلمة الطيبة تقديرًا عظيمًا لا سيما وأنهم يشعرون بكل ما فيها من صدق.

نعم، لقد كانت هذه الكلمات الطيبة صادقة حقًّا؛ إذ ما من أحد كان يمكن أن يؤاخذ هؤلاء الأطباء إذا هم كانوا غِلاظًا جفاة، وإذا هم تخلوا في معاملتهم للسجناء عن الروح الإنسانية: لقد كانوا يحسنون معاملة السجناء بدافع الروح الإنسانية وحدها. كانوا يدركون إدراكًا تامًا أن حق السجين المريض في تنفس الهواء النقي لا يقل عن حق أي مريض آخر في ذلك، ولو كان هذا المريض الآخر شخصية عظيمة. كان الناقهون في القاعات الأخرى يجوز لهم أن يتجولوا أحرارًا في الممرات، وأن يتروضوا وأن يتنفسوا هواءً أقل فسادًا من هواء قاعتنا التي تملؤها العفونة نتيجةً لإغلاقها، والتي تملؤها روائح الغازات تخرج من الأجساد.

لا يمكن أن يتصور المرء ما هو أسوأ من الرائحة المقززة التي تفوح في قاعتنا متى وضعت فيها الآنية المخصصة للتبول في الليل. وكلما تقدم الليل شعر المرء مزيدًا من الشعور بعناء استنشاق الهواء، نتيجة لاشتداد الحرارة وكثرة الحاجة إلى التبول والتغوط لدى المصابين بأمراض معينة. لئن قلت إن السجين يظل يُعاقب حتى أثناء مرضه، فإني لا أقول ذلك لأوهم بأن القانون لا يهدف إلى غير العقوبة. وإلا كنت متجنيًا... فما ينبغي أن يُعاقب مريض. ولا بد إذن أن هناك ضرورة صارمة تفرض على الإدارة اتخاذ إجراءات قاسية هذه القسوة. ولكن ما هي تلك الضرورة على وجه الدقة؟ إن الشيء المزعج هو أن المرء لا يستطيع أن يتصور تعليلًا واضحًا. فيم هذه التدابير - وغيرها من التدابير أيضًا - التي تتصف بحماقة كاملة وسخف تام؟ هل يتصورون أن المعتقلين يتمارضون لا لشيء إلا لتضليل الأطباء والتسلل ليلًا من المستشفى ومحاولة الهرب؟ إن هذا الافتراض لا يصمد للاعتراض. فمن أين يستطيع المرضى أن يهربوا وبأي ثياب يهربون؟ إنه لا يسمح للمرضى أن يخرجوا في النهار إلى المرحاض إلا واحدًا واحدًا، فلماذا لا يُفعل هذا في الليل؟ إن أمام الباب، قرب المراحيض، خفير مسلح من حقه أن يتبع المريض وأن لا يدع له أن يغيب عن بصره. أضف إلى ذلك أن نافذة المراحيض لها طبقتان من القضبان الحديدية المربعة، فمن أراد من السجناء أن يهرب منها فلا بد له أن يحطم هاتين الطبقتين من القضبان. فأي سجين يستطيع ذلك؟ هب سجينًا مِن السجناء استطاع أن يقتل الخفير دون أن ينتبه إليه أحد: فأنى

له بعد ذلك أن يحطم تينك الطبقتين من القضبان الحديدية! ولنتذكر عدا ذلك أن الحرس ينامون على مسافة قريبة جدًّا من قاعة السجناء، وأن أمام القاعة الأخرى خفيرًا مُسلحًا آخر، مع رديفه، أفليس هذا العدد كله من المراقبين كافيًا إذن؟ وإلى أين عسى يذهب سجين في جو الشتاء البارد بجوربين وخفين ومبذل وطاقية من قطن؟ فإذا كان احتمال الهرب ضعيفًا إلى هذه الدرجة كما ترون فلماذا هذه القسوة كلها في معاملة المرضى مع إنهم أحوج إلى الهواء النقي من الأصحاء؟ لماذا؟ إنني لم أستطع أن أفهم هذا الأمر يومًا.

ولكن ما دمت بصدد إلقاء هذا السؤال: لماذا؟ فإنني لا أستطيع أن أمتنع عن الإشارة إلى مسألة أخرى لم أجد لها حلًا في يوم من الأيام، ألا وهي مسألة السلاسل التي لا يُعفى منها أي سجين من السجناء مهما يكن مرضه خطيرًا. إن المصدورين أنفسهم قد ماتوا أمام بصري وسيقانهم مكبلة بالأغلال. لقد ألف جميع الناس هذا الأمر، فهم يعدونه أمرًا طبيعيًا لا جدال فيه. وأحسب أنه ما من أحد، حتى ولا الأطباء، قد خطر بباله أن يُطالب بإعفاء السجناء المصابين بأمراض خطيرة أو السجناء المصدورين على الأقل من عناء حمل السلاسل في أقدامهم. الحق أن السلاسل لم تكن مُفرطة في الثقل، فإن وزنها يتراوح على وجه العموم بين ثمانية أرطال واثني عشر رِطلًا. وذلك ثقل يمكن أن يحتمله إنسان صحيح الجسم. ومع هذا قيل لي إن سيقان السجناء تضمر وتهلك بعد حمل الأغلال عددًا من السنين، ولست أدري أهذه حقيقة أم لا، ولكنني أميل إلى الاعتقاد بأنها حقيقة، فإن حملًا من الأحمال، مهما يكن صغيرًا، ولو كان لا يتعدى عشر أرطال، لا بد له، إذا هو ثُبِّت في الساق إلى الأبد، من أن يزيد ثقل العضو زيادة غير طبيعية، ولا بد بعد زمن من أن يكون له تأثير ضار في نمو هذا العضو… ولنسلم مع ذلك بأن هذا ليس شيئًا ذا بال بالنسبة إلى سجين صحيح مُعافى، فهل هو كذلك بالنسبة إلى مريض؟ إن أيسر قشة هي بالنسبة إلى المصابين بأمراض خطيرة، كالمصدورين الذين تصوِّح أيديهم وأرجلهم من تلقاء نفسها، لهي حمل لا يُطاق. لذلك أعتقد أن الإدارة الطبية تحسن إحسانًا كبيرًا إذا هي طلبت بحل القيود عن أرجل المصدورين. فإن قيل أن السجناء أناس مجرمون لا يستحقون الشفقة، قلت فهل يجب أن نضاعف العذاب لمن سبقت يد اللّه إلى تعذيبه بالمرض؟ إن المرء لا يستطيع أن يُصدق أن الغاية من مضاعفة العذاب هي معاقبة السجين. إن المصدورين تعفيهم المحكمة من العقوبات الجسدية. لذلك فأنا لا أفهم تلك الحكمة الخافية العجيبة الهامة التي تملي إبقاء الأغلال في أرجل المصدورين. إن المرء لا يُصدق ولا يمكن أن يُصدق أن المصدور قد يهرب من المستشفى. من ذا الذي يمكن أن تخطر بباله هذه الفكرة، ولا سيما إذا كان المرض قد بلغ درجة معينة؟ ومن المستحيل تضليل الأطباء وإيهامهم بأن سِجينًا من السجناء الأصحاء رجل مصاب بالسل، فالسل مرض يُعرف من

أول نظرة. ثم - ولنقل هذا ما دامت فرصة الهرب قد تعرض - هل تستطيع القيود أن تمنع السجين من الهرب؟ أبدًا... إن الأغلال إذلال وإهانة وعار يجلل به السجين، هي عبء جسمي وروحي - أو ذلك ما يقدره الناس على الأقل - ولكنها لا يمكن أن تعوق أحدًا عن الهروب. إن أقل السجناء حِذقًا وأقلهم ذكاءً يستطيع أن ينشرها بمنشار أو أن يحطم حلقاتها بصخرة في غير عناء. فالقيود إذن احتراس لا فائدة له ولا جدوى منه، فإذا كان السجناء يُكبلون بها من باب المعاقبة لهم على جرائمهم أفليس من الواجب أن يُعفى من هذا العقاب إنسان يحتضر؟

إن صورة رجل محتضر تبرز الآن في ذاكرتي وأنا أكتب هذه السطور. إنه رجل مصدور، هو ميخائيلوف نفسه الذي كان يرقد أمام سريري تقريبًا، غير بعيد من أوستيانتسف، والذي مات بعد وصولي إلى المستشفى بأربعة أيام في ما أظن. إنني حين تكلمت منذ قليل عن المصدورين لم أزد على أن صورت الإحساسات وعبَّرت عن الخواطر التي غزت نفسي عند موته. هو في الخامسة والعشرين من العمر على أكثر تقدير، قصير القامة نحيل الجسم، جميل الوجه جدًّا. لقد كان ينتمي إلى (القسم الخاص)، ويتميز بأنه صموت لا يكاد ينطق بكلمة، ولكنه كان عذب الطبع، دمث الخلق، حزين النفس: لكأنه قد (ذوى) في السجن على حد تعبير السجناء الذين حملوا له أجمل ذكرى. أذكر أنه كانت له عينان جميلتان جدًّا، ولا أدري لماذا أتذكر هذا الأمر تذكرًا واضحًا هذا الوضوح كله. لقد مات في الساعة الثالثة بعد الظهر، في يوم مضيء جاف. كانت الشمس ترسل أشعتها الساطعة المواربة من خلال زجاج النوافذ الضارب لونه إلى خضرة، والمتجلد من شدة البرد: إن سيلًا من الضياء كان يغمر هذا البائس الذي غاب عنه شعوره وظل يحتضر عدة ساعات. لقد اضطربت عيناه منذ الصباح فأصبح لا يتعرف على من يقتربون منه. تمنى السجناء لو يخففون عنه، لأنهم لاحظوا أنه كان يتألم كثيرًا. كان تنفسه شاقًا عميقًا، مبحوحًا، وكان صدره يعلو بقوة وعنف كأنما يعوزه الهواء. نضا عنه في أول الأمر غطاءه وثيابه ورماها بعيدًا عنه ثم أخذ يمزق قميصه كأنه حمل ثقيل لا يُطاق. ما كان أشد الارتياع الذي يشعر به المرء حين يرى هذا الجسم الطويل طولًا خارقًا، وهاتين اليدين والساقين التي تشبه أن تكون عِظامًا لا يكسوها لحم، وذلك البطن الضامر وذلك الصدر الناتئ الذي تظهر أضلاعه ظهورًا واضحًا كأضلاع هيكل عظمي. لم يبق على هذا الهيكل العظمي إلا صليب وكيس صغير، وإلا السلاسل التي كان يمكن أن تتملص منها ساقاه الذاويتان بغير صعوبة. هدأت الضجة في قاعتنا قبل موته بربع ساعة. أصبح السجناء لا يتكلمون إلا همسًا، ولا يسيرون إلا على رؤوس الأصابع في كثير من المحاذرة. إنهم يتبادلون الكلام بين الفينة والفينة في مواضيع أخرى، ويختلسون النظر إلى المحتضر من حين إلى حين. كان المحتضر يحشرج حشرجة ما تنفك تزداد صعوبة ومشقة. وها هو ذا أخيرًا يتلمس صليبه على

صدره بيد مرتعشة متعثرة ويحاول انتزاعه: كان الصليب يثقل هو نفسه على صدره ويخنقه خنقًا. نزعوا عن صدره الصليب. ومات الرجل بعد ذلك بعشر دقائق. وعندئذٍ قرع بعض السجناء الباب من أجل أن يبلغوا الخفير بموته. فدخل أحد الحرس وألقى على المتوفى نظرة مرتاعة ثم مضى يستدعي الممرض. إن الممرض فتى طيب القلب، لعله مسرف في الاهتمام بمظهره، ولكنه دمث الطبع على كل حال. وصل الممرض بعد قليل. اقترب من الجثمان بخطى كبيرة، فأحدثت خُطاه ضجة في القاعة الخرساء. وأخذ يجس نبض المتوفى وهو يصطنع نوعًا من قلة الاكتراث يوجبه الموقف في نظره. ثم حرك يده بإشارة غامضة مبهمة وخرج. أبلغ مركز الحرس وفاة السجين، ذلك أن ميخائيلوف سجين ذو خطر (إنه ينتمي إلى القسم الخاص)، لذلك كان لا بد لإثبات وفاته من التقيد بقواعد خاصة وإلتزام إجراءات معينة. وفيما كنا ننتظر دخول العريف قال أحد السجناء بصوت خافت إن من المستحسن إغماض عيني المتوفى. وسمع سجين آخر هذه النصيحة فاقترب من ميخائيلوف صامتًا وأغمض له عينيه؛ فلما لمح على الوسادة الصليب الذي كان قد نزع عن عنق ميخائيلوف تناوله فنظر إليه ثم أعاده إلى مكانه من عنقه. وكان وجه الميت يتخشب أثناء ذلك. إن شُعاعًا من ضياء ساطع يتراقص الآن على هذا الوجه وينير منه صفين من أسنان بيضاء فتية تتلألأ بين الشفتين النحيلتين الملتصقتين باللثتين من الفم المشقوق. ووصل صف الضابط أخيرًا شاكي السلاح واضعًا خوذته على رأسه مصطحبًا جنديين. اقترب من ميخائيلوف متثاقل الخطى، مضطرب المشية، وتفرس بطرف عينيه في هؤلاء السجناء الصامتين الذين كانوا ينظرون إليه وقد أظلمت وجوههم؛ حتى إذا صار على بعد خطوة من الميت وقف فجأة، كأن ألمًا مفاجئًا قد سمَّره في مكانه تسميرًا. إن هذا الجسد العاري اليابس المثقل بالسلاسل قد أثر في نفسه: فها هو ذا يحمل نطاقه ويرفع خوذته (وذلك أمر لم يكن بحاجة إلى فعله البتة) ويرسم إشارة الصليب. إنه رجل قاسي الوجه، أشيب الشعر، له رأس جندي خدم في الجيش زمنًا طويلًا. أتذكر الآن أن قد كان إلى جانبه تشيكونوف الذي كان هو أيضًا شيخًا أشيب الشعر. كان تشيكونوف ينظر إلى العريف طول الوقت ويتابع ببصره حركاته منتبهًا إليها انتباهًا شديدًا عجيبًا. إلتقتْ نظرتا الرجلين، ورأيت شفة تشيكونوف السفلى ترتجف. عض تشيكونوف على شفته السفلى، وكزَّ أسنانه وقال للعريف في ما يشبه المصادفة وهو يومئ برأسه إلى الميت:

- كان له هو أيضًا أم...

نفذت هذه الكلمات في قلبي... لماذا قالها وكيف خطرت بباله هذه الفكرة؟ أُنهض الجثمان مع الفراش. خشخش القش، وانفجرت السلاسل على الأرض ترن رنينًا واضحًا... فرُفعت وأخرج ميخائيلوفتش من القاعة. وفجأة أخذ الجميع يتكلمون بصوتٍ عالٍ، وسُمع صوت العريف الذي أصبح في الممر،

سُمع صوته أيضًا يأمر أحدهمً صائحًا بإحضار الحداد. كان يجب فك الأغلال عن ساقي الميت...
ولكنني استطردت خارج الموضوع...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2

المستشفى

تتمة

كان الأطباء يزورون القاعات في الصباح، فهم يظهرون في نحو الساعة الحادية عشرة موكبًا واحدًا يتقدمه رئيسهم، وقبل وصولهم بساعة ونصف الساعة يكون الطبيب المولج بقاعتنا قد قام بجولته، إنه شاب جم اللطف دائم المرح، كان السجناء يحبونه كثيرًا وكان يتقن فنه إتقانًا عظيمًا. إن السجناء لا يرون فيه إلا عيبًا واحدًا هو أنه (مسرف في الرقة). والواقع أنه كان قليل الكلام، حتى ليبدو عليه أنه يشعر أمامنا بشيء من الخجل والاضطراب، ولقد يحمر وجهه أحيانًا. وهو يأمر بزيادة مقدار الطعام متى طالب المرضى بذلك، وأحسب أنه كان مستعدًا لأن يصف للمرضى الأدوية التي يرغبون فيها: إنه إنسان رائع على كل حال. إن كثيرًا من الأطباء في روسيا ينعمون بحب الشعب واحترامه لهم، وهم يستحقون هذا الحب وهذا الاحترام، في حدود ما أتيح لي أن ألاحظ ذلك. أنا أعلم أن كلامي هذا قد يبدو مفارقًا، لا سيما إذا تذكرنا ما يشعر به هذا الشعب نفسه من شك في الطب وارتياب في العقاقير الأجنبية. فالحق أن أفراد الشعب، حتى حين يُعانون مرضًا خطيرًا، يظلون يؤثرون خلال سنين عدة أن يتجهوا إلى ساحرة أو أن يستعملوا أدوية تصفها لهم امرأة عجوز (وهي أدوية ما ينبغي احتقارها على كل حال) على أن يستشيروا طبيبًا أو أن يذهبوا إلى المستشفى. غير أن علينا، والحق يُقال، أن نعزو هذا التخوف إلى سبب عميق لا شأن له البتة بالطب، ألا وهو شك الشعب في كل ما يتصف بطابع حكومي رسمي. وما ينبغي أن ننسى أيضًا أن الشعب يخشى ويحاذر المستشفيات بسبب ما يسمع من أقاصيص عجيبة عن الأهوال الرهيبة التي يُروى أنها تجري في المستشفيات (وهذه الأقاصيص تقوم مع ذلك على أساس من صحة). غير أن الشيء الذي يكرهه شعبنا أكثر ما يكره إنما هو العادات الألمانية الشائعة في المستشفيات، وتصوره أن أناسًا أجانب هم الذين يعالجون المريض في المستشفى، وتخيله قسوة الحمية التي ستفرض عليه، وأخيرًا ما يُروى له من حكايات عن فظاظة الممرضين والأطباء، وعن بتر الأعضاء وتشريح جثث الموتى وما إلى ذلك. ثم إن الطبقة الدنيا من الشعب تقول لنفسها إن أناسًا من طبقة السادة هم الذين سيعالجونهم (ذلك أن الأطباء ينتمون في نظرهم إلى طبقة السادة مهما يكن من أمرهم). حتى إذا عرفوا هؤلاء الأطباء (وهناك استثناءات طبعًا لكنها نادرة) تبددت جميع المخاوف: فإلى أطبائنا إنما يجب أن ننسب هذا النجاح، وإلى الشباب منهم خاصة، لأن أكثرهم يعرف كيف ينال

من الشعب احترامه وحبه. وإذا قلت ذلك فإنما أنا أتكلم، على الأقل، عما رأيته وشعرت به مرات كثيرة، في أماكن شتى، ولست أحسب أن الأمور تجري على غير ذلك في أماكن أخرى. صحيح أن الأطباء في بعض المناطق النائية يتناولون الرشوات ويستغلون مستشفياتهم ويُهملون مرضاهم، بل كثيرًا ما ينسون فنهم نسيانًا تامًا. إن ذلك ما يزال يحدث، ولكنني إنما أتحدث عن الأكثرية التي تحركها روح كريمة تحيي فن الطب في بلادنا الآن. أما المارقون، أما الذئاب الذين يرتعون في حظائر الحملان، فإنهم مهما يتعللوا بالأعذار الواهية، ومهما ينسبوا الذنب إلى (البيئة) التي تحيط بهم مدَّعين أنها قد أفسدتهم، فإنهم لا يمكن أن تغفر لهم خطاياهم، ولا سيما إذا افتقروا كل روح إنسانية، فإن هذه الروح الإنسانية وهذا العطف الأخوي على المريض وهذه المحبة له هي خير دواء يمكن أن يُبذل فيه، وأن يُحسن إليه. لقد آن لنا أن نكف عن الشكوى من البيئة زاعمين أنها هي التي أفسدتنا. قد يكون في هذه الشكوى شيء من صدق، ولكن الأوغاد المكرة الذين يعرفون كيف يلجون ويخرجون لا يعجزون عن اتهام البيئة التي يعيشون فيها تسويغًا لخطاياهم، ولا سيما إذا كانوا ممن يحسنون استعمال القلم أو اللسان في فصاحة وبلاغة. ها أنا ذا ابتعدت عن موضوعي مرة أخرى: كنت أود أن أكتفي بالقول إن عامة الشعب لا يشعرون بالشك والحذر والكره نحو الأطباء أنفسهم بل نحو الإدارات الطبية؛ حتى إذا رأوا الأطباء أثناء قيامهم بعملهم تبدد كثير من أوهامهم. إن إدارة مستشفياتنا ليست على اتفاق، وانسجام مع روح شعبنا، بل قل إنها تناقض عاداته.. ولن تستطيع ما بقي الأمر كذلك أن تفوز بثقة الشعب ولا باحترامه. ذلك على الأقل ما أستطيع أن أستخلصه من مشاعري الشخصية.

كان طبيبنا يقف عادةً أمام سرير كل مريض، فيسأله عن مرضه بكثير من الجد والاهتمام والانتباه، ثم يصف له الأدوية التي يجب أن يتجرعها والحمية التي يجب أن يتبعها. وكان يلاحظ في بعض الأحيان أنه رُبّ مدعٍ مرضًا، ما هو بالمريض البتة، وإنما هو سجين جاء يرتاح من الأشغال الشاقة، وينام على سرير في غرفة مُدَفأة، سرير أفضل من المضاجع التي تتألف من ألواح خشبية عارية في ثكنة رطبة تتكدس فيها كتلة كبيرة من سجناء صفر الوجوه محطمي الأجسام (يجب أن نذكر أن الأشقياء المعتقلين في روسيا اعتقالًا احتياطيًا يكادون يكونون دائمًا صفر الوجوه محطمي الأجسام، وذلك دليل على أن العناية الجسمية والنفسية بهم أدعى إلى الرثاء وأبعث على الإشفاق، من العناية بأولئك الذين صدرت في حقهم أحكام القضاء). لذلك كان طبيبنا يسجل على بطاقة المتمارض أنه مصاب بإلتهاب في أغشية المعدة، ويأذن له أحيانًا بالبقاء في المستشفى أسبوعًا. وكان الجميع يسخرون من (إلتهاب الأغشية) هذا، لأنهم كانوا يعلمون حق العلم أن هذه العبارة تعني تواطؤًا مُضمرًا بين الطبيب والمريض على أن المريضَ تمارض وأنه مغص كاذب على

حد تعبير السجناء الذين كانوا يترجمون عبارة (إلتهاب الأغشية) هذه الترجمة؛ بل كثيرًا ما كان المتمارض يستغل شفقة الطبيب ليبقى في المستشفى إلى أن يتم إخراجه عنوة. فيا ليتكم ترون طبيبنا عندئذٍ! كان الطبيب يخجل من عناد المريض، فلا يعزم أمره على أن يعلن له صراحةً أنه قد شُفيَّ، وعلى أن ينصحه بطلب بطاقة الخروج، رغم أن من حقه أن يُخرجه بغير تعليل البتة، مسجلًا على ورقته باللاتينية: (عوفيَّ). وإنما كان يلمح له أولًا إلى أنه قد آن له أن يترك قاعة المرضى، ويرجوه مُلحًا بقوله: (عليك أن تنصرف يا صاحبي، فقد شفيت الآن، والسُرُر غير كافية، والقاعة في ضيق، إلخ...). إلى أن يشعر السجين بشيء من الخجل، فيطلب أخيرًا أن يخرج. ولم يكن هذا شأن رئيس الأطباء، فإنه رغم ما كان يمتاز به من رحمة ورأفة وشرف واستقامة (ولقد كان جميع المرضى يحبونه أيضًا) كان أقسى وأحزم كثيرًا من طبيبنا المختص بقاعتنا؛ حتى لقد كان في بعض الأحوال يُظهر قسوة كبيرة تجتذب إليه احترام السجناء. كان يصل إلى قاعتنا مصطحبًا جميع أطباء المستشفى بعد أن يكون الطبيب الذي يعمل برئاسته قد قام بجولته، فيقوم بتشخيص كل حالة على حدة. وكان يطيل الوقوف على المُصابين بأمراض خطيرة، ويعرف كيف يقول لهم كلمة طيبة مشجعة تشد أزرهم وتثبت جنانهم وتترك في نفوسهم أجمل الأثر. وكان لا يطرد السجناء الذين يصلون إلى المستشفى (بمغص كاذب)، ولكن إذا أصر أحدهم على البقاء في المستشفى سجل على بطاقته أنه قادر على الخروج، وقال له: (هلم يا رفيق! لقد أصبت حظًا من راحة، فامضِ الآن، وليس يحسن بك أن تُبالغ!...). والسجناء الذين كانوا يصرون على البقاء في عناد، إنما هم أولئك الذين ضاقوا بالأشغال الشاقة ولا سيما أثناء الحر الشديد في فصل الصيف، أو أولئك الذين حُكم عليهم بالجلد فهم ينتظرون أن يُجلدوا. أذكر أن الأطباء قد اضطروا إلى قسوة خاصة لطرد واحد من هؤلاء. كان قد جاء إلى المستشفى لمداواة مرض في عينيه اللتين كانتا محمرتين احمرارًا شديدًا، وكان يقول إنه يشعر بألمٍ حادٍ كاوٍ في أجفانه. وقد عولج الرجل بطرق شتى؛ استعملت في مداواته كمادات ولبائخ وعلقات وقطرات ومحاليل وغير ذلك، ولكن شيئًا من هذا كله لم ينفعه فما زال العضو المريض على حاله نفسها لم يتغير. وأدرك الأطباء أخيرًا أن المريضَ تمارضَ، فإن الإلتهاب لم يتفاقم ولا تماثل للشفاء، فالحالة إذن مشبوهة. وكان المرضى يعرفون منذ زمن طويل أن المريض كان يُمثل تمثيلية هزلية، وأنه يُخادع الأطباء رغم أنه لم يشأ أن يعترف بذلك. إنه شاب قوي البنية حسن الهيئة، ولكنه أحدث في نفوس جميع رفاقه شعورًا بعدم الارتياح. كان شديد التخفي كثير الحذر قائم المزاج لا ينظر إلا من تحت ولا يُكلم أحدًا ويظل مُبتعدًا عنا كأنه يشك فينا جميعًا. وإني لأذكر أن كثيرًا منا كانوا يخشون أن يقوم هذا الشاب بعمل عنيف. كان وهو جندي قد امتدت يده إلى سرقة ضخمة، فحُكِمَ عليه بأن يُضرب بالعصا ألف ضربة، وبأن يُنقَل بعد ذلك إلى

فرقة تأديبية. وقد سبق أن قلت إن السجناء يقررون أحيانًا في سبيل تأخير لحظة العِقاب، أن يقوموا بأعمال رهيبة، فإذا بأحدهم يغمد خِنجرًا في بطن رئيس أو رفيق، قبل موعد تنفيذ العقوبة بيوم، من أجل أن تُعاد محاكمته، فيتأخر تنفيذ العقوبة بذلك شهرًا أو شهرين، فيحققون غايتهم، لا يعنيهم أن يتضاعف الحكم عليهم مثنى أو ثلاث في ختام هذين الشهرين، فإنما هم يبتغون إرجاء اللحظة الرهيبة إلى حين، مهما كلفهم ذلك، فإلى هذه الدرجة تعوزهم الشجاعة اللازمة لمواجهة تلك اللحظة الرهيبة!

ارتأى عدد من المرضى أن يُراقب القادم الجديد، لأنه قد يعمد إلى قتل أحد أثناء الليل من فرط يأسه. ولكنهم اكتفوا مع ذلك بالأقوال، فلم يحترس أحدٍ أي احتراس، حتى ولا أولئك الذين كانوا ينامون إلى جانبه، غير أنهم لاحظوا أنه كان يحك عينه ليلًا بكلس الحائط وبشيء آخر حتى تبدو حمراوين حين يجيء الطبيب، وأخيرًا أنذره رئيس الأطباء بأنه سيستعمل في مداواته طريقة الخرم. قد كان الأطباء حين يستعصي مرض من أمراض العينين على أي وسيلة من الوسائل العلمية، يعمدون إلى استعمال الخرم، تمامًا كما تُستعمل هذه الطريقة في علاج الخيل. ولكن الفتى أصر على أن لا يشفى. فإما أنه كان عنيدًا شديد العناد، وإما أنه كان جبانًا شديد الجبن، والخرم مهما يكن أليمًا، فشتانَ بينه وبن الجلد على كل حال. ويتم الخرم كما يلي: يُمسك جلد المريض من مكان قرب العنق، ويُشد إلى وراء ما أمكن الشد، ويُحدث فيه شق مزدوج عريض طويل، وتدس في الشق فتيلة من قطن بثخن إصبع، وتشد هذه الفتيلة في ساعة معينة كل يوم إلى أمام وإلى وراء كأنما ليشق الجلد من جديد حتى يظل الجرح متقيحًا فما يلتئم قط. تحمل المسكين هذا العذاب الذي سبب له آلامًا رهيبة خلال عدة أيام. ثم قرر أخيرًا أن يطلب الخروج من المستشفى. فما هو إلا يوم أو بعض يوم حتى شفيت عيناه شفاءً تامًا، فلما إلتأم جرح عنقه أُرسل إلى السجن، فغادره مع الغد لتُنفذ فيه عقوبة الضرب بالعصا ألف ضربة.

ما أشق تلك الدقيقة التي تسبق تنفيذ العقوبة! لعلني كنت مُخطئًا حين وصفت الخوف الذي يشعر به السجناء بأنه جبن. لا بد أن يكون هذا الخوف رهيبًا حتى يقرر السجناء أن يجازفوا فيضاعفوه مثنى وثلاث لا لشيء إلا أن يُرجئوه. وقد تحدثت مع ذلك عن سجناء كانوا يطلبون ترك المستشفى من تلقاء أنفسهم قبل أن تلتئم الجروح الناشئة عن الضربات الأولى التي نالوها، وذلك في سبيل أن توقع فيهم باقي العقوبة وأن يُضربوا الضربات الأخيرة فيتخلصوا من حالة الاعتقال التي هم فيها، ذلك أن الحياة في مقر الحرس أسوأ من أية أشغال شاقة ولا شك. ثم إن اعتياد تحمل الجلد وتلقي العقوبة يُساهم أيضًا في خلق ما نراه لدى بعض السجناء من شجاعة وثبات. فالذين جُلدوا مِرارًا كثيرة تقسو ظهورهم ونفوسهم، فإذا هم آخر الأمر ينظرون إلى العقوبة على أنها انزعاج عابر، وإذا هم لا يخشون بعد ذلك شيئًا. لقد حدثني

أحد سجناء القسم الخاص، وهو كلموكي متنصر اسمه ألكسندر أو ألكسندرين كما كان السجناء يسمونه في السجن (هو فتى قوي الجسم غريب الأطوار، شديد المكر كأنه الشيطان دهاءً، شُجاع رابط الجأش ثبت الجنان، لكنه مع ذلك طيب القلب) حدثني كيف أنزلت فيه العقوبة فتحمل أربعة آلاف جلدة. كان لا يتكلم عن هذه العقوبة إلا ضاحكًا مازحًا، ولكنه حلف لي جادًا كل الجد أنه لو لم يكن قد نشأ في قبيلته على ضربات السوط منذ نعومة أظفاره - ولقد كانت الندبات التي تغطي ظهره ولم يمكن أن تزول تشهد بصدق ما يقول - إذن لما استطاع أبدًا أن يحتمل هذه الأربعة آلاف جلدة. فهو لذلك يبارك تلك التربية التي أخذ بها منذ طفولته فعلمته تحمل قرعات السوط. قال لي ذات مساء بينما كنا جالسين على مضجعي أمام النار: (كنت أُضرب لأيسر سبب يا ألكسندر بتروفتش! ولقد ضُربت بغير سبب البتة خلال خمسة عشر عامًا عدة مرات في اليوم: كان يضربني من شاء أن يضربني، فتعودت السوط وألفته تمامًا). لا أذكر الآن ما هي المصادفة التي جعلته جنديًا (ولعله كان يكذب، فلعله كان رجلًا أفاقًا متشردًا)، ولكنني أذكر القصة التي رواها لنا ذات يوم عن الفزع الذي انتابه حين حُكم بجلده أربعة آلاف جلدة لأنه قتل رئيسه، قال: (كنت أقدِّر طبعًا أنني سأُعاقب عِقابًا قاسيًا، وكنت أقول لنفسي: مهما أكن قد تعودت السوط، فربما فطست في مكاني... هي أربعة آلاف جلدة... ما ذلك بمزاح... ثم إن جميع رؤسائي كانوا حاقدين عليَّ حِقدًا شديدًا بسبب تلك القصة... كنت أعلم أن الأمور لن تجري هينة لينة... بل كنت أعتقد أنني سأموت تحت السياط... حاولت أولًا أن أعتنق النصرانية قائلًا لنفسي: قد يدفعهم ذلك إلى أن يغفروا، فلنرَ ما عسى يكون... وكان رفاقي قد نبهوني قبل ذلك إلى أن هذا لن ينفعني في شيء، لكنني قلت لنفسي: (من يدري؟ فقد يغفرون لي! لا بد أن رأفتهم بنصراني أكبر من رأفتهم بغيره). عمَّدوني، وأسموني ألكسندر، ولكن هذا لم يعفني من العقوبة.. ما أظن أنهم كانوا سينقصون عددها ضربة واحدة أغاظني ذلك. فقلت لنفسي: (انظروا... لأعرفن كيف أخدعكم وأضحك عليكم!) فهل تصدق يا ألكسندر بتروفتش؟ لقد خدعتهم وضحكت عليهم حقًّا! كنت أُتقن التظاهر بالموت... لا أقصد أنني أستطيع أن أظهر بمظهر من مات تمامًا، بل بمظهر من يوشك أن يلفظ آخر أنفاسه حتمًا! أخذوني إلى أمام الكتيبة، فضربوني الضربات الألف الأولى. حرقني الضرب حرقًا. أخذت أعول. ضربوني الضربات الألف الثانية. قلت لنفسي: (أزفت نهايتي). كانوا قد أفقدوني وعيي، وكانت ساقاي كالمنكسرتين... كراك.. ها أنا ذا أسقط على الأرض وعيناي كعيني ميت، وجهي أزرق تمامًا، فمي ممتلىء زبدًا. أصبحت لا أتنفس. وصل الطبيب وقال إنني سأموت. حملوني إلى المستشفى. صحوت فورًا.

ضربوني بعد ذلك مرتين. ما أكثر ما كانوا غاضبين! ما أشد ما كانوا حانقين ومع ذلك استطعت أن أخدعهم في تينك المرتين الأخريين: ضربوني الضربات

الألف الثالثة، ففطست من جديد. ولكنني أقسم لك أن كل ضربة من الضربات الألف الثالثة كانت كثلاث ضربات، كانت كسكين تخترق قلبي.. أوف.. ما أكثر ما ضربوني! كانوا متحمسين في ضربي أشد الحماسة. أما تلك الألف الأخيرة فما كان أفظعها! إنها تساوي الآلاف الثلاثة الأولى مجتمعة. فلولا أنني تظاهرت بالموت حين بقيَّ منها مائتان، إذن لأجهزوا عليَّ فيما أعتقد. ولكنني لم أتهالك بل خدعتهم مرة أخرى متظاهرًا بالموت: ظنوا مرة أخرى أنني أوشك أن ألفظ أنفاسي الأخيرة؛ وهل كان في وسعهم أن لا يظنوا ذلك؟ إن الطبيب نفسه كان موقنًا أنني مشرف على الهلاك. ولكن بعد ذلك، حين أنزلوا بي المائتي ضربة الباقية لم أكترث ولم أعبأ، رغم أنهم استعملوا كل ما أوتوا من قوة حتى لكأنها ألفان. لم أحفل إذن بضرباتهم، ولم يستطيعوا أن يقضوا عليَّ. لماذا؟ لأنني نشأت وترعرعت على ضربات السياط. هذا هو السبب في أنني ما زلت حيًا! (آه... لطالما ضُربت في حياتي!). كذلك ردد ألكسندر يقول واجمًا مطرقًا حين أنهى قصته، وكان يبدو في وجهه أنه يتذكر ويعد الضربات التي تلقاها! ثم أضاف يقول بعد صمت: (لا... إنها لا تعد... لا تكفي الأرقام لعدها وإحصائها!). قال ذلك ثم نظر إليَّ ومضى عني وهو ينفجر في ضحكة تبلغ من الطيبة أنني لم أملك إلا أن أجيبه عليها بابتسامة. (هل تعلم يا ألكسندر بتروفيتش؟ أنا إن حلمت في الليل فإنما أحلم بأنني أُضرب، ولا أحلم بغير ذلك). كذلك قال. والواقع أن ألكسندر كان يتكلم أثناء نومه، ويعول ملء حلقه، فيبلغ من شدة الإعوال أنه يوقظ السجناء من نومهم، فيصيحون قائلين له: (ما هذا الزعيق يا شيطان؟). إن هذا الرجل القوي البنية القصير القامة، البالغ من العمر خمسة وأربعين عامًا، الخفيف الحركة، المرح المزاج، كان على تفاهم مع جميع السجناء، رغم أنه كان يحب أن تمتد يده إلى كل ما ليس له، ورغم أنه ضُرب بسبب ذلك مِرارًا. ولكن من ذا الذي كان بين هؤلاء السجناء لا يسرق، ومن ذا الذي لم يُضرب بسبب سرقاته؟

يجب أن أضيف إلى هذه الملاحظات أنني كنت أظل مذهولًا من البساطة العجيبة والطيبة الخارقة، ومن غياب الحقد لدى هؤلاء الأشقياء حين يتحدثون عن عقوباتهم وعن الرؤساء المكلفين بإنزالها فيهم. إن المرء الذي يسمع ما يقصونه عن هذه العقوبات التي كان الحديث عنها كثيرًا ما يجعل قلبي يخفق خفقانًا شديدًا، لا يُلاحظ عند رواتها ظِلًا من كره أو أثرًا من حقد، حتى لقد كانوا يضحكون من أعماق قلوبهم حين يروونها، كما يضحك الأطفال، غير أن هذه الحالة لم تكن حالة مـ... كي حين حدثني عن العقوبة التي أُنزلت فيه. لقد جلد هذا الرجل (وليس هو من طبقة النبلاء) خمسمائة جلدة. ولم يحدثني عن هذا الأمر يومًا. فلما سألته هل صحيح أنه جلد، أجاب موجزًا بأن ذلك صحيح، من دون أن ينظر إليَّ، وقد احمرّ وجهه وبدا أنه يعاني ألمًا نفسيًا شديدًا، حتى إذا رفع عينيه رأيتِ فيهما شعلة من حقد، وكانت شفتاه ترتعشان

من فرط الاستياء. أحسست أنه لن ينسى هذه الصفحة من حياته وأنه لن يستطيع أن ينساها في يوم من الأيام. ولا كذلك رفاقنا الآخرين (لست أضمن أنه ليس بينهم استثناءات)، فإنهم كانوا ينظرون إلى هذه المغامرة التي مروا بها نظرة مختلفة عن هذه النظرة كل الاختلاف. كنت أقول لنفسي أحيانًا: (إنه ليستحيل أن يشعروا بعدالة قصاصهم، ولا سيما حين لا يكونوا قد أجرموا في حق رفاقهم بل في حق رؤسائهم). وكان أكثرهم لا يعترفون بأنهم أجرموا قط. وقد سبق أن قلت إنني لم ألاحظ فيهم أية ندامة ولم ألاحظ أنهم يعانون شيئًا من عذاب الضمير حتى حين يكونون قد اقترفوا جريمتهم في حق أُناس من طبقتهم. أما الجرائم التي ارتكبوها في حق رؤسائهم فلست أتكلم عنها. لقد بدا لي أن لهم بالنسبة إلى هذه الجرائم رأيًا خاصًا بهم، رأيًا عمليًا، فهم يعدونها طارئة وقعت قضاءً وقدرًا، دون تفكير ودون شعور، فهي مغتفرة، ولا جناح عليهم فيها.. كذلك هم يعتقدون... إن السجين لا يلوم نفسه على الجرائم التي يرتكبها في حق رؤسائه، ولا يجعل هذه القضية محل تساؤل، ولا يُعدها مشكلة من المشكلات. ولكنه مع ذلك يعترف لنفسه عمليًا بأن رؤساءه لا يشاطرونه رأيه وأن عليه من ثمَّ أن ينال عِقابًا، وأنه لا يصبح بريئًا إلا بعد أن ينزل فيه العقاب.

إن الصراع بين الإدارة والسجين صراع عنيف. ومما يساهم في تسويغ جريمة السجين في نظره اعتقاده بأن البيئة التي ولد فيها وعاش فيها لا تدينه، فهو واثق من أن الطبقة الدنيا من الشعب لن تحكم عليه بأنه ضاع ضياعًا نهائيًا، اللهم إلا أن تكون جريمته التي ارتكبها جريمة في حق أُناس من هذه البيئة نفسها، في حق أُناس هم إخوته. إنه مطمئن من هذه الناحية كل الاطمئنان؛ وما دام ضميره راضيًا فلن يفقد راحة النفس، وذلك هو الشيء الأساسي. إنه يحس أنه واقف على أرض صلبة، وهو لذلك لا يحقد على السياط التي تنزل على ظهره، وإنما يعدها أمرًا لا مفر منه؛ وهو يُعزي نفسه قائلًا إنه ليس أول من يتلقى هذه السياط ولا آخر من يتلقاها، وإن هذا الصراع السلبي الأصم العنيد سيدوم زمنًا طويلًا. هل الجندي يكره التركي الذي يُقاتله؟ أبدًا... ومع ذلك فإن التركي يضربه بالسيف ويطعنه بالخنجر ويقتله.

ما ينبغي أن نظن مع ذلك أن رواة هذه الحكايات كانوا جميعًا يروونها بهدوء وبغير اكتراث. فحين كان السجناء يتحدثون عن الملازم جيربيانتيكوف، كانوا يتحدثون عنه دائمًا باستياء مكظوم. لقد عرفت هذا الملازم جيربيانتيكوف في أول إقامتي بالمستشفى - عرفته من الحكايات التي قصَّها عليَّ السجناء طبعًا. ورأيته بعد ذلك مرة بينما كان يقود الحرس إلى السجن. إنه في الثلاثين من العمر، طويل القامة، شديد البدانة، قوي الجسم، له خدان أحمران متهدلان من السمنة، وأسنان بيضاء، وضحكة رهيبة تشبه ضحكة نوزدريوف ([32]). إذا رآه الرائي أدرك أنه أقل إنسان على وجه الأرض قدرة على التفكير.

كان مولعًا أشد الولع بإنزال السياط على الظهور، وكان يفرحه كثيرًا أن يُكلف بتنفيذ هذه العقوبة. يجب أن أسارع فأذكر أن الضباط الآخرين كانوا يعدون جيربيانتيكوف إنسانًا شاذًا، وأن رأي المساجين فيه كان هو هذا الرأي نفسه. لقد عرف الزمان الماضي الذي ليس موغلًا في القدم والذي (ما تزال ذكراه حية ولكن الناس يصعب عليهم أن يصدِّقوها) ([33])، عرف جلَّادين يعشقون القيام بهذا العمل عشقًا قويًا. غير أن أكثر الذين كانوا يتولون تنفيذ عقوبة الجلد كانوا يقومون بعملهم في غير حماسة خاصة، وفي غير اندفاع شديد، وإنما هم يقومون به هادئين.
ولا كذلك هذا الملازم، فقد كان يجد فيه لذة مرهفة ومتعة عظيمة، وكان يُحسن القيام به خبيرًا يتقن أسراره ويعرف دقائقه. كان مولَّهًا بفنه، يحبه لذاته، فكأنه واحد من أولئك الجلادين المحترفين الذين عرفتهم روما الإمبراطورية، فهو ينشد في هذا الفن ملذات لطيفة ومباهج تخالف الطبيعة، دغدغةً وإثارةً لنفسه الغارقة في الشحم.
يُقاد أحد السجناء لتنفيذ عقوبة الجلد فيه. إن جيربيانتسيكوف هو الضابط الذي سيتولى الإشراف على تنفيذ العقوبة؛ فهو الآن مشرق الوجه ملهم الروح من مجرد رؤية ذلك الصف الطويل من الجنود المسلحين بسياط ضخمة. ها هو ذا يستعرض الجنود منبسط الأسارير مهيبًا بكل واحد منهم أن يعنى بالقيام بواجبه على أكمل وجه، وإلا... والسجناء يعرفون مقدما ماذا تعني كلمة "وإلا" هذه... يُحضر السجين. فإذا كان لا يعرف جيربيانتيكوف بعد، وإذا كان غير مطلع على السر فإن الملازم يمكر به عادةً على النحو التالي (ذلك اختراع من اختراعات جيربيانتيكوف البارع جدًّا في مثل هذا النوع من الاختراعات): إن كل سجين، حين يُعرَّى ظهره ويربطه ضباط الصف بحمالة البندقية ليشدوه بها بعد ذلك على طول (الشارع الأخضر)، يأخذ يتوسل إلى الضابط بصوت ضارع دامع أن يأمر بجعل الضرب أقل قوة، وأن لا يُضاعف العقوبة بقسوة لا داعي لها. فهو يهتف قائلًا: (ارحمني يا صاحب النبالة، كن أبًا رؤوفًا، اجعلني أدعو لك اللّه طوال حياتي، لا تمتني، اشفق عليَّ). وإن جيربيانتيكوف ينتظر هذا، فها هو ذا يشرع في محاورة السجين على النحو التالي بلجهة عاطفية مؤثرة:
- ولكن ماذا يجب عليَّ أن أفعل يا عزيزي؟ لستُ أعاقبك أنا وإنما يُعاقبك القانون!
- يا صاحب النبالة... في استطاعتك أن تفعل ما تشاء، فارحمني واشفق عليَّ!...
- أتظن أنني لا أشفق عليك حقًّا؟ أتظن أن رؤيتك وأنت تُجلد شيء يسرني ويحدث لي لذة؟ أنا إنسان على كل حال، أأنا إنسان أم لا؟

- لا ريب في هذا يا صاحب النبالة! إن الناس ليعلمون حق العلم أن الضباط آباؤنا وأننا أبناؤهم. فكن لي بمثابة أب.
كذلك يصيح السجين مؤملًا أن يفلت من العقوبة.
فيقول له الملازم:
- أنظر في الأمر بنفسك يا صديقي، إن لك دِماغًا ففي وسعك أن تُفكر أنني أعلم حق العلم أن الروح الإنسانية تملي عليَّ أن أكون بك رؤوفًا رحيمًا أنت الخاطئ.
- ما تقول يا صاحب النبالة إلا الحقيقة.
- نعم... عليَّ أن أكون بك رؤوفًا رحيمًا مهما تكن مُذنبًا. ولكن... ولكن لست أنا الذي يُعاقبك وإنما يعاقبك القانون. فكر قليلًا: إنني أخدم اللّه والوطن فإذا خففتُ العقوبة التي حددها القانون كنتُ أرتكب إذًا إثمًا عظيمًا.
- صاحب النبالة!...
- ما العمل؟ على كل حال، لك هذه المرة ما تشاء... سوف أرأف بك فأُعقابك عِقابًا خفيفًا رغم علمي أنني بذلك أقترف إثمًا... ولكن ألست أسيء إليك إذا أنا رأفت بك وعاقبتك عِقابًا خفيفًا، فظننت أنني في المرة المقبلة سأرأف بك أيضًا، فترتكب حماقات جديدة؟ هه؟ إن ضميري...
- معاذ اللّه يا صاحب النبالة! إنني لأقسم لك أمام عرش رب السماء أنني...
- طيب طيب... تقسم لي أنك ستسلك سلوكًا حسنًا...
- ألا فليمتني اللّه فورًا، وليعذبني في الحياة الآخرة عذابًا مُقيمًا إذا أنا...
- لا تحلف هكذا... ذلك إثم... سأصدقك إذا أنت عاهدتني فحسب.
- صاحب النبالة!...
- طيب! اسمع! إنني أرأف بك رحمةً بدموع اليتيم التي تذرفها. أنت يتيم، أليس كذلك؟
- يتيمٌ من الأب والأم يا صاحب النبالة، أنا في هذا العالم وحيد ليس لي أحد...
- طيب... أنا أشفق عليك رحمة بدموع اليتيم التي تذرفها. ولكن حذارِ... هذه آخر مرة. خذوه!
كذلك يضيف الملازم قائلًا بصوت يبلغ من الرقة والحنان أن السجين لا يعرف كيف يشكر اللّه أنه أرسل إليه مثل هذا الضابط. ويسير الموكب الرهيب ويأخذ الطبل يدق. ويهز أوائل الجنود سياطهم؛ ويصيح جيربيانتيكوف قائلًا ملء حنجرته: (اضربوه! ألهبوا ظهره! اضربوا اضربوا! قشِّروا جلده! اسلخوا جلده! مزيدًا مزيدًا... اضربوا هذا اليتيم بمزيد من القوة، ناولوه! ناولوا هذا الوغدا مزيدًا من القوة! هشموه تهشيمًا! تهشيمًا!).
ويهوي الجنود بضرباتهم على ظهر الشقي بكل ما أتوه من قوة، ذراعًا بعد ذراع... فتقدح عينا الشقي شررًا، ويأخذ يعول، بينما يجري جيربيانتيكوف وراءه، أمام الصف، ممسكًا خاصرتيه من شدة الضحك. إنه يختنق ضحكًا، ويطرب طربًا عظيمًا، ولا يستطيع أن يبقى منتصب القامة، حتى لتأخذك بهذا

الإنسان شفقة، إنه سعيد بأن يجد الأمر مُضحكًا إلى أبعد حدود الإضحاك، فهو يضحك ضحكًا رهيبًا مُجلجلًا مُدويًا، ويردد من حين إلى حين صيحته: (اضربوه! قشروه! اسلخوا جلد هذا اللص قاطع الطريق، هشموا لي هذا اليتيم!).
وكان جيربيانتيكوف قد ابتكر أنواعًا شتى من هذه الطريقة. فإذا جيء إليه بأحد السجناء لتنفيذ العقوبة فيه، وأخذ السجين يتضرع إلى الملازم أن يرأف به، عدل الملازم في هذه المرة عن الموقف المخادع السابق بل قال له بلا رياء ولا تعمل:
- اسمع يا عزيزي، سوف أُعاقبك كما يجب أن تُعاقب، لأنك تستحق العقاب. ولكنني أستطيع أن أُنعم عليك بشيء: لن أوثقك بحمالة البندقية، بل أدعك طليقًا تتحرك كما تشاء، فما عليك إلا أن تركض أمام صف الجنود بكل ما أوتيت من قدرة على الإسراع في الركض. صحيح أن كل سوط سيصيبك، ولكنك بذلك ستنتهي من نيل العقوبة بسرعة فما رأيك؟ هل تريد أن تجرب هذه الطريقة؟
إن السجين الذي أصغى إلى كلامه بكثير من الشك والحذر يقول لنفسه: (من يدري؟ لعل هذه الطريقة خير من الأولى، فإذا ركضت بكل ما أوتيت من قوة دام ذلك مدة أقصر خمس مرات، وقد لا تصيبني جميع السياط)؛ ثم يقول السجين للملازم:
- موافق يا صاحب النبالة!
- وأنا أيضًا موافق.
هكذا يقول له الملازم ثم يصيح بالجنود:
- هيا أنتم، انتبهوا.
إن الملازم يعلم أن ظهر الشقي لن يفلت من سوط واحد؛ وإن كل جندي يعلم أنه إذا أخطأ سوطه ظهر الرجل، فلسوف يكون له مع الملازم شأن. ويحاول السجين أن يركض في "الشارع الأخضر"، ولكنه لا يتجاوز خمسة عشر زوجًا من الجنود، فإن السياط تنهمر على ظهر المسكين كحبات البرد وفرة، وكومض البرق سرعة، فإذا هو يسقط على الأرض والأنين يخرج من صدره، ثم هو لا يتحرك بعد ذلك، فكأنه سُمِّر بالأرض أو قُتل برصاصة.
فإذا استطاع أن ينهض بعدئذٍ في كثير من المشقة أصفر اللون مذعور السحنة قال للملازم:
- لا يا صاحب النبالة! إنني أؤثر أن أُضرب على الطريقة التي يوجبها النظام.
والملازم يعرف نهاية هذه المهزلة مقدمًا، فهو ممسك بخاصرتيه منفجر ضحكًا. ولكنني لا أستطيع أن أذكر جميع التسليات التي اخترعها خيال هذا الملازم، ولا أن أروي جميع ما كان يُحكى عنه.
وكان السجناء في قاعتنا يتحدثون أيضًا عن ملازم اسمه سميكالوف كان يشغل منصب أمر للموقع قبل وصول الميجر الحالي: ولئن كانوا يتحدثون عن جِيربيانتيكوف في غير اكتراث وفي غير كره، ولكن من دون أن يمتدحوا

أعماله لأنهم كانوا يحتقرونه، فلقد كانوا مجمعين على امتداحه والثناء عليه والتحمس له. لم يكن ذلك الملازم من الناس المولعين بالسياط الهائمين بالعصي، ولم يكن فيه شيء من طبع جيربياتنيكوف ولا من أخلاقه، ولكنه مع ذلك لم يكن يحتقر السياط. فكيف كان السجناء إذن يذكرون عهده ويذكرون تنفيذه للعقوبات في شيء من الرضا الهادئ والارتياح العذب؟ كيف استطاع أن يفوز برضا السجناء؟ لماذا ذلك؟ كيف أمكنه أن ينال مثل هذه المحبة بين رفاقنا السجناء؟ لقد كان رفاقنا السجناء، كسائر الشعب الروسي، مستعدين لأن ينسوا آلامهم إذا قيلت لهم كلمة طيبة (إنني أُثبت هذه الواقعة من دون أن أُحللها أو أن أدرسها) لذلك لا يصعب الفوز بمحبة هذا الشعب، ولا يصعب الحصول على احترامه. لقد استطاع سميكالوف أن ينال (شعبية) خاصة... فكان السجناء لا يجيئون على ذكر تنفيذه للعقوبات فيهم إلا ويشعرون بشيء من الحنين إليه. حتى لقد كانوا في بعض الأحيان، حين يقارنون بين رئيسهم القديم والميجر الحالي، يقولون متنهدين: (كان طيبًا كاب). لقد كان سميكالوف رجلًا بسيطًا، ولعله كان طيبًا على طريقته. ومع ذلك فإن بين الرؤساء أُناسًا ليسوا طيبين فحسب، بل رحماء أيضًا، ثم هم مكروهون لا يحبهم أحد، بل يسخر منهم الجميع. ولا كذلك سميكالوف فقد بلغ من حسن التصرف أن جميع السجناء كانوا يعدونه (رجلهم). تلك صفة نادرة، تلك صفة فطرية لا يشعر بها أصحابها الذين يتصفون بها، في كثير من الأحيان. شيء غريب: هنالك أناس ليسوا من الطيبة في شيء، ثم هم أوتوا موهبة الحصول على مودة البشر. إنهم لا يحتقرون الشعب الذي يترأسونه. وأحسب أن هذا هو السبب الذي ترجع إليه (شعبيتهم). الناس لا يرون فيهم سادةً كِبارًا، لأنهم لا يحسون أنهم من طينة غير طينتهم، وأنهم طبقة على حدة؛ إن فيهم رائحة من الشعب... إن فيهم هذه الرائحة بالفطرة.. وسرعان ما يشم الشعب هذه الرائحة. وهو مستعد لأن يفعل كل شيء في سبيل هؤلاء. إنه يؤثر الرئيس القاسي جدًّا على ألطف إنسان وأودع إنسان، متى كان في ذلك الرئيس شيء من رائحة الشعب. فإذا كان هذا الرئيس، عدا ذلك، لين الطبع دمث الخلق طيب القلب، على طريقته الخاصة طبعًا، أصبح في نظر السجناء إنسانًا لا يُقدَّر بثمن! لقد كان الملازم سميكالوف، كما ذكرت، يُنزل في السجناء عقوبات قاسية جدًّا في بعض الأحيان، ولكنه كان يبلغ من حسن التصرف حين يُنزل فيهم هذه العقوبات أنهم كانوا لا يحملون له أي حقد. بالعكس: لقد كانوا يتذكرون (حكايات) سياطه ضاحكين.... على أن هذه الحكايات لم تكن كثيرة والحق يُقال، ذلك أنه لم يكن على جانب كبير من سعة الخيال الفني... إنه لم يخترع إلا مزحة واحدة، واحدة لا أكثر، ظل يبتهج بها قرابة عام كامل في سجننا، ربما لأنها كانت واحدة، ولم تكن تخلو من مرح وفكاهة. كان سميكالوف يشهد تنفيذ العقوبة بنفسه، مُمازحًا السجين ضاحكًا عليه، فهو يلقي عليه أسئلة غريبة. كان يسأله عن شؤونه الشخصية

في السجن. إنه لا يفعل ذلك لهدف معين أو نية مبيته، وإنما يفعله (لأنه يحب أن يكون على علم بشؤون هذا السجين). كان يؤتى إليه بكرسي، ويؤتى إليه بالسياط التي ستستعمل في معاقبة المذنب، فيجلس على الكرسي ويشعل غليونه الطويل، والسجين يتوسل إليه ضارعًا، فيقول له الملازم: (هيه! لا... يا رفيق... هلم ارقد.. ماذا بك؟). فيتنهد السجين ويرقد على الأرض، فيسأله الملازم: (طيب يا عزيزي هل تحسن تلاوة الصلوات؟)، فيقول السجين: (كيف لا يا صاحب النبالة؟ إنني مسيحي، وقد تعلمتها منذ طفولتي)، فيقول الملازم: (اتل أدعيتك إذنْ!). والسجين يعرف سلفًا ما الذي سيتلوه من أدعية، وكيف ستنتهي هذه التلاوة، لأن هذه المزحة قد تكررت أكثر من ثلاثين مرة؛ بل إن سميكالوف يعرف هو أيضًا أن السجين على علمٍ بأمر هذا الاختراع فليست تنطلي عليه الحيلة، وكذلك الجنود الذين أشرعوا سياطهم فوق ظهر الضحية الشقية، ويأخذ السجين بتلاوة الصلوات، ويبقى الجنود المسلحون بالسياط وقوفًا ساكنين، وينقطع سميكالوف عن التدخين ويرفع يده مُرتقبًا وصول السجين من أدعيته إلى العبارة التي ينتظرها؟ ويأخذ السجين في تلاوة صلواته إذا بلغ منها قوله: (ليأتِ ملكوت السماء) كان ذلك كل ما يريده الملازم فإذا هو يصيح بالسجين قائلًا: (كفى)، وقد احمر وجهه احمرارًا شديدًا، وإذا يقول للجندي المشرع سوطه: (عليك به! جئه بملكوت السماء)، يقول ذلك وهو يحرك يده بإشارة ملهمة!...

ثم ها هو ذا ينفجر ضاحكًا. ويبتسم الجنود الواقفون ويبتسم الجالد ويبتسم المجلود نفسه! غفر الله لي!... يبتسم المجلود نفسه رغم أن السوط، حين صاح الملازم قائلًا: (انشر ظهره!) قد صفر في الهواء صفيرًا قويًا، وهوى على ظهر المذنب الشقي يقطعه كأنه موسى!... إن سميكالوف سعيد جدًّا، لأنه هو الذي اخترع هذه المزحة، لأنه هو الذي ابتكر هذه النكتة. فإذا انتهى إنزال العقوبة في السجين انصرف الملازم راضيًا، وانصرف السجين نفسه راضيًا عن نفسه وعن الملازم ومضى يقص على رفاقه مزحة سميكالوف للمرة الإحدى والثلاثين، خاتمًا كلامه بقوله: (إن قلبه طيب حقًّا... يحب المزاح ويعشق الدعابة!).

ما أكثر ما كان المرء يسمع من السجناء ثناءً عاطفيً رقيقًا على الملازم الطيب.

حدَّثَ أحد السجناء يقول وقد أشرق وجهه ابتهاجًا بذكرى ذلك الإنسان الشهم:

- في بعض الأحيان، أثناء الذهاب إلى العمل، رأيته جالسًا إلى نافذته بثوب المنزل يحتسي الشاي ويدخن الغليون، فرفعت قبعتي احترامًا فسألني: (إلى أين أنت ذاهب يا أكسينوف؟) فقلت له: (إلى الشغل يا ميخائيل فاسيلتش، ولكن يجب عليَّ أن أذهب أولًا إلى الورشة)، فكان وهو يسمع كلامي يضحك ضحكًا سعيدًا كل السعادة. ما أطيب قلبه! ما أطيب قلبه حقًّا!

وأضاف أحد السامعين يقول:

- أمثال هذا الرجل لا يبقونهم مدة طويلة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3

المستشفى

تتمة

تحدثت هنا عن العقوبات ([34]) وعن الذين يتولون تنفيذها لأن الفكرة الأولى الواضحة عن هذه الأمور قد قامت في ذهني أثناء إقامتي بالمستشفى. كنت إلى ذلك الحين لا أعرف هذه الأمور إلا عن طريق السماع. كان يؤتى إلى قاعتنا بجميع من صدر الحكم عليهم بالجلد وجميع سجناء الأقسام العسكرية المقيمة في مدينتنا وفي المديرية التابعة لها. وكنت في الأيام الأولى أنظر إلى ما يجري حولي بشراهة تبلغ من القوة أن هذه العادات الغريبة وهؤلاء السجناء الذين جُلدوا أو الذين سيجلدون قد أحدثوا في نفسي شعورًا رهيبًا. كنت مضطربًا أشد الاضطراب، مروَّعًا أعظم الترويع. وكنت إذا سمعت الأحاديث أو الأقاصيص التي يتبادلها السجناء الآخرون حول هذا الموضوع، أُلقي على نفسي أسئلة أحاول أن أجد لها أجوبة. كنت أحرص الحرص كله على أن أعرف جميع درجات الأحكام والعقوبات وجميع طبقاتها، وأن أعرف رأي السجناء أنفسهم: حاولت أن أتصور الحالة النفسية التي يكون عليها المجلودون، سبق أن ذكرت أن من النادر أن يكون أحد السجناء هادئ النفس مطمئن البال قبل اللحظة الحاسمة، ولو كان قد ضُرب قبل ذلك مِرارًا. إن السجين يشعر بفزع رهيب، ولكن هذا الفزع جسمي محض، فزع لا يعيه صاحبه لأنه يكون قد أطاش لبه وذهب بصوابه. لقد استطعت أثناء السنين التي قضيتها في السجن أن أدرس على مهل، السجناء الذين كانوا يطلبون خروجهم من المستشفى، بعد أن مكثوا فيه زمنًا لمعالجة ظهورهم التي أُصيبت بجراح من إنزال نصف العقوبة فيهم؛ لقد أُتيح لي أن أرى عددًا كبيرًا منهم يطلب الخروج من المستشفى في الغداة لإنزال باقي العقوبة فيه. إن التوقف عن إتمام إنزال العقوبة إنما يكون دائمًا بأمر الطبيب الذي يشهد التنفيذ. فإذا كان عدد الضربات أكبر من أن يحتملها السجين دفعة واحدة قسِّم هذا العدد نصفين أو ثلاثة، وفقًا للرأي الذي يبديه الطبيب أثناء التنفيذ، فالطبيب هو الذي يقول هل يستطيع السجين أن يحتمل العقوبة كلها أم أن حياته أصبحت في خطر. فإذا كانت العقوبة خمسمائة جلدة أو حتى ألف جلدة أو ألفًا وخمسائة جلدة، فإن السجين يتلقاها دفعة واحدة، أما إذا كانت ألفي جلدة أو ثلاثة آلاف جلدة فإنها توزع على دفعتين أو ثلاث. فالذين اندملت جراح ظهورهم وأصبح عليهم أن يتلقوا باقي العقوبة يكونون قبل خروجهم من المستشفى بيوم حزانى النفوس قائمي الوجوه صامتين لا يتكلمون. إن الناظر إليهم يلاحظ فيهم نوعًا من الإنصعاق، وضربًا من الذهول الغريب. إنهم

لا يشرعون في أي حديث، بل يلزمون الصمت طوال الوقت تقريبًا. أمر عجيب: إن السجناء يتحاشون أن يُخاطِبوا أولئك الذين سيُجلدون، وهم خاصة لا يشيرون أي إشارة إلى العقوبة التي سيتم إنزالها فيهم. إنهم لا يحاولون أن يواسوهم وأن يعزوهم وأن يشجعوهم بكلمات زائدة وأقوال لا محل لها ولا داعي إليها... حتى إنهم لا يلتفتون إليهم ولا يُظهرون شيئًا من الاكتراث بهم، ولا شك أن السجين الذي سيُجلد يؤثر ذلك ويفضِّله. غير أن هناك استثناءات. مثال ذلك السجين أورلوف الذي سبق أن تحدثت عنه. لقد ساء أورلوف أن جراح ظهره لم تندمل بسرعة أكبر؛ إنه يستعجل طلب الخروج من المستشفى، ويريد أن يفرغ من إنزال باقي العقوبة فيه، وأن يُرسل إلى السجن، لأنه ينوي أن يهرب أثناء الطريق. إن أورلوف جامحُ النفس عنيفُ الطبع لا يشغله إلا الهدف الذي ينوي بلوغه، وهو إنسان على جانب عظيم من شدة المكر وسعة الحيلة. كان يبدو عند وصوله مسرورًا كل السرور، وكان في حالة اهتياج شديد؛ إنه رغم إخفائه مشاعره، قد ظن أثناء توقيع العقوبة فيه أنه لن ينهض من مكانه وأنه سيقضي نحبه حتى قبل استيفاء نصف العقوبة. كان قد سمع كلامًا عن الإجراءات التي ستتخذها الإدارة في حقه، وذلك حين كان لا يزال يُحاكم؛ ولهذا كان يتوقع أن يموت. حتى إذا فرغوا من إنزال نصف العقوبة فيه استرد شجاعته واستعاد أمله ورجعت إليه رباطة جأشه. لم أكن قد رأيت في حياتي جُروحًا حين وصل إلى المستشفى، ولكن الرجل كان فرحًا كل الفرح، فهو يأمل الآن أن يبقى حيًّا، إن الشائعات التي بلغت مسامعه كانت إذن كاذبة، ما دام إنزال باقي العقوبة فيه قد أُرجئ. وأخذ أورلوف أثناء حبسه الاحتياطي الطويل يحلم بالرحلة، بهربه المقبل، بالحرية، بالحقول، بالغابة... وبعد يومين من خروجه من المستشفى عاد إلى المستشفى ليموت على ذلك المضجع نفسه الذي شغله طوال مدة إقامته. إنه لم يحتمل النصف الثاني من العقوبة. ولكن سبق أن تحدثت عن هذا الرجل.

إن جميع السجناء بغير استثناء، حتى أشدهم جُبنًا وأكثرهم جزعًا، حتى أولئك الذين يضنيهم انتظار عقوبتهم ويمضهم ليلًا ونهارًا، كانوا يتحملون العقوبة صابرين. كان نادرًا أن أسمع أنينًا في الليلة التي تعقب تنفيذ العقوبة، إن الشعب على وجه العموم يعرف كيف يحتمل الألم. وقد سألتُ كثيرًا من رفاقي عن هذا الألم بغية أن أحدد طبيعته على وجه الدقة، وأن أعرف ما هو العذاب الذي يمكن أن يشبه به. لم يكن يدفعني إلى ذلك فضول سخيف واستطلاع لاهٍ. فلقد سبق أن قلت إنني اضطربت أشد الاضطراب ورُوِّعت أشد الترويع. ولكنني رغم الأسئلة الكثيرة التي ألقيتها على رفاقي لم أظفر من أحد منهم بجوابٍ شافٍ مُرضٍ. كانوا يجيبونني إجمالًا بقولهم: (ذلك يحرق الظهر كالنار). كان هذا جوابهم جميعًا. وقد حاولت في أول الأمر أن أسأل مـ...كي، فقِال: (ذلك يحرق الظهر كالنار، كجحيم. يحس المرء أن عِلى ظهره

فُرنًا مُشتعلًا). لقد كانوا يُعبِرون بهذا عن كل شيء، ولاحظت في أحد الأيام ملاحظة غريبة لا أضمن صدقها ولا أكفل صِحتها، رغم أن رأي جميع السجناء يؤيدها، وهي أن عقوبة الجلد بالسوط أفظع أنواع التعذيب المستعملة في بلادنا. قد يبدو هذا في أول الأمر مُستحيلًا غير معقول. ومع ذلك فإن خمسمائة جلدة بالسوط وربما أربعمائة جلدة قد تكفي لقتل إنسان. حتى إذا تجاوز العدد خمسمائة أوشك الموت أن يكون مُحققًا. إن أقوى الناس جِسمًا وأصلبهم عودًا لا يقدر أن يحتمل ألف سوط، على حين أن المرء يستطيع أن يتلقى خمسمائة ضربة بالعصا من دون أن ينهار انهيارًا شديدًا، ومن دون أن يتعرض لخطر الموت. إن في وسع الرجل المتوسط القوة أن يحتمل ألف ضربة بالعصاء ولا يمكن لألفي ضربة بالعصا أن تقتل إنسانًا متوسط القوة سليم الجسم. لقد أكد جميع السجناء أن السوط أسوأ من العصا. كانوا يقولون: (إن السياط تكوي وتعذب أكثر من العصى). وإنه لأمر بديهي أن تكون السياط أشد تعذيبًا من العصى، فهي تُهيِّج الجهاز العصبي وتثيره إثارة قوية. لا أدري ألا يزال يوجد في أيامنا أناس من أولئك السادة (لكنني أعرف أنه كان يوجد منهم في زمن غير بعيد) الذين يجدون لذة عظيمة ومتعة كبيرة في جلد ضحية من الضحايا. إنهم يذكرون بالمركيز دو ساد وبالمركيزة برنفلييه ([35]). أحسب أن مرد هذه اللذة إلى اضطراب نفسي، وأن هؤلاء السادة لا بد أن يشعروا بلذة وألم في آن واحد. إن هناك أُناسًا هم كالنمور شراهةً إلى الدم، يحبون أن يلعقوه. إن الذين أوتوا سلطانًا لا حدود له على أجسام البشر ودمائهم وأرواحهم؛ الذين أوتوا هذا السلطان على من هم في شريعة المسيح إخوتهم؛ الذين شعروا بهذا السلطان وأمكنهم أن يذلوا ويمتهنوا ويحقروا إلى أقصى الحدود إنسانًا آخر خُلق على صورة اللّه... إن هؤلاء عاجزين عن كبح رغباتهم ومقاومة ظمئهم إلى معاناة الإحساسات الشديدة. ومشاعر الطغيان والاستبداد عادةً يمكن أن تستفحل وأن تتفاقم حتى تُسمى مع الزمن مرضًا، إني أؤكد أن خير إنسان في العالم يمكن أن يقسو قلبه وأن يتوحش طبعه إلى درجة لا يمكن معها تمييزه عن حيوان كاسر مفترس. إن الدم والسلطة يُسَّكران، ويُساعدان على نمو القسوة والفحش والفجور، فإذا الروح والعقل يُصَابَان بالشذوذ وإذا هما يجدان في أغرب الأمور عن الطبيعة الإنسانية السليمة لذات كبيرة. إن الإنسان والمواطن يختفيان إلى الأبد من نفس الطاغية المستبد، فتصبح العودة إلى الكرامة الإنسانية وتصبح الندامة والتوبة والإنبعاث الأخلاقي أمورًا يكاد يستحيل تحققها. أضف إلى ذلك أن هذه الإباحية يمكن أن تسري عدواها إلى المجتمع بأسره: إن مثل هذه السلطة مغرية، والمجتمع الذي ينظر إلى هذه الأشياء بغير اكتراث يكون قد أُصيب بهذه العدوى حتى بلغت منه النُخاع، وأقول بإيجاز: إن منح أحد الناس حق إنزال عقوبات جسمية في أقرانه هو

جرح من جروح المجتمع وهو أضمن وسيلة إلى قتل روح التعاطف مع الناس؛ وهذا الحق يضم عناصر انحلال وشيك لا مفر منه ولا معدى عنه.
والمجتمع يحتقر الجلاد المحترف لا (السيد الجلاد). لقد أراد بعضهم في الآونة الأخيرة أن يدعي نقيض ذلك، ولكن بطريقة نظرية لفظية، والذين عبروا عن هذا الرأي لم يكن قد اتسع وقتهم بعد لخنق غريزة السيطرة في نفوسهم. إن كل صاحب مصنع وكل مُقاول لا بد أن يكون قد شعر مِرارًا بنوع من الرضى الشديد والارتياح العظيم حين أحس أن عُمالًا عائلين هم رهن به وحده. أنا على يقين من أن جيلًا من الأجيال لا يستطيع أن يستأصل ما فيه من أمور موروثة، بمثل هذه السرعة. إن الإنسان لا يستطيع أن يتخلى عما يجري في دمه، عما رضعه مع حليب أمه. ليس يكفي أن يعترف المرء بذنبه، بخطيئته الأصلية... ذلك قليل، قليل جدًّا... وإنما ينبغي له أن يجتث هذه الخطيئة أيضًا، وذلك لا يتم بسرعة.
لقد تكلمت عن الجلاد. وإنني لأقول إن بذور غرائز الجلاد تكاد توجد في كل فرد من أفراد مجتمعنا المعاصر، ولكن غرائز الإنسان الحيوانية لا تنمو وحدها، فإذا خنقت هذه الغرائز جميع الملكات الأخرى أصبح الإنسان مخلوقًا مشوهًا كريهًا. فالجلادون نوعان: الجلادون بإرادتهم، والجلادون بحكم الواجب، بحكم الوظيفة. فأما الجلاد بإرادته فهو من جميع النواحي أحط من الجلاد المأجور الذي يثير مع ذلك كل هذا الاشمئزاز في نفوس الشعب، ويوقظ فيه تقززًا شديدًا وفزعًا لا شعوريًا يوشك أن يكون غيبيًا. فما مردّ هذا الكره الرهيب الخرافي الذي يشعر به الناس نحو الجلاد المحترف بينما هم يقفون من الجلاد بإرادته موقف من لا يحفل به ولا يكترث له بل يتسامح معه؟ إنني أعرف أمثلة غريبة على أناس شرفاء طيبين يقدر هم مجتمعهم ثم هم يجدون أن من الضروري أن يعول المحكوم عليه بالجلد إعوالًا شديدًا وأن يبتهل ويتضرع ويطلب الصفح والمغفرة. وذلك في نظرهم أمر مقبول، بل أمر لا بد منه. حتى إذا رفض المجلود أن يصرخ فإن الجالد الذي أعده في أي ظرف آخر إنسانًا طيبًا يرى في ذلك إهانة لشخصه. لقد كان لا يريد في أول الأمر إلا إنزال عقوبة خفيفة، لكنه منذ لم يسمع التوسلات والضراعات المألوفة المعتادة، كقول المجلود: (رحماك يا صاحب النبالة اشفق عليَّ وكن لي أبًا ودع لي أن أدعو لك اللّه طوال حياتي)، غلا حنقه واستشاط غيظه وأمر للمسكين بخمسين جلدة زيادة، آملًا أن يصل بذلك إلى سماع الصرخات والضراعات، وهو يصل إلى سماعها فِعلًا. قال لي واحد من هؤلاء ذات يوم بكثير من الجد: (مستحيل بغير ذلك. إنه وقح مسرف في الوقاحة). أما الجلاد بحكم الواجب فإنه منفي من المنفيين عهد إليه أن يقوم بهذه الوظيفة. إنه يتعلم هذه المهنة من جلاد قديم، حتى إذا أتقنها ظل طوال حياته في السجن قاطنًا في مكان على حدة. إن له غرفة لا يقاسمه إياها أحد، حتى لقد يكون له في بعض الأحيان مسكن خاص، ولكنه يظل مخفِورًا طوال الوقت على وجب

التقريب. وليس الإنسان بآلة. فهذا الجلاد، رغم أنه يجلد بحكم الواجب يعصف به الغضب أحيانًا، ويشعر حين الجلد بشيء من اللذة. ولكنه لا يحمل لضحيته أي كره. إن رغبته في إظهار براعته وحذقه، وإبراز علمه وفنّه تستحث غروره وتشحذ كبرياءه وتحرض حبه لنفسه؛ إنه يعمل للفن. وهو يعلم حق العلم أنه إنسان مكروه، وأنه يثير في كل مكان رُعبًا خُرافيًا، فيستحيل أن لا يكون لهذا الظرف تأثير فيه، وأن لا توقظ هذه الظروف غرائزه البهيمية. إن الأطفال أنفسهم يعرفون أن هذا الرجل قد استغنى عن أمه وأبيه... شيء غريب: إن جميع الجلادين الذين عرفتهم كانوا أُناسًا على جانب من الذكاء والفهم، وكانوا أُناسًا مفرطين في كبريائهم وحبِّهم لأنفسهم. إن الصلف ينمو لديهم نتيجة للاحتقار الذي يلقونه في كل مكان ولعله يشتد ويقوى من شعورهم بالخوف الذي يوقظونه في نفوس ضحاياهم، وبالسلطان الذي يملكونه على هؤلاء الأشقياء. ولعل الإخراج المسرحي لقيامهم بوظائفهم العامة هذه يسهم في نفخهم بشيء من الغرور. لقد أُتيح لي خلال مدة من الزمن أن ألقى وأن ألاحظ واحدًا من هؤلاء الجلادين. كان رجلًا في الأربعين من عمره متوسط القامة قوي العضلات جافًا له وجه لطيف ذكي يعلوه شعر مضفور. إنه رزين وقور هادئ مسالم يشبه مظهره أن يكون مظهر شريف من الأشراف. كان يجيب عن الأسئلة التي تلقى عليه إجابات فيها فهم وتعقل وفيها وضوح وجلاء غير أن فيها نوعًا من إظهار التواضع كأنه يتنازل لمحدثه عن شيء من الأشياء، كان ضباط الحرس يخاطبونه بشيء من الاحترام، وكان هو يلاحظ ذلك ويدركه حق الإدراك؛ ولهذا كان أمام رؤسائه يضاعف تأدبه وحديثه ورزانته. وكلما تودد إليه هؤلاء مزيدًا من التودد، ازداد هو تكبرًا، من دون أن يفقد مع ذلك تأدبه المرهف. إني لعلى ثقة من أنه كان في تلك اللحظات يُعد نفسه فوق مخاطبيه كثيرًا فلا مجال للمقارنة بينه وبينه. ذلك يُقرأ في وجهه، كان هذا الرجل يكلَّف أحيانًا، في فصل الصيف، أثناء الحر الشديد، بقتل كلاب المدينة، فيرسل إلى المدينة مخفورًا ليقتل هذه الكلاب برمح طويل مسنون. كانت هذه الكلاب تتكاثر بسرعة هائلة وتصبح خطرة في فترة القيظ، فكان الجلاد مُكلفًا بقتلها بقرار من السلطات. إن هذه الوظيفة الحقيرة لم تشعره بشيء من الضعة قط. ليتك رأيت ذلك الوقار الذي كان يبدو في وجهه حين كان يطوف شوارع المدينة مع حارسه المتعب المكدود المرهق، وليتك رأيت كيف كان يخيف النساء ويروِّع الأطفال بنظرة واحدة، وكيف كان يُلقي على المارَّة نظرات استعلاء وعظمة!

والجلادون يعيشون في بحبوحة، فهم يملكون مالًا، ويقومون برحلات مريحة ويشربون خمرًا. وهم يستمدون مواردهم هذه من الرشوات التي يدسها في أيديهم أهل اليسار من المسجونين المدنيين؛ والجلادون هم الذي يحددون مقدار الرشوة تبعًا لما يملكه السجين من غنى، فربما ثلاثين روبلًا وربما طلبوا أكثر من ذلك. صحيح أن الجلاد لا يملك حق الرأفة بالمجلود، وإلا كان

يعرض ظهره هو للجلد؛ ولكنه يتعهد، لقاء رشوة مناسبة، أن لا يسرف في القسوة أثناء الجلد. والسجناء يستجيبون لمطالبه في جميع الأحيان تقريبًا، لأنهم إذا رفضوا الاستجابة لها عمد في ضربهم إلى وحشية رهيبة، وذلك أمر يملكه. حتى لقد يتفق أن يطلب مبلغًا ضخمًا من سجين فقير جدًّا. وعندئذٍ ترى جميع أقرباء السجين يتحركون، فهم يساومون الجلاد، ويستعطفونه ويتوسلون إليه. وويل لهم إن لم يستطيعوا أن يرضوه: إن الخوف الخرافي الذي يثيره الجلادون في النفوس يفيد الجلادين كثيرًا. لقد حدثني بعض الناس أن في هؤلاء الجلادين وحشية رهيبة. حتى لقد أكد لي السجناء أن في وسع الجلاد أن يُجهز على الضحية بضربة واحدة. أهذه حقيقة مستمدة من تجربة؟ ربما!... من يدري!... إن لهجة الذين ذكروا لي ذلك كان فيها من قوة التأكيد والحزم ما يجعلني أستبعد أن لا يكون في الأمر حقيقة مستمدة من تجربة، وقد أكد لي الجلاد نفسه أنه في وسعه أن يفعل ذلك، وذكر لي بعضهم أيضًا أن في وسع الجلاد أن يحتال فإذا هو يهوي على ظهر المجلود بضربة قوية لا تشعر المجلود بأي ألم ولا تخلف فيه أذى. ولكن حين يكون الجلاد قد تناول رشوة في سبيل أن لا يسرف في شدة الضرب فإن الضربة الأولى التي ينزلها في المجلود تكون في العادة قوية جدًّا. تلك سُنة لا تتبدل، وبعد تلك الضربة الأولى التي لا بد أن تكون قوية ينزل الجلاد في المجلود ضربات أقل قوة، لا سيما إذا كان قد تقاضى رشوة مرضية. لا أدري لماذا يفعل الجلادون ذلك: أهم يفعلونه من أجل أن يهيئوا المجلود لاحتمال الضربات التالية التي ستظهر له أخف وطأة وأيسر ألمًا متى كانت الضربة الأولى قاسية، أم هم يفعلون ذلك لإرهاب المجلود بغية أن يعرف شدة بأسهم وفرط سطوتهم؟ أتراهم يريدون أن يبرهنوا على قوتهم وأن يستمدوا من ذلك زهوًا وافتخارًا؟ مهما يكن من أمر فإن الجلاد يكون قبل إنفاذ مهمته مُهتاجًا بعض الاهتياج؛ إنه يشعر بقوته وسطوته هو في تلك اللحظة ممثلٍ أمام جمهور، والجمهور يعجب به ويخاف منه. لذلك تراه يصيح بضحيته قائلاً في غير قليل من الرضى والزهو: (استعد... لتسلخنك الضربة سلخًا). تلك كلمات معتادة تسبق الضربة الأولى. ألا أنه من الصعب على المرء أن يتصور مدى ما يمكن أن ينحدر إليه إنسان من تشوه!

كنت في الأيام الأولى من إقامتي في المستشفى أُصغي بانتباه إلى هذه الحكايات التي يرويها السجناء فيقطعون بها رتابة الأيام الطويلة التي يقضونها راقدين على مضاجعهم، والتي تجري متشابهة على وتيرة واحدة. وكانت الجولة التي يقوم بها الأطباء سلوة لنا وفرجة. وبعد جولة الأطباء يحين وقت الغداء. لا شك أنك تقدر أن الطعام أمر أساسي في حياتنا الرتيبة التي تنقضي ساعاتها مطردة رتيبة. إن وجبات الطعام التي تُقدَّم للمرضى تختلف باختلاف طبيعة الأمراض: فبعض السجناء لا يُعطون إلا حساء، وبعضهم لا يُعطون إلا بقولاً؛ ومنهم من يعطى برغلًا... وذلك طعامٌ له عشاق كثيرون. وكان السجناء

يترهّلون مع الزمن ويصبحون ذواقين متأنقين في شؤون الطعام. وكان الناقهون يُعطون قطعة من لحم مسلوق أو من (بقر) على حد تعبير رفاقي، وكان خير الطعام ما يُقدم للمرضى المصابين بداء الأسقربوط: كان هؤلاء يعطون لحمًا مقليًا مع البصل والفجل وربما أعطوا في بعض الأحيان شيئًا من خمر. والخبز يكون أسود أو أسمر تبعًا لنوع المرض، ولكنه حسن النضج في جميع الأحوال. وكانت هذه الدقة التي يلتزمها المستشفى في توزيع وجبات الطعام تُضحك المرضى: لقد كان بين المرضى من لا يكاد يأكل شيئًا من قلة شهوته إلى الطعام، وكان بينهم أُناس شرهون شراهة قوية؛ فكان بعضهم يتبادل الوجبات الموزعة، فإذا الطعام المخصص لأحدهم يمضي إلى شخص آخر دائمًا. والذين فرضت عليهم الحمية من بينهم فلا يعطون إلا وجبة خفيفة، كانوا يشترون من المصابين بداء الأسقربوط لحمًا، ويحصلون على شيء من شراب "الكفاس" أو من بيرة المستشفى من المرضى الذين كانوا يعطون شرابًا. كان بعض السجناء يأكل وجبة مضاعفة، وكانت الوجبات تُباع بمال واللحم أغلى المآكل سِعرًا، حتى لقد تباع القطعة منه بخمسة كوبكات. فإذا لم يوجد في قاعتنا من يحب أن يبيع نصيبه أرسل المراقب إلى القاعة الثانية يسأل عن بائع، فإذا لم يجد شيئًا في القاعة الثانية مضى إلى قاعة الجنود، أي إلى قاعة (الأحرار) كما كنا نسميهم نحن. كان يوجد دائما مرضى يسرهم أن يبيعوا نصيبهم من الطعام. وكان الفقر عامًا شاملًا، لكن الذين يملكون بضع دريهمات كانوا يرسلون من يشتري لهم من السوق خُبزًا أبيض أو حلوى، وكان الحراس يشترون لهم ما يشاءون غير طامعين في أي نفع.

وكانت أقسى فترة من النهار هي الفترة التي تعقب الغداء. كان بعض السجناء ينامون إذا لم يكن ثمة ما يعملونه، وكان بعضهم الآخر يثرثرون أو يشتجرون أو يتبادلون الأحاديث بصوت عالٍ. فإذا لم يؤت إلى القاعة بمرضى جدد أصبح الضجر ثقيلًا لا يُحتمل ولا يُطاق، حتى إذا جيء بمريض جديد تحركت القاعة واضطربت، ولا سيما إذا كان لا يعرفه أحد من السجناء الراقدين فيها، فهم الآن يتفرّسون فيه ويحاولون أن يعرفوا من هو ومن أين جاء وما الذي أتى به إلى السجن. وكان المرضى العابرون هم الذين يثيرون الانتباه ويوقظون حب الاطلاع أكثر من غيرهم، فلقد كان هؤلاء يملكون دائمًا ما يقصونه على السجناء. طبيعي أنهم كانوا لا يتكلمون عن شؤونهم الخاصة، وإذا لم يشرعوا في حديث عن شؤونهم الخاصة من تلقاء أنفسهم، لم يسألهم أحد في ذلك، وإنما تلقى على أحدهم أسئلة من نوع: (من أين جئت؟ مع من جئت؟ أي طريق سلكت؟ إلى أين تذهب؟) إلخ... وكان رفاقنا حين يسمعون ما يقصه القادمون الجدد يتذكرون الأحداث التي مرت بهم، فيأخذون يقصون هم أيضًا ما رأوا وما عملوا، متحدثين خاصةً عن القوافل والرؤساء والمراقبين والحراس وما إلى ذلك. وفي تلك الفترة أيضًا، قبيل المساء، كان يؤتى بالسجناء الذين تم جلدهم. سبق أنِ قلت إن ظهور هؤلاء

المجلودين كان يوقظ الانتباه ويشحذ الاهتمام ويُحْدِثُ أثرًا في النفوس، ولكن كان لا يؤتى بمجلودين في كل يوم، فكنا نشعر بضجر رهيب وسآمة قاتلة حين لا يحدث ما يُخرجنا من الخمول ويخلصنا من الكسل، فإذا المرضى عندئذٍ كأنما يحنق كل منهم أن يرى جاره، وإذا هم في بعض الأحيان يختصمون ويشتجرون. وكان يبهج سجناءنا ويفرحهم أن يؤتى إلى الفحص الطبي بمجنون؛ وكان السجناء الذين يحكم عليهم بالجلد يتظاهرون أحيانًا بالجنون، أملًا في العفو عنهم، فكانت حيلتهم تُفضح، أو كانوا يُقررون من تلقاء أنفسهم أن يعدلوا عنها، فإذا هم بعد أن ظلوا خلال يومين أو ثلاثة يقومون بأعمال شاذة غريبة يصبحون على حين فجأة أُناسًا عقلاء جدًّا، وإذا هم يهدأون ويطلبون الخروج من المستشفى وقد أظلمت وجوههم؛ ولم يكن أحد لا من بين السجناء ولا من بين الأطباء يعيب عليهم حيلتهم أو يذكرهم بجنونهم وإنما كانت تُسجل أسماؤهم في صمت ويُقادون في صمت، فما هي إلا بضعة أيام حتى يعودوا إلينا وقد دميت ظهورهم. على أن الحالات التي من هذا القبيل كانت نادرة، وفي مقابل ذلك كان وصول مجنون حقيقي كارثة تنزل على القاعة؛ فإذا كان المجنون مرحًا فرحًا نشيط الحركة يصرخ ويرقص ويُغني استقبله السجناء في أول الأمر بحماسة قائلين وهم ينظرون إلى تصعيراته وتكشيراته وتلوياته: (سيكون هذا مسليًا)... ولكن المنظر أليم محزن رهيب. إنني لم أستطع في يوم من الأيام أن أنظر إلى المجانين مُحافظًا على هدوئي، وها هي ذي تصعيرات المجنون المستمرة وحركاته المضطربة ما تلبث بعد يومين أو ثلاثة أن تثقل على السجناء فيضيقون بها ويتململون منها. لقد احتفظ في قاعتنا بأحد المجانين مدة ثلاثة أسابيع فاصبحنا لا نعرف أين نختبئ. وإنا لكذلك إذا بهم يجيئوننا بمجنون ثانٍ أحدث وصوله في نفسي تأثيرًا شديدًا. حدث ذلك في السنة الثالثة من سجني. كنت في السنة الأولى من إقامتي بالسجن أو ربما في الأشهر الأولى - فقد وقع ذلك في الربيع - وقد ذهبت إلى الشغل مع جماعة من السجناء صُنَّاع الآجر لأعمل معهم معاونًا؛ ذهبت مع تلك الجماعة إلى ورشة لصنع القرميد. كان ينبغي لنا أن نصلح فرنها إعدادًا لأشغال الصيف. وكان مـ...كي و "ب" قد عرَّفاني في ذلك الصباح بمراقبنا العريف أوستروسكي. إنه بولندي في نحو الستين من عمره، طويل القامة نحيل الجسم حسن الهيئة بل وقور مهيب. إنه يعمل جنديًا في سيبيريا منذ زمن طويل جدًّا، وكان مـ...كي و "ب" ([36]) يحبانه ويقدرانه رغم أنه ينتمي إلى الطبقة الدنيا من الشعب (إنه من عصاة سنة 1830)؛ وكان يُرى في جميع الأحيان عاكفًا على التوراة مُستغرقًا في قراءتها. تحدثت إليه، فرأيت في كلامه تعقلًا ورأيت فيه لطفًا. وكانت له في سرد القصص طريقة شائقة، وكان شريف النفس طيب القلب. ثم لم أره بعد ذلك خلال سنتين، ولكنني سمعت أنه رهن التحقيق، ثم جيء به ذات يوم إلى قاعتنا: كان قد جنّ. دخل علينا

صائحًا ضاجًا مقهقهًا، وطفق يرقص في وسط الغرفة وهو يُجري حركات بذيئة تُذكِر بالرقصة التي تسمى كامارنسكايا... ابتهج السجناء وتحمسوا... أما أنا فشعرت بحزن شديد، لا أدري لماذا! وبعد ثلاثة أيام أصبحنا لا نعرف ماذا نصنع: إنه يُشاجر الناس ويقتتل معهم، ويئن، ويُغني في وسط الليل، ثم أصبحت أقواله المقززة تثير فينا الغثيان... كان لا يخشى أحدًا... وقد قيد بالأغلال عنوة، ولكن وضعنا لم يتحسن مع ذلك، لأنه ظل يشتجر ويقتتل مع جميع الناس. وبعد ثلاثة أسابيع أجمعت القاعة كلها على أن تضرع إلى رئيس الأطباء أن ينقله إلى القاعة الثانية المخصصة للسجناء. ولكن ما إن انقضى يومان حتى أُعيد إلى قاعتنا تلبية لطلب المرضى الذين كانوا في القاعة الثانية. وإذ كان هناك مجنونان في آن واحد، كلاهما يحب المشاجرة ويثير القلق، فقد أصبحت كل قاعة من القاعتين ترسل مجنونها إلى الأخرى، ثم انتهت القاعتان إلى تبادل مجنونيهما. ولكن الثاني كان أسوأ من الأول. وقد تنفس جميع المرضى الصعداء حين نُقل المجنونان لا ندري إلى أين...

وما زلت أتذكر مجنونًا ثالثًا غريبًا كل الغرابة. في ذات يوم من أيام الصيف جيء إلى قاعتنا برجل يظهر عليه أنه قوي البنية شجاع، إنه في الخامسة والأربعين من عمره. كان وجهه مُظلمًا حزينًا قد شوهته بثور الجدري، له عينان حمراوان محتقنتان احتقانًا شديدًا. جلس الرجل إلى جانبي. إنه وديع هادئ مسالم، لم يُخاطب أحدًا، فهو دائم التفكير في شيء ما كان يشغل باله. فلما هبط الليل اتجه إليَّ بالكلام دون تمهيد وراح يقول لي، وقد ظهر عليه أنه يفضي إليَّ بسر كبير، إن عليه أن يُضرب في الغداة ألفي ضربة بالعصا، ولكنه ليس خائفًا، لأن ابنة الكولونيل جـ... تقوم بمساعٍ في سبيله. فنظرت إليه مدهوشًا وأجبته بأن حالة كهذه الحالة لا يمكن أن تنفع فيها شفاعة ابنة كولونيل، في رأيي... لم أكن قد أدركت بعد أن الرجل الذي أحدثه مجنون، ذلك أنهم قد جاءوا به إلى المستشفى مريض جسم لا مريض عقل. وسألته عندئذٍ عن مرضه، فقال إنه لا يعرف عنه شيئًا، ولكن صحته جيدة، وإن ابنة الكولونيل قد وقعت في غرامه، ذلك أنها قد مرت بمركز الحرس منذ أسبوعين، بينما كان هو ينظر من خلال القضبان الحديدية، فما أن رأته حتى هامت بحبه. ومنذ تلك اللحظة جاءت إلى مركز الحرس ثلاث مرات منتحلة أعذارًا شتى: ففي المرة الأولى جاءت مع أبيها بحجة أنها تريد أن ترى أخاها الذي كان ضابطًا مُناوبًا، وفي المرة الثانية جاءت مع أمها بحجة توزيع صدقات على السجناء، فلما مرت أمامه همست تقول له إنها تحبه وإنها ستخرجه من السجن. روى لي هذه السخافة ذاكرًا تفاصيل دقيقة كثيرة، وكانت القصة كلها من اختراع عقله المختل. كان يؤمن إيمانًا كاملًا بأنه سيُعفى من العقوبة؛ وكان يتكلم بكثير من الهدوء والثقة عن الحب الملتهب الذي تضمره له تلك الآنسة. إن هذا الاختراع الخيالي الغريب، وهو أن تحب فتاة راقية رجلًا في نحو الخمسين من عمره دميمًا هذه الدمامة متجهمًا هذا التجهم مشوهًا هذا

التشوه، يدلنا دلالة واضحة على مدى الفزع الذي أثارته العقوبة في نفس هذا الإنسان الوجل. لعله قد رأى أحدًا من بين القضبان حقًّا، فإذا بالجنون الذي بذره الخوف المتعاظم في نفسه يأخذ عندئذٍ شكله، وإذا بهذا الجندي الشقي الذي لعله لم يفكر يومًا في الآنسات، يخترع روايته هذه على الفور، ثم إذا به يتشبث بهذا الأمل تشبث الغريق بقشة. أصغيت إلى كلامه صامتًا، ثم رويت القصة للسجناء الآخرين. فلما سأله هؤلاء عن حقيقة الأمر مستطلعين مدهوشين لزم الصمت ولم يُجب بشيء؛ واستجوبه الطبيب من الغد فأكد له المجنون أنه ليس بمريض، وإذ لم يكشف الفحص عن وجود مرض فيه، سجل الطبيب على بطاقته أنه صالح لمغادرة المستشفى. ولم نعلم بأن الطبيب قد كتب على البطاقة كلمة (مُعافى) إلا بعد خروجه، فلم نستطع أن نقول له شيئًا. ثم إننا نحن أيضًا لم نكن نعرف ما به على وجه الدقة، فإنما الذنب ذنب الإدارة التي أرسلته إلينا من دون أن تشير إلى السبب الذي أُرسل من أجله إلى المستشفى. لقد ارتكبت الإدارة بذلك إهمالًا لا يُغتفر. إن الذين أمروا بنقل المريض إلى المستشفى لا بد أن يكونوا قد لاحظوا عليه شيئًا ما، ما داموا قد أرادوا أن يوضع المسكين تحت المراقبة. مهما يكن من أمر فقد اقتيد بعد يومين للجلد. ويظهر أنه قد بُهِتَ لهذا العقاب الذي لم يكن في حسبانه، فقد كان إلى آخر لحظة يعتقد أنه سيحظى بعفو، فلما جُعِلَ أمام صف الجنود طفق يصرخ مستجيرًا مستنجدًا. ولم يعيدوه في هذه المرة إلى قاعتنا التي لم يكن فيها سرير خالٍ، وإنما أخذوه إلى القاعة الأخرى. وقد سألت عنه فعلمت أنه ظل خلال ثمانية أيام لا ينطق بكلمة واحدة من شدة شعوره بالخجل والحزن... فلما شُفيَّ ظهره أرسلوه لا أدري إلى أين، ثم لم أسمع عنه شيئًا بعد ذلك قط.

فيما يتعلق بالعلاج والأدوية، أستطيع أن أقول إذا صدق حكمي إن أولئك الذين لم يكن بهم مرض خطير كانوا لا يكادون يتبعون أبدًا أوامر الأطباء ولا يتجرعون أدويتهم، على حين أن المصابين بأمراض ذات بال كانوا يحبون أن يُعالجوا أنفسهم، فهم يتناولون أدويتهم شرابًا وسفوفًا بانتظام، مع إيثارهم المعالجات الخارجية. كانوا يصبرون على الحِجامة والعلق والفصد واللبائخ ويشعرون من احتمالها بشيء من اللذة، فإلى هذا الحد يؤمن الشعب إيمانًا أعمى بهذه الأنواع من المداواة. وقد لفت نظري وأثار اهتمامي أمر آخر: إن بعض الناس الذين كانوا يصبرون صبرًا جميلًا على آلام العصي والسياط الكريهة كانوا يعضون على شفاههم ويئنون حين تُجرى لهم حجامة بسيطة. أتراهم قد ألفوا الدلال أم تراهم يمثلون تمثيلًا؟ يجب أن نعترف أن الحجامة في مستشفانا كانت تتم بطريقة خاصة، ففي عهد لا يتذكره الآن أحد، تَلُفَت الآلة التي يُشق بها الجلد فورًا - أتلفها الممرض أو تَلُفَت من تلقاء نفسها - فأصبح لا بد من الاستغناء عنها بالمبضع. إن حجامة واحدة تحتاج أن يحز الجلد اثنتي عشر حزة. وهذه الحزات لا تؤلم كثيرًا إذا تم إجراؤها بالآلة، فإن للآلة

اثنتي عشرة شفرة تشق الجلد دفعة واحدة قبل أن يتسع الوقت للشعور بالألم. ولا كذلك المبضع الذي يشرط الجلد ببطء ويُحدث ألمًا كبيرًا. فإذا احتاج المريض إلى الحجامة عشر مرات مثلًا، كان ينبغي أن يحز جلده مئة وعشرين حزة على التوالي. ولا بد أن يصبح هذا شاقًا أليمًا؛ ولقد عانيته بنفسي، فلاحظت أنه مزعج حقًّا، ولكنه ليس مُزعجًا إلى الحد الذي يستحيل معه على المرء أن يمسك عن التوجع والأنين. لا شيء أبعث على الضحك من رؤية رجال أقوياء يتشكون ويتفجعون ويتلوون على هذا النحو. ألا إن في وسع المرء أن يشبههم بأولئك الرجال الذين لا يهزهم انفعال في شأن من الشؤون الخطيرة ثم إذا هم في بيوتهم أصحاب نزوات، لا يكفون عن الشكاة والشجار لأتفه الأمور، يرفضون ما يقدَّم إليهم من طعام، ويؤنبون ويقرعون وينهرون، ويعدون كل شيء معوجًا مقلوبًا، وتغضبهم وتهينهم وتعذبهم أيسر الترهات، فكأن فرط الشحم قد أبطرهم كما تقول العامة. إن أصحاب هذه الطباع كثيرون في السجن، بسبب الإقامة المشتركة الإجبارية. ولقد كان السجناء يأخذون في التندر على البطر من هؤلاء البطرين، أو يكتفون بإغراقه بسيل من الشتائم، فإذا هو عندئذٍ يسكت كأنه كان لا ينتظر إلا ذلك حتى يلزم الصمت. وكان أوستيانتسيف خاصة يكره التصعيرات والتشكيات، فلا تعرض فرصة من الفرص إلا وينتهزها للتهجم على أصحاب الجلد الرقيق هؤلاء؛ ثم إنه كان لا ينسى قط أن يرد الناس إلى إلتزام النظام واتباع الأصول. تلك حاجة لديه ولدها المرض كما ولدها الغباء. فكثيرًا ما كان يتفق له أن ينظر إليك مُحدقًا، ثم يأخذ يلقنك الدرس بصوت هادئ مقتنع. وكان يبلغ من إجادة التقريع أن المرء يمكن أن يحسب أنه مكلف بالإشراف على استتباب النظام.
كان السجناء يقولون عنه ضاحكين: - لا بد أن يدس أنفه في كل شيء!...
ولكن السجناء كانوا يتحاشونه ويتجنبون أن يتشاجروا معه ولا يسمحون لأنفسهم بأكثر من سخرية خفيفة، بين الفينة والفينة.
- ما أكثر ما يتوجع! إنك لتستطيع أن تملأ بشكاواه ثلاث عربات!
- إن المرء يضيع لعابه سدى مع أبله كهذا الأبله. ضربة واحدة بالمبضع تجعله يجأر... هلَّا صبر قليلًا! بعد الحرِّ يأتي البرد...
- ما شأنكم أنتم آخر الأمر؟
هكذا جرى الحديث ذات مرة، فإذا بواحد من السجناء يُقاطع الآخرين قائلًا على حين فجأة: - لا يا أبنائي! ليست الحجامة شيئًا ذا بال... لقد جربتها... وإنما أصعب التعذيب أن تُشدَّ الأذن مدة طويلة...
فانفجر الجميع مقهقهين.
- فهل شُدَّت أذناك مدة طويلة ذلك الطول كله؟
- طبعًا.
- أفبسبب هذا تنتصبان إذن عاليتين هذا العلو؟

إن هذا السجين، واسمه شابكين، كانت له أذنان طويلتان منتصبتان حقًّا. إنه متشرد قديم ما يزال شابًا، وهو ذكي هادئ، يتكلم مازحًا، ولكن مزاحه اللطيف يختفي تحت مظهر من الجد، فيضفي ذلك على أقاصيصه الكثير من الفكاهة والهزل.

وهذا أوستيانتسيف ينهض واقفًا ويستأنف كلامه مستاءً فيقول: - كيف أستطيع أن أعرف أن أذنك قد شدّت أيها الغبي؟

اتجه أوستيانتسيف إلى شابكين رغم أن شابكين كان يخاطب الجميع. ولكن شابكين لم يرضَ أن يأبه له أو أن يلتفت إليه.

سأله أحدهم:

- من الذي شد أُذنيك؟

- من الذي شد أذني؟ رئيس الشرطة يا عزيزي، بسبب التشرد أيها الرفاق. كنا قد وصلنا إلى مدينة ك... أنا ومتشرد آخر اسمه أفيم (هذا هو اسمه كله فإنه لم يكن له اسم أسرة). كنا قد استطعنا أثناء الطريق أن نسطو على شيء عند فلاح في قرية تولمينا... نعم توجد قرية تسمى هكذا... تولمينا... فلما وصلنا إلى المدينة، أخذنا ننظر حولنا عسى نستطيع أن نضرب ضربة ثم نهرب. إن الإنسان في الحقول حر كالهواء، وليس كذلك في المدينة... دخلنا أولًا إلى خمارة... ألقينا نظرة ونحن نفتح الباب... هذا فتى يُقبل علينا... إنه يرتدي رداءً ألمانيًا مثقبَ الكمين عند الكوعين... تكلمنا في أمور شتى... قال لنا: - هل عندكما أوراق؟ ([37]) - لا... ليس عندنا أوراق.

ونحن أيضًا ليس عندنا أوراق. إن معي رفيقين يعملان في خدمة الجنرال (وقواق)... ([38]) لقد أنفقنا كثيرًا فلم يبق معنا قرش واحد، فهل لي أن أسألكما أن تطلبا لنا لترًا من الخمر؟

أجبناه:

- على الرحب والسعة...

شربنا معًا. دلونا عندئذٍ على مكان نستطيع أن نضرب فيه ضربة طيبة. هو بيت في آخر المدينة، يملكه غني من الأغنياء. في البيت أشياء كثيرة. قررنا أن نقتحم البيت في الليل، فما إن حاولنا أن نفعل ذلك نحن الخمسة. حتى قبضوا علينا واقتادونا إلى المركز ثم إلى رئيس الشرطة.

قال رئيس الشرطة:

- سأستجوبكم بنفسي.

وأخرج غليونه وجيء له بفنجان من الشاي. إنه فتى قوي الجسم على عارضيه لحيتان جميلتان. جلس رئيس الشرطة. كان هناك، عدانا نحن الخمسة، ثلاثة متشردين آخرون اقتيدوا إلى مركز الشرطة منذ قليل. غريب أمر المتشرد يا رفاق! إنه ينسى كل ما يعمل؛ ولو هويت على رأسه بهراوة غليظة لأجابك مع ذلك بأنه لا يعرف شيئًا وبأنه نسي كل شيء.

إلتفتَ رئيس الشرطة نحوي وسألني بلهجة حازمة: - من أنت؟
فأجبته بما يجيب به جميع المتشردين. قلت له: - لا أتذكر شيئًا يا صاحب النبالة.
قال:
- انتظر! إن لي معك لحديثًا! أنا أعرف هذا الوجه.
وأخذ يتفرسني مُحدقًا. لم أكن قد رأيته مع ذلك في أي مكان واتجه إلى الثاني يسأله: - ما اسمك؟
- اسمي يا صاحب النبالة هو (اذهب من هنا).
- اسمك "اذهب من هنا"؟
- هكذا يسمونني يا صاحب النبالة!
- طيب... أنت اسمك "اذهب من هنا" وأنت؟
كذلك سأل الثالث فأجابه: - اسمي يا صاحب النبالة (معه).
- ولكن ما اسمك؟
- اسمي يا صاحب النبالة "معه".
- من سماك بهذا الاسم يا وغد؟
- أناس طيبون يا صاحب النبالة ما أكثر الناس الطيبين على هذه الأرض! صاحب النبالة يعرف هذا حق المعرفة...
- ولكن من هم هؤلاء الناس الطيبون؟
- نسيت قليلًا يا صاحب النبالة! كن كريمًا فاغفر لي هذا النسيان!
- إذن نسيتهم جميعًا هؤلاء الناس الطيبين؟
- جميعًا يا صاحب النبالة.
- لقد كان لك مع ذلك أهل. كان لك أب وأم فهل تتذكرهما؟
- لا بد أنه قد كان لي أهل يا صاحب النبالة. ولكنني نسيت هذا أيضًا!... ربما كان لي في الماضي أهل يا صاحب النبالة.
- ولكن أين عشت حتى الآن؟
- في الغابة يا صاحب النبالة!
- دائمًا في الغابة؟
- دائمًا في الغابة.
- وفي الشتاء؟
- ليس لي شتاء يا صاحب النبالة.
- طيب وأنت ما اسمك؟
- اسمي "الفأس" يا صاحب النبالة.
- وأنت؟
- "المِسنُّ" يا صاحب النبالة.
- وأنت؟
- اسمي يا صاحب النبالة "اخرج ولا تخف".

- ونسيتم جميعًا كل شيء؟
- كل شيء.
ويأخذ رئيس الشرطة في الضحك واقفًا، ويأخذ الآخرون في الضحك متى رأوه يضحك. غير أن الأمور لا تجري دائمًا على هذه الصورة، فربما انهالوا عليك أحيانًا بقبضات أيديهم يضربونك ضربًا يكسر أسنانك، ما أقواهم وما أسمنهم هؤلاء الرجال!...
قال رئيس الشرطة:
- خذوهم إلى السجن... سأهتم بهم فيما بعد.
وأضاف يقول لي:
- أما أنت فابق اجلس هناك!...
نظرت فرأيت ورقًا وريشة وحِبرًا. قلت لنفسي: (ما عساه يريد أن يعمل أيضًا؟..).
كرر يقول لي:
- اجلس أمسك الريشة واكتب!
وها هو ذا يقبض على أذني ويشدها. نظرت إليه كما ينظر الشيطان إلى كاهن، وقلت له: - لا أعرف الكتابة يا صاحب النبالة!
فقال:
- اكتب.
قلت:
- رُحماك يا صاحب النبالة!
قال:
- اكتب كما تستطيع! اكتب!
وظل يشد أذني، يشدها ويعقفها. آه يا رفاق! لو خُيرت بين شد الأذن هذا وبين تلقي ثلاثمائة جلدة لآثرت الثانية. عذاب كعذاب جهنم! وظل يقول لي: اكتب!...
سأل السجناء صاحبهم شابكين: - أتراه جن؟
فأجاب شابكين:
- لا يا أصحابي! إن أحد الموظفين كان قبل ذلك بزمن يسير قد ضرب ضربة في مدينة توبولسك.. سرق صندوق الحكومة وفر بالمال! كان له هو أيضًا أُذنان طويلتان. وقد أبلغت جميع مراكز الشرطة النبأ فكانت أوصافي تتفق وأوصاف السارق! ذلكم هو السبب في أنه عذبني ذلك التعذيب بقوله: اكتب! أراد أن يعرف هل كنت أُحسن الكتابة وكيف كانت كتابتي...
صاح أحد السجناء يقول: - يا للماكر! هل أوجعك؟
- لا تذكِّروني.
وانفجر الجميع يقهقهون. سأل أحدهم: - وهل كتبت؟

ماذا كان في وسعي أن أكتب؟ لقد أجريت قلمي على الورق فما زلت أجريه حتى كف عن تعذيبي: انهال عليَّ بدستة من الصفعات الممتازة ثم تركني أذهب... إلى السجن طبعًا.

- وهل تحسن الكتابة حقًّا؟

- نعم كنت أحسن الكتابة. كيف لا؟ ولكنني منذ استعملت الأقلام نسيت نسيانًا تامًا!...

تلكم هي الحكايات أو قولوا الثرثرات التي كنا نقتل بها الوقت. رباه! يا له من ضجر رهيب! يا له من سأم مُميت! كانت الأيام طويلة خانقة رتيبة! كانت متشابهة تشابهًا فظيعًا ليتني كنت أملك كِتابًا على الأقل! ومع ذلك كنت أذهب إلى المستشفى أحيانًا كثيرة، ولا سيما في بداية عهدي بالسجن، إما عن مرض وإما نشدانًا للراحة وابتغاء للخروج من السجن. كانت الحياة في السجن أليمة، كانت أشد إيلامًا من الحياة في المستشفى، ولا سيما من الناحية النفسية. في السجن كانت تُقابلني دائمًا تلك البغضاء وتلك العداوة وتلك الرغبة في المشاجرة والاستفزاز والتحدي التي تتأجج في نفوس السجناء حين يروننا نحن النبلاء... كنت أرى دائمًا تلك الوجوه المهدِّدة المتوعدة الكارهة المبغضة. أما في المستشفى فنحن نعيش على الأقل رِفاقًا متساوين. وكانت الأمسيات وبدايات الليل أقسى لحظات اليوم. كنا نرقد في ساعة مبكرة... هذا سراج أدخن تهتز أشعته في آخر القاعة قرب الباب كنقطة ساطعة، ونحن في ركننا غارقون في ظلمة توشك أن تكون تامة. الهواء فاسد موبوء خانق. بعض المرضى لا يجدون سبيلًا إلى النوم، فهم ينهضون ويلبثون جالسين على سررهم ساعة كاملة مطرقين كأنهم يُفكرون في شيء. إنني أنظر إليهم وأحاول أن أحزر ما يفكرون فيه بغية أن أقتل الوقت، ثم أخذ أحلم، أحلم بالماضي، فيعرض لخيالي لوحات قوية عريضة، وأتذكر تفاصيل ما كان لي أن أتذكرها في ظرف آخر وما كان لها أن تُحدث في نفسي تأثيرًا عميقًا كالتأثير الذي تُحدثه في نفسي الآن؛ وأحلم بالمستقبل فأتساءل: (متى سأخرج من السجن؟ أين سأمضي؟ ما الذي سيحدث لي حينذاك؟ هل أعود إلى بلدي مسقط رأسي؟...). وأفكر ثم أفكر ويأخذ الأمل ينبت في نفسي. وفي مرة أخرى أخذت أعد: واحد، اثنان، ثلاثة،إلخ، بغية أن أنام أثناء العد. كنت أصل أحيانًا إلى ثلاثة آلاف ثم لا أستطيع أن أغفو! هذا أوستيانسيف يسعل ذلك السعال الفاسد المتفسخ المعهود في المصدورين، ثم ها هو يئن أنينًا ضعيفًا ويتمتم كل مرة قائلًا: (رباه قد أثمت!) يا لهذا الصوت المريض الواهي المضعضع المتكسر ما أشد الذعر الذي يثيره سماعه في النفس وسط الهدوء الشامل! وهؤلاء مرضى في ركن من الأركان لم يستطيعوا أن يناموا بعد، فهم يتحدثون بصوت خافت مضطجعين على مراقدهم. إن واحدًا منهم يقص ماضيه، يروي أشياء بعيدة منقضية، يتكلم عن تشرده، عن أولاده، عن امرأته، عن عاداته القديمة. ويدرك السامع من لهجة

الرجل أن لا شيء من هذا كله سيعود بعد الآن، وأن لا شيء من هذا كله سيوجد بالنسبة إليه في يوم من الأيام، وأنه عضو من الأعضاء بُتِرَ ورُمِيَّ. إن سجينًا آخر يصغي إليه. الحديث يجري وشوشة ضعيفة، همسًا واهنًا، كخرير الماء في مكان ما، هناك، بعيدًا جدًّا... أذكر أنني في ذات مرة، أثناء ليلة طويلة من ليالي الشتاء لا نهاية لطولها، سمعت قصة بدت لي في أول الأمر حُلمًا يتمتم به رائيه أثناء كابوس، حُلمًا يراه صاحبه أثناء نوبة حُمى، أثناء هذيان...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون E-BOOK

4

زوج آكولكا

قصة

كان ذلك في وقت متأخر من الليل، بعد الساعة الحادية عشرة. كنت قد نمت منذ زمن فإذا أنا أستيقظ منتفضًا، إن الضوء الكابي الضعيف الذي ينشره السراج البعيد لا يكاد يضيء الغرفة... وكان جميع الناس تقريبًا قد ناموا، حتى أوستيانسيف. كنت أسمع في هدأة الليل تنفسه الشاق الصعب، وأسمع حشرجات حلقه عند كل شهيق، لقد ترجَّع في حجرة المدخل وقع الأقدام الثقيلة البعيدة، أقدام دورية الحراسة التي كانت تقترب. وهذا أخمص بندقية يقرع الأرض قرعًا أصم. فُتح الباب، وعدَّ العريف المرضى وهو يسير مُحاذرًا، فما هي إلا دقيقة حتى عاد يغلق الباب. وحل محلَّه عسس جديد. ابتعدت الدورية وران الصمت من جديد. عندئذٍ فقط لاحظت على مسافة غير بعيدة مني سجينين لم يناما وكأنهما يتهامسان بشيء. إنه ليتفق أحيانًا لسجينين يرقد أحدهما إلى جانب الآخر، دون أن يكونا قد تبادلا كلمة واحدة خلال أسابيع بل خلال أشهر بكاملها، أن يشرعا في حديث على حين غرة وسط الليل فإذا بأحدهما يقص على صاحبه ماضيه.

لعلهما كانا يتحدثان منذ مدة طويلة. إنني لم أسمع بداية حديثهما ولا أدركت كل شيء من الوهلة الأولى، ولكنني ألفت هذا الهمس شيئًا فشيئًا ففهمت القصة كاملة، لم تكن بي رغبة في النوم فما عساي أفعل إلا أن أصغي؟... كان أحد الرجلين يقص على صاحبه حكايته بحرارة، راقدًا على سريره نصف رقاد، رافعًا رأسه، مائلًا به نحو صاحبه. كان واضحًا أن في نفسه غَلَيانًا شديدًا واهتياجًا قويًا... كان يحب أن يتكلم. أما صاحبه فقد كان جالسًا على سريره مظلم الوجه قليل الاكتراث باسطًا ساقيه على الفراش يُجيب رفيقه من حين إلى حين ببضع كلمات من قبيل اللباقة ويستنشق في كل لحظة شيئًا من سعوط يتناوله من علبة خاصة. إنه الجندي تشيريفين الذي ينتمي إلى فئة التأديب، وهو امرؤ متحذلق متجهم الوجه بارد الشعور مماحك غبي أناني؛ أما صاحبه الذي كان يروي قصته فهو سجين مدني اسمه شيشكوف، في نحو الثلاثين من عمره، لم ألتفت إليه قبل ذلك في يوم من الأيام، ولا شعرت نحوه طوال مدة إقامتي في السجن بشيء من الاهتمام، ذلك أنه كان رجلًا ضحل العقل طائش اللب. كان في بعض الأحيان يلبث صامتًا أسابيع بكاملها كئيب المزاج فظ المعاملة شرس الطَبع ثم إذا هو يتدخل في أمر من الأمور على حين فجأة فيثير الضجة والصخب ويتحمس لأتفه الترهات ويهرف بما لا يعرف وينتقل من ثكنة إلى ثكنة يغتاب الناس ويُرسل هاجر القول ويبدو

خارجًا عن طوره، حتى إذا ضربوه عاد يلزم الصمت من جديد. وإذ كان نذلًا جبانًا فقد كان السجناء يعاملونه باحتقار. إنه رجل قصير القامة نحيل الجسم له عينان زائغتان أو قل حالمتان على غباوة وبلاهة. كان إذا حكى شيئًا من الأشياء اندفع يتكلم بحرارة وحرك ذراعيه ثم إذا هو يتوقف عن الكلام فجأة أو ينتقل إلى موضوع آخر فيضيع في تفاصيل جديدة ثم ينسى أخيرًا الموضوع الذي كان يتكلم فيه. وكان شيشكوف كثير المشاجرة، حتى إذا أخذ يُعاتب خصمه تكلم بلهجة عاطفية، وأوشك أن يبكي. وكان يحسن العزف على البالالايكا ويحبها حبًا عظيمًا حتى لقد كان يرقص في أيام الأعياد فيحسن الرقص إذا دعاه إلى الرقص أحد أو حضه عليه... (ما أسرع ما كان يستطيع غيره أن يحمله على فعل ما يشاء لا لأنه كان طبعًا بل لأنه يحب أن يكون له رفاق وأن يرضيهم).

لبثت زمنًا لا أستطيع أن أفهم ما كان يقصه شيشكوف. وكان يبدو لي أنه لا ينفك يترك موضوعه ويمضي يتكلم في موضوع آخر. لعله كان قد لاحظ أن تشيريفين لا يصغي إلى قصته كثيرًا ولكنني أعتقد أنه كان يريد أن يتجاهل قلة الاكتراث هذه من جانب شيريفين وأن لا يتأثر بها أو يستاء منها.

تابع كلامه يقول:

-... فكان إذا مضى إلى السوق حيَّاه جميع الناس وعظموه وبجلوه... رجل واسع الثراء عريض الغنى!...

- قلت إنه كانت له تجارة؟

- نعم تجارة! الصناع عندنا فقراء: هم الفاقة بعينها، النساء يذهبن إلى النهر فيجئن بالماء من مكان بعيد جدًّا يسقين به حدائقهم ويضنين أجسادهن ويرهقن أنفسهن ومع ذلك لا يملكن حين يأتي الخريف ما يصنعن به حساءً بالكرنب. هي حالة دمار كامل، ولكن ذلك الرجل كان يملك قطعة كبيرة من الأرض يفلحها عماله الثلاثة، وكان يملك عمائر نحل يبيع عسلها وكان يتعاطى تجارة الماشية... الخلاصة كان الناس عندنا يحترمونه ويكبرونه. وكان طاعنًا في السن أشيب الشعر تمامًا. إنه في السبعين من عمره، فعظامه الهرمة تنوء بحمل هذه السن. كان إذا جاء إلى السوق مرتديًا فروته المصنوعة من جلد الثعلب حياه جميع الناس قائلين: (يومك سعيد يا أنكوديم تروفيمتش). (يومك سعيد، كيف صحتك؟).

كان لا يحتقر أحدًا.

(أطال اللّه بقاءك يا أنكوديم تروفيمتش!).

(كيف أحوالك؟)

(حسنة بمقدار ما يكون السخام أبيض وكيف أحوالك أنت يا أنكوديم تروفيمتش؟)

(نعيش خطايانا... نُتعب كاهل الأرض...)

(أطال اللّه عمرِك يا أنكوديم تروفيمتش).

كان لا يحتقر أحدًا. كانت نصائحة ثمينة. كل كلمة من كلماته تساوي روبلًا. وكان قراء من الطراز الأول، لأنه كان عالمًا... كان لا ينفك يقرأ كلام اللّٰه... كان ينادي امرأته العجوز فيقول لها:
(اسمعي يا امرأة! افهمي ما أقوله لك...)
ثم يمضي يشرح لها. ولم تكن العجوز ماريا ستيبانوفنا عجوزًا إن شئت، فهي امرأته الثانية تزوجها لينجب منها، لأن امرأته الأولى لم تلد. كان له إبنان ما يزالان صغيرين، فإن الثاني فاسيا قد ولد حين شارف أبوه على الستين، وكانت ابنته آكولكا، كبرى أولاده، في الثامنة عشرة من عمرها.
سأل تشيريفين صاحبه شيشكوف:
- هي زوجتك، أليس كذلك؟
- انتظر لحظة. أخذ فيلكا ماروزوف يضج ويصخب. قال لأنكوديم:
(هلمَّ نقتسم! أرجع إليَّ روبلاتي الأربعمائة! أنا لست أجيرك، ولا أحب أن أُتاجر معك، ولن أتزوج ابنتك آكولكا! أريد أن أقصف، ولأشربنَّ خمرًا بمالي كله بعد أن مات أبواي؛ ثم أؤجر نفسي، أي أنخرط جنديًا في الجيش، فما هي إلا عشرة سنين حتى أعود إلى هنا ضابطًا كبيرًا برتبة فيلد مارشال).
رد إليه أنكوديم ماله، رد إليه كل ما كان له عنده. ذلك أنه كان في الماضي يُتاجر مع والد فيلكا برأس مال مشترك. رد إليه ماله وقال له:
(أنت يا بني رجل ضائع).
فأجابه الشاب:
(سواء أكنتُ ضائعًا أم لم أكن يا ذا اللحية الشيباء، فإنك أكبر بخيل عرفته في حياتي! إنك تريد أن تصنع فروة بأربعة كوبيكات! تضم القرش إلى القرش وتلتقط من الأرض كل الأوساخ التي يتصورها الخيال لتستعملها وتنتفع بها! إنني أريد أن أبصق على هذا! إنك تدخر وتكنز لا يدري إلا الشيطان لماذا! أما أنا فصاحب إرادة قوية وعزيمة جبارة ولن أتزوج ابنتك آكولكا! يكفيني أنني نمت معها...).
(كيف تجرؤ أن تلطخ بالعار أبًا شريفًا وفتاة شريفة؟ متى نمت معها يا شحم أفعى، يا دم كلب؟)
كذلك قال له أنكوديم وهو يرتجف غضبًا (إن فيلكا هو الذي روى ذلك فيما بعد). وأردف فيلكا يقول للشيخ:
(لن يكفيني أن لا أتزوج ابنتك بل سأفعل كل ما يجب أن أفعله من أجل أن لا يتزوجها أحد حتى ولا ميكيتا جريجورينش، لأن شرفها قد تلطخ! لقد عاشرتُها منذ الخريف الماضي. ولكنني لن أتزوجها بحال من الأحوال. لو أعطيتني ملك الدنيا ما تزوجتها!...).
وأخذ الفتى يلهو ويقصف مستكبرًا مستعليًا! وصاحت المدينة كلها متفجعة متوجعة. وأصبح للفتى رفاق يحتشدون حوله لأنه يملك مبلغًا كبيرًا من المال. وظل ثلاثة أشهرٍ يُنفق مُتلِفًا مُبذِرًا حتى أتى على آخِر قرش في يدِه. كان

يقول: (أريد أن أرى نهاية هذا المال، وبعد ذلك سأبيع البيت، وسأبيع كل شيء، ثم انخرط جنديًا في الجيش، أو أضرب في الأرض متشردًا). كان يسكر من الصباح إلى المساء ويتنزه في عربة يجرها حصانان وتجلجل فيها أجراس وكانت الفتيات تحيه لأنه كان يُجيد العزف على التوربا...

سأل شيريفين رفيقه:

- هل صحيح أنه كان قد عاشر آكولكا تلك؟

- انتظر! رجعت من دفن أبي. كانت أمي حينئذٍ تصنع كعكًا. كنا نعمل لحساب أنكوديم فكان هذا يدر علينا ما يقيم الأود. غير أن حياتنا كانت شاقة، كان لنا أرض وراء الغابة تزرعها قمحًا، ولكن حين مات أبي رحت ألهو وأقصف فكنت أجبر أمي على أن تعطيني مالًا بضربها ضربًا مُبرحًا...

- أخطأت إذ ضربتها ط! ذلك إثم كبير!...

- كنت في بعض الأحيان أظل ثملًا طول النهار. وكان لنا بيت لا بأس به. صحيح أنه متداعٍ عفن، ولكنه ملك لنا. وكنا نتضور جوعًا. كانت تنقضي أسابيع بكاملها ونحن لاً نملك ما نسد بهِ رمقنا. وكانت أمي ترهقني بسخافاتها وتقتلني بحماقاتها ولكنني لم أكن أُبالي... كنت لا أترك فيلكا ماروزوف. وإنما نبقى معًا في الليل والنهار. كان يقول لي: (اعزف لي على القيثارة، وسأظل أنا مضطجعًا وسأرمي لك مالًا لأنني رجل غني). كان لا ينفك يبتكر ويخترع، ولكنه لا يمد يده إلى مال مسروق، فهو يقول: (ما أنا بسارق! أنا رجل شريف!) وكان يهيب بنا قائلًا: (هلموا نلطخ باب آكولكا بالقطران ([39]) لأنني لا أريد أن تتزوج ميكيتا جريجوريتش! أنا أحرص على هذا الآن أكثر مما كنت أحرص عليه في أي وقت مضى...).

وكان الشيخ يريد منذ زمن طويل أن يزوج ابنته لميكيتا جريجوريتش: وهو رجل متقدم في السن ماتت عنه امرأته، يعمل تاجرًا ويضع على عينيه نظارتين... فلما سمع ما أُشيع عن سوء سلوك آكولكا قال للشيخ:

(سيكون ذلك عارًا كبيرًا عليّ يا أنكوديم تروفيمتش. ثم إنني لا أريد أن أتزوج الآن فقد تجاوزت سن الزواج).

لطخنا باب آكولكا بالقطران وضربوا آكولكا في البيت بسبب ذلك حتى كادت تموت. كانت أُمها ماريا ستيبانوفنا تصيح قائلة: (لسوف يقتلني هذا العار قتلًا). وكان أبوها الشيخ يقول: (لو أننا في عهد البطارقة لكان من حقي أن أُقطعها تقطيعًا ولكن كل شيء في هذا الزمان قد استحال عفونةً وفسادًا على هذه الأرض). وكان الجيران في بعض الأحيان يسمعون عويل آكولكا من أول الشارع إلى آخره. كان أهلها يجلدونها من الصباح إلى المساء. وكان فيلكا ينادي في السوق قائلًا لجميع الناس:

(ما أحسن هذه البنت آكولكا رفيقةَ سكرٍ!... لقد صفعتهم على بوزهم ولسوف يتذكرونني ما عاشوا!)

وفي ذات يوم صادفت آكولكا ذاهبة تملأ قواديسها ماء فصحت أقول لها:
- نعمتِ صباحًا يا آكولينا كوديموفنا! تحية لطهارتك! قولي لي مع من تعيشين ومن أين تجيئين بالمال حتى تتبختري هذا التبختر؟
قلت لها ذلك ولم أضف شيئًا. فنظرت إليَّ محملقةً بعينين واسعتين.. كانت قد نحلت نحولًا شديدًا حتى أصبحت كالعود هزالًا. لم تزد على أن نظرت إليَّ. ولكن أمها التي ظنت أنها كانت تمازحني صاحت تناديها من على عتبة الباب قائلة لها:
- ما حديثك معه يا قليلة الحياء؟
وعادت في ذلك اليوم تضربها من جديد. كانت تضربها في بعض الأحيان ساعة كاملة وتقول: (أنا أجلدها لأنها لم تعد ابنتي).
سأله تشيريفين:
- كانت إذًا فاجرة؟
- انتظر حتى أحكي لك يا صاحبي! كنا لا نزيد على أن نسكر مع فيلكا. وفي ذات يوم، بينما كنت راقدًا، جاءت أمي وقالت لي: (لماذا تظل راقدًا أيها الوغد، أيها اللص؟)
شتمتني في أول الأمر ثم قالت لي:
(تزوج آكولكا! لسوف يسرهم أن يزوجوها لك ولسوف يدفعون لك بائنة قدرها ثلاثمائة روبل).
فأجبتها بقولي:
(ولكن جميع الناس يعلمون الآن أن شرفها ملطخ).
(حيوان هذا كله يزول متى وضع على رأسها إكليل الزواج! ثم إن ذلك سيجعل حياتك معها أفضل، فستظل ترتعد خوفًا منك طول عمرها، وسنعيش من مالها في يسر وبحبوحة. لقد كلمت ماريا ستيبانوفنا في أمر هذا الزواج واتفقنا).
قلت لها:
(إذا أعطيتني عشرين روبلًا على الفور تزوجتها).
لك أن لا تصدق إذا شئت، ولكن الحقيقة هي أنني ظللت سكرانًا إلى يوم الزواج. وكان فليكا ماروزوف ما ينفك يهددني ويتوعدني ويقول لي:
(لأحطمن أضلاعك أيها الحقير الذي ارتضى أن يكون خطيب آكولكا، ولأضاجعنَّها كل ليلة إذا شئت!)
أجبته بقولي:
(أنت تكذب يا كلب).
لقد جللني بالعار أمام جميع الناس في الشارع. هرعت إلى البيت. أصبحت لا أريد أن أتزوج ما لم أعطِ خمسين روبلًا على الفور.
قال تشيريفين:
- وهل زوجوك إياها؟

- زوجوني إياها؟ لم لا؟ نحن أناس لم يدنس شرفنا. إن حريقًا هو الذي دمر أبي قبل موته بقليل، حتى لقد كان أبي أغنى من أنكوديم تروفيمتش. قال لي الشيخ أنكوديم:

(خليق بمن كان مثلك بلا قميص أن يسعده كثيرًا أن يتزوج ابنتي).

فأجبته:

(هل نسيت أن بابك قد لُطخَ بالقطران؟)

(ما هذا الذي تقوله؟ برهن لي على أن شرفها قد دُنس.. إليك الباب على كل حال، فاذهب إن شئت! ولكن ردَّ إليَّ المال الذي أعطيتك إياه).

قررنا عندئذ مع فيلكا ماروزوف أن نرسل متري بيكوف إلى الأب أنكوديم ليقول له أنني سأشهِّر بابنته أمام جيمع الناس. وظللت حتى يوم الزواج لا أفيق من السكر. ولم أصح إلا في الكنيسة. حين أرجعونا من الكنيسة أجلسونا وقال عمها متروفان ستيبانتش:

- لقد تم الأمر وانتهى رغم أنه غير نظيف.

كان الشيخ أنكوديم جالسًا يبكي والدموع تسيل على لحيته البيضاء. وإليك أيها الرفيق ما كنت قد فعلته أنا: وضعت سوطًا في جيبي قبل الذهاب إلى الكنيسة عازمًا على أن أبهج قلبي باستعماله بغية أن يعلم الناس أن أحدًا لم يستطع أن يغرر بي وأن يخدعني وبغية أن يعرفوا هل أنا غبي حقًّا.

قال تشيريفين:

- مرحى... وبغية أن تدرك هي ماذا ينتظرها.

- مهلا يا صاحبي! لقد جرت العادة عندنا أن يُقاد الزوجان بعد حفلة الزواج رأسًا إلى غرفة على حدة، بينما يبقى الآخرون يشربون منتظرين عودتهما، تركونا نختلي. كانت آكولكا ممتقعة الوجه صفراء اللون مذعورةً ذُعرًا شديدًا ليس في خديها قطرة من دم. وكان شعرها ناعم الملمس أشقر اللون وكانت عيناها واسعتين جدًّا. إن أكولكا تصمت في جميع الأحيان تقريبًا، لا تكاد تتكلم، حتى لقد يُظن أنها خرساء. عجيبة آكولكا هذه! لك أن تتصور الموقف: كان سوطي مهيأ على السرير. فهل تعلم ما الذي اكتشفته؟ اكتشفت أنها بريئة... بريئة كل البراءة... لا أستطيع أن آخذ عليها شيئًا... لقد كانت عذراء...

- غريب

- فعلًا! كانت عذراء كأية فتاة عذراء شريفة. فلماذا أيها الأخ، لماذا تحملت ذلك العذاب كله؟ لماذا شهَّر بها فيلكا ماروزوف مُفتريًا عليها؟

- حقًّا! لماذا؟

- عندئذٍ نزلت عن السرير، وركعت أمامها ضامًا يديَّ إحداهما إلى الأخرى، وقلت لها: (غفرانك يا آكولينا كوديموفنا سامحيني، فقد كنت في غاية الحماقة والغباء والبلاهة حين صدقت تلك الوشايات كلها! عفوكِ عفوكِ... إن أنا إلا وغدا!...

كانت جالسة على السرير تنظر إليَّ، فوضعت يديها على كتفي وأخذت تضحك، ومع ذلك كانت الدموع تسيل على خديها... كانت تتشنج وتضحك في آن واحد... ثم خرجتُ إلى الناس وقلت لهم جميعًا:

- ويل لفيلكا ماروزوف لو رأيته لا نتقل فورًا إلى العالم الآخر!

فرح الأبوان فرحًا لا يوصف حتى أصبحا من شدة الفرح لا يعرفان ماذا يقولان أوشكت أُم آكولكا أن ترتمي على قدمي ابنتها وكانت تنشج نشيجًا قويًا. وقال الشيخ لابنته: (لو علمنا وعرفنا هذا كله يا ابنتنا الحبيبة لما ارتضينا لك مثل هذا الزوج). ليتك رأيت ملابسنا ونحن نخرج من الكنيسة في أول أحد من أيام الآحاد بعد زواجنا. كنت أرتدي قفطانًا من فاخر الجوخ وأضع على رأسي قبعة من فراء وأزين أكمامي برائع المخمل، وكانت هي تلبس معطفًا جديدًا من فراء الأرنب وتجلل رأسها بوشاح من حرير. زوجان متكافئان. كان الناس جميعًا ينظرون إلينا معجبين. كنت حسن المظهر وسيم الطلعة. وكذلك كانت آكولينوشكا. ما ينبغي للمرء أن يمتدح نفسه وأن يفاخر بها ولكن ما ينبغي له أيضًا أن يغض من قدره وأن يحط من قيمته.. ليس بين الأزواج دستات كثيرة منا...

- طبعًا.

- طيب! اسمع التتمة. في غداة زواجنا هربت من ضيوفي رغم سكري وطفقت أركض في الشارع صائحًا: (أين ذلك الوغد فليكا ماروزوف! ائتوني بهذا الحقير؟ ألا فليجيء إليَّ هذا النذل!) كنت أعول بهذا الكلام في السوق. يجب أن أذكر لك أنني كنت في حالة سكر شديد. قبضوا عليَّ مع ذلك قرب منزل أسرة فلاسوف احتاجوا إلى ثلاثة رجال من أجل أن يرجعوني إلى البيت عنوة. صارت القصة حديث الناس كلهم في المدينة. أصبحت الفتيات إذا إلتقى بعضهن ببعض في السوق تقول إحداهن للأخرى: (هل علمتِ؟ إن آكولكا عذراء!). وبعد ذلك بزمن قصير صادفت فليكا مارزوف فقال لي جهارًا على رؤوس الأشهاد أمام غرباء: (ما عليك إلا أن تبيع زوجتك فتشتري بثمنها خمرًا. افعل ما فعله الجندي ياشكا! إنه لم يتزوج إلا لهذا الغرض، حتى إنه لم يضاجع امرأته مرة واحدة، ولكنه على الأقل حصل على مال وفير يسكر به مدة ثلاث سنين...

أجبته:

(نذل).

فقال لي:

(غبي. لقد تزوجت وأنت في حالة سكر لا تملك عقلك وشعورك ولم يكن في وسعك أن تفهم شيئًا وأن تُدرك الحقيقة).

وصلت إلى البيت وصرخت أقول لهم:

- لقد زوجتموني وأنا سكران.

أرادت أم آكولكا أن تتشبث بي ولكنني قلت لها:

- إليكِ عني يا امرأة فإنكِ لا تفهمين إلا شؤون المال! هاتي لي آكولكا! وعندئذٍ إنما أخذت أضربها... ظللت أضربها يا صاحبي ساعتين كاملتين إلى أن تهاويت أنا نفسي على الأرض ولم تستطع هي بعد ذلك أن تُبارح السرير خلال ثلاثة أسابيع.
قال تشيريفين ببرود:
- طبعًا إذا لم نضربهن فإنهن... هل وجدتها مع عشيقها؟
قال شيشكوف بعد صمت وهو يتكلم في عناء:
- أبدًا يا صاحبي! لم يقع شيء من ذلك في يوم من الأيام! ولكنني شعرت بمهانة كبيرة ومذلة شديدة لأن جميع الناس كانوا يسخرون مني. إن فيلكا هو سبب ذلك كله. كان يقول لي: (إنما خلقت امرأتك ليستمتع بها الآخرون). وفي ذات يوم دعانا إلى بيته وها هو ذا يبدأ فيقول: (انظروا إلى هذه المرأة الطيبة ما أعظم رِقتها وحنانها ونبلها وأدبها وعاطفتها وكرمها مع جميع الناس! أتراك نسيت يا صاحبي أننا لطخنا بابهم بالقطران معًا).
كنت حينئذٍ في حالة سكر شديد. وها هو ذا يمسك شعري ويشدني شدًا قويًا يضطرني إلى التمدد على الأرض دفعة واحدة وها هو ذا يقول لي: (هيا ارقص يا زوج آكولكا. أنا أمسك شعرك وأنت ترقص لتسليني وتسري عني).
- سافل.
- سأجيء إليك مع الأصحاب أجلد امرأتك آكولكا ما شاء لي هواي ذلك.
هل تصدق يا صاحبي لقد مكثت في البيت شهرًا كاملًا لا أجرؤ أن أخرج مخافة أن يجيء إلينا فتقع لامرأتي جرصة. وما أكثر ما ضربتها أثناء ذلك!
- وعلام تضربها؟ إن المرء يستطيع أن يوثق يدي امرأة ولكنه لا يستطيع أن يعقل لسانها. ما ينبغي الإسراف في ضرب النساء، اضربها أولًا من قبيل التأديب ثم داعبها بعد ذلك، إن المرأة خلقت لهذا.
لبث شيشكوف صامتًا بضع لحظات ثم تابع يقول:
- كنت أشعر بمهانة كبيرة ومذلة شديدة. استأنفت عاداتي القديمة. أصبحت أضربها من الصباح إلى المساء متعللًا بأتفه الأسباب، أضربها لأنها لم تنهض كما أحب أن تنهض، أو لأنها لم تمشِ كما يجب أن تمشي... صرت إذا لم أضربها أحس بضجر شديد وسأم كبير. كانت في بعض الأحيان تمكث جالسة قرب النافذة تبكي بكاءً صامتًا فكان يحزنني أحيانًا أن أراها تبكي ولكنني أظل أضربها مع ذلك. كانت أمها تقرعني وتسبني بسبب هذا فتقول لي:
- أيها النذل يا غراب الشؤم...
فأجيبها:
- اسكتي! لا تنطقي بكلمة واحدة وإلا أجهزت عليكِ! لقد زوجتمونيها وأنا سكران فخدعتموني وغششتموني.
أراد الشيخ أنكوديم في أول الأمر أن يتدخل في القضية. فقال لي ذات يوم:
- حذار حذار! ما أنت بمن لا يمكن رده إلى الصواب...

ولكنه َلم يلَبث أن انثنى عن عزمه. وأخذت ماريا ستيبانوفنا تعمد إلى الرقة واللطف والدماثة. جاءتني ذات مرة باكية وقالت لي:
- اسمع يا إيفان سيميونتش! إن قلبي محطم ألمًا وحزنًا. ما سأطلبه منك لا قيمة له عندك، ولكنني أحرص عليه كثيرًا. اصرفها بالحسنى يا بني، دعها تذهب.
قالت العجوز ذلك ثم جثت وأضافت تضرع إليَّ:
- هدئ روعك. اغفر لها. لقد افترى الأشرار عليها فوصموها بما ليس فيها. وأنت تعلم حق العلم أنها كانت عذراء حين تزوجتها.
وطفقت الأم تبكي وأصررت أنا على عنادي فقلت لها:
- لا أريد أن أسمع شيئًا وسأفعل بكم ما يحلو لي أن أفعله لأنني خارج عن طوري لا أستطيع كبح جماح نفسي. أما فيلكا ماروزوف فهو خير صديق لي، وهو أعز إنسان على نفسي.
قال تشريفين:
- هل استأنفتما السكر معًا؟
- مستحيل! لقد أصبح لا يمكن الاقتراب منه! لقد أدى به الشرب إلى ما يشبه الجنون أنفق كل ما يملك وارتضى أن يجند في الجيش بديلًا لفتى من أغنياء المدينة. والعادة عندنا أن الشاب الذي يقبل أن ينوب عن شاب آخر في الجندية يصبح سيد البيت، ويصبح الآمر والناهي، إلى أن يُساق إلى الجندية. إنه يتقاضى المبلغ المتفق عليه يوم سفره، ولكنه بانتظار ذلك يعيش في منزل مولاه، وقد يقضي في هذا المنزل ستة أشهر كاملة. وما من فظاعة من الفظاعات يتورع عن ارتكابها أمثال هؤلاء الفتيان! ألا أنه لينبغي في مثل هذه الأحوال أن تُنقل من البيت جميع الصور المقدسة. إن الفتى من هؤلاء الفتيان حتى قبل أن يكون بديلًا لابن رب البيت في الجندية يعد نفسه صاحب فضل عظيم ونعمة كبرى، ويعتقد أن من حقه أن يُحاط بجميع أنواع الاحترام، وإلا نكل عن وعده ونكص على عقبيه. هكذا كان فلكا ماروزوف لا يتورع عن شيء في منزل ذلك الرجل، فهو ينام مع الفتاة، ويمسك رب البيت من لحيته بعد العشاء، ويفعل كل ما يخطر بباله أن يفعله. كان على أهل الدار أن يوقدوا له حمام البخار كل يوم، وأن يضيفوا إلى الحمام خمرًا، وكان على النساء أن يأخذنه إلى الحمام مسندًا تحت إبطيه. وكان إذا عاد إلى المنزل بعد أن قصف وشرب يتوقف في وسط الشارع ويجأر قائلًا: (لا أريد أن أدخل من الباب فانزعوا السياج). فلا يملك أهل الدار عندئذٍ إلا أن يهدوا الحاجز قرب الباب حتى يتيحوا له أن يدخل. غير أن هذا كله قد انتهى أخيرًا يوم سيق فلكا إلى الجندية. لقد اضطر أن يصحو من سكره في ذلك اليوم. واحتشد الجمهور في الشارع كله يقول بعضه لبعض: (هذا فلكا ماروزوف يُقاد إلى الجندية).
فكان فلكا يحيي الناس في كل جهة من الجهات يُمنةً ويُسرة. واتفق في تلك اللحظة إن كانت آكولكا عائدة من البستان فما أن لمحها حتى صاح يقول:

- قفي.
ثم وثب من العربة ووقف أمامها منتحيًا وخاطبها بقوله: (يا روحي! يا حياتي! يا تفاحتي الصغيرة! لقد أحببتك سنتين كاملتين، وأنا الآن أُقاد إلى الجندية على أنغام الموسيقى! اغفري لي أيتها الفتاة الشريفة يا بنت الأب الشريف، لأنني نذل حقير، لأنني مسؤول عن شقائك.. كله، وعن عذابكِ كله).
قال فيلكا ذلك وانحنى أمامها مرة أخرى. جزعت آكولكا في أول الأمر، لكنها حيته بعد ذلك تحية كبيرة ثنتها نصفين، وقالت له:
- اغفر لي أنت أيضًا أيها الفتى الطيب. لستُ غاضبةً منك قط.
رجعت أنا إلى البيت وراءها وسألتها:
- ماذا قلتِ له يا كلبة.
أجابتني بقولها وهي تنظر إليَّ نظرة جريئة (لك أن تصدق أو لا تصدق):.
- أحبه... أحبه أكثر مما أحب أي شيء في هذا العالم.
قال تشيريفين:
- عجيب!
- في ذلك اليوم لم أنطق بكلمة واحدة. غير أنني قلت لها في المساء: (آكولكا، سأقتلكِ) ولم يغمض لي جفن طوال الليل ورحت أشرب خمر الكفاس في حجرة المدخل حتى إذا طلع النهار رجعت إلى الغرفة. قلتُ لها: (أكولكا استعدي للذهاب إلى الحقل)، كنت أنوي الذهاب إلى الحقل من قبل، وكانت زوجتي تعرف ذلك. قالت لي: (أنت على حق! لقد آن أوان الحصاد، وقد سمعت أن العامل مريض منذ يومين، فهو لا يفعل شيئًا). قرنت الحصان إلى العربة من دون أن أقول كلمة واحدة. إن في آخر المدينة غابة طولها خمسة عشر فرسخًا، وفي نهاية الغابة يقع حقلنا، فلما قطعنا ثلاثة فراسخ تحت الأشجار أوقفتُ الحصان. قلت لزوجتي: (هلمي يا آكولكا. انهضي. لقد حان أجلك). نظرت إليَّ مذعورة ذُعرًا شديدًا ونهضت صامتة. قلت لها: (لقد عذبتني تعذيبًا كافيًا... هيا صلي صلاتك الأخيرة). أمسكت شعرها - كان لها ضفائر طويلة كثيفة - لففت الضفائر على ذراعي. قبضت على زوجتي بين ركبتي أخرجت سكيني. قلبت رأسها إلى وراء. شققت عُنقها... صرخت... تدفق الدم... عندئذٍ رميتُ سكيني وضممت زوجتي بين ذراعي ومددتها على الأرض وقبلتها وأنا أعول بكل ما أوتيت من قوة... أنا أصيح وهي تعول وتتلمس وتتخبط ودمها ما يزال يتدفق بمزيد من القوة فيصيب وجهي ويضرج يدي. عندئذٍ خفت، فتركتها، وتركت حصاني، وأخذت أركض، وما زلت أركض حتى وصلت إلى البيت. دخلت البيت من خلف، واختبأت في خص كان يُستعمل حمامًا وأصبح الآن مهجورًا. رقدت تحت المصطبة، ولبثت مختبئًا هنالك إلى أن جن الليل.
- وآكولكا؟

- نهضت لترجع إلى البيت هي أيضًا، وعثروا عليها بعد ذلك على مسافة مائة قدم من المكان.
- إذن لم تجهز عليها؟
- كلا.
وصمت شيشكوف لحظة. قال تشريفين:
- نعم هناك وريد إن لم يُقطع بطعنة واحدة فإن الإنسان يتخبط ولكنه لا يموت مهما يتدفق دمه.
- لقد ماتت مع ذلك، وجدوها في المساء جثة باردة. أبلغوا الشرطة فأخذت الشرطة تبحث عني. قبضوا عليَّ أثناء الليل في ذلك الحمام المهجور.
وأردف شيشكوف يقول بعد صمت:
- وها أنا ذا هنا منذ أربع سنين!
قال تشريفين في وقار وتفخم وهو يخرج علبة التبغ من جديد وينشق منها نشقاتٍ طويلة متقطعة:
- نعم لا بد أن نضربهن وإلا لم نتوصل إلى شيء. ولكنك أيها الفتى قد تصرفت بغباء شديد. أنا أيضًا فاجأت امرأتي مع عشيق فماذا فعلت؟ اقتدتها إلى الزريبة فتناولت لِجامًا فطويته نصفين وقلت لها: (من الذي حلفتِ له أن تكوني وفية؟ من الذي أقسمتِ له في الكنيسة؟) وأخذت أضربها بلجامي ثم أضربها خلال ساعة ونصف ساعة إلى أن صاحت تقول وقد هدها الضرب هدًا: (لسوف أغسل قدميك وأشرب ماءهما!). كان اسمها أفدوتيا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

5

فصل الصيف

بدأ شهر نيسان (أبريل). الأسبوع المقدس غير بعيد. أخذنا نقوم بأعمال الصيف. الشمس تصبح أكثر دفئًا وسطوعًا يومًا بعد يوم، الهواء يحمل أشداء الربيع فيحدث أثره في الأعصاب.

إن السجين بالأغلال يهتز هو أيضًا في أيام الصحو. إن هذه الأيام الجميلة تبعث فيه رغبات قوية وأشواقًا عنيفة وتثير في نفسه أحزان الغربة وأشجان الحنين. أحسب أن الإنسان يأسى لفقد حريته في نهار مشمس أكثر مما يأسى لذلك في الأيام الممطرة الحزينة من الخريف والشتاء.

هنالك شيء يُلاحظ لدى جميع السجناء: لئن كانوا يشعرون بشيء من الفرح في نهار جميل مضيء فإنهم يصبحون في مقابل ذلك أقل صبرًا وأكثر تململًا وأشد اهتياجًا. لقد لاحظت أن المشاجرات في سجننا تكثر في الربيع، وأن الصخب يشتد، وأن الصُراخ يتفاقم، وأن الاقتتال يزداد. وفي أثناء ساعات الشغل يُتاح لك أن تلاحظ في بعض الأحيان نظرة واجمة تائهة في الفضاء الأزرق على عناد، هناك، في مكان ما، على الضفة الأخرى من نهر أرتيش، حيث يمتد السهل الفسيح مئات الفراسخ سهوبًا هي سهوب الكيرخيز الواسعة الحرة. وربما سمعت عندئذٍ تنهدات طويلة تخرج من أعماق الصدر كأن ذلك الهواء البعيد الطلق قد حمل السجناء على أن يتنفسوا، وكأنه خفف عن نفوسهم الحبيسة المسحوقة. إن السجين يُطلق من صدره آخر الأمر آهة طويلة ثم إذا هو على حين فجأة كأنه يريد أن ينفض عنه هذه الأحلام وأن يُبددها فيتناول رفشه غاضبًا أو يحمل القرميد الذي يجب عليه أن ينقله من مكان إلى مكان، وما هي إلا لحظة بعد ذلك حتى يكون قد نسى ذلك الإحساس العابر الهارب فيعود إلى ضحكه أو سبابه تبعًا لمزاجه. إنه يكب على مهمته المفروضة بحماسة غير معهودة وهمة غير مألوفة ويعمل بكل ما أوتي من قوة كأنه يريد أن يخنق بالتعب ألمًا يجثم على صدره فيوشك أن يقتله، هؤلاء رجال أشداء هم جميعًا في زهرة العمر وهم جميعًا يملكون قواهم كاملة... ألا ما أثقل الأغلال في هذا الفصل! لست أسترسل هنا مع العواطف. إن هذه الملاحظة صحيحة صادقة في فصل الدفء، تحت الشمس الساطعة حين يحس المرء بالطبيعة تستيقظ من حوله بقوة لا توصف، حين يحس المرء بذلك في نفسه كلها وفي كيانه كله، فإنه يشق عليه احتمال السجن واحتمال رقابة الحرس واحتمال تحكم إرادة أجنبية فيه أكثر مما كان يشق عليه ذلك من قبل.

وفي الربيع، مع غناء أول قبرة، إنما يبدأ التشرد في سيبيريا كلها وفي روسيا كلها: إن عباد اللّه يهربون عندئذٍ من السجون ويفرون إلى الغابات؛ فبعد الأقبية الخانقة والأحكام الصارمة والأغلال الثقيلة والسياط الموجعة يتشرد هؤلاء حيث يحلو لهم أن يتشردوا ويضربون في الأرض على غير هدى، ويتوقفون حيث تبدو لهم الحياة أمتع وأسهل. إنهم يشربون ويأكلون ما يتيسر لهم مصادفةً، ويناموں الليل هادئين في الغابة أو في حقل، لا يقلقهم هم ولا يرعبهم سجن فكأنهم طيور من طيور اللّه لا تقول إلا لنجوم السماء تحت بصر اللّه: طاب ليلكِ أيتها النجوم! على أن الحياة لا تصفو لهم كل الصفو فهم يتألمون أحيانًا من الجوع والتعب في خدمة الجنرال وقوق وكثيرًا ما يقضون أيامًا بأسرها دون أن يقعوا على كسرة خبز يقتاتون بها. ويجب عليهم أن يتواروا عن جميع الناس، أن يختبئوا تحت الأرض، ويجب عليهم أن يسرقوا وأن ينهبوا بل وأن يقتلوا في بعض الأحيان، يقول الناس عن المنفيين في سيبيريا: إن المنفي أشبه بطفل يهجم على كل ما يرى، ألا أن هذا القول يصدق مزيدًا من الصدق على المتشردين. يكاد يكون جميع المتشردين قُطاع طرق ولصوصًا، تدفعهم إلى ذلك الضرورة أكثر مما يدفعهم إليه ميل في نفوسهم، وتحضهم عليه الحاجة أكثر مما يحضهم عليه الاحتراف. وهناك متشردون كثيرون تأصل فيهم التشرد. إن بين السجناء رجالًا يتشردون بعد أن قضوا مدة سجنهم وأصبحوا مستوطنين. قد يتوهم المرء أن هؤلاء الذين قضوا مدة سجنهم لا بد أن يكونوا راضين عن حياتهم الجديدة سعداء برزقهم المضمون. ولكن الحقيقة ليست كذلك. إن هناك شيئًا مجهولًا يزهدهم في الاستقرار ويجذبهم إلى التشرد. إن هذه الحياة في الغابات إن كانت بائسة رهيبة فإن فيها حرية ومغامرة وإن لها في نظر من عانوها سِحرًا مغريًا سريًا. ولقد يدهشك أن ترى بين هؤلاء المتشردين أناسًا تصفهم بحسن السلوك وهدوء الطبع، أناسًا كانوا يبشرون بأن يستقروا وأن يصبحوا مزارعين ناجحين، ثم إذا هم يتشردون. وقد يتزوج أحد المنفيين، وقد ينجب أطفالًا وقد يعيش خمس سنين في مكان واحد، ثم إذا هو يختفي فجأة في ذات يوم صباح تاركًا زوجته وأولاده مُحيِّرًا أسرته والبلدة عليه. لقد دلوني ذات يوم في السجن على واحد من هؤلاء الهاربين من أسرهم. لم يكن قد ارتكب جريمة، أو لم تحم حوله أية شبهة على الأقل، ولكنه هرب من منزله و تشرد وظل يتشرد طول حياته مضى إلى الحدود الجنوبية من الإمبراطورية وذهب إلى الضفة الأخرى من نهر الدانوب وانتقل إلى سهوب كرخيز في سيبيريا الشرقية وطاف في أرجاء القفقاس. ما من مكان لم يذهب إليه. من يدري؟ لعل هذا الرجل الذي يعصف به هوى الإسفار قويًا هذه القوة، كان يمكن أن يصبح مثل روبنسون كروزو، لو أحاطته ظروف أخرى! لقد عرفت عنه هذه التفاصيل من سجناء آخرين لأنه كان لا يحب أن يتكلم، ولا يفتح فمه إلا في حالات الضرورة القصوى، إنه فلاح قصير ضئيل في نحو الخمسين من عمره

مسالم وديع، إذا نظرت إلى وجهه رأيت فيه هدوءًا بل ورأيت فيه بلاهة... إن فيه هدوءًا يشبه العته. كان يحلو له أن يظل جالسًا في الشمس يدمدم بين أسنانه أغنية من الأغاني، ولكنه يبلغ من الرفق في دمدمتها أنك لو ابتعدت عنه خمس أقدام ما سمعت شيئًا. إن قسمات وجهه متجمدة إن صح التعبير، وهو قليل الطعام يأكل الخبز الأسود خاصةً. لم يشتر في يوم من الأيام خبزًا أبيض أو خمرة؛ بل أحسب أنه لم يملك في يوم من الأيام مالًا، وأنه ما كان له أن يعرف كيف يعد المال. كان لا يُبالي بشيء البتة. وكان يُطعم كلاب السجن أحيانًا بيده، وذلك أمر لم يكن يفعله أحد قط (إن الروسي عامةً لا يحب أن يُطعم الكلاب). ويُقال إنه كان قد تزوج مرتين، وإن له أولادًا في مكان ما... لماذا أُرسل إلى السجن؟ لا أدري عن ذلك شيئًا. على أن رفاقنا كانوا يعتقدون دائمًا أنه سيهرب لا محالة. فلئن ارتضى البقاء حتى الآن هادئًا فذلك يرجع إما إلى أن ساعته لم تحن وإما إلى أن تلك الساعة قد فاتت. لم تكن له أية علاقة بالبيئة الأجنبية التي يعيش فيها. إنه أكثر انطواءً على نفسه من أن تنعقد بينه وبين أحد صلة. وما ينبغي الركون إلى هدوئه الظاهر هذا. ولكن ما هو الربح الذي يمكن أن يجنيه من الفرار؟

يجب أن نقول مع ذلك أن حياة التشرد في الغابات إذا قورنت بحياة السجن هي سعادة فردوسية. صحيح أن حياة التشرد حياة شقاء، ولكنها حياة حرة على الأقل. ذلك هو السبب في أن كل سجين، حيثما يكن من أرجاء روسيا، يلم به القلق عند أولى أشعة الربيع الباسمة. صحيح أنهم لا ينوون جميعًا أن يهربوا. إن واحدًا من مائة فحسب يقرر أن يهرب، أما الباقون فلا يعقدون العزم على الفِرار، وذلك خوفًا من العقبات التي سيصادفونها أو من القصاص الذي سيلقونه. على أن جميع الباقين وهم تسعة وتسعون لا يزيدون على أن يسترسلوا في الأحلام متسائلين متى يستطيعون أن يهربوا وكيف؟ إن التفكير وحده في احتمال نجاح مثل هذه المغامرة يغريهم ويخفف عنهم... وهم لذلك يتذكرون فرارًا سبق أن حدث... لا أتكلم الآن إلا عن السجناء الذين صدرت أحكام في حقهم، أما الذين لم تصدر بعد في حقهم أحكام فإنهم يتخذون قرار الهروب بسهولة أكبر كثيرًا. والذين صدرت في حقهم أحكام، لا يهربون إلا في أول عهدهم بالسجن؛ حتى إذا انقضت على إقامتهم في السجن سنتان أو ثلاث أذعنوا للواقع وأدركوا أن الخير لهم أن يتموا مدة سجنهم وفقًا للقانون وأن يصبحوا مستوطنين.. فذلك أولى بهم من التعرض للضياع عند الإخفاق، والإخفاق ممكن دائمًا فليس هناك إلا سجين من عشرة سجناء ينجح في محاولة (تغيير مصيره). والذين يحاولون ذلك إنما هم السجناء الذين حكم عليهم بالسجن مددًا طويلة. إن من حكم عليه بالسجن خمسة عشر عامًا أو عشرين عامًا يحس أن هذه المدة أبد لا نهاية له... ويجب أن نذكر أخيرًا أن الوسم الذي يدمغ السجناء عقبة من العقبات الكأداء في طريق الهرب. وقولنا (تغيير المصير) إنما هو اصطلاح تكنيكي. فالذين يضبطون متلبسين

بجرم محاولة الفرار يستجوبون على أساس أنهم أرادوا أن يغيروا مصيرهم.. إن هذا التعبير، الأدبي بعض الشيء، يصوِّر الفعل الذي يدل عليه تصويرًا كاملًا. ما من هارب يأمل أن يصبح حرًا كل الحرية، فهو يعلم أن ذلك مستحيل تقريبًا، ولكنه يريد أن يُرسل إلى سجن آخر أو أن يُوطّن في مكان ثانٍ من البلاد؛ يريد أن يُحاكم مرة أخرى لجريمة يرتكبها أثناء تشرده؛ إنه يريد أن يُرسل إلى أي مكان... شريطة أن لا يكون ذلك المكان هو هذا السجن الذي احتبس فيه فأصبح لا يطيقه! إن جميع أولئك الهاربين، إذا هم لم يجدوا أثناء الصيف مأوى يستطيعون أن يقضوا فيه الشتاء، إذا هم لم يصادقوا أحدًا يجني من إخفائهم نفعًا ما، أو إذا لم يحصلوا بالجريمة أحيانًا على جواز سفر يمكنهم من أن يعيشوا آمنين في كل مكان، أقول إن جميع أولئك الهاربين يتكاثرون أثناء الخريف في المدن والسجون، يعترفون بتشردهم ويقضون الشتاء في الحبس آملين أملًا خفيًا أن يهربوا في الصيف المقبل.
وقد أحدث الربيع أثره في نفسي أنا أيضًا. ما أزال أتذكر كيف كنت أنظر إلى الأفق البعيد من خلال شقوق السياج في شراهة عظيمة! كنت ألصق رأسي بأوتاد السياج فما أزال أتأمل العشب الذي يخضوضر. في خندق السور، وأتأمل السماء الزرقاء البعيدة التي تتكاثف شيئًا بعد شيء، من دون أن أشبع من هذا المنظر ومن دون أن يصيبني كلال أو ملال. وكان غمي وحزني يزدادان يومًا بعد يوم، وكان كرهي للسجن ونفوري منه وابتئاسي به يتفاقم مزيدًا من التفاقم شيئًا بعد شيء. والبغض الذي كان يشعر به السجناء نحوي خلال السنين الأولى لأنني أنتمي إلى طبقة السادة كان يُسمِّم حياتي كلها. فكنت أطلب الذهاب إلى المستشفى في كثير من الأحيان من دون أن تكون بي حاجة إلى المستشفى، وإنما أطلب ذلك حتى لا أكون في السجن وحتى أفر من هذا البغض الحاقد العنيد. كان السجناء يقولون لنا: (إن لكم مناقير من حديد يا معشر النبلاء.. لقد مزقتم جلودنا بمناقيركم حين كنا لكم أقنانًا)... لشد ما كنت أحسد أبناء الطبقة الدنيا من الشعب حين كانوا يصلون إلى السجن كان هؤلاء يصبحون رفاقًا وأصحابًا للسجناء على الفور! هكذا كنت أزداد حزنًا واهتياجًا عصبيًا حين يحل الربيع فأستشرف الحرية وأطل على فرحة الطبيعة كلها. وفي نحو الأسبوع السادس من الصوم الكبير قمت بشعائري الدينية. كان صف الضابط قد قسم السجناء ست فئات (بعدد أسابيع الصوم تمامًا)، من أجل أن يقوموا بشعائرهم الدينية فئة بعد فئة. إن كل فئة تتألف من ثلاثين رجلًا على وجه التقريب. ما كان أعظم عزائي أثناء ذلك الأسبوع! كنا نذهب، مرتين أو ثلاث مرات في اليوم، إلى الكنيسة، التي لا تبعد كثيرًا عن السجن. لم أكن قد ذهبت إلى الكنيسة منذ زمن طويل. إن قُداس الصوم الكبير، هذا القُداس الذي كنت أعرفه معرفة جيدة منذ نعومة أظافري، لأنني سمعته كثيرًا في بيتنا، إن هذا القداس مع ما يصاحبه من صلوات وأدعِية وانحناء وركوع، قد هزَّ في نفسي ماضيًا بعيدًا، بعيدًا جدًّا،

وأيقظ فيها أقدم المشاعر. ما زلت أتذكر مدى سعادتي حين كنا نذهب في الصباح إلى بيت اللّه سائرين على الأرض التي تجلدت أثناء الليل. كنا نذهب إلى الكنيسة ومعنا حرس قد شحنوا بنادقهم بالرصاص. وكان الحرس لا يدخلون الكنيسة. حتى إذا صرنا في داخل الكنيسة تجمعنا عند الباب، في الصفوف الأخيرة، فما نكاد نسمع إلا الصوت العميق الذي يخرج من صدر الكاهن صادحًا بالصلوات؛ ومن حين إلى حين نلمح من فوق المصلين جبته السوداء أو رأسه العاري. تذكرت عندئذٍ كيف كنت أثناء طفولتي أنظر إلى أبناء الشعب يزدحمون عند باب الكنيسة كتلة متراصة، ويتقهقرون في خضوع حين يدخل ضابط كبير، أو نبيل، أو سيدة رائعة الثياب لكنها من شدة تدينها وتُقاها مسرعة تشق طريقها إلى الصف الأول وتوشك أن تُشاجر جميع الناس في سبيل أن تحظى بشرف احتلال الأماكن الأولى. لقد كان يُخيّل إليَّ أثناء طفولتي أن ذلك المكان الذي يقع عند مدخل الكنيسة هو المكان الذي يمكن أن يُصلي فيه الإنسان خاضعًا للّه ساجدًا على الأرض شاعرًا بحرارة الإيمان وروعة الخشوع.

وها أنا ذا الآن أقف في ذلك المكان نفسه الذي كان يقف فيه أبناء الشعب، لا بل إن حالي تختلف عن حال أبناء الشعب، فأنا مكبل بالأغلال مجلل بالخزي والعار. إن الناس يتحاشوننا ويخشوننا ويتصدقون علينا. ما زلت أذكر أنني كنت أجد في ذلك إحساسًا مرهفًا ولذة غريبة. كنت أقول لنفسي: (لتكن مشيئة اللّه!). وكان السجناء يصلون بحرارة وحميًّا. وكان كل منهم يجيء إلى الكنيسة بقرشه ليشتري به شمعة أو ليضعه في علبة الإحسان. ولعلهم كانوا يقولون لأنفسهم حين يقدمون هذه القروش: (البشر جميعًا سواسية أمام اللّه...). وكنا نتناول القربان بعد صلاة السادسة، حتى إذا تلا الكاهن، وهو يرفع حقة القربان، الآية التي تقول: (ارحمني يا رب كما رحمت اللص الذي خلصته...)، سجد جميع السجناء تقريبًا على الأرض فجلجلت من ذلك أغلالهم. أحسب أنهم كانوا يفهمون هذه الآية فهمًا حرفيًا ويعدونها خاصة بهم.

وأقبل الأسبوع المقدس فوُزعت علينا إدارة السجن بيضة من بيض عيد الفصح، وقِطعة من خبز معجون بالحليب، وغمرتنا المدينة بالصدقات، وكما حدث في عيد الميلاد حدث في عيد الفصح: زيارة الكاهن حاملًا الصليب، زيارة الرؤساء، توزيع حساء الكرنب المطبوخ بشحم الخنزير، وكذلك السكر والتجول، مع فرق واحد هو أننا أصبحنا نستطيع منذ الآن أن نتريض في الفناء وأن نتدفأ بأشعة الشمس. كل شيء يبدو الآن أكثر ضياءً وأعظم اتساعًا ولكنه أشد حُزنًا كذلك. ثم إن النهار في الصيف، وهو نهار طويل، يكون في أيام الأعياد أثقل على الصدر منه في أيام العمل، لأن التعب في أيام العمل يجعله أقصر.

وأشغال الصيف أشق بكثير من أشغال الشتاء. إن السجناء يعملون صيفًا في الأشغال الشاقة التِي يأمر بها المهندسون، فهم يبنون أو يحِفرون الأِرض أو

يصنعون القرميد، أو يُساقون لإصلاح الأبنية الحكومية حدادة أو نجارة أو دهانًا، ومنهم من يذهب إلى مصنع الآجر يشوي الآجر وذلك كان في نظرنا أشق الأعمال طرًا. كان هذا المصنع يقع على بعد أربعة فراسخ تقريبًا من قلعتنا، وكانت ترسل إليه، طوال الصيف، في الساعة السادسة من كل صباح، جماعة من السجناء عددها خمسون، وكان يختار لهذا العمل أولئك الذين لا يجيدون أية مهنة ولا ينتمون إلى أية ورشة. وكان السجناء الذين يذهبون إلى مصنع الآجر يحملون معهم خبز يومهم، لأنهم بسبب بعد المسافة لا يستطيعون أن يعودوا للغداء حين يعود غيرهم، ولا أن يسيروا ثمانية فراسخ في غير طائل، وإنما هم يأكلون في المساء حين يرجعون إلى السجن، وكان يعهد إليهم هنالك بأعمال للنهار كله، ولكن هذه الأعمال تبلغ من الضخامة أن أحدًا لا يمكنه انجازها. كان عليهم في أول الأمر أن يحفروا الأرض فيخرجوا الخضار ثم ينقلوه ويجبلوه بأرجلهم في الحفرة، وأن يصنعوا منه بعد ذلك مقدارًا كبيرًا من القرميد، مائتي قرميدة وربما مائتين وخمسين، لم أذهب إلى مصنع الآجر إلا مرتين. كان السجناء الذين يُرسلون إلى هذا المصنع يعودون منه في المساء وقد تشعلت وجوههم وانهدت قواهم، فهم لا ينفكون يأخذون على الآخرين أنهم تركوا لهم أقسى عمل أغلب ظني أن مآخذهم هذه كانت تعزيهم وتسري عنهم وتلذ لهم. وكان منهم أناس يحبون هذا العمل ويؤثرونه على غيره من الأعمال، أولًا لأنه يمكنهم من الذهاب إلى خارج المدينة على شاطئ نهر ارتيش في مكان رحب مريح، فالضواحي أجمل من المباني الحكومية الكريهة؛ وثانيًا لأن في وسعهم أن يُدخنوا هنالك بحرية تامة، بل وأن يلبثوا راقدين نصف ساعة فيشعروا من ذلك بأعظم رضى.

أما أنا فقد كنت أعمل في ورشة، أو أعمل في تكسير الجص، أو في نقل الآجر الذي يُستعمل في البناء. وقد وقع على عاتقي هذا العمل الأخير شهرين كاملين. فكان عليَّ أن أنقل حملي من الآجر من شواطئ نهر ارتيش على مسافة مائة وأربعين مترًا ثم أقطع خندق القلعة حتى أصل إلى الثكنة التي كانت بسبيل البناء. وكان هذا العمل يناسبني تمامًا رغم أن الحبل الذي أحمل به الآجر كان ينشر كتفي نشرًا. والشيء الذي كان يعجبني خاصةً هو أن قواي كانت تنمو نموًا واضحًا.. كنت في أول الأمر لا أستطيع أن أحمل ثماني أجرات دفعة واحدة، وكانت كل أجرة تزن حوالي اثني عشر رطلًا. فأصبحت أستطيع أن أحمل اثنتي عشرة أجرة وبل وخمس عشرة، وابتهجت من ذلك أشد الابتهاج واغتبطت له أعظم الاغتباط. لم تكن حاجتي إلى القوة الجسمية أقل من حاجتي إلى القوة النفسية من أجل أن أستطيع احتمال جميع المتاعب والمكاره في تلك الحياة اللعينة.

وكنت أريد أن أحيا حين خروجي من السجن. إنني أجد لذة في نقل الآجر لا لأن هذا العمل يقوي جسمي، فحسب، بل لأنه يمضي بي إلى ضفاف نهر ارتيش. ولئن كنت أتكلم كثيرًا عن هذا المكان فلأنه المكان الوحيد الذي

يمكن أن أرى منه دنيا اللّه، أن أرى الأفق البعيد المضيء، أن أرى السهوب الفسيحة الحرة المقفرة الذي كان عريها يُحدث في نفسي أثرًا غريبًا. أما ميادين العمل الأخرى فكانت كلها في القلعة أو ما حولها، وكنت منذ الأيام الأولى قد كرهت هذه القلعة، وكرهت مبانيها خاصة. كان منزل الميجر مثلًا يبدو لي مكانًا كريهًا لعينًا مُنفرًا، وكنت كلما مررت به أنظر إليه نظرة تفيض بغضًا ومقتًا. أما الشاطئ فليس كذلك، فإن المرء يستطيع هنالك أن ينسى نفسه على الأقل وهو ينظر إلى الفضاء الواسع، كما ينسى السجين نفسه وهو ينظر إلى العالم الحر من خلال القضبان الحديدية في سجنه. كان كل شيء في ذلك المكان حبيبًا إلى قلبي عزيزًا على نفسي: الشمس الساطعة في السماء الأزرق اللانهائي، والأغاني البعيدة التي يصدح بها الكرخيزيون الآتون من الضفة الأخرى...

ما أكثر ما كنت أطيل النظر إلى كوخ فقير مسود من السخام، يسكنه بايجوشي ما!... ما أكثر ما كنت أطيل النظر إلى الدخان المزرق الذي ينتشر في الهواء، وإلى المرأة الكرخيزية التي تعنى بخروفيها!.. ذلك منظر متوحش فقير، ولكنه حر.. كنت أتابع ببصري طيرًا يشق بتحليقه الهواء الشفاف الصافي... إنه يُلامس الماء ثم يختفي في السماء اللازوردية ثم يعود فيظهر صغيرًا كنقطة... حتى الزهرة الصغيرة المسكينة التي تذوي في شق من شقوق الشاطئ، والتي أراها في مطلع الربيع، كانت تجذب انتباهي وتوقظ حناني... إن الحزن الذي يجثم على صدري في هذه السنة الأولى من سجن الأشغال الشاقة كان لا يُطاق وكان يثير أعصابي. منعني هذا القلق في أول الأمر من ملاحظة الأشياء التي تحيط بي. كنت أغمض عيني ولا أريد أن أرى شيئًا. وبين الناس الفاسدين الذين كنت أعيش معهم لم أستطع أن أميِّز الرجال الذين كانوا رغم القشرة الظاهرة المنفرة قادرين على أن يفكروا وأن يحسوا. لا ولا استطعت أن أسمع وأن أتبين كلمة فيها شيء من عاطفة، وسط السخريات المسمومة التي كانت تنهال عليَّ انهيال المطر... مع أن هذه الكلمة كانت تُقال ببساطة تامة، دون غاية مخبأة أو هدف مبيت، وكانت تصدر عن الأعماق من قلب إنسان تألم كثيرًا واحتمل أكثر مما احتملت وقاسى أكثر مما قاسيت. ولكن علام الإفاضة في هذا؟

كان التعب الشديد مصدر رضى لي وغبطة، لأنه يجعلني آمل في نوم عميق. كان النوم في فصل الصيف عذابًا ممضًا أكثر مما كان كذلك في فصل الشتاء. على أن هناك أمسيات كانت رائعة والحق يُقال... إن الشمس التي لا تغرق فناء المنزل طوال النهار تغيب أخيرًا... فإذا الهواء طري، وإذا الليل بعد ذلك بارد بعض البرودة... فكذلك هي ليالي السهوب... كان السجناء، بانتظار أن يُحبسوا في الثكنات، يتجولون في الفناء جماعات، ولاسيما قرب المطبخ... فهنالك كانت تُناقش المسائل التي تهم السجناء، وهنالك كان يُعلق على بعض الشائعات الواردة من خارج السِجن، وهي في كثير من الأحيان

شائعات سخيفة مستحيلة ولكنها تثير دائماً انتباه هؤلاء الرجال الذين اجتثوا من المجتمع. من ذلك أن نسمع فجأة أن الميجر قد طُرد. كان السجناء كالأطفال سرعةَ تصديقٍ. إنهم يعلمون حق العلم أن النبأ ملفّق، وأن طرد الميجر ليس معقولًا، وأن ناقل الخبر كذاب محنّك هو كفاسوف؛ ولكنهم مع ذلك يتعلقون بهذه الشائعة ويناقشونها ويغتبطون لها، ويعزون أنفسهم بها، ثم ما يلبثون أن يخجلوا من أنهم أتاحوا الرجل كفاسوف أن يخدعهم ويضللهم.
هذا سجين يصبح قائلًا:
- ومن ذا الذي يستطيع أن يطرده؟ لا تقلق عليه! إنه رجل يعرف كيف يُحافظ على مركزه!
وهذا سجين آخر يحسن الجدال ويتحمس للنقاش، سجين خبر الحياة ورأى العالم وطاف في البلاد، هذا هو يجيب قائلًا:
- ولكن أليس له رؤساء؟
وهذا ثالث يقول عابسَ الوجه مكفهر السحنة كأنه يحدث نفسه:
- الذئاب لا يأكل بعضها بعضًا.
إن هذا السجين الثالث رجل أشيب الشعر كان قابعًا في أحد الأركان يأكل حساء الكرنب.
وهذا سجين رابع يقول في غير اكتراث البتة، وهو ينقر على آلة البلالايكا التي كانت في يده:
- هل تظن أن الرؤساء سيسألونك رأيك ويطلبون نصحك من أجل أن يطردوه أو لا يطردوه؟
فيُجيب الثاني قائلًا بحماسة وغضب:
- ولم لا؟ إذا سئلتم أيها الرفاق فعليكم أن تجيبوا بصراحة، ولكن لا... نحن هنا نظل نصيح ما شاء لنا هوانا أن نصيح حتى إذا آن أوان العمل تنقلنا ونكصنا على أعقابنا.
فيقول عازف البلالايكا:
- طبعًا!... فمن أجل هذا إنما وجد سجن الأشغال الشاقة.
استأنف الآخر كلامه حتى من دون أن يسمع ما أُجيبَ به:
- منذ أيام بقي قليل من دقيق... هو نفايات لا قيمة لها... جمعناها وأردنا أن نبيعها لننتفع بثمنها... فماذا فعل حين علم بذلك وجيء بها إليه؟ لقد صادرها لنفسه... من باب التوفير طبعًا!... أصحيح هذا أم لا؟
- ولكن إلى من عساك تشكوه؟
- إلى من عساي أشكوه؟ أشكوه إلى المفتش الذي سيصل قريبًا.
- أي مفتش؟
- حقًّا يا رفاق، إن مفتشًا سيصل في القريب!
كذلك قال سجين آخر هو شاب قوي الجسم قرأ كتاب (دوقة دي لا فاليير) أو قرأ كتابًا آخر من هذا القبيل، وكان في الماضي عريفًا في كتيبة بالجيش، إنه

رجل هازل مازح، ولكن السجناء كانوا يحترمونه بعض الاحترام لسعة اطلاعه. فما إن قال جملته تلك حتى نهض من دون أن ينتبه أي انتباه إلى الجدال الذي كان يهز السجناء جميعًا ومضى إلى الطباخ رأسًا يطلب منه شيئًا من كبد (كثيرًا ما كان طباخونا يبيعون أطعمة من هذا النوع، فهم يشترون كبدًا كاملًا فيقسمونه ويبيعونه للسجناء الآخرين قطعًا). سأله الطباخ:

- بكم؟ بكوبين أم بأربعة؟

- بأربعة كوبكات. فليحسدني الآخرون. نعم يا رفاق، إن جنرالًا، جنرالًا حقيقيًا، سيصل من بطرسبرج للتفتيش في سيبيريا. صحيح. قيل ذلك في منزل الآمر.

أحدث هذا النبأ انفعالًا شديدًا خارقًا. ظل السجناء ربع ساعة يتساءلون عن الجنرال من يكون وما لقبه وهل هو أعلى رتبة من جنرالات مدينتنا؟ إن السجناء يعشقون الكلام على الرتب والرؤساء، ومعرفة من هو الذي يملك من هؤلاء الرؤساء منزلة أعلى من الذي يستطيع أن يحني ظهور الموظفين الآخرين ومن الذي يحني ظهره للموظفين الآخرين؟ إنهم في سبيل هؤلاء الجنرالات يتشاجرون ويتشاحنون حتى لقد يصلون من ذلك إلى التماسك بالأيدي والتضارب. أية مصلحة يمكن أن تكون لهم في هذا؟ إنك حين تسمع السجناء يتكلمون عن الجنرالات والرؤساء تستطيع أن تقدر درجة النمو والذكاء لدى هؤلاء الرجال كما كانوا في المجتمع قبل دخول السجن. ويجب أن نذكر أن الحديث عن الجنرالات والإدارة العليا كان يُعد عندنا أهم حديث وأجمل حديث.

قال ماسوف، وهو رجل قصير القامة، أحمر الوجه، مندفع الطبع، محدود العقل، كان هو الذي أشاع أن الميجر سيستبدل به آخر؛ قال:

- ها أنتم ترون أنهم يريدون طرد الميجر.

فقال الشيخ المكتئب وقد فرغ من تناول حسائه، قال بصوت متقطع:

- سوف يرشوهم.

وقال آخر:

- سوف يرشوهم حتمًا. لقد سرق هذا اللص مالًا كثيرًا، لا سيما وأنه كان ميجرًا قبل أن يأتي إلى هنا. ومنذ زمن غير طويل خطب ابنة الأسقف.

- ولكنه لم يتزوج. لقد طُرد. وهذا يدل على أنه فقير. يا للخطيب الرائع! إنه لا يملك إلا الثياب التي يرتديها! في السنة الماضية، أثناء عيد الفصح، خسر في القمار كل ما كان معه! إن فدكا هو الذي قال لي ذلك.

- صحيح. إنه ليس بالمبذر المتلاف. ولكنه لا يملك الآن قرشًا.

هنا انبرى سكوراتوف يشارك في الحديث فقال:

- صدقوني يا شباب ليس يحسن بالمرء أن يتزوج حين يكون فقيرًا. لقد عرفت هذا بنفسي. المرء يستعجل الزواج، ولكن اللذة لا تطول.

قال الفتى المتحمس الذي كان نائب عريف في الجيش:

- أتحسب أننا سنتلهى بالحديث عنك الآن؟ وأما أنت يا كفاسوف فإنك غبي كبيرا إذا كنت تظن أن الميجر يمكن أن يرشو جنرالًا مفتشًا، فأنت تخطئ خطأً فاحشًا! وهل تتصور أن يُرسل الجنرال من بطرسبرج خصيصًا ليفتش صاحبك الميجر؟ ألا إنك ما تزال على جانب عظيم من الغباء يا فتى! أنا أقول لك ذلك...

قال واحد من الجمهور بلهجة الشك:

- هل تظن أنه لا يأخذ رشوات لأنه جنرال؟

- طبعًا... وإذا أخذ رشوات فهو يأخذ رشوات ضخمة.

- حتمًا... الرشوة على قدر المرتبة، فكلما كانت الرتبة أعلى كانت الرشوة أضخم!

قال كفاسوف بلهجة جازمة:

- ما من جنرال يرفض رشوة!

فقاطعه باكلوشين فجأة ليسأله باحتقار:

- هل رشوتهم أنت حتى تقول هذا الكلام جازمًا؟ بل هل رأيت في حياتك كلها جنرالًا!

- نعم يا سيدي!

- كذاب!

- أنت الكذاب!

- طيب يا أولاد ما دام قد رأى جنرالًا فليقل لنا أي جنرال رأى! هيَّا قل! إنني أعرف جميع الجنرالات!

قال كفاسوف بلهجة مترددة:

- رأيت الجنرال زيبرت.

- زيبرت؟ لا يوجد جنرال بهذا الاسم! لعل هذا الجنرال قد شاهد ظهرك حين جلدوك. لعل زيبرت هذا لم يكن إلا ليوتنان كولونيل ولكنك كنت قد بلغت من شدة الفزع عندئذٍ أنك حسبته جنرالًا.

صرخ سكوراتو يقول:

- لا... اصغوا إليَّ يا أصحاب، لأنني رجل متزوج. حقًّا لقد كان يوجد في موسكو جنرال باسم زيبرت. إنه ألماني أصبح روسيًا. كان هذا الجنرال يعترف كل سنة للقس بالخطايا التي قارفها مع سيدات صغيرات... وكان يشرب كما يشرب البط. كان يشرب أربعين كأسًا على الأقل من ماء نهر موسكوفا. كان يستشفى بذلك من مرض لا أدري ما هو. إن خادمه هو الذي قال لي ذلك.

علق السجين صاحب البالالايكا:

- لا شك أن السمك كان يسبح في بطنه.

وكان هناك سجين اسمه مارتينوف هو شيخ كثير الحركة دائم الانشغال كان قد خدم في سلاح الفرسان، فها هو ذا يتدخل في الحديث سائلًا:

- هلّا هدأتم قليلًا؟ أنكون في جد ثم تروحون تقولون سخافات؟ أي مفتش سيصل يا رفاق؟

فقال واحد من المتشككين:

- هؤلاء أناس كذابون! اللّه يعلم من أين جاءوا بهذا النبأ! ما هذا الكلام كله إلا هراء...

قال كوليكوف بلهجة قاطعة، وكان قد لزم حتى ذلك الحين صمتًا مهيبًا وقورًا:

- لا... ليس هذا الكلام هراء.

إن كوليكوف رجل ذو وزن، في نحو الخمسين من عمره، له وجه متناسق القسمات، يصطنع في سلوكه آدابًا فيها عظمة واحتقار، ويستمد من ذلك غرورًا وأبهة. إن في عروقه دمًا غجريًا، وهو يعمل بيطريًا، ويجني أرباحًا من معالجة الخيول، ويبيع في سجننا خمرًا؛ ليس هو بالغبي، حتى ليمكن أن يعد ذكيًا، هذا إلى ذاكرة زاخرة. وهو يساقط أقواله بعناية كبيرة كأن كل كلمة من كلماتها تساوي روبلًا.

تابع يقول بلهجة هادئة:

- هذا الكلام صحيح. سمعته في الأسبوع الماضي. إنه جنرال ذو شارات ضخمة، سيفتش سيبيريا كلها. لا شك أنه يأخذ رشوات، ولكن ميجرنا (ذا العيون الثماني) ليس هو الذي سيرشوه: إنه لن يجرأ أن يتسلل قربه، ذلك أن هناك جنرالات وجنرالات، يا رفاق، كما هنالك حُزَمٌ وحُزَم من الحطب. أنتم تعرفون هذا. ليس جميع الجنرالات سواء. ولكنني أؤكد لكم أن ميجيرنا سيبقى في مكانه. نحن بلا ألسن. نحن لا يحق لنا أن نتكلم. أما رؤساؤنا فليسوا من سيشي به. سوف يصل المفتش إلى سجننا، فما أن يلقي نظرة حتى ينصرف؛ وسيقول إن كل شيء يجري في سجننا كما يجب أن يجري.

- صحيح. ولكن هذا لا ينفي أن الميجر قد خاف. إنه سكران منذ الصباح.

- وفي هذا المساء طلب عربتين... إن فدكا هو الذي قال ذلك.

- لا يصير الزنجي أبيض اللون مهما تغسله. أهذه أول مرة ترونه فيها سكران؟

اضطرب السجناء وثاروا فقال بعضهم لبعض:

- لسوف يكون ظلمًا شديدًا أن لا يُصنع بهذا الميجر شيء.

انتشر خبر وصول المفتش في السجن كله. أخذ السجناء يطوفون في الفناء ويرددون النبأ الخطير، فبعضهم يصمتون ويحافظون على هدوئهم ليظهروا بمظهر الوقار وليسبغوا على أنفسهم شأنًا وخطرًا. وبعضهم لا يبالي ولا يكترث، وعلى عتبة الأبواب جلس بعض السجناء ليعزفوا على البالالايكا، بينما راح بعضهم الآخر يتابع ثرثرته، وهذه جماعات منهم تغني في استرخاء. ولكن فناء السجن مضطرب مهتاج بوجه عام.

وفي نحو الساعة التاسعة عُدنا وأودعنا الثكنات التي تغلق علينا أبوابها في الليل. هو ليل قصير من ليالي الصيف. ونحن لذلك نوقظ في الساعة الخامسة من الصباح. غير أن أحدًا منا لا يستطيع أن ينام قبل الحادية عشرة

من المساء، إن الأحاديث لا تنقطع حتى تلك الساعة، وكذلك الحركة والذهاب والإياب... حتى لقد يتحلق السجناء للمقامرة في بعض الأحيان كما يفعلون ذلك في ليالي الشتاء. الحر خانق لا يُطاق. صحيح أن النافذة المفتوحة تدع طراوة الليل تدخل غير إن السجناء لا يزيدون على أن يضطربوا فوق سررهم الخشبية كأنهم في هذيان. ما أكثر الهوام والحشرات! لقد كان عندنا منها كثير في الشتاء. غير أنها تتكاثر حين يأتي الربيع تكاثرًا رهيبًا ما كان لي أن أصدقه لولا أن قاسيت منه بنفسي. وكلما تقدم الصيف ازدادت الهوام والحشرات. إن المرء يستطيع أن يتعود على الحشرات فقد لاحظت ذلك، غير أنها تظل عذابًا لا يُطاق، عذابًا يبلغ من الهول أنه يبعث في الجسم حُمى!... إن المرء يحس أثناء النوم أنه غير نائم، وإنما هو يهذي... وأخيرًا، عند الصباح، حين يتعب عدوك، فتنام نومًا هنيئًا في طراوة الفجر، تسمع الطبل الظالم الذي لا يرحم، يقرع على حين فجأة... إنك تسمع ضربات العصا على الطبل وهي تزداد سرعة وقوة... فتلعن هذه الضربات، ولا تملك وأنت تلطو في معطفك إلا أن تخطر ببالك هذه الفكرة على غير إرادة منك: سوف يتكرر هذا غدًا، وبعد غد، سنين متتالية، إلى أن يُفرج عنك وتتمتع بحريتك. متى تأتي هذه الحرية؟ أين هي هذه الحرية؟... ولا بد أن تنهض، فإن السجناء قد أخذوا يسيرون حولك، وعاد الصخب المألوف يعلو... ويرتدي السجناء ثيابهم، ويسرعون للذهاب إلى العمل على أنك ستستطيع أن تنام ساعة بعد الظهر.

إن ما قيل عن قدوم المفتش كان هو الحقيقة بعينها. كانت الشائعات تتأكد يومًا بعد يوم، وعلم أخيرًا أن موظفًا كبيرًا برتبة جنرال قد جاء من بطرسبرج ليفتش سيبيريا كلها، وأنه وصل إلى توبولسك فهو الآن هناك. كنا نطلع كل يوم على شيء جديد. كانت الشائعات تصلنا من المدينة. قيل إن الجميع خائفون. وأن كل واحد يقوم باستعداداته من أجل أن يظهر بأحسن مظهر. السلطات تنظم استقبالات وحفلات راقصة ومهرجانات وأعيادًا من كل نوع. وأرسلت جماعات من السجناء لتمهيد شوارع القلعة، وإصلاح حُفر الأرض، وطلاء الأسيجة والأوتاد، وتطيين الجدران، وصبغ الأبواب، وإصلاح كل ما هو ظاهر للعيان. كان السجناء يفهمون الغاية من هذا العمل فهمًا تامًا، وكانت مناقشاتهم ما تنفك تزداد حرارة وحدة وشدة. أصبحت أخيلتهم لا تعرف حدودًا. حتى لقد أصبحوا يهيئون أنفسهم لتقديم بعض المطالب متى وصل الجنرال، ولكن ذلك لا يمنعهم قط من أن يتشاتموا ويتشاجروا. وكان ميجرنا على مثل نار الجمر قلقًا. إنه يزور السجن بغير انقطاع، يصرخ مزيدًا من الصراخ ويتهجم على السجناء أكثر مما كان يتهجم عليهم من قبل، ويرسلهم لأتفه الأسباب إلى مقر الحرس من أجل إنزال عقوبة من العقوبات فيهم، ويهتم اهتمامًا خاصًا بنظافة الثكنات وترتيبها وحسن مظهرها. وفي تلك الآونة وقعت قصة قصيرة لم تهز هذا الضابط ولم تؤثر فيه قط، كما كان يمكن أن

يُتوقع ذلك، بل أرضته إرضاءً كبيرًا وأحدثت له بهجة عظيمة. إن واحدًا من السجناء قد طعن سجينًا آخر بمخرز في صدره عند القلب تقريبًا.
الجاني اسمه لوموف. أما المجني عليه فقد كان يسمى في سجننا باسم جافريلكا: إنه واحد من أولئك المتشردين العتاة الذين سبق أن تكلمت عنهم. لا أدري هل كان له اسم آخر، ولكنني لم أعرف له في يوم من الأيام اسمًا غير اسم جافريلكا.
كان لوموف فلاحًا ميسورًا من سكان تومسك بإقليم ك... من أسرة عدد أفرادها خمسة أخوان وثلاثة أبناء. إنهم فلاحون أغنياء كان يقال في المقاطعة كلها إن ما يملكونه يربو على ثلاثمائة ألف روبل نقدًا. كانوا يفلحون ويدبغون الجلود، ولكن الأعمال التي كانوا يتعاطونها خاصة هي الإقراض بالربا، وإخفاء المتشردين والمسروقات وما إلى ذلك من أمور... وكان نصف سكان المقاطعة مدينًا لهم بمال، فهو واقع بين براثنهم. وكانوا يُعدون أذكياء ماكرين، وكانوا يصطنعون مظاهر الأبهة والعظمة. وقد اتفق أن حلَّ ضيفًا على الأب في ذات مرة موظف من كبار الموظفين فأحب الموظف فيه جسارته وبراعته ودهاءه، فتخيل أفراد أسرة لوموف عندئذٍ أن في وسعهم أن يفعلوا ما يحلو لهم، فتمادوا في ما كانوا يقومون به من أعمال يُحرِّمها القانون. وكان جميع الناس يدمدمون متذمرين، ويتمنون لو يرونهم غائرين تحت الأرض مائة قدم. غير أن أفراد أسرة لوموف ما برحوا يتمادون في استهتارهم حتى أصبحوا لا يخشون لا رؤساء الشرطة ولا قضاة المحاكم في المقاطعة. وأخيرًا خانهم الحظ، فإذا هم يضيعون لا بسبب الجرائم السرية التي كانوا يرتكبونها بل بسبب تهمة ملفقة ووشاية كاذبة. كان لهم على بعد عشرة فراسخ من منزلهم مزرعة يعيش فيها أثناء فصل الخريف ستة عمال كرخيزيين كانوا قد استبعدوهم منذ زمن طويل. وفي ذات يوم، وُجد هؤلاء الكرخيزيون قتلى، وكشف التحقيق الذي دام مدة طويلة على أشياء فظيعة. واتهم أفراد أسرة لوموف بأنهم هم الذين قتلوا هؤلاء العمال الستة. إن لوموف وابن أخيه هما اللذان قصا هذه القصة فعرفها جميع السجناء؛ قالا إن السلطات قد قررت أن الكرخيزيين كانوا مدينين لأفراد أسرة لوموف بمبالغ طائلة من المال، وأن هؤلاء بسبب شدة بخلهم وطمعهم، ورغم ثرائهم العريض، قد قتلوا الكرخيزيين حتى لا يدفعوا لهم دينهم عليهم. وفي أثناء التحقيق والمحاكمة ذابت ثروتهم وتبددت. ومات الأب. ونفي الأبناء. وحكم على أحدهم مع عمه بسجن الأشغال الشاقة خمسة عشر عامًا. الحق أن أفراد أسرة لوموف كانوا أبرياء كل البراءة من الجريمة التي نُسبت إليهم. وفي ذات يوم، اعترف جافريلكا، وهو إنسان حقير وغد دنيء، عُرف بكونه متشرد أيضًا، ولكنه شديد المرح كثير النشاط، اعترف بأنه هو القاتل. لست أدري في الواقع هل اعترف هو نفسه بذلك، ولكن السجناء كانوا يعدونه هو قاتل الكرخيزيين، لقد كان لجافريلكا هذا شأن مع أفراد أسرِة لوموف أيام تشرده (وهو لم يجىء إلى

سجننا إلا لقضاء فترة قصيرة جدًّا بتهمة الهرب من الجندية والتشرد)؛ وقد ذبح الكرخيزيين متعاونًا مع ثلاثة متشردين آخرين أملًا في نهب المزرعة.
لم يكن السجناء يحبون لوموف وابن أخيه، لا أدري لماذا! إن ابن أخيه فتى خشن الطبع، لماح الذكاء، يحب معاشرة الناس، ولكن عمه الذي طعن دافريلكا بمخرز فلاح غبي مندفع لا ينفك يتشاجر مع السجناء فيضربه هؤلاء ضربًا مبرحًا. وكان جميع من في السجن يحبون جافريلكا بسبب مرح مزاجه ولين عريكته وسهولة معشره. وكان لوموف وابن أخيه لا يجهلان أنه مقترف الجريمة التي حكم عليهم بسببها، ولكنهم لم يشاجراه في يوم من الأيام. وكان جافريلكا لا يلتفت إليهما أي إلتفات ولا يهتم بهما أي اهتمام. أما المشاجرة التي أدت إلى الطعن بالمخرز فقد شبت بين لوموف وجافريلكا بسبب امرأة مقززة كان جافريلكا ينافس العم لوموف عليها، فلما تباهي جافريلكا ذات يوم بما ناله من حظوة لديها، جن جنون الفلاح غيرةً، فإذا هو يُغمد مخرزه أخيرًا في صدر جافريلكا.
وكان أفراد أسرة لوموف، رغم أن الحكم الذي انترع منهم جميع أملاكهم قد أصابهم بالخراب والدمار، كانوا يعدون في السجن أغنياء جدًّا. لقد كانوا يملكون مالًا، وكان عندهم سماور، وكانوا يشربون شايًا. وكان الميجر لا يجهل ذلك، وهو يكره لوموف وابن أخيه، ويحاول إزعاجهما. وكان الرجلان يفسران سلوكه معهما بأنه يرغب في أن يقدما له رشوة، ولكنهما لم يشاءا أن يفعلا.
ولو قد أغمد لوموف مخرزه في صدر جافريلكا بمزيد من القوة إذن لأجهز عليه حتمًا، ولكنه لم يستطع أن يحدث في جسمه إلا خدشًا. وأُبلغ الميجر بالنبأ. فها هو ذا يصل إلى الثكنة لاهثًا وقد ظهر في وجهه الرضا والارتياح ما زلت أراه إلى الآن مقبلًا علينا. اتجه إلى جافريلكا يسأله بلهجة لطيفة ودودة أبوية، كأنه يخاطب ابنه:
- هل تستطيع يا صديقي أن تذهب إلى المستشفى وحدك، أم أنت بحاجة إلى نقلك إليه؟ لا... أعتقد أن من الأفضل أن يؤتى لك بحصان. هيَّا اسرجوا حصانًا على الفور.
قال جافريلكا:
- ولكنني لا أحس بشيء يا صاحب النبالة الرفيعة. إنه لم يزد على أن خدشني هنا يا صاحب النبالة الرفيعة.
- أنت لا تعلم يا صديقي أنت لا تعلم... سوف ترى... لقد أصابك في موضع خطر... كل شيء متوقف على موضع الإصابة... لقد أصابك هذا اللص تحت القلب تمامًا!
قال الميجر ذلك ثم أضاف يُخاطب لوموف:
- انتظر... انتظر... لسوف أقتص منك! خذوه إلى مقر الحرس!
وبرَّ الميجر بوعده، حوكم لوموف. ورغم أن الجرح كان طفيفًا، فإن التعمد ظاهر واضح، لذلك زيدت مدة سجن لوموف بضع سنين، وجُلد ألف جلدة

بالعصا، وسر الميجر بذلك سرورًا عظيمًا..
وصل المفتش أخيرًا.
وجاء يفتش السجن غداة وصوله. كان اليوم يوم عيد، وكان كل شيء قد أصبح منذ بضعة أيام نظيفًا لامعًا أُحسن غسله. وكانت رؤوس السجناء قد حُلقت، وكانت ملابسهم الناصعة البياض خالية من كل بقعة (إن النظام يوجب أن يلبسوا في الصيف صدرات وسراويل من القطن، وعلى ظهر كل واحد منهم رقعة مربعة سوداء مخيطة إلى الصدرة، قطرها ثمانية سنتمترات). وكان السجناء قد تلقوا درسًا خلال ساعة كاملة: فتعلموا ما الذي يجب عليهم أن يُجيبوا به، وبأي ألفاظ يجب عليهم أن يُجيبوا، إذا خطر ببال هذا الموظف الكبير أن يحييهم؛ حتى لقد أجريت تجارب للتأكد من أن السجناء قد تلقنوا الدرس وحفظوه. وكان الميجر كمن فقد صوابه، اصطف الجنود في أماكنهم قبل وصول الجنرال بساعة كاملة ووقفوا ساكنين جامدين كالتماثيل، مسبلين أذرعهم، جاعلين أصابعهم ملاصقة لخياطة السروال، وأخيرًا، في الساعة الواحدة بعد الظهر، دخل المفتش، إنه جنرال مهيب الطلعة، في هيئته أبهة تبلغ من القوة أن قلب جميع الموظفين في سيبيريا الغربية لا بد أن تخفق من الذعر خفقانًا شديدًا متى رأته. دخل الجنرال بادي القسوة ظاهر العظمة، يتبعه رهط من جنرالات وكولونيلات هم الذين كانوا يشغلون وظائف كبيرة في مدينتنا. وكان هنالك أيضًا مدني طويل القامة منسق القسمات يرتدي فراكًا وينتعل حذائين. كان هذا الشخص يتصرف تصرفًا فيه حرية وطلاقة، وكان الجنرال يتجه بالكلام إليه كل لحظة في كثير من الأدب واللطف. إن هذا المدني آتٍ كذلك من بطرسبرج. وقد حيَّر أمره السجناء كثيرًا، بسبب ما يظهره له الجنرال العظيم من احترام. وقد عُرف اسمه و عُرفت وظائفه بعد ذلك، ولكن ما أكثر الكلام الذي دار عليه قبل أن يُعرف اسمه وتعرف وظائفه! أما صاحبنا الميجر الذي كان متأنقًا في ملبسه أشد التأنق، وكان يحيط عنقه بياقة برتقالية اللون... فإنه لم يحدث في نفس الجنرال أثرًا حسنًا، وذلك بسبب ما لاحظه الجنرال من احتقان في عينيه، وتورد في وجهه وقسوة في ملامحه، وكان الميجر قد نزع نظارتيه احترامًا لرئيسه ووقف على مسافة منتصبًا كوتد، منتظرًا على أحرَّ من الجمر اللحظة التي يؤمر فيها بشيء ليسارع إلى تنفيذ رغبة صاحب السعادة، ولكن أحدًا لم يشعر بالحاجة إلى خدماته. طاف الجنرال بالثكنات صامتًا، وألقى نظرة على المطبخ، حيث ذاق حساء الكرنب الحامز. وقد دلوه عليَّ، وذكروا له أنني نبيل سابق، وأنني فعلت كيت كيت... فقال الجنرال:
- آ... وكيف سلوكه؟
فقيل له:
- سلوكه الآن مرضٍ يا صاحب السعادة، سلوكه الآن مرضٍ.

فأومأ الجنرال برأسه وخرج من السجن بعد دقيقتين. كان السجناء مبهورين حائرين مضطربين أشد الاضطراب. أما أن يشكوا الميجر فذلك أعظم أمر، وما كان يمكن أن يخطر ببال أحد منهم. ولقد كان الميجر واثقًا من ذلك كل الثقة سلفًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

6

حيوانات السجن

إن شراء جنيدكو (الحصان الكميت)، وقد تم بعد ذلك بزمن قصير، كان للسجناء تسلية أمتع كثيرًا من زيارة الشخصية الكبيرة التي تحدثت عنها. كنا في السجن بحاجة إلى حصان لنقل الماء ورمي الأوساخ وغير ذلك. وكان أحد السجناء هو الذي يهتم بالحصان ويجره، تحت الحراسة طبعًا. كان حِصاننا يعمل من الصباح إلى المساء تقريبًا. إنه حيوان جيد، ولكنه أصبح ضعيفًا مهترئًا من طول ما عمل. وفي ذات يوم، عشية عيد القديس بطرس، بينما كان يحمل برميلًا من الماء، سقط على الأرض ونفق بعد بضع لحظات. أسف السجناء عليه كثيرًا. وهاهم أولاء يحتشدون حوله، فيناقشون أمر موته ويعلقون عليه، وبرهن الذين سبق لهم العمل في سلاح الفرسان، والغجر، والبياطرة، وغيرهم، على معرفة عميقة بالخيل عامة، واختلفت آراؤهم في الأمر واختصموا عليه. ولكن ذلك كله لم يرد حصاننا الكميت إلى الحياة، بل ظل ممددًا على الأرض منتفخ البطن، وأحس كل سجين أن من واجبه أن يجسه بإصبعه. وأُعلم الميجر أخيرًا بالحادث الذي وقع للحصان قضاءً وقدرًا. فقرر الميجر أن يأمر بشراء حصان آخر على الفور.

وفي ساعة مبكرة من صباح الغد، يوم عيد القديس بطرس، حين اجتمع السجناء جميعًا بعد الصلاة، جيء إلى السجن بخيول لبيعها. كان أمر اختيار الحصان موكلًا إلى السجناء، لأن بينهم رجالًا خبيرين حقًّا، ولأن من الصعب خداع مائتين وخمسين رجلًا كان تعاطي الخيل اختصاصهم. وصل رِجال من الغجر ورِجال من الكرخيز، وسماسرة خيل، وأناس من سكان المدينة. كان السجناء ينتظرون بفارغ الصبر وصول كل حصان جديد، ويشعرون من ذلك بفرح كفرح الأطفال. إن الشيء الذي يسرهم خاصة أنهم يستطيعون أن يشتروا دابة كما يفعل أُناس أحرار، فكأنهم يشترون (لأنفسهم) وكان المال من جيوبهم (هم). جيء بثلاثة أحصنة قبل أن يستقر الرأي على شراء الرابع. كان البائعون ينظرون بدهشة وبشيء من الخوف إلى جنود الحراسة الذين كانوا يرافقون السجناء. وخليق بمائتي رجل محلوقي الرؤوس موسومين بالحديد مكبلي الأقدام بالسلاسل أن يوحوا إلى من يراهم بشيء من التهيب، لاسيما وأنهم في منازلهم، إنهم في عرينهم الذي لا يدخله أحد غيرهم. لم ينضب معين المكر والدهاء لدى السجناء. كان عليهم أن يعرفوا بالمكر والدهاء ثمن الحصان الذي جيئوا به. ها هم أولًا يفحصون الحصان ويحبسونه وقد ظهر في وجوههم جد كبير واهتمام شديد، كأن رخاء السجن رهن بشراء هذه الدابة؛ بل إن الشراكسة قد وثبوا على صهوة الجواد، فكانت أعينهم

تسطع وكانوا يتمتمون تمتمة سريعة بلغتهم التي لا يفهمها أحد، كاشفين عن أسنانهم البيض محرِّكين مناخيرهم المتسعة من أنوفهم السمراء المعقوفة. وكان هناك روس ينتبهون إلى مناقشاتهم انتباهًا شديدًا حتى ليكادوا يلتهمونه بأعينهم إلتهامًا. إنهم لا يفهمون شيئًا من الكلام الذي كان يتبادله رفاقهم، ولكن كان واضحًا أنهم يتمنون لو يعرفون من تعبير أعينهم هل الحصان جيد أم لا. تُرى لماذا يهتم سجين، ولاسيما سجين مبهوت مقهور ما كان له أن يجرؤ يومًا على أن ينطق بكلمة أمام رفاقه، لماذا يهتم سجين كهذا بأن يتم شراء هذا الحصان أو ذاك كأنما هو يشتريه لنفسه، وكأنما يعينه أن يُشترى هذا الحصان أو ذاك الآخر؟ إن السجناء الذين أنزلوا المنزلة الأولى في إتمام هذه الصفقة وأعطوا حق الكلام أكثر من غيرهم إنما هم الشراكسة ثم الغجر ومن كانوا في الماضي يتعاطون تجارة الخيل. وقد نشب نوع من المبارزة بين سجينين، فأما الأول فهو كوليكوف الذي كان سمسار خيل وسارق أحصنة، وأما الثاني فهو بيطري موهوب، فلاح سيبيري ماكر كان قد أُرسل إلى سجن الأشغال الشاقة منذ زمن قصير، فنافس كوليكوف في البيطرة، وأفلح في أن ينتزع منه ما كان يقوم من أعمال بالمدينة. يجب أن نذكر في هذه المناسبة أن الناس كانوا يقدرون كثيرًا بياطرة سجننا الذين لا يملكون شهادة الطب البيطري، فكان سكان المدينة والتجار بل وكبار الموظفين يتجهون إليهم إذا مرضت خيولهم ويؤثرونهم على كثير من البياطرة أصحاب الشهادات. فكان للسجين كوليكوف، إلى أن وصل الفلاح السيبيري يولكين، زبائن كثر في المدينة يدفعون له المال عِرفانًا بفضله، ولم يكن ينافسه في ذلك أحد. وكان يعمل كما يعمل غجري حق، فهو يغش ويخدع، لأنه لم يكن يعرف مهنته بمقدار مباهاته. وقد جعلته إيراداته أشبه بأرستقراطي بين نزلاء سجننا، فكان السجناء يصغون إليه ويطيعونه، ولكنه كان قليل الكلام، فهو لا يعلن رأيه إلا في المناسبات الكبرى. إنه رجل مزهو بنفسه، ولكنه ينعم بنشاط عظيم وطاقة جبارة حقًّا. وهو متقدم في السن، جميل جدًّا، على جانب كبير من الذكاء خاصة. كان يكلمنا، نحن النبلاء القدامى، بكثير من الأدب واللطف والكياسة، مع احتفاظه بوقاره وكرامته احتفاظًا كاملًا. يقيني أنه لو أُلبس لِباسًا مناسبًا، وأخذ إلى نادٍ من نوادي العاصمة، وقُدِّم إلى الناس على أنه كونت، لاستطاع أن يظهر بهذا المظهر وأن يرقى إلى هذه الرتبة، وأن يلعب التويست، وأن يتحدث حديثًا يفتن الألباب كما يفعل رجل ذو شأن خطير يعرف كيف يصمت حين يجب الصمت، ولما استطاع أحد طوال السهرة أن يحزر أن هذا الكونت ليس إلا مُتشردًا من المتشردين. لقد كان يُحسن التأدب بالآداب الاجتماعية الراقية، فلعله رأى كثيرًا... أما ماضيه فكنا نجهله جهلًا تامًا، وكان الرجل ينتمي إلى القسم الخاص، فما إن وصل يولكين - وهو فلاح بسيط ينتمي إلى الملة المنشقة، ملة (قُدامى المؤمنين)، ولكنه ماكر كأمكر موجيك - حتى أفل نجم كِوليكوف من حيث هو بيطري حاذق؛

فإذا بالبيطري الجديد ينتزع منه، في أقل من شهرين، جميع زبائن المدينة، لأنه أخذ يشفي، خلال فترة قصيرة جدًّا، خيولًا كان كوليكوف قد أعلن أن أمراضها لا تشفى، وكان البياطرة الذين يحملون شهادات الطب البيطري قد عدلوا عن علاجها وتركوا مداواتها. كان هذا الفلاح قد أودع سجن الأشغال الشاقة لأنه صنع نقودًا مزيفة، متعاونًا مع شركاء. ترى ما الذي أغراه باقتحام هذا الميدان وتعاطي هذه الصناعة؟ لقد ذكر لنا هو نفسه، ساخرًا، كيف أنهم احتاجوا إلى ثلاث قطع ذهبية صحيحة من أجل أن يصنعوا قطعة واحدة مزيفة! استاء كوليكوف استياءً شديدًا من النجاح الذي أصابه هذا الفلاح بينما كان مجده هو يأفل أُفولًا سريعًا. إنه، وهو الذي كان له خليلة في الضاحية؛ وكان يرتدي معطفًا من فراء رائع وينتعل حذائين طويلين فاخرين، قد وجد نفسه على حين فجأة مضطرًا إلى أن يصبح خمارًا. لذلك كان جميع السجناء يتوقعون أن تنشب بين الرجلين مشاجرة قوية عند شراء الحصان الجديد. إن حب الاطلاع قد تأجج في جميع النفوس. ولكل رجل من الرجلين أنصاره، والمتحمسون منهم قد أخذوا يضطربون، بل أخذوا يتبادلون الشتائم منذ الآن. وكان وجه يولكين المعبر عن الدهاء والمكر قد تقبض على ابتسامة ساخرة. غير أن الأمور جرت على غير ما كان يتوقع المتوقعون: إن كوليكوف لا يريد أبدًا أن يُشاجر صاحبه، وقد تصرف تصرفًا بارعًا يجنبه المشاجرة. سلم لصاحبه في أول الأمر بكل شيء، وأصغى باحترام إلى الآراء النقدية التي أدلى بها خصمه، ولكنه لم يلبث أن انتهز فرصة كلمة زل بها لسان يولكين فإذا هو يقبض على هذه الكلمة فيقول لصاحبه بلهجة متواضعة جازمة أنه على خطأ. وقبل أن يتسع وقت يولكين لأن يثوب إلى نفسه ويعدل عن رأيه أخذ يبرهن له على أنه قد وقع في غلطة فاحشة، وهكذا حوصر يولكين محاصرة بارعة لم تكن في الحسبان، فسر بذلك حزب كوليكوف سرورًا عظيمًا. قالوا:

- هل رأيتم يا شباب؟ إنه لا يمكن أن يخطئ! إنه يعرف ماذا يفعل؟

فقال الآخرون، ولكن بلهجة لينة لا تحدي فيها:

- يولكين أعلم منه.

وكان الحزبان مستعدين للتنازل والتصالح.

قال أنصار كوليكوف:

- عدا أن كوليكوف لا يقل عنه علمًا، فإن يده أخف... إنه فيما يتعلق بالماشية لا يخشى أحدًا.

- وكذلك يولكين!

- كوليكوف لا يضارعه في هذا مضارع!

وأخيرًا اختير الحصان الجديد الذي تم شراؤه بعد ذلك. إنه حصان ممتاز، صغير السن قوي الجسم جميل المنظر: دابة لا مأخذ عليها من ناحية من النواحي. بدأت المساوِمة: صاحب الحصان يطلب ثلاثين روبلًا ثمنًا له،

والسجناء لا يريدون أن يدفعوا إلا خمسة و وعشرين. وطالت المساومة وحمت، فطرف يزيد قليلًا، وطرف يتنازل قليلًا، ثم إذا بالسجناء يأخذون يضحكون من تلقاء أنفسهم.
قال بعضهم:
- لماذا المساومة؟ أأنت تدفع الثمن من كيسك؟
وصاح آخرون:
- أأنت تريد أن تحقق للخزنة وفرًا؟
- هذا المال ملك مشترك!
- ملك مشترك! صحيح أن أحدًا لا يزرع حمقى وأغبياء، ولكن الحمقى والأغبياء ينبتون من تلقاء أنفسهم من دون أن يزرعهم أحدًا...
وتم الاتفاق أخيرًا على أن يدفع ثمن الحصان ثمانية وعشرون روبلًا. وأبلغ الميجر نتيجة المساومة فوافق على الشراء. فسرعان ما جيء بخبز وملح، واقتيد الحصان الجديد إلى السجن في عظمة وأبهة. أحسب أنه ما من سجين لم يربت على عنق الحصان أو لم يداعب أنفه. وقد قام الحصان بنقل الماء إلى السجن في ذلك اليوم نفسه: فكان جميع السجناء ينظرون إليه في كثير من الاستطلاع وهو يسحب أول برميل؛ وكان سقاؤنا، السجين رومان، يتأمل دابته بكثير من الرضى والغبطة والحبور. إن هذا السجين الذي كان في الماضي فلاحًا، والذي يبلغ من العمر نحو خمسين عامًا، كان امرءًا جادًا صموتًا، كسائر الحوذيين الروس تقريبًا، كأن استمرار معاشرة الخيل تسبغ على طبع المرء شيئًا من الوقار والجد حقًّا. كان رومان هادئًا لطيفًا في معاملة جميع الناس، قليل الكلام. وكان يستنشق سعوطًا يتناوله من علبة خاصة للسعوط. وهو مولج بخيول السجن منذ زمن بعيد لا نعرف أوله، والحصان الذي تم شراؤه أخيرًا هو ثالث حصان يعهد به إليه منذ دخوله السجن. وكان كل سجين من السجناء مقتنعًا بأن الكميت من بين الخيول هو الحصان الذي يناسب (منزلنا). وذلك ما كان يؤكده رومان أيضًا. فما كان يمكن أن يُشترى حصان أبلق مثلًا!...
إن وظيفة الحوذي وقف على رومان لا يمكن أن ينازعه فيها أحد. وحين فطس الكميت الأول لم يخطر ببال أحد أن يتهم رومان بشيء من الإهمال أو قلة التبصر، حتى ولا الميجر. فقد عدوا موت الحصان قضاءً وقدرًا لا أكثر. وكان رومان حوذيًا ممتازًا في الواقع.
سرعان ما أصبح الكميت الجديد أثير السجن كله، فكثيرًا ما كان السجناء يقبلون عليه يداعبونه ويلاعبونه، رغم ما قد يوصفون به من ضعف الإحساس وقلة العاطفة. وفي بعض الأحيان، حين كان رومان، بعد عودته من النهر، يغلق الباب الكبير الذي فتحه له صف الضابط، كان الحصان جنيدكو يقف جامدًا بانتظار سائقه، ناظرًا إليه من جانب فيصيح به رومان قائلًا: اذهب وحدك! فإذا بالحصان يمضي هادئًا حتى المطبخ فيتوقف هنالك، منتظرًا أن

يأتي الطباخون والخدم فيمتحوا الماء بقواديسهم؛ فيصيح السجناء عندئذٍ قائلين:
- ما أروع حصاننا جنيدكوا لقد جاء بالبرميل وحده! إنه مطيع! ما أسعدنا به!...
- حقًّا... هو حيوان ولكنه يفهم ما يقال له!...
- ما أذكى جنيدكو!
فيهز الحصان عندئذٍ رأسه ويصهل، كأنه فهم الأماديح وقدرها. ويجيئه أحدهم بخبز وملح، فإذا فرغ الحصان من إلتهام الخبز والملح هزَّ رأسه مرة أخرى كأنه يريد أن يقول: (أنا أعرفك، أنا أعرفك، أنا حصان جيد وأنت رجل طيب شهم!).
وكنت أحب أنا أيضًا أن أدلل جنيدكو بإطعامه الخبز. كنت أجد لذة في أن أنظر إلى بوزه الجميل، وأن أحس في راحة يدي شفتيه الدافئتين الطريتين اللتين تتلقفان أعطيتي بشراهة. كان نزلاء سجننا يحبون الحيوانات، فلو قد سمح لهم، إذن لملأوا الثكنات بالطيور والحيوانات الداجنة.
أي شاغل يمكن أن يرتقي بالطباع المتوحشة التي يتصف بها السجناء، وأن يلطفها ويلينها، أكثر من هذا الشاغل؟ ولكن ذلك لم يكن مباحًا، فلا النظام يأذن به، ولا المكان يتسع له.
ومع هذا كان قد استقر في سجننا عدد من الحيوانات إبان إقامتي فيه. كان لدينا، عدا جنيدكو، كلاب وأوز وجدي (هو فادكا) ونسر لم يعش طويلًا.
أحسب أنني سبق أن ذكرت كلبنا كان يسمى (شاريك) (السمين). وأضيف الآن أنه كان حيوانًا ذكيًا، وأنني كنت على صداقة معه. ولكن لما كان الشعب يعد الكلب حيوانًا نجسًا ما ينبغي الالتفات إليه، فإن أحدًا لم يكن يهتم به. كان هذا الكلب لا يفارق السجن، ينام في الفناء، ويأكل فضلات المطبخ؛ ولم يجتذب إليه شيئًا من عاطفة السجناء الذين كان يعرفهم جميعًا مع ذلك وينظر إلى كل منهم على أنه صاحبه. فإذا عاد السجناء من عملهم، وسمعهم يصيحون (يا عريف!) هرع نحو الباب الكبير واستقبل القادمين فرحًا، يهز ذيله، وينظر في عيني كل واحد، كأنه ينتظر شيئًا من مداعبة وملاطفة. ولكن جميع ما بذله من جهود للتودد إليهم والتقرب منهم خلال عدة سنين لم يجده نفعًا، فما من أحد رضي أن يلاطفه وأن يُداعبه غيري. لذلك كان يؤثرني على جميع السجناء. أما الكلب الثاني، واسمه (بايلكا) (الثلج) فإنني لا أذكر الآن كيف جاء إلينا. وأما الكلب الثالث، كوليتابكا، فقد أتيت به أنا إلى السجن جروًا صغيرًا.
إن كلبنا (بايلكا) مخلوق عجيب غريب. كانت عربة من العربات قد داسته فأحنت عموده الفقري من داخل، فمن رآه يركض من بعيد، خُيّل إليه أنه يرى كلبين توأمين ولدا ملتصقين. وكان عدا ذلك أجرب أعمص العينين له ذيل زال عنه شعره وتهدل متدليًا بين قائمتيه.
لقد ظلمه القدر فقرر أن يبقى في كل مناسبة هادئًا ساكنًا لا يهتز ولا يهتاج؛ فهو لا ينبح على أحد كأنه يخشى أن يُهشم من جِديد. وكان يبقى خلف

الثكنات في جميع الأحيان تقريبًا، فإذا اقترب منه أحد، سارع ينقلب على ظهره كأنه يقول: (اصنع بي ما تشاء فلست أفكر في مقاومتك قط!). وكان كل سجين لا يفوته حين ينقلب الكلب على ظهره أن يركله برجله كأنه يقوم بواجب من الواجبات قائلًا له: (يا للكلب القذر!) ولكن الكلب لا يجرؤ حتى أن يئن، فإذا تألم ألمًا شديدًا لم يزد على أن يصدر صوتًا أصم مختنقًا. وكان ينقلب على ظهره أيضًا أمام الكلب السمين (شاريك) أو أمام أي كلب آخر يجيء إلى المطبخ طلبًا للرزق. وكان ينبطح متى هجم عليه كلب من الكلاب الشرسة نابحًا. إن الكلاب تحب من أقرانها الذل والخضوع لذلك ترى الكلب المهتاج سرعان ما يهدأ متى رأى استكانة قرينه، فيتوقف ساهمًا أمام الكلب الذليل المنبطح على الأرض ضارعًا متوسلًا، ثم يأخذ يشم جميع أجزاء جسمه في استطلاع. ترى فيم يفكر بايلكا في مثل هذه اللحظة وهو يرتعد خوفًا؟ أغلب الظن أنه يقول في نفسه: (هل سوف يعضني هذا الوغد!)، ومتى فرغ الكلب الشرس من تشممه تركه ومضى في سبيله، لأنه لم يكتشف فيه شيئًا يثير اهتمامه. فسرعان ما كان بايلكا ينهض ثم يأخذ يجري وراء جماعة من أقرانه تلاحق كلبة لعوبًا ما.

إن بايلكا يعلم حق العلم أن الكلبة اللعوب لن ترضى أن تنزل إلى مستواه، فهي أكثر شممًا وأعظم أنفة من أن تنزل إلى هذا المستوى الوضيع، غير أن جريه وراءها من بعيد عرجًا كان يسري عنه ويخفف بلواه ويعزيه عن أنواع الشقاء التي يُعانيها. أما الكرامة فَقدْ فَقَدَ الإحساس بها حتى أصبح لا يعرفها. وإذا ضيَّع كل أمل في المستقبل، فقد أصبح لا يطمع في أكثر من أن يملأ بطنه، وكان يملأ بطنه فعلًا بكثير من الاستهتار. حاولت مرة أن أداعبه، فكان ذلك أمرًا جديدًا لا عهد له به من قبل، فإذا هو يتكور على الأرض مستلقيًا على قوائمه الأربع، وإذا هو يأخذ يرتعش ويحشرج من فرط اللذة؛ ولما كنت أشفق عليه فقد كنت أداعبه أحيانًا كثيرة ولذلك صار كلما رآني يقبل عليَّ ويئن أنينًا شاكيًا وتكاد عيناه تدمعان، وفي ذات يوم، وُجدَ ميتًا وراء السجن في الخندق، قد مزقته كلاب أخرى شرَّ تمزيق.

أما كوليتابكا فقد كان له طبع آخر مختلف عن طبع بايلكا كل الاختلاف. لا أدري لماذا جئت به من أحد المواضع التي كنا نعمل فيها، وهناك ولد. كنت أجد لذة في إطعامه وفي تتبع نموه. وسرعان ما تولى شاريك حمايته ورعايته، فأصبح ينام معه، حتى إذا كبر الكلب الصغير ظل صاحبه الكبير يشعر نحوه بعطف خاص، فهو يسمح له بأن يعضه من أذنيه، وأن يشد شعره، وهو يلعب معه كما تلعب الكلاب الكبيرة مع الجراء الصغيرة. والشيء الغريب أن كوليتابكا كان لا يكبر علوًا، وإنما يكبر عرضًا وطولًا فحسب. وكان كوليتابكا غزير الشعر، وشعره بلون شعر الفأر. وكانت إحدى أذنيه متدلية منهدلة بينما كانت الأذن الأخرى قائمة منتصبة. وكان شديد الحميا كثير الحماسة كسائر الكلاب الفتية التي تتواثب فرحة وتنبح مسرورة حين ترى مولاها حتى لتقفز

إلى وجهه لتلعقه. إنه لا يخفي عواطفه وكأنه يقول لنفسه: (حسبي أن يلاحظ فرحي، فأما المواضعات فلا قيمة لها ولا شأن!). لقد يكفي أن أناديه بقولي كوليتابكا حتى أراه يخرج من ركن من الأركان، كأنه انبجس من تحت الأرض، ويسرع نحوي راكضًا صاخبًا متحمسًا يتدحرج بين قدمي كما تتدحرج كرة أو ينقلب على ظهره منبطحًا. كنت أحب هذا الشيطان الصغير حبًا جمًا. كان يبدو أن القدر لم يخبئ له في هذه الحياة الدنيا إلا المسرة والفرح، ولكن السجين نوسترويف الذي يصنع أحذية للنساء ويحضر جلودًا، قد لاحظه ذات يوم، لأن شيئًا قد لفت نظره فيه حتمًا، فإذا هو ينادي كوليتابكا ويجس شعره، ويقلبه على الأرض في تحبب وتودد، وإذا الكلب، الذي لم يراوده شيء من شك ولا خطر بباله سوء، يأخذ ينبح فرحًا وسرورًا، فما إن جاء الغد حتى كان الكلب قد اختفى. بحثت عن الكلب زمنًا طويلًا من دون أن أعثر له على أثر، ولكن كل شيء قد اتضح بعد أسبوعين. إن فراء كوليتابكا قد أغرى نوسترويف، فعمد إلى سلخه ليبطن به حذاءين كانت زوجة أحد الموظفين قد طلبت منه أن يصنعهما لها. لقد أراني نوسترويف الحذاءين حين فرغ من صنعهما، فكان فراؤهما الداخلي رائعًا. مسكين كويتابكا!...

لقد كان كثير من السجناء يعملون في دباغة الجلود، فكثيرًا ما كانوا يجيئون إلى السجن بكلاب جميلة الفراء سرعان ما تختفي. كان السجناء يشترون هذه الكلاب أو يسرقونها. أذكر أنني رأيت في ذات يوم وراء المطبخ سجينين يتشاوران ويتناقشان. كان أحدهما يمسك مقود كلب أسود جميل جدًّا ينتمي إلى جنس رائع من أجناس الكلاب. إن خادمًا من الخدم كان قد سرق الكلب من سيده وباعه لحذاءينا هذين بثلاثين كوبكًا. وإن الرجلان يستعدان لخنق الكلب، وذلك عمل سهل يعمدان بعده إلى سلخ الجلد، ثم يرميان الجثة في حفرة أُعدت لرمي الأقذار والتي كانت تنتشر منها روائح كريهة فظيعة في أيام الحر الشديد من الصيف، لأنها لم تكن تُنظف إلا نادرًا. أحسب أن الحيوان المسكين قد أدرك المصير الذي ينتظره، فكان ينظر إلينا نظرة قلقة فاحصة، بعضًا بعد بعض؛ وكان لا يجرؤ إلا من حين إلى حين أن يهز ذيله الكثيف المتدلي بين قائمتيه كأنما ليرقق قلوبنا بما يُظهره لنا من ثقة بنا واطمئنان إلينا، أسرعت أبتعد عن هذين السجينين الذين أنجزا عملهما بغير حرج.

أما إوَزُ سجننا فقد استقر فيه عرضًا ومصادفة. لا أدري من كان يعتني به ومن كان صاحبه، ولكنني أعلم أنه كان للسجناء سلوة وبهجة، وأنه نال شهرة في المدينة. لقد ولدت إوَزاتنا في السجن واتخذت المطبخ مقرًا لها تخرج منه جماعات متى ذهب السجناء إلى الشغل، فما إن يُقرع الطبل فيتجمهر السجناء عند الباب الكبير حتى تجري الإوَزات وراءهم مصوِّتة صافقة جناحيها، ثم إذا هي تثب واحدة بعد أخرى، فتجتاز دكة الباب المرتفع، فإذا أخذ السجناء يعملون طفقت ترعى على مسافة قصيرة منهم، حتى إذا انتهوا من عملهم وقفلوا راجعين إلى السجن انضمت إلى موكبهم من جديد فكان المارة

يقولون: (انظروا إلى السجناء يمرون مع إوَزاتهم). وقد سألنا أحدهم يومًا قائلًا: (كيف علمتموها أن تتبعكم؟). وقال رجل آخر وهو يضع يده في جيبه: (خذوا هذا المال لإوَزاتكم). وقد ذبح السجناء هذه الإوَزات رغم إخلاصها لهم، احتفالًا بالعيد الكبير بعد الصوم في سنة من السنين.

أما الجدي فاسكا فما كان لأحد أن يقرر ذبحه لولا مناسبة خاصة، لا أدري كيف وُجد هذا الجدي في سجننا ولا أعرف من الذي أتى به: إنه جدي أبيض جميل جدًّا لم تمض على وصوله أيام حتى أحبه جميع السجناء، وأصبح لهم تسلية وعزاء. وإذ كان لا بد لهم من عذر يتعللون به للاحتفاظ بالجدي في السجن، فقد أكدوا أنه لا بد من تيس في الإصطبل ([40]). ومع ذلك لم يسكن الجدي الإصطبل بل سكن المطبخ وانتهى أخيرًا إلى أن يكون السجن كله مسكنه يطوف فيه على ما يشاء له هواه. كان هذا الحيوان الرشيق مرحًا لعوبًا يثب على الموائد ويصارع السجناء ويركض إذا نودي ويحتفظ دائمًا بمزاجه الفرح وطبعه الفكه. في ذات مساء كان اللزخيني باباي جالسًا على درجات مدخل الثكنة وسط جماعة من السجناء الآخرين فخطر بباله أن يُصارع فاسكا الذي كان قرناه طويلين بعض الطول. أخذ الرجل والجدي يتضاربان بجبهتيهما، وكان هذا اللعب أحبَّ التسليات إلى قلوب السجناء، وها هو ذا فاسكا يثب إلى الدرجة العليا من درجات المدخل، فما أن تنحى باباي قليلًا حتى انتصب الجدي فجأة على قدميه الخلفيتين، وقرب حافريه من جسمه ثم لبط اللزخيني على قذاله بكل ما أوتي من قوة، فإذا بالرجل ينقلب متدحرجًا على الدرجات، فيشيع الفرح في جميع الشهود وفي باباي نفسه. الخلاصة أننا أحببنا جدينا فاسكا حبًا عظيمًا، فلما أدرك سن البلوغ، أجرى له البيطريون من نزلاء سجننا، بعد عقد مؤتمر عام هام عملية كانوا يحسنون إجراءها على أتم وجه، أعني عملية الخصي. وقال السجناء عندئذٍ معلقين: (فبذلك لن يشعرنا بأنه تيس على الأقل). أخذ فاسكا من ذلك الحين يسمن سمنة مذهلة. يجب أن نذكر على كل حال أن السجناء كانوا يسرفون في إطعامه. أصبح فاسكا تيسًا جميلًا جدًّا له قرنان رائعان وأصبح مُفرطًا في السمنة، حتى صار يتفق له في بعض الأحيان أن يتدحرج على الأرض ثقيلًا أثناء المشي. وكان يرافقنا هو أيضًا إلى العمل، فيسر السجناء ويسر المارة الذين كانوا يعرفون جميعًا تيس السجن فاسكا؛ فإذا كان السجناء يعملون على شاطئ النهر قطعوا أغصانًا من أشجار الصفصاف وقطفوا أوراقًا وجنوا أزهارًا يزينون بها فاسكا، فهم يصفون على قرنيه غصونًا وأزهارًا، ويضعون على صدره الأكاليل، فكان فاسكا يعود إلى السجن على رأس القافلة متبرجًا متزينًا، وكان السجناء يسيرون وراءه معتزين بجماله فخورين بحسنه؛ وقد بلغ بعض السجناء من حبهم تيسنا أنهم قدموا الاقتراح الطفولي: وهو أن يُطلى قرنا فاسكا بالذهب ولكن اقتراحهم بقى مشروعًا في الهواء ولم يكتب له أن

يوضع موضع التنفيذ. سألت آكيم آكيمتش وهو خير مذهِّبٍ في سجننا بعد أشعيا فومتش هل يمكن حقًّا تذهيب قرني تيس، فأخذ يفحص قرني فاسكا بانتباه شديد، وفكّر بُرهةً ثم أجابني بأن تذهيبهما ممكن ولكن الطلاء الذهبي لن يبقى مدة طويلة، ولا داعي إليه على كل حال. ووقف الأمر عند هذا الحد.
كان يمكن أن يعيش فاسكا في سجننا سنين طويلة، ولعله كان سيموت مُصابًا بضيق التنفس لولا أنه في ذات يوم أثناء عودته من العمل على رأس قافلة السجناء، قد صادف الميجر جالسًا في عربته. كان التيس مُزدانًا بالأزهار. زأر الميجر قائلًا: (قف! لمن هذا التيس؟). فأوضحوا له الأمر فقال غاضبًا: (كيف هذا؟ أيوجد تيس في السجن ويكون ذلك بدون إذني؟ يا عريف!). وأصدر الميجر أمره إلى العريف بذبح التيس فورًا وسلخه وبيع جلده في السوق وإيداع ثمنه صندوق السجن، أما لحمه فيطبخ مع حساء الكرنب الحامز الذي يأكله السجناء. تكلم السجناء كثيرًا عن هذا الحادث، وأسفوا كثيرًا على التيس، ولكن ما كان لأحد أن يعصي أمر الميجر. ذُبح فاسكا قرب حفرة القاذورات واشترى أحد السجناء لحمه كله، ودفع ثمنه روبلًا وخمسين كوبيكًا. واشترى بهذا المال خبز أبيض للجميع. والسجين الذي اشتراه قام ببيعه بعد ذلك شرائح مقلية. كان لحمه لذيذ الطعم طيب المذاق!
كان في سجننا أيضًا خلال فترة من الوقت نسر من نسور السهوب (كاراجوش) التي تنتمي إلى فصيلة تتصف بأنها صغيرة الحجم. لقد جاء به أحد السجناء جريحًا يشبه أن يكون ميتًا. أحاط به جميع السجناء. كن النسر عاجزًا عن الطيران، فجناحه الأيمن متهدلة معطلة، وإحدى قائمتيه مخلوعة. كان ينظر إلى الجمهور المستطلع المحتشد حوله نظرة غاضبة ويفتح منقاره المعقوف مُستعدًا لأن يدفع ثمن حياته غاليًا. فلما انصرف عنه السجناء بعد أن تأملوه طويلًا، مضى الطائر الأعرج متواثبًا على قائمته السليمة، صافقًا جناحه، مضى يختبئ في أقصى مكان من الفناء، فقبع في ركن من الأركان ملتصقًا بأوتاد السياج، ثم لم يُبارح ركنه ذاك خلال الأشهر الثلاثة التي قضاها في فناء سجننا. كان السجناء في البداية يجيئونه من حين إلى حين فينظرون إليه ويهيجون عليه الكلب شاريك الذي كان يهجم نحوه مستعر الحنق، ولكنه يخشى أن يقترب منه كثيرًا فكان ذلك يسلي السجناء ويضحكهم، فيقول بعضهم لبعض: (حيوان كاسر، هه! لا يُسمح لأحد أن يغيظه!).
ولكن الكلب شاريك أصبح بعد ذلك لا يهابه وأخذ يتحرش به ويناوشه، فإذا حرضه السجناء عليه أمسك الجناح المريض من جناحي النسر فكان النسر يُدافع عن نفسه بمنقاره ومخالبه، ويلطو في ركنه مُتعاليًا متغطرسًا كملك جريح، ويحدق إلى من حوله مُستطلعًا. ومل السجناء أخيرًا من هذا المنظر، سرعان ما نسوا النسر نسيانًا تامًا. ومع ذلك كان يجيئه في كل يوم واحد منهم، فيضع قربه قطعة من لحم وإناءً مكسورًا فيه ماء، ظل النسر في الأيام الأولى يرفض أن يأكل شيئًا من يد أحد، أو أن يأكل على مرأى من الناس.

استطعت أن أراقبه مِرارًا من بعيد. كان إذا لم يرَ أحدًا، وحسب أنه وحيد، جازف فترك الركن الذي يقبع فيه وأخذ يسير عارجًا على طول السياج، مسافة اثنتي عشرة خطوة تقريبًا، ثم قفل راجعًا، ثم استدار فمشى هذه المسافة نفسها مرة أخرى، ثم عاد، وهكذا دواليك، تمامًا كما لو أن طبيبًا قد أمره بالقيام بهذه الرياضة الصحية! ولكنه ما يكاد يلمحني حتى يركض نحو ركنه عارجًا متواثبًا بأقصى سرعة يستطيعها. وكان عندئذٍ يرد رأسه إلى الوراء، ويفغر منقاره، ويشعث ريشه، كأنما هو يتهيأ لمعركة. حاولت أن أُداعبه، ولكن جهودي كلها لم تفلح في أن تؤنسه: كان يعض ويتخبط متى لمس. ولم يقبل مرة واحدة أن يتناول اللحم الذي أحاول أن أقدمه إليه؛ وكان يحدِّق إليّ بنظرة شريرة ثاقبة ما بقيتُ قريبًا منه. كان النسر الشقي يحب العزلة ويمتلئ قلبه حِقدًا، فهو ينتظر الموت مستمرًا على تحدي جميع الناس، مُصرًا على أن لا يُصالح أحدًا. وتذكره السجناء أخيرًا بعد شهرين من نسيان، فأظهروا نحوه عطفًا لم يكن في الحسبان، واتفق رأيهم أن ينقلوه من السجن. قال بعضهم: (فليفطس، وليكن فليفطس حرًا طليقًا على الأقل).
وأضاف آخرون:
- حتمًا... فإن طائرًا حرًا مستقلًا مثله لن يتعود السجن في يوم من الأيام.
وقال أحدهم:
- إنه لا يشبهنا!...
فأجاب ثانٍ:
- طبعًا، هو طائر ونحن بشر!...
وانبرى سكوراتوف يقول:
- النسر، يا رفاق، ملك الغابات...
ولكن أحدًا لم يستمع إليه يومئذٍ.
وبعد الظهر من أحد الأيام، حين قرع الطبل مؤذنًا بالذهاب إلى العمل، جاء بعض السجناء إلى النسر، فأوثقوا منقاره، لأنه كان يُدافع عن نفسه بضراوة، ونقلوه إلى خارج السجن فوق السور. إن السجناء الذين تولوا هذا العمل، وكان عددهم اثني عشر سجينًا، كانوا في أشد الشوق إلى معرفة الجهة التي سيمضي فيها الطائر، شيء غريب: لقد كانوا جميعًا مسرورين، كأنهم هم الذين يُفرج عنهم، وهم الذين يفوزون بالحرية!
قال السجين الذي كان مُمسكًا به، قال وهو ينظر إلى النسر فيما يشبه المحبة والحنان:
- يا للحيوان الشرير.. تريد له الخير ثم هو يمزق يدك ليشكر لك صنيعك!
- دعه يطير يا ميكيتكا
- الأَسر لا يناسبه. هب له الحرية، هب له الحرية الجميلة!
رُمي النسر من على السور إلى الفلاة. كان ذلك في يوم أشهب بارد من آخر أيام الخريف. كانت ريح السهوب العارية تصفر وتئن في العشب الأصفر

المصوِّح. مضى النسر قُدمًا لا يلوي على شيء، صافقًا بجناحه المريضة، كأنه يستعجل أن يتركنا ويختبئ عن أنظارنا. وجعل السجناء يتابعون بأبصارهم رأسه الذي يبرز من العشب.

قال أحدهم ساهمًا:

- هل ترون؟

وأضاف آخر:

- إنه لا ينظر إلى وراء! لم ينظر مرة واحدة إلى وراء!

فأجاب ثالث:

- وهل تظن أنه سيعود ليعبر لنا عن شكره وامتنانه؟

- هو الآن حر. لقد ذاق طعم الحرية!

- نعم الحرية!

- لن نراه بعد اليوم يا رفاق!

- ما توقفكم هنا؟ هيَّا امشوا!...

كذلك صاح الحرس من الجنود، فسار السجناء يذهبون إلى العمل بخطى بطيئة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

7

الظلامة

في مطلع هذا الفصل يشعر ناشر (ذكريات منزل الأموات) التي كتبها المرحوم ألكسندر بتروفتش جوريانتشيكوف، أن من واجبه أن ينقل إلى القراء ما يلي:

(لقد تحدث كاتب ذكريات منزل الأموات، في الفصل الأول من كتابه، عن جريمة ابن قتل أباه (وهو نبيل الأصل) ([41])، واتخذ الكاتب من هذه الجريمة مِثالًا على ما يُلاحظ في السجناء من فقدان الإحساس حين يجيئون على ذكر الجرائم التي ارتكبوها. وقد ذكر كاتب المذكرات أيضًا أن الابن لم يشأ أن يعترف أمام المحكمة بشيء، غير أن ما رواه للكاتب أشخاص يعرفون جميع تفاصيل القصة قد جعل ارتكاب الابن جريمة قتل أبيه أمرًا لا يتطرق إليه الشك. ولقد روى هؤلاء الأشخاص لكاتب (ذكريات منزل الأموات) أن الابن المجرم كان شابًا فاسقًا مُثقلًا بالديون، وأنه قد قتل أباه استعجالًا للحصول على ميراثه منه؛ ثم إن المدينة كلها كان يخدم فيها قاتل أبيه قد روت القصة على هذا النحو نفسه، وهكذا حصل كاتب الذكريات على معلومات مستفيضة. وذكر الكاتب أيضًا أن هذا القاتل كان حتى في السجن مرح الطبع فرح المزاج، طائش السلوك أهوج التصرف، رغم أنه ذكي، ولم يُلاحظ كاتب الذكريات في يوم من الأيام أنه يتصف بقسوة خاصة، وأضاف الكاتب يقول: (لذلك لم أُصدِّق يومًا أن يكون مجرمًا).

(وقد تلقى ناشر هذا الكتاب (ذكريات من منزل الأموات)، تلقى من سيبيريا نبأ يقول إن هذا الشاب الذي أُتهم بقتل أبيه كان بريئًا من هذه الجريمة كل البراءة، وأنه قضى في سجن الأشغال الشاقة عشرة سنين بغير حق، وأن براءته قد ثبتت رسميًا، وأن المجرمين الحقيقيين قد عرفوا واعترفوا، وأن الشاب المسكين قد أُفرج عنه، ولا يملك ناشر هذا الكاتب أن يشك في صدق هذه الأنباء...(.

(لا جدوى من إضافة شيء إلى هذا. علام الإفاضة في الكلام على ما في هذه الواقعة من عنصر المأساة؟ ما فائدة التحدث عن هذه الحياة التي حطمتها و دمرتها تهمة كتلك التهمة؟ إن الواقعة تتحدث من تلقاء نفسها جهارًا...)

(في تقديرنا أن أمثال هذه الأخطاء يمكن أن تقع، وأن إمكان وقوعها يضيف إلى قصتنا سمةً بارزة جديدة، ويساعد على إكمال المشاهد التي يعرضها كتاب (ذكريات من منزل الأموات)، ويعين على توضيح هذه المشاهد مزيدًا من التوضيح....).

ولنعد الآن إلى حيث كنا من الذكريات التي كتبها المرحوم ألكسندر بتروفتش جوربانتشيكوف:

سبق أن قلت إنني تعودت هذه الظروف أخيرًا، غير أن (أخيرًا) هذه لم تحن إلا بعد عناء كبير وزمن طويل. لقد احتجت إلى ما يقرب من السنة حتى أتعود السجن، وسأظل أنظر إلى تلك السنة الأولى على أنها أقطع سني حياتي. ولذلك انحفرت في ذاكرتي كاملة حتى في أدق تفاصيلها: بل إنني لأعتقد أنني أتذكر كل ساعة من ساعاتها واحدة بعد أخرى. سبق أن قلت أيضًا إن السجناء الآخرين لم يستطيعوا أن يتعودوا هذه الحياة أكثر مني. لقد ظللت أتساءل طوال تلك السنة الأولى هل كانوا هادئين حقًّا كما كان يبدو عليهم؟ وكانت هذه الأسئلة تشغل بالي كثيرًا وتُلح عليَّ إلحاحًا شديدًا. كان جميع السجناء، كما ذكرت من قبل، يحسون في السجن أنهم غرباء، كانوا لا يشعرون في السجن أنهم في منزلهم، بل في فندق نزلوه عابرين في مرحلة من مراحل الطريق. إن هؤلاء الرجال، المنفيين إلى الأبد، كان يبدو بعضهم مُضطربًا وبعضهم مصعوقًا، ولكن كل واحد منهم كان يحلم بتحقيق مستحيل ما. فإن هذا القلق الدائم الذي لا يكادون يُظهرونه، ولكن العين البصيرة لا تخطئه، وإن كانوا يعبرون عنه على غير إرادة منهم من الحماسة ونفاد الصبر في آمالهم وأحلامهم وأمانيهم التي لا سبيل إلى تحقيقها والتي تشبه أن تكون هذيانًا، إن ذلك كله كان يسبغ على هذا المكان هيئة خارقة ويطبعه بطابع عجيب، حتى يمكن القول إن كل ما يميزه من أصالة إنما يرتد إلى هاتين السمتين. إن المرء ليحس حين يدخل إلى السجن أن ليس في خارج السجن شيء يشبهه. جميع الناس هنا يستسلمون لأحلام اليقظة ويهيمون في تهاويل الخيال. ذلك شيء يخطف البصر ويثب إلى العين وثوبًا. وهذا إحساس يثير النفس ويهز الأعصاب، لأن هذه الأحلام التي يسترسل فيها السجناء تسبغ على وجوه أكثرهم مظهرًا قائمًا كئيبًا، متجهمًا مكفهرًا، مظهرًا يشبه أن يكون مرضًا. كان جميعهم على وجه التقريب صامتًا لا يتكلم، مهتاجًا يوشك أن ينفجر في كل لحظة، وكانوا لا يحبون أن يُظهروا ما يقبع في قرارة قلوبهم من آمال مستسرة. لذلك كانوا يحتقرون البساطة والصراحة.

وكلما كانت الأماني أقرب إلى الاستحالة، وكلما كان السجين يعترف لنفسه باستحالتها اعترافًا أوضح، كان يحرص على دفنها في أعماق نفسه مزيدًا من الحرص، من دون أن يستطيع التنازل عنها والزهد فيها. تُرى هل كانوا يستحيون من هذه الأماني التي تراود أخيلتهم؟ إن الروسي واقعي في نظرته إلى الأمور، لا يتهيب أن يسخر من عيوبه وأن يتهكم على نقائصه!...

ولعل هذا الاستياء من النفس هو سبب ما يلاحظ في العلاقات اليومية بين السجناء من فقدان التسامح وشدة التعصب، ولعله سبب ما يُلاحظ لديهم من قسوة السلوك وكثرة السخر. فإذا اتفق لواحد منهم، أكثر سذاجة وتململًا، أن عبَّر بكلام مسموع عما يفكر فيه كل واحد صامتًا، وإذا اتفق له أن استرسل

في الأحلام، وفي بناء قصور باسبانيا، أسرع رفاقه يصدونه بفظاظة وغلظة، وراحوا يطاردونه بالشكر والتهكم. وأغلب ظني أن أعتى هؤلاء الساخرين إنما هم أولئك الذين كانوا أكثر من صاحبهم استرسالًا في الأحلام الطائشة والأماني المجنونة سبق أن ذكرت أن نزلاء سجننا كانوا ينظرون إلى البسطاء وإلى السذج نظرتهم إلى أناس حمقى أغبياء، وكانوا لا يحملون لهم إلا الازدراء والاحتقار. لقد كان السجناء يبلغون من شدة المرارة وسرعة التأذي أنهم كانوا يبغضون من كان مشرق المزاج قليل الكبرياء. وإلى جانب فئة المهذارين البسطاء هؤلاء، يمكن أن نقسم السجناء إلى أخيار وأشرار، إلى مرحين وعابسين، والعابسون هم السواد الأعظم، فإذا اتفق أن كان بينهم ثرثارون، كان هؤلاء الثرثارون أناسًا تمامين، وشاة، حسودين يتدخلون في جميع شؤون الآخرين، رغم أنهم يحاذرون أن يكشفوا عن أنفسهم وأن يعلنوا ما خفي من أفكارهم، لأن ذلك أمر غير مقبول، ولأنه يخالف ما جرى به العرف. أما الأخيار - وهم قلة - فهم هادئون موادعون مسالمون يخفون آمالهم صامتين، ويصدقون أحلامهم وأوهامهم أكثر من العابسين المتجهمين، ويُخيّل إليَّ أنه قد كان في سجننا مع ذلك فئة أخرى من المنفيين هي فئة اليائسين من أمثال شيخ ستارودوب، ولكن هؤلاء قلة قليلة جدًّا.

كان هذا الشيخ هادئًا في الظاهر، ولكن كان من حقي استنادًا إلى بعض العلائم أن أفترض أن حالته النفسية كانت رهيبة لا تُطاق. إن له ملجأ يلوذ به، وسلوى يفزع إليها، ألا وهي الصلاة وقناعته بأنه شهيد. ولعل السجين الذي كان دائم الاستغراق في قراءة التوراة، والذي سبق أن تكلمت عنه، أعني السجين الذي أصبح مجنونًا وهجم على الميجر بآجرة في يده، لعله كان هو أيضًا واحدًا من أولئك الذين هجرهم كل أمل؛ فلما كان يستحيل على الإنسان تمامًا أن يعيش بلا آمال، فقد سعى إلى الموت سعيًا باستشهاد مقصود متعمد. لقد صرَّحَ هذا الرجل بأنه هجم على الميجر لا لأذى لحقه منه، ولا لحقد يضمره له وإنما هجم عليه في سبيل أن يتألم لا أكثر. من ذا الذي يعرف ما هي العملية النفسية التي تمت في أعماق روحه حينذاك؟ ما من إنسان يحيا بدون هدف يسعى إليه، وبدون جهد يبذله في سبيل الوصول إلى ذلك الهدف؛ فمتى غاب الهدف وزال الأمل، فإن القلق كثيرًا ما يجعل من الإنسان عندئذٍ مخلوقًا شاذًا غريبًا... ولقد كانت غايتنا نحن جميعًا هي أن ننال الحرية، وهي أن نخرج من السجن. إنني أحاول أن أصنف سجناءنا في زُمَر شتى، في فئات مختلفة: هل هذا ممكن؟ إن الواقع يبلغ من كثرة التنوع أنه يفلت من جميع استنتاجات التفكير المجرد مهما تكن بارعة. إن الواقع لا يحتمل التصنيفات الواضحة الدقيقة. إن الواقع يميل دائمًا إلى التبعثر في تنوع لا نهاية له، ولا يمكن حصره. لقد كان لكل منا حياته الخاصة الداخلية، الشخصية، في خارج كل حياة رسمية، في خارج كل حياة توحيها الأنظمة وتفرضها القوانين.

ولكنني، كما سبق أن قلت لم أستطع النفاذ إلى أعماق هذه الحياة الداخلية في بداية عهدي بالسجن، لأن جميع المظاهر الخارجية كانت تصدمني وتجرحني وتملؤني حزنًا لا سبيل إلى مغالبته. كان يتفق لي في بعض الأحيان أن أبغض هؤلاء الشهداء الذين كانوا يتألمون مثلما كنت أتألم. وكنت أحسدهم لأنهم يحيون بين أقرانهم ويفهم بعضهم بعض. الحق أن هذه الصلة التي تجمع السجناء فتجعلهم رفاقًا، أعني صلة السوط والعصا، وهذه الحياة المشتركة الإجبارية، كانت تثير في نفوسهم من الكره والبغض مثل الذي كانت تثيره في نفسي؛ فكان كل واحد منهم يحاول أن يعيش منتحيًا، ولكن ذلك الحسد الذي كان يستبد بي في لحظات الاهتياج والحنق قد كانت له أسباب مشروعة وبواعث مقبولة. إن الذين يدعون أن السيد الذي نال قسطًا من ثقافة لا يتألم في سجن الأشغال الشاقة أكثر مما يتألم فلاح بسيط، هم على خطأ كامل. لقد قرأت وسمعت دعوى كهذه الدعوى. والفكرة عادلة وكريمة من حيث المبدأ: فالسجناء جميعًا بشر. ولكنها مجرد مسرفة في التجريد: هنالك تعقيدات عملية يجب أن لا تغيب عن بالنا، وهي تعقيدات عملية لا نستطيع أن نفهمها ما لم يتح لنا أن نعانيها بأنفسنا في الحياة الواقعية. لست أريد أن أدعي بذلك أن السيد المثقف أرهف شعورًا وألطف إحساسًا، لأنه أكثر تطورًا وأعلى تحضرًا. ولكن المساواة بين النفوس أمر مستحيل. وحتى الثقافة نفسها لا يمكن اتخاذها معيارًا لتنويع العقوبات. إنني أول من يشهد بأنني رأيت بين هؤلاء الأشقياء المعذبين الذين يعيشون في أحط بيئة بعيدة عن الثقافة، آثار نمو روحي مرهف. لقد كان في سجننا أناس عرفتهم عدة سنين، وكنت أظنهم حيوانات كاسرة مفترسة وكنت لذلك أحتقرهم احتقارًا شديدًا، ثم إذا بنفوسهم تتكشف فجأة، في لحظة ليست في الحسبان، وعلى غير إرادة منهم، عن غنى عاطفي ومودة إنسانية وفهم قوي لآلام الآخرين وآمالهم، وإذا هم يبلغون من ذلك كله أنك تراهم رؤية جديدة كأن غشاوة سقطت عن عينيك. ويبلغ بك الذهول في بعض الأحيان أنك تتردد عن تصديق ما رأيت وما سمعت. وقد يحدث عكس هذا أيضًا: فرب إنسان مثقف يبرهن في بعض الأحيان على وحشية رهيبة واستهتار فظيع يثيران في نفسك الاشمئزاز ويبعثان في جسمك الغثيان، فإذا أنت لا تستطيع مهما أحسنت الظن أن تجد له أي عذر أو أن تنتحل له أي مبرر.

لن أقول شيئًا عن تغير العادات وطرز الحياة ونوع الطعام وما إلى ذلك، وهو تغير يشق على رجل من الطبقة الراقية أكثر مما يشق على فلاح سبق له أن جاع حين كان حرًا طليقًا فإذا هو في السجن يأكل حتى يشبع. لا، لن أناقش هذا الأمر! لنسلم بأن الإنسان الذي يملك إرادة قوية لا يعبأ بهذه الترهات ولا يأبه لهذه السفاسف التي ليست شيئًا يذكر إذا قيست بأنواع الحرمان الأخرى. ولكن لا بد لنا من الإعتراف بأن تغيير العادات المادية ليس أمرًا سهلًا لا قيمة له. على أن في حياة السجين فظاعات يهون بالنسبة إليها كل شيء،

ويتضاءل بالقياس إليها كل أمر، حتى الهوان الذي يحيط به، والغربة التي يشعر بها والطعام القذر الذي يأكله، والأغلال القاسية التي تخنقه وتسحقه. إن أكثر الرجال رقة وتخنثًا وأكثرهم بياض يدين ونعومة جلد لا تطرف عيناه حين يعود إلى السجن بعد أن ظل يعمل طول النهار، فيأكل خبزه الأسود ويزدرد طعامه الذي تسبح فيه الهوام. تلك أمور يتعودها المرء كلها ويألفها كلها، كما تذكر بذلك أغنية ساخرة يُغنيها السجناء عن (سيد) مدلل آل أمره إلى السجن:

(طعامي حساء الكرنب مطبوخًا بالماء
ألتهمه وأتلمظ)

وإنما الأمر المهم أن كل قادم جديد إلى السجن يصبح بعد ساعتين اثنين قرينًا لسائر السجناء: فهو في منزله، بين أهله وذويه، يتمتع بجميع الحقوق التي يتمتع بها رفاقه. إنه يُفهمهم وإنهم يفهمونه، وهم جميعًا يعدونه واحدًا منهم، وذلك ما لا ينعم بمثله نبيل من النبلاء حين يودع السجن. إن السجين الذي ينتمي إلى طبقة النبلاء، مهما يكن طيب القلب ذكيًا، لا بد أن يكرهه وأن يحتقره جميع السجناء سنين طويلة؛ إنهم لن يفهموه، وإنهم لن يصدقوه خاصة. لن يكون صديقهم ولا رفيقهم، وإذا استطاع أن يحملهم على أن لا يهينوه وأن لا يسيئوا إليه، فسيظل مع ذلك غريبًا، وسيظل يعترف لنفسه متألمًا بأنه وحيد وبأنه بعيد عنهم جميعًا. وهذا الفراغ الذي يخلقه السجناء حوله، إنما يخلقونه بدون سوء نية، بل يخلقونه على غير شعور منهم بما يفعلون. كل ما في الأمر أن هذا السجين الذي ينتمي إلى طبقة النبلاء ليس منهم، ليس ينتمي إليهم، ليس عضوًا في جماعتهم... إن أفظع شيء هو أن لا يعيش المرء في بيئته. فالفلاح الذي يُنقل من تاجانروج ([42]) إلى ميناء بتروبافلوفسك يجد هنالك فلاحين روسيين فما هي إلا ساعتان حتى يرتبط بهم ويرتبطوا به، فإذا هم يعيشون معًا في سلام وهدوء في عربة واحدة أو خص واحد. ولا كذلك النبلاء. فإن هوة سحيقة لا قرار لها تفصل بينهم وبين عامة الشعب. وهذا لا يُلاحظ واضحًا إلا حين يفقد نبيل من النبلاء حقوقه الأولى ويصبح هو نفسه فردًا من أفراد الشعب. وهبك ظللت طوال حياتك على علاقات يومية بالفلاح، وهبك كنت لهذا الشعب إنسانًا مُحسنًا وأبًا رحيمًا، فإنك لن تفهم فهمًا عميقًا في يوم من الأيام. وكل ما ستظن أنك عرفته لن يكون إلا وهمًا وضلالًا. إن الذين سيقرؤون هذا الكلام سيقولون عني حتمًا إنني أُبالغ وأُغالي، ولكنني على يقين من أن ملاحظتي هذه صحيحة صادقة. وهذا اليقين ليس يقينًا نظريًا رسخ في نفسي من قراءة هذا الرأي في موضع ما، بل هو يقين ناشئ عن الحياة الواقعية التي أتاحت لي كل الوقت اللازم لامتحان آرائي ومراقبة قناعاتي. ولعل جميع الناس سيعرفون مدى صدق ما أقول...

لقد جاءت الأحداث تصدق ملاحظاتي منذ الأيام الأولى، وتؤثر في جسمي تأثيرًا مرضيًا. كنت في الصيف الأول أطوف في أرجاء السجن وحيدًا منعزلًا. وقد سبق أن قلت إنني كنت عندئذٍ في حالة نفسية لا تتيح لي أن أحكم على السجناء ولا أن أتبين بينهم أولئك الذين كان يمكن أن يحبوني من دون أن يقفوا مني مع ذلك موقف الند من الند. لقد كان لي رفاق هم أناس كانوا في الماضي من طبقه السادة، ولكن صحبتهم لم تلق هوى في نفسي حتى لقد تمنيت أن لا أرى أحدًا. ولكن إلى أين المفر؟ إليكم حادثًا من الحوادث التي أفهمتني منذ اللحظة الأولى أنني في السجن وحيد غريب. في ذات يوم من شهر آب (أغسطس)، يوم شديد الحر، في نحو الساعة الواحدة بعد الظهر، وتلك لحظة يقيل فيها جميع السجناء قبل استئناف العمل، قام السجناء قومة رجل واحد واحتشدوا في فناء السجن. كنت حتى تلك اللحظة لا أعرف شيئًا. ومن شدة استغراقي في أفكاري، لم أكد ألاحظ ما كان يجري حولي. وكان السجناء مع ذلك يضطربون ويتحركون منذ ثلاثة أيام. ولعل هذا الاضطراب كان قد بدأ قبل ذلك بزمن طويل، كما افترضت ذلك من بعد، حين تذكرت شذرات من أحاديث سمعتها، وحين تذكرت خاصةً ما كان يظهر على السجناء من مزيد من اعتكار المزاج واهتياج النفس وشدة الحنق واستمرار السخط منذ زمن. لقد كنت أعزو ذلك إلى قسوة الأشغال الشاقة في فصل الصيف، وإلى طول النهار المرهق في هذا الفصل، وإلى ما يسترسل فيه السجناء من أحلام تنقلهم إلى الغابات والحرية على غير إرادة منهم، وإلى قصر الليالي التي لا يصيبون فيها حظًا كافيًا من النوم. ولعل ذلك كله قد انصهر بعضه في بعض فتألفت منه كتلة كبيرة من السخط كانت تحاول أن تنفجر، متخذة من الطعام عذرًا وتعلة. إن السجناء يشكون من سوء الطعام جهارًا منذ عدة أيام، فيأخذون يتذمرون حين يكونون في الثكنات، ولا سيما حين يجتمعون في المطبخ للغداء أو العشاء. وقد حاولوا أن يستبدلوا بأحد الطباخين طباخًا آخر، ولكنهم لم يلبثوا أن طردوا الطباخ الثاني بعد يومين وأعادوا الطباخ الأول. الخلاصة أن جميع السجناء كانوا في حالة قلق شديد وتململ كبير.

كان أحدهم يدمدم قائلًا:

- نهلك من كثرة العمل، ثم لا يطعموننا إلا أسوأ الطعام!...

فيجيبه سجين آخر:

- إذا لم يعجبك هذا الطعام فأمر لنفسك بطعام فاخر!

فيصيح ثالث قائلًا:

- حساء مطبوخ بأمعاء البقر، ذلك طعام طيب جدًّا، أحب أنا مذاقه حُبًا عظيمًا! وإذا لم يطعموك إلا أمعاء، فهل تظل تجد هذا الطعام طيب المذاق!

قال رابع:

- حقًّا! يجب أن يطعمونا لحمًا... إننا نُضني أنفسنا بالعمل في مصنع الآجر... والمرء يشتد جزعه بعد أن ينجز عمله... ولا يمكن أن تقيم الأمعاء أوده وأن

تسد رمقه.
- وإذا لم يطعمونا أمعاء أطعمونا كروشًا.
- حقًّا... إنه لطعام رديء.
- لا شك أنه يملأ جيوبه!
- ليس هذا شأنك!
- إذا لم يكن شأني أنا، فشأن من هو؟ إن بطني ملكي. وإذا أجمعنا على الشكوى، فسترون....
- الشكوى؟
- نعم...
- يظهر أنك لم تصب حظًا كافيًا من الضرب بسبب مثل هذه الشكاوى! يا لك من غبي أحمق!...
قال سجين آخر متأففًا معتكر المزاج:
- صحيح! في العجلة الندامة... قل لنا يا صاح: ممَّ ستشكو؟ ما هي ظلامتك؟ يجب أن نعرف هذا قبل كل شيء.
- سأقول: إذا ذهب الجميع يعرضون ظلامتهم، فسأذهب أنا أيضًا، لأنني أكاد أفطس جوعًا. إن الذين يأكلون على حدة، من حقهم أن يبقوا قاعدين، وأن لا يحركوا ساكنًا... أما الذين يأكلون طعام السجن...
- يا للحسود! إن عينيه تسطعان متى وقع بصره على ما لا يملك!
- طيب يا رفاق! لماذا لا نعزم أمرنا؟ أما كفانا عذابًا؟ إن هؤلاء اللصوص يسلخون جلدنا سلخًا! هلموا نقدم شكوانا! هيا نحتج!
- فيم الاحتجاج؟ أتظن أن عليهم أن يمضغوا اللقم نيابةً عنك وأن يدسوها في فمك بعد ذلك؟ هه؟ يا للفتى النشيط، إنه لا يريد أن يأكل إلا ما يُمضغ له! نحن في سجن الأشغال الشاقة يا رجال... ذلك سبب كل شيء.
- الشعب يموت جوعًا والرؤساء يملؤون بطونهم، بهذا جرت العادة!
- صحيح، لقد سمن صاحبنا (ذو العيون الثماني)، وقد اشترى لنفسه مؤخرًا حصانين أشهبين.
قال أحد السجناء بلجهة ساخرة:
- وهو لا يحب أن يشرب الخمر!...
- لقد غُلب في القمار منذ زمن حين لعب بالورق مع البيطري، فظل يلعب ساعتين من دون أن يكون في جيبه قرش واحد.
- هذا هو السبب في أننا نُطعم حساءً بالكرنب والأمعاء!
- أنتم جميعًا أغبياء! ما شأننا نحن وهذا؟
- إذا قدمنا الشكوى مجتمعين فكيف يستطيع أن يسوغ سلوكه؟ يجب أن نعزم أمرنا.
- كيف يستطيع أن يسوِّغ سلوكه؟ الأمر سهل: يهوي على وجهك بصفعة قوية... ذلك كل ما سيفعله!

- وسيحيلك إلى المحاكمة أيضًا...
كان السجناء مضطربين اضطرابًا شديدًا. والحق أن طعامنا كان رديئًا جدًّا. ومما زاد حدة هذا الاستياء العام والحنق الشامل أن السجناء كانوا في حالة من قلق متأجج وألم مستمر وانتظار متصل. إن السجين مشاجر متمرد بطبعه، ولكن من النادر جدًّا أن يثور السجناء جماعة، لأنهم لا يتفقون يومًا في رأي ولا يجمعون على أمر. وكل واحد منا يشعر بذلك شعورًا قويًا، لذلك فإن السجناء يتبادلون الشتائم أكثر مما يعملون فعلًا. ومع ذلك لم ينقض الاضطراب في هذه المرة دون نتائج، تشكلت في الثكنات جماعات تناقش وتلوم وتقرع وتشتم وتعدِّد عيوب إدارة الميجر حانقة كارهة ساخطة، وتحاول أن تسبر خفاياها وأن تفضح أسرارها. والمعروف أن كل قضية كهذه القضية تخلق زعماء ومحرضين. والزعماء في مثل هذه الظروف رجال يمتازون بصفات خاصة بارزة، لا في السجون فحسب، بل في جميع فئات العاملين، وفي فصائل الجيش، وغير ذلك. إن نموذج الزعيم واحد في كل زمان ومكان: هم أناس متأججو الحماسة ظمأى إلى العدل، شديدو السذاجة، مقتنعون اقتناعًا صادقًا شريفًا بالقدرة المطلقة على تحقيق رغباتهم. ليسوا أغبى من الآخرين، بل إن بينهم أناس ينعمون بذكاء متفوق، ولكنهم أعظم حماسةً وأشد تأججًا من أن يكونوا دهاة مكرة، ومن أن يكونوا حذرين مترددين. وإذا صادقنا أناسًا يعرفون كيف يوجهون الجماهير وكيف يقودونها، وكيف يحققون ما يريدون، فيجب أن نعلم أن هؤلاء ينتمون بهذا وحده إلى نموذج آخر من الزعماء الشعبيين يندر وجودهم كثيرًا في بلادنا. والذين أتحدث عنهم الآن، وهم زعماء العصيان والمحرضون على التمرد، هم أناس يخسرون قضيتهم في جميع الأحيان تقريبًا، ناهيك عن أنهم يملؤون السجون. إن العيب الذي يضيعهم إنما هو الاندفاع، ولكن هذا الاندفاع هو الذي يمكِّنهم من التأثير في الجماهير: فالناس تتبعهم، لأن النار التي تتأجج في نفوسهم والاستياء الصادق الشريف الذي يشب في قلوبهم يفعل فعله في جميع البشر، فإذا أكثر الملأ ترددًا يتحمس ويندفع. إن ثقتهم العمياء في النجاح والنصر تغري حتى الشكاكين الريابين، رغم أن هذه الثقة التي تفرض نفسها قد تكون في كثير من الأحيان قائمة على أسس تبلغ من الضعف والوهن والسذاجة الطفولية أن المرء يدهشه أن يرى الناس قد صدَّقوها. إن سر تأثيرهم في الناس هو أنهم يسيرون أول السائرين لا يهابون ولا يخافون شيئًا. إنهم يندفعون إلى الأمام خافضين رؤوسهم إلى تحت، مقدمين قرونهم إلى أمام، كالثيران، من دون أن يعرفوا في كثير من الأحيان ما يشرعون فيه من عمل، ومن دون أن يساورهم شيء من تلك الروح اليسوعية العملية الماكرة التي بفضلها يستطيع إنسان دنيء سافل في أحيان كثيرة أن يربح قضية وأن يبلغ هدفه وأن يخرج ناصع البياض من برميل حبر. إن عليهم أن يحطموا قرونهم. إن هؤلاء الأفراد هم في الحياة العادية أناس شديدو الاندفاع سريعو الاهتياج

قليلو التسامح كثيرو الاحتقار، وهم في كثير من الأحيان محدودون، وذلك عامل من عوامل قوتهم على كل حال. والمؤلم في الأمر أنهم لا يهجمون أبدًا على الشيء الأساسي، على الشيء الهام، وإنما يلبثون دائمًا عند تفاصيل، بدلًا من المضي قدمًا إلى الهدف، وذلك ما يضيعهم. ولكن الجمهور يستمع لهم ويفهم عنهم، وهم بذلك رهيبون.

يجب أن أقول الآن بضع كلمات عمَّا قصدته بكلمة (الظلامة) أو الشكوى.

إن بعض السجناء كانوا قد نفوا إلى سيبيريا وأودعوا السجن لا لشيء إلا لأنهم قدموا شكوى أو رفعوا ظلامة. إن هؤلاء هم أكثر السجناء حركة واضطرابًا. أذكر بينهم رجلًا اسمه مارتينوف كان قد خدم في سلاح الفرسان، وهو على شدة اندفاعه وقلقه وغضبه إنسان شريف صادق. وأذكر منهم أيضًا فاسيلي آنتونوف، وهو رجل شديد الاهتياج وقح النظرة ساخر الابتسامة ولكنه شريف صادق أيضًا، كما أنه ذكي يقظ. وحسبي ذكر هذين الاسمين، لأن عدد هؤلاء الرجال كبير. وكان بتروف يذهب ويجيء من جماعة إلى أخرى، يتكلم قليلًا ولكنه مهتاج من غير شك، لأنه وثب أول الواثبين إلى خارج الثكنة حين تجمهر الآخرون في الفناء. سرعان ما وصل صف الضابط كان برتبة وكيل، مروَّعًا مذعورًا... فما أن اصطف السجناء حتى رجوه في لطف وأدب أن يبلغ الميجر أنهم يرغبون في أن يتحدثوا إليه وأن يسألوه عن بعض الأمور، ووراء صف الضابط وصل جميع الجنود المشوَّهين فاصطفوا في الجهة الأخرى أمام السجناء، إن الرسالة التي عهد السجناء إلى صف الضابط بنقلها إلى الميجر أمر خارق لا عهد له بمثله من قبل، فامتلأ الرجال جزعًا وهلعًا، ولكنه لا يجرؤ أن لا يقدم تقريره إلى الميجر، فلو تمرد السجناء وقاموا بعصيان، لكان يمكن أن تحدث أمور لا يعلمها إلا اللّه... لقد كان جميع رؤسائنا جبناء غاية الجبن في علاقتهم بالسجناء، وهب لم يحدث شيء أسوأ مما حدث، هب السجناء عدلوا عن رأيهم وتفرقوا فسوف يكون على صف الضابط أن يبلغ الإدارة جميع ما وقع. وها هو ذا يُسرع إلى الميجر، ممتقع اللون مرتعد الجسد من الفزع، حتى من دون أن يحاول رد السجناء إلى الصواب وإقناعهم بإلتزام جانب الحكمة والرشاد، لقد أدرك حق الإدراك أن السجناء لن يتسلوا بمناقشته هو.

وكنت أجهل ما يجري كل الجهل، فاصطففت مع المصطفين (إنني لم أعرف تفاصيل هذه القصة إلا فيما بعد). كنت أظن أن الهدف هو تفقدنا وعَدُّنا، فلما لم أر حرسًا يُراقبون التعداد، ألمت بي دهشة وأخذت أنظر في ما حولي. كانت الوجوه تعبر عن انفعال شديد وحنق مستعر. وكان بينها وجوه شاحبة صفراء، إن السجناء مهمومون صامتون، يفكرون في ما يجب عليهم أن يقولوه للميجر، ولاحظت أن كثيرًا منهم كانوا مدهوشين من رؤيتي إلى جانبهم، ولكنهم سرعان ما تحوَّلوا عني. لقد استغربوا أن أصطف معهم، وأن أريد أنا أيضًا أن أشارك في شكواهم، فلم يصدقوا ذلك، وما هي إلا لحظة حتى إلتفتوا إليَّ من جديد وقد بدت في وجوههم علامات السؤال.

قال لي فاسيلي آنتونوف بلهجة فظة وصوتٍ عالٍ، وكان إلى جانبي بعيدًا عن سائرهم، وكان يُخاطبني قبل ذلك دائمًا بصيغة الجمع في كثير من اللطف والتأدب، قال يسألني في هذه المرة بصيغة المفرد (أنت):
- ما مجيئك أنت إلى هنا؟
فنظرت إليه مرتبكًا أشد الارتباك متحيرًا أشد التحير، محاولًا أن أفهم ماذا يعني. كنت قد حزرت منذ تلك اللحظة أن شيئًا خارقًا ما كان يجري في سجننا.
قال لي سجين عسكري شاب لم أكن أعرفه حتى ذلك الحين وهو فتى طيب مسالم موادع:
- نعم! ما بقاؤك هنا؟ اذهب إلى الثكنة، فالأمر لا يعنيك!
أجبته قائلًا:
- رأيتكم تصطفون فاصطففت، أليس تفتيشنا هو الغرض؟
صاح أحد المنفيين يقول:
- جاء يحشر نفسه!
وقال آخر:
- يا للأنف الحديدي!
وأضاف ثالث يقول باحتقار لا يوصف:
- قتلة ذباب!
فما كان من هذا اللقب الذي لقبني به الرجل إلا أن جعل الجميع ينفجرون ضاحكين.
وأضاف آخر:
- ما أحلى منظرهم في المطبخ، هؤلاء الناس!
- هم في كل مكان مترفون! ألسنا في السجن؟ ومع ذلك يشترون خُبزًا أبيض وخنازير رضعًا كما يفعل سادة عظام! ألست تأكل على حدة؟ فما مجيئك هنا؟
وقال لي كوليكوف بغير تحرج، وهو يمسك يدي ويخرجني من الصف، ويخاطبني بصيغة الجمع:
- ليس مكانكم هنا.
لقد كان شاحبًا كل الشحوب، وكانت عيناه السوداوان تسطعان، وكان يعض شفته السفلى حتى ليكاد يدميها. إنه ليس من أولئك الذين كانوا ينتظرون وصول الميجر هادئي النفس ثابتي الجنان.
كنت أحب كثيرًا أن أنظر إلى كوليكوف وهو على مثل هذه الحال أي حين يضطر أن يكشف عن نفسه كاملًا بحسناته وسيئاته، بمزاياه وعيوبه. لئن كان كوليكوف يصطنع أوضاعًا ومظاهر، فلقد كان أيضًا يفعل. وأحسب أنه لو اقتيد يومًا إلى الموت لمشى إليه رشيقًا أنيقًا، كسيد صغير. لقد ضاعف تأدبه معي وملاطفته لي بينما كان الآخرون جميعًا يخاطبونني بصيغة المفرد، ويكيلون لي

الإهانات، ولكنه كلمني بلهجة قاطعة جازمة لا تسمح بمقاطعة أو رد أو جواب.
تابع يقول:
- نحن هنا لشأن خاص بنا يا ألكسندر بتروفتش، فليس عليك أن تتدخل في هذا الشأن. اذهب حيث شئت... انتظر حيث أردت.. اسمع: إن جماعتك في المطبخ فامضِ إليهم...
وقال آخر:
- هم هنالك على خير حال!
نظرت إلى داخل المطبخ من خلال النافذة، فلمحت البولنديين فعلًا كما لَمَحتُ كثيرًا من السجناء أيضًا. ومضيتُ أدخل المطبخ مرتبكًا أشد الارتباك، ترافقني قهقهات وشتائم، وتشيعني صيحة خاصة كانت تقوم في سجننا مقام صغير الاستهزاء والسخر:
- لم تعجبه الحال!... تيو – تيو – تيو!.. هاتوه! أمسكوه!...
لم تُلحق بي إهانة كهذه الإهانة خطورةٌ منذ دخول السجن. كانت تلك اللحظة أليمة جدًّا، ولكن كان في وسعي أن أتوقعها، فلقد كانت النفوس مهتاجة مفرطة في الاهتياج. وفيما أنا ألج حجرة المدخل إلتقيتُ بالفتى تـ... سكي، وهو شاب من طبقة النبلاء ليس على حظ كبير من الثقافة، ولكنه صلب الإرادة كريم النفس كان السجناء يستثنونه ولا يضمرون له ما كانوا يضمرونه لسائر السجناء النبلاء من بغض وكره حتى ليكادون يحبونه. إن كل حركة من حركاته تدل على أنه إنسان شهم شجاع وقوي.
صاح يقول لي:
- ماذا تفعل يا جوريا نشيكوف؟ تعال إلى هنا!...
سألته:
- ولكن ما الذي يجري؟
- يريدون تقديم شكوى، ألا تعلم ذلك؟ ولن يظفروا بطائل طبعًا، فمن ذا الذي يصدق سجناء؟ وسوف تبحث الإدارة عن المحرضين، فإذا كنا معهم، ألقت التبعة علينا وعدتنا مسؤولين عمَّا وقع. تذكر لماذا نُفينا إلى هذا المكان! إن الإدارة إذا أرادت معاقبتهم لم تزد على أن تأمر بجلدهم، أما نحن فسوف تحيلنا إلى المحاكمة. إن الميجر يكرهنا جميعًا، ولسوف يسعده جدًّا أن يضيِّعنا. سوف يتخذنا عذرًا لتسويغ أعماله وتبرئة نفسه!
فلما دخلنا المطبخ، أضاف مـ....كي يقول:
- أما السجناء فسوف يبيعوننا موثقي الأيدي والأرجل!...
فقال تـ...سكي ([43])
- لن تأخذهم بنا شفقة.
وكان في المطبخ، عدا السجناء الذين ينتمون إلى طبقة النبلاء، نحو من ثلاثين سجينًا آخرين كانوا لا يريدون الاشتراك في تقديم الشكاوى فبعضهم عن

جبن، وبعضهم عن اقتناع مطلق بأن هذه الشكوى لا جدوى منها. وكان آكيم آكيمتش - وهو عدو طبيعي لجميع الشكاوى ولكل ما يمكن أن يخل بالنظام ويعرقل الخدمة - ينتظر نهاية هذه القضية هادئًا من دون أن يعبأ بها أو يكترث لها أو يقلق منها، لقد كان مقتنعًا اقتناعًا كاملًا بأن النظام والسلطة ستتم لهما الغلبة فورًا، أما أشعيا فومتش، فكان خافضًا أنفه مضطربًا أشد الاضطراب، يصغي إلى ما كنا نقوله، باستطلاع مذعور. إنه قلق أشد القلق. وقد انضم إلى البولديين النبلاء سجناء من العامة ينتمون إلى الجنسية البولندية، وانضم إليهم كذلك روسيون من ذوي الطبائع الخائفة الوجلة وهم أناس مبهوتون صامتون دائمًا، لم يجسروا أن يعتصبوا مع الآخرين فهم ينتظرون خاتمة هذه القضية حزانى مبتئسين، وكان هنالك أيضًا عدد من السجناء المتجهمين المستائين لبثوا في المطبخ لا عن خوف بل لاعتقادهم بأن هذا التمرد سخيف لا طائل تحته ولا أمل في نجاحه. وأحسب أنني لاحظت أنهم كانوا في تلك اللحظة مخرجين متضايقين، وأن نظراتهم كانت مضطربة قلقة. كانوا يحسون إحساسًا قويًا بأنهم على حق، وبأن نتيجة الشكوى ستكون هي النتيجة التي تنبأوا بها، ولكنهم عادوا يعدون أنفسهم متنكرين لمبادئهم حتى لكأنهم خانوا جماعتهم وباعوا رفاقهم للميجر.

وكان في المطبخ أيضًا ذلك الفلاح السيبيري الداهية يولكين الذي أودع سجنا الأشغال الشاقة لأنه اشترك في صنع نقود مزيفة، والذي انتزع من كوليكوف ما كان ينعم به كوليكوف من زبائن في المدينة يلجأون إليه لتطبيب بهائمهم.

وكان في المطبخ أيضًا ذلك الشيخ الوافد من ستارودوب. ولم يترك أحد من الطباخين مكانه، ربما لأنهم كانوا يعدون أنفسهم جزءًا من الإدارة، فلا يجمل بهم أن يشاركوا في تمرد عليها.

قلت أخاطب مـ... كي بلهجة مترددة:

- ولكن جميع السجناء قد خرجوا ما عدا هؤلاء.

فجمجم بي يقول:

- ما شأننا وهذا؟

- لو شاركناهم لتعرضنا لمخاطر أشد كثيرًا من المخاطر التي يتعرضون هم لها. إنني أكره هؤلاء اللصوص، وهل تظن أنهم سيعرفون كيف يشتكون؟ ألا إنني لا أدري ما هي اللذة التي يجدونها في توريط أنفسهم بأنفسهم.

قال شيخ عنيد شرس:

- لن يظفروا بطائل.

وأسرع المازوف، الذي كان معنا أيضًا، يقول كلامًا كهذا الكلام.

- سيُجلد منهم خمسون... تلك هي الفائدة التي سيجنونها.

صاح أحدهم:

- وصل الميجر.

فأسرع الجميع إلى النوافذ.

كان الميجر قد وصل واضعًا نظارتيه على عينيه، منقلب الشحنة حانق النفس، محمر الوجه واتجه نحو صف السجناء رأسًا بقدم ثابتة من دون أن يقول كلمة واحدة. إنه في ظرف كهذا الظرف يكون جسورًا جريئًا في الواقع، لا يفقد حضور بديهته. يجب أن نذكر أن الميجر ثمل في جميع الأحيان تقريبًا. وفي تلك اللحظة كان لقبعته المتسخة ذات الشريط البرتقالي اللون، وكان لشاراته الفضية الصدئة منظر يوحي بشيء من الشؤم. ووراءه وصل الموظف دياتلوف، وهو شخصية هامة جدًّا في السجن، لأنه هو الذي كان يحكم السجن ويدير شؤونه في حقيقة الأمر. لقد كان لهذا الفتى الكفء القدير الداهية سلطان كبير على الميجر. ولم يكن شريرًا، فكان السجناء راضين عنه على وجه العموم. وكان يتبعه الوكيل وثلاثة جنود أو أربعة، لا أكثر من ذلك. وكان الوكيل قد نال نصيبًا كبيرًا من التقريع والتأنيب ولا شك أنه يتوقع أن ينال المزيد أضعافًا مضاعفة. كان السجناء قد حسروا رؤوسهم منذ أرسلوا يستدعون الميجر، فهاهم أولاء الآن يتقاربون ويتراصون، ويثبت كل منهم جسمه على الساق الأخرى، إنهم ساكنون لا يتحركون، ينتظرون أول كلمة سينطق بها رئيسهم الأعلى أو قل أول صرخة ستصدر عنه.
ولم يطل انتظارهم، فما إن قال الميجر كلمته الثانية حتى أخذ يصرخ مسعورًا بأعلى صوته. لقد كان خارجًا عن طوره، ورأيناه من نوافذنا يركض من أول الصف إلى آخره ويهجم على السجناء يلقي عليهم الأسئلة تلو الأسئلة، وإذ كنا بعيدين، فإنا لم نسمع أسئلته ولا سمعنا أجوبة السجناء، وإنما كنا نسمعه يصيح صياحًا شديدًا يصاحبه نوع من الأنين.
- عصاة! متمردون!... ستجلدون! هناك محرضون!
ثم صرخ يقول وهو يهجم على سجين من السجناء:
- أنت واحد من المحرضين! أنت أحد المحرضين! لم نسمع جواب السجين، ولكننا رأينا هذا السجين يخرج من الصف بعد دقيقة ويتجه نحو مقر الحرس... وتبعه سجين ثانٍ، فسجين ثالث!
- ستحاكمون جميعًا لسوف... من هنالك في المطبخ؟
كذلك قطع كلامه حين لمحنا في النوافذ المفتوحة...
وتابع يصرخ:
- تعالوا جميعًا هنا! جيئوني بهم جميعًا!
اتجه ديالتوف نحو المطبخ. فلما قلنا له إننا لا نشكو من شيء ولا نعرض أية ظلامة عاد يُبلغ الميجر ذلك على الفور.
قال الميجر وهو يخفض صوته طبقتين، فرحًا كل الفرح:
- آه... أولئك لا يشتكون. لا بأس.. جيئوني بهم جميعًا!
خرجنا من المطبخ. كنت أشعر بنوع من الخزي والعار. ثم إن الجميع يسيرون خافضين رؤوسهم.

- آ... بروكوفيف يولكين أيضًا وأنت كذلك يا ألمازورف! هنا! تعالوا هنا دفعة واحدة!

كذلك قال لنا الميجر بصوت لاهث لكنه ملطف، حتى لقد كان في نظرته شيء من تودد.

وتابع الميجر يقول:

- وأنت بينهم أيضًا يا مـ...ـكي... سجلوا أسماءهم! يا ديالتوف، سجل جميع الأسماء، أسماء الراضين على حدة، وأسماء الساخطين على حدة... سجل جميع الأسماء بغير استثناء، ستقدم إليَّ كشفًا بالأسماء... ستمثلون أمام المجلس... سوف أفعل كل ما يحسن أن أفعله أيها الأوباش!

أحدث الأمر بإعداد الكشف أثره، فهذا واحد من الساخطين يصيح قائلًا بصوت أجش متردد:

- نحن راضون.

- آ... راضون... من هو الراضي؟ فليخرج الراضون من الصف!

هتفت أصوات أخرى تقول:

- نحن! نحن!

- أأنتم راضون عن الطعام؟ لقد حرَّضوكم إذن؟ كان هناك إذن محرِّضون! ويل للمحرِّضين!

قال صوت من بين الجمهور:

- ما معنى هذا يا مولانا؟

فزأر الميجر يسأل وهو يهجم نحو الجهة التي صدر منها الصوت:

- من ذا الذي صاح بهذا السؤال؟ من؟ أأنت الذي صرخت، يا راستوجويف؟ هلم إلى مقر الحرس!

خرج راستوجويف من الصف وسار متجهًا نحو مقر الحرس بخطى بطيئة، إنه شاب ممتلئ الوجه طويل القامة. ليس هو الذي صرخ. ولكنه لم يحاول أن يعترض حين سماه الميجر.

زأر الميجر يقول:

- إن السمنة هي التي تجعلكم غاضبين مسعورين! انتظر أيها البوز الضخم! هي ثلاثة أيام ثم لا تستطيع أن!... انتظروا! لسوف أكشف عنكم وأقبض عليكم جميعًا، فليخرج الذين لا يشتكون!

قال بعض السجناء وقد أظلمت وجوههم:

- نحن لا شكوى لنا يا صاحب النبالة الرفيعة!

وصمت الآخرون. إن الميجر لا يتمنى أكثر من ذلك. كان يرى أن من مصلحته أن ينهي هذه القضية بأقصى سرعة ممكنة، وبإجماع السجناء.

قال متمتمًا:

- آ... الآن لا يشكو أحد شيئًا. رأيت ذلك. وكنت أعرفه حق المعرفة. ولكن هنالك محرِّضين! نعم، لا شك أن هنالك محرضين!

وتابع يقول مخاطبًا ديالتوف:

- يجب أن يُعرف جميع المحرِّضين. أما الآن فقد حان موعد الذهاب إلى العمل. اقرعوا الطبل!

وشهد الميجر بنفسه تشكيل فرق العمل. تفرق السجناء في حزن من دون كلام، وقد أسعدهم أن يغيبوا. فما إن فرغ الميجر من توزيع فرق العمل حتى مضى إلى مقر الحرس، حيث اتخذ إجراءات في حق المُحرِّضين. ولكن لم يسرف في القسوة. كان واضحًا أنه يريد أن يحل المشكلة بأقصى سرعة. وقد حدثنا أحد الذين ذهبوا إلى مقر الحرس، حدثنا بعد ذلك فقال إنه استغفر الضابط، فسرعان ما أفرج عنه. لا شك في أن الميجر لم يكن مرتاح البال. لعله كان خائفًا. إن العصيان أمر شائك دائمًا، رغم أن تمرد السجناء لم يكن في حقيقة الأمر تمردًا (وهو لم ينقل خبره إلا إلى الميجر، أما الأمر فقد كتم عنه)، فإنه قضية مزعجة على كل حال. والشيء الذي أقلق الميجر خاصةً إنما هو إجماع السجناء على العصيان. فكان لا بد إذن من قمع مطالبهم بأي ثمن، مهما كلف الأمر. وما لبث الميجر أن (أخلى سبيل) المحرضين. وفي الغد تحسن الطعام بعض التحسن، ولكن هذا التحسن لم يدم طويلًا. وأصبح الميجر في الأيام التالية يزيد زياراته للسجن، ويفرض عقوبات على من يُخالفون النظام. وأصبح الوكيل يذهب ويجيء مُضطربًا قلقًا مهمومًا، كأنه لم يستطع أن يثوب إلى رشده وأن يتخلص من ذهوله. أما السجناء فإنهم لم يهدأوا إلا بعد زمن طويل، غير أن اضطرابهم يختلف الآن عن اضطرابهم في الأيام الأولى. هم الآن قلقون محتارون مرتبكون بعضهم يخفضون رؤوسهم ويصمتون، وبعضهم يتكلمون عن هذه المجازفة مدمدمين كأنما على غير إرادة منهم، وكثير منهم يسخرون من أنفسهم بمرارة كأنما ليعاقبوا أنفسهم على هذا العصيان الذي لم يكن في محله.

يقول أحدهم:

- خذ يا رفيق، خذ وكل!...

- أين الفأرة التي تريد أن تعلِّق جرسًا في ذنب الهرة؟

- نحن أناس لا يمكن إقناعنا إلا بالعصا... ذلك مؤكد. ألا فلنغبط أنفسنا على أنه لم يأمر بجلدنا جميعًا!

- فكِّر أكثر، وثرثر أقل! ذلك خير وأبقى!

- ما بالك تلقنني درسًا؟ أتراك معلم مدرسة؟

- طبعًا يجب تلقينك درسًا!

- من أنت حتى تلقنني درسًا؟

- أنا رجل، أما أنت فماذا أنت؟

- ما أنت إلا عظمة كلب. ذلك أنت!

- هيا! كفى! ما هذا العياط والزياط؟

كذلك كانت تتعالى الصيحات من كل جانب تُحاول أن تسكت المتشاجرين.

وقد إلتقيتُ في مساء اليوم الذي حدث فيه التمرد، إلتقيتُ بصاحبي بتروف بعد عمل النهار. كان بتروف يبحث عني وسمعته يجمجم بهتافات غير مفهومة وهو يقترب مني، فما إن وصل إليَّ حتى صمت وسار يتنزه معي بخطى آلية. كنت ما أزال مثقل النفس من هذه القضية كلها، واعتقدت أن في وسع بتروف أن يفسِّرها لي.
سألته:
- قل لي يا بتروف: هل أصحابك غاضبون منا حانقون علينا؟
فأجاب كمن ثاب إلى نفسه على حين فجأة:
- غاضبون؟ من؟
- السجناء... هل هم غاضبون من النبلاء؟
- فيم يغضبون؟
- لأننا لم نؤيدهم، لأننا لم نشاركهم اعتصامهم!
قال بتروف محاولًا أن يفهم ما أقوله له:
- ولكن علامَ تعتصمون أنتم؟ إنكم تأكلون على حدة.
- ولكن بين أصحابك من لا يأكلون طعام السجن المعتاد، ثم شاركوكم الاعتصام مع ذلك... لقد كان علينا أن نؤيدكم وندعمكم ونشد أزركم... ألسنا رفاقًا لكم؟
- أأنتم رفاق لنا؟
كذلك سألني بتروف مدهوشًا.
نظرت إليه. إنه لم يستطع أن يفهم أو أن يدرك ما قلته له أبدًا. أما أنا فقد فهمته حق الفهم. إن فكرة كانت تتحرك في رأسي غامضة وكانت تُحاصرني منذ زمن طويل قد تبلورت الآن نهائيًا، أدركت إدراكًا واضحًا ما كنت أحزره قبل ذلك حزرًا مبهمًا. أدركت أنني لن أُصبح في يوم من الأيام رفيقًا للسجناء، ولو حكم عليَّ بالسجن المؤبد، ولو أصبحت أنتمي إلى سجناء (القسم الخاص). وانحفرت هيئة بتروف في ذهني في تلك اللحظة، وظلت ماثلة في ذاكرتي إلى الأبد. لقد كان في قوله: (أأنتم رفاق لنا؟)، كان في قوله هذا من السذاجة الصريحة والدهشة البريئة ما جعلني أتساءل ألا يخفي كلامه شيئًا من سخرية، ألا يخفي كلامه شيئًا من خبث مستهزئ متهكم؟ أبدًا. أنا لست رفيقهم... هذا كل شيء... اذهب أنت يسرةً، ونذهب نحن يمنة... لك شأنك ولنا شأننا...
واعتقدت حقًّا أنهم بعد هذا العصيان سيمزقوننا تمزيقًا، وأن حياتنا ستصبح جحيمًا لا يُطاق. غير أن شيئًا من ذلك لم يحدث! لم نسمع أي لوم، لم نسمع أي غمز خبيث! ظلوا يناكدوننا كما كانوا يناكدوننا من قبل، إذا عرضت فرصة أو طرأت مناسبة... ذلك كل شيء، لم يضمر أحدٌ حقدًا على الذين لم يشاءوا أن يعتصموا وظلوا في المطبخ، لا ولا حمل أحدٌ حقدًا على الذين صاحوا أول

الصائحين بأنهم لا يشتكون من شيء! لم ينطق أحد بكلمة واحدة في هذا الأمر. وأذهلني ذلك ثم لم تنقضِ دهشتي منه يومًا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

8

رفاقي

إن الذين اجتذبوني أكثر من غيرهم، كما تقدرون، إنما هم المنتمون إلى طبقة النبلاء، ولا سيما في الآونة الأولى. ولكن، من بين النبلاء الروس الثلاثة، وهم آكيم آكيمتش والجاسوس آ...ف، والشاب الذي كان يظن أنه قاتل أبيه، لم تتصل أسبابي إلا بأسباب آكيم آكيمتش، فكنت لا أكلم غيره. والحق أنني كنت لا ألتجئ إليه وأخاطبه إلا في حالة اليأس والقنوط، في لحظات الحزن التي لا تُطاق، حين يتراءى لي أنني لن أقترب من أحد غيره في يوم من الأيام. لقد حاولت في الفصل السابق أن أصنف نزلاء سجننا في فئات شتى. ولكنني إذ أتذكر الآن آكيم آكيمتش أحسب أن عليَّ أن أضيف إلى تصنيفي فئة ثالثة، وهذه الفئة لا تضم أحدًا سواه. إن هذه الفئة هي فئة السجناء الذين لا يبالون بشيء قط، ويستوي عندهم أن يعيشوا أحرارًا وأن يعيشوا في سجن الأشغال الشاقة وذلك أمر لا يمكن أن يكون عندنا استثناء من القاعدة. لقد استقر آكيم آكيمتش في سجن الأشغال الشاقة استقرار امرئ سيقضي فيه حياته كلها: إن كل ما يخصه، من فراشه إلى وسائده إلى أوانيه، كان مرتبًا ترتيبًا وطيدًا نهائيًا. كان على آكيم آكيمتش أن يمكث في سجن الأشغال الشاقة عدة سنين أخرى، ولكنني أشك أن يكون قد فكر في الإفراج عنه وإطلاق سراحه. لقد تلاءم مع الواقع، وتصالح مع الظروف التي يعيش فيها، ولم يكن ذلك من باب الخضوع والإذعان والاستسلام، وإنما كان صادرًا عن نفسه نابعًا من قلبه، وسيان عنده الأمران على كل حال. إن آكيم آكيمتش إنسان طيب السريرة شهم، وقد ساعدني في الآونة الأولى بنصائحه وخدماته، ولكن يجب أن أعترف أنه كان في بعض الأحيان يوقظ في نفسي حزنًا عميقًا لا شبيه له، حزنًا يزيد ويُفاقم ما اتصف به من ميل إلى القلق والهم والغم. وكنت إذا انحدرت إلى حضيض الكمد والكرب واليأس أتحدث إليه متمنيًا أن أسمع منه كلامًا فيه حرارة ومرارة، فإن كلامًا كهذا الكلام كفيل بأن يجعلنا نسخط معًا على مصيرنا المشترك في أقل تقدير، فيكون لي من ذلك بعض العزاء. ولكن آكيم آكيمتش كان يصمت ويمضي يعمل هادئًا في إلصاق مصابيحه، ويقص عليَّ أثناء ذلك أنهم قاموا باستعراضٍ سنةَ كذا، وأن آمر الفرقة كان اسمه فلانًا، وأن إشارات جنود المدفعية كانت قد غُيِّرت، وهلم جرا... يقول ذلك كله بصوت رصين متساوٍ، كأنه الماء يتساقط قطرة قطرة. كان لا يتحمس حتى حين كان يروي لي كيف أنه في قضية من القضايا التي وقعت في القفقاس (لا أذكر الآن ماذا كانت تلك القضية) قد منح وسام (القديسة حنة)، وأن سيفه قد ازدان بشريط هذا الوسام. كل ما هنالك أن صوته يصير عندئذٍ أشد رصانة

ووقارًا، فهو إذا نطق اسم القديسة حنة خفض صوته طبقة، وأسبغ على نبرة كلامه طابع السر، ثم ظل بعد ذلك صامتًا جادًا خلال ثلاث دقائق على الأقل... وكانت تنتابني أثناء تلك السنة الأولى كلها حالات فظيعة أكاد أكره فيها آكيم آكيمتش من دون أن أعرف لماذا، وكانت تعتريني سورات يأس شديد ألعن في إبانها القدر الذي رماني إلى سرير في السجن يلاصق سريره حتى ليتلامس رأسانا. على أن هذه النوبات لم تصبني إلا خلال السنة الأولى من إقامتي بالسجن. ثم تعودت على طبع آكيم آكيمتش وألفتُ أخلاقه، وصرت أشعر بالخجل حين أتذكر اندفاعاتي السابقة. ولست أذكر أننا اختصمنا صراحةً في يوم من الأيام.

عدا هؤلاء الروس الثلاثة الذين كانوا ينتمون قبل دخولي السجن إلى طبقة النبلاء، كان لي ثمانية ([44]) رفاق آخرين، انعقدت بيني وبين بعضهم صداقة قوية. كان خيرهم أناسًا يشبهون أن يكونوا مرضى من فرط تفردهم وتعصبهم، حتى إن بينهم اثنين كففت آخر الأمر عن مخاطبتهم وقطعت صلتي بهم. ولم يكن بينهم إلا ثلاثة مثقفين هم بـ...كي ([45]) و مـ...كي والشيخ ز...كي ([46]) الذي كان في الماضي أُستاذًا للرياضيات وهو رجل طيب القلب شاذ الطبع محدود الفكر رغم علمه، ولا كذلك مـ...كي وز...كي. لقد تفاهمت مع مـ...كي من أول وهلة، ولم أختصم معه مرة واحدة، وقد قدرته واحترمته كثيرًا، ولكن من دون أن أحبه ومن دون أن أرتبط به، ولم أستطع في يوم من الأيام أن أصل إلى ذلك. لقد كانت نفسه تفيض مرارةً وشكًا وارتيابًا وحذرًا، وكان شديد السيطرة على نفسه والتحكم بسلوكه، وذلك بعينه هو ما لم يعجبني فيه، فإن المرء يشعر أن هذا الرجل لن يفتح نفسه يومًا لأحد، على أنني قد أكون مُخطئًا. وإنما المهم أن الرجل كان على جانب عظيم من الرقعة. أما شدة ارتيابه فكانت تتجلى براعةً خارقة وحذرًا كبيرًا في تعامله مع من يحيطون به. والحق أن نفسه كانت مزدوجة، فلقد كان يجمع بين الشك الشديد والإيمان العميق. لقد كان يؤمن ببعض الآمال وبعض القناعات إيمانًا لا يتزعزع. وكان رغم كل براعته العملية، في حرب سافرة مع بـ...كي وصديقه تـ...كي.

أما بـ...كي فقد كان رجلًا مريضًا، وكان فيه استعداد للإصابة بالسل، وكان شرس الطبع ضيق الصدر عصبي المزاج، ولكنه طيب القلب كريم. وكان اهتياجه العصبي يجعله ذا نزوات كأنه طفل. ولقد كنت لا أستطيع أن أحتمل طبعًا كهذا الطبع، لذلك انقطعت عن رؤية بـ...كي، من دون أن أكف عن حبه مع ذلك، تمامًا على عكس مـ...كي الذي لم أتشاجر معه يومًا، ولكنني لم أحبَّه. وحين قطعت جميع علاقاتي بصاحبنا ب...كي اضطررت أن أقطع جميع علاقاتي أيضًا بصديقه تـ...كي الذي تحدثت عنه في الفصل السابق، وذلك ما أسفت له أشد الأسف، لأنه كان رجلًا ممتازًا يتصف بشجاعة عظيمة، ولكنه

يبلغ من حبه واحترامه وتقديسه لصديقه بـ...كي أن كل من يقطعون علاقاتهم بصديقه يصبحون أعداءه. وهكذا ساءت صلته مع مـ...كي بسبب بـ...كي، رغم أنه قاوم ذلك مدة طويلة. ومهما يكن من أمر فلقد كان هؤلاء الرجال جميعًا يتصفون بأنهم شديدو الغضب سريعو التأذي كثيرو الشك مفرطو الحساسية. وذلك أمر له ما يفسره. لقد كان وضعهم أليمًا شاقًا، وكان أقسى من وضعنا نحن، لأنهم أُبعدوا من بلادهم ونفوا عشر سنين أو اثنتي عشرة سنة؛ والشيء الذي كان يجعل إقامتهم بالسجن شاقة مشقة خاصة إنما هو ما وقع في وهمهم ورسخ في اعتقادهم من أحكام سابقة في حق السجناء، وما سيطر عليهم من نظرة خاصة جاهزة ينظرونها إليهم. كانوا لا يرون في السجناء إلا حيوانات كاسرة مفترسة، وكانوا يأبون أن يسلموا بأي شيء إنساني فيهم. ولقد تورطوا في هذه النظرة بحكم الظروف وبحكم مصيرهم. لقد كانت حياتهم في السجن عذابًا لا يُطاق. كانوا لِطافًا مع الشراكسة والتتر وأشعيا فومتش. ولكنهم كانوا لا يحملون لسائر السجناء إلا الاحتقار. والشخص الوحيد الذي فاز باحترامهم كله إنما هو الشيخ الذي ينتمي إلى الملة المنشقة، ومع ذلك فما من سجين، طوال المدة التي أقمتها في السجن، قد عاب عليهم أصلهم أو عاب عليهم عقيدتهم الدينية، أو عاب عليهم مبادئهم، أو غير ذلك مما نعرفه لدى الطبقة الدنيا من الشعب في علاقاتها بالأجانب، ولا سيما الألمان، والحقيقة أن الشعب إنما يسخر من الرجل الألماني لأنه يعده دجالًا فظًا. لقد كان سجناؤنا يحترمون النبلاء البولنديين أكثر كثيرًا مما يحترموننا نحن النبلاء الروس. كانوا لا (يمسُّون) أولئك، ولا يتعرضون لهم بسوء. ولكنني أعتقد أن البولنديين لم يشاءوا أن يلاحظوا هذه الواقعة وأن ينظروا إليها بعين الاعتبار. لقد تكلمت عن تـ...كي، فلأعد إليه. إنه حين بارح مع صديقه أول محطة على طريق المنفى لينتقل إلى سجننا، قد حمل صديقه (ب) طول الوقت تقريبًا، لأن (ب) كان ضعيف البنية سقيم الصحة، فأصبح منهوك القوى مُرهقًا بعد نصف مرحلة من مراحل السفر. لقد نُفيا في أول الأمر إلى أو - جورسك ([47])، فكانا هنالك مرتاحين. إن الحياة هنالك أقل قسوة من الحياة في قلعتنا. ولكن السلطات ارتأت على أثر مراسلات بريئة قامت بينهما وبين المنفيين في مدينة أخرى، أن يُنقلا إلى سجننا حتى يكونا تحت المراقبة المباشرة للسلطة العليا. ولقد ظل مـ...كي إذن وحيدًا حتى وصلا، فلك أن تتصور مدى ما كان يشعر به من تعاسة أثناء السنة الأولى من منفاه!

إن ز...كي هو ذلك الشيخ الذي كان يكب دائمًا على الصلاة والدعاء، والذي سبق أن تحدثت عنه. لقد كان جميع السجناء السياسيين شبابًا، بل كانوا في ريعان الشباب، على حين أن ز...كي كان في الخمسين من عمره على الأقل. لا شك في أنه كان إنسانًا شريفًا جدًّا، ولكنه كان غريب الأطوار حتى لقد كان رفيقه تـ...كي وبـ...كي يكرهانه ولا يكلمانه قط؛ وكانا يصفانه بأنه عنيد

مشاكس، وإني لأشهد بأنهما كانا على حق. أعتقد أن الناس حين يكونون في معتقل - أو في أي مكان آخر اجتمعوا فيه عنوة بغير إرادة منهم - يختصمون ويتشاجرون ويكره بعضهم بعضًا أكثر مما يفعلون ذلك حين يكونون أحرارًا طلقاء. هنالك أسباب كثيرة تُساهم في خلق هذه المشاحنات بينهم. ولقد كان ز...كي إنسانًا مزعجًا محدودًا في الواقع. فما من أحد من رفاقه كان على علاقة حسنة به. ولئن لم تسؤ صلتي به يومًا، فإننا لم تنشأ بيننا صداقة في لحظة من اللحظات، أحسب أنه كان قديرًا في الرياضيات. لقد شرح لي في ذات يوم، بلغته الركيكة التي نصفها روسي ونصفها بولندي، نظرية فلكية كان قد أوجدها، وقيل لي إنه ألف في هذا الموضوع كِتابًا متعالمًا سخر منه جميع الناس. أعتقد أن حكمه على الأمور قد فسد قليلًا. ولقد كان يعكف على الصلاة راكعًا على كوعيه أيامًا بكاملها، وذلك أمر جلب له احترام السجناء، وظل السجناء يحترمونه إلى أن مات، ذلك أنه مات في السجن تحت سمعي وبصري على أثر مرض أليم شاق. ولقد فاز بتقدير السجناء منذ وصوله، وذلك في أعقاب قصة حدثت له مع الميجر، فحين جيء بهؤلاء السجناء من أو - جورسك إلى قلعتنا، على مراحل، كان شعر رؤوسهم ولحاهم طويلًا جدًّا، لأنه لم يُحلق لهم، فلما مثلوا أمام الميجر ثارت ثائرة الميجر وغضب غضبًا شديدًا من هذه المخالفة للنظام التي لم يكن الذنب فيها ذنبهم مع ذلك. زار الميجر يقول:

- ما هذه الهيئة هؤلاء متشردون، هؤلاء قطاع طرق!...

- وإذ كان ز...كي لا يحسن فهم الروسية فقد ظن أنهم يُسألون هل هم قطاع طرق أو متشردون، فما كان منه إلا أن أجاب بقوله:

- بل نحن سجناء سياسيون لا متشردون.

فزأر الميجر يقول:

- كيف؟ ماذا؟ أتتواقح؟ خذوه إلى مركز الحرس.. واجلدوه مائة جلدة... فورًا..
وعوقب الشيخ، رقد على الأرض تحت السياط من دون أن يبدي أية مقاومة، واضعًا يده بين أسنانه، وتحمل القصاص بلا شكاة، بلا أنين، ساكنًا جامدًا لا يتحرك بينما تهوي على ظهره الضربات. وقد وصل تـ...كي وبـ...كي في تلك اللحظة إلى السجن، حيث كان مـ...كي ينتظرهما عند باب الدخول، فما إن رآهما حتى ارتمى على عنقيهما رغم أنه لم يرهما قبل ذلك قط، وجرى الحديث بين هؤلاء الرجال عن المشهد القاسي الذي وقع، فكانوا ثائرين حانقين من استقبال الميجر، وقد ذكر لي مـ...كي فيما بعد أنه خرج عن طوره حين علم بالأمر، قال: (أصبحت من شدة حنقي لا أشعر بنفسي، وأخذت أرتعد من الحمى. انتظرت ز...كي عند الباب الكبير، لأنه كان سيعود من مركز الحرس بعد نيل العقاب رأسًا. فُتح الباب، فرأيت ز...كي يمر أمامي وقد ابيضت شفتاه تمامًا وأخذتا ترتعشان، كما شحب لونه وامتقع وجهه، كان لا ينظر إلىِ أحد، ِواجتاز جماعات السجناء المحتشدين في وسط الفناء - وكانوا

يعلمون أن نبيلًا قد عوقب - ودخل الثكنة، ومضى قُدمًا إلى مكانه لا يلوي على شيء ولا ينطق بكلمة، ثم ركع وطفق يُصلي. دهش السجناء بل تأثروا تأثرًا شديدًا. فلما رأيت هذا الشيخ الأشيب الذي ترك في وطنه زوجته وأولاده، لما رأيته بعد ذلك العقاب المزري راكعًا يُصلي، أصبحت كالمجنون، وأصبحت كالسكران. منذ ذلك الحين أصبح السجناء يحترمون ز...كي. والشيء الذي أعجبهم فيه خاصةً هو أنه لم يصرخ تحت ضربات السياط.

يجب عليَّ مع ذلك أن أكون مُنصفًا وأن أقول الحقيقة: إننا لا نستطيع أن نحكم على علاقات الإدارة بالمنفيين النبلاء، سواء أكانوا روسيين أم كانوا بولنديين، على أساس هذا المثال، إن القصة التي رويتها تدل على أن من الممكن أن نقع على إنسان شرير، فإذا كان هذا الإنسان الشرير حاكمًا بأمره لسجن من السجون، فكره أحد المنفيين عرضًا، فإن حالة هذا المنفي تصبح حالة سيئة لا يُحسد عليها. أما الإدارة العليا لسجون الأشغال الشاقة في سيبيريا، وهي التي تزوِد الآمرين التابعين لها بتعليمات عامة، فإنها تميز السجناء النبلاء، حتى إنها في بعض الأحيان تتسامح في معاملتهم أكثر مما تتسامح مع غيرهم. وأسباب ذلك واضحة: أولها أن هؤلاء الرؤساء أنفسهم ينتمون إلى طبقة السادة؛ ثم إنه يروى أن هناك نبلاء رفضوا أن يرقدوا تحت ضربات السياط وهجموا على من ينفذون فيهم عقوبة الجلد، وكانت عواقب هذه العصيانات سيئة دائمًا؛ والسبب الأخير - وهو السبب الأساسي في رأيي - أنه قد حدث منذ زمن بعيد، منذ خمسة وثلاثين عامًا على وجه التقريب، أن سجن عدد كبير من المنفيين النبلاء دفعة واحدة ([48])، فأظهر هؤلاء المنفيون من الرصانة والوقار وحسن السلوك ما جعل رؤساء سجون الأشغال الشاقة ينظرون، بحكم العادة، إلى النبلاء من المجرمين نظرة تختلف كل الاختلاف عن نظرتهم إلى السجناء العاديين، واقتفى الآمرون المرؤوسون أثر رؤسائهم فأخذوا ينظرون هذه النظرة نفسها خاضعين خضوعًا أعمى. ولئن كان كثير منهم ينتقدون هذه الإجراءات التي يتخذها رؤساؤهم، ويأسفون لها ويسرون حين يسمح لهم بأن يتصرفوا على ما يشاء لهم هواهم، فإن حرية التصرف التي تُتاح لهم لم تكن واسعة. إن هناك ما يسمح لي أن أعتقد بذلك. وإليكم الأسباب. إن الفئة الثانية من سجناء الأشغال الشاقة، وهي الفئة التي أنتمي إليها والتي تتألف من سجناء خاضعين للسلطة العسكرية، كانت ظروفها أقسى كثيراً من ظروف سجناء (الفئة الأولى) (المناجم) و (الفئة الثالثة) (المصانع)؛ كانت ظروفها أقسى لا بالنسبة إلى النبلاء فحسب، بل بالنسبة إلى سائر السجناء أيضًا، لأن الإدارة والتنظيم عسكريان تمامًا، وهما يشبهان الإدارة والتنظيم في معتقلات روسيا. إن الرؤساء أكثر قسوة والعادات أشد صرامة في هذه الفئة الثانية مما هي في الفئتين الأخريين: السجناء هنا مكتلون بالأغلال دائمًا، مخفورون دائمًا، محبوسون دائمًا، وذلك ما لا وجود له

في غيرها، كما كان يقول السجناء على الأقل، وبينهم أناس مطلعون. إن سجناء هذه الفئة ليتمنون أن يذهبوا إلى العمل في المناجم، وهو العمل الذي يعده القانون أقصى عقوبة. إنهم يحلمون بأن يذهبوا إلى العمل في المناجم. إن جميع الذين كانوا في المعتقلات الروسية يتحدثون عنها جزعين، ويؤكدون أنها جحيم لا يشبهه جحيم، وأن سيبيريا جنة إذا قيست بالاعتقال في قلاع روسيا. وإذنْ فإذا كنا نحن النبلاء نحظى بشيء من المداراة أكثر مما يحظى بمثل ذلك سائر السجناء في سجننا الذي كان يخضع لإشراف الجنرال الحاكم والذي كانت إدارته عسكرية تمامًا، فلا بد أن يكون سجناء الفئة الأولى وسجناء الفئة الثالثة يتمتعون بمزيد من هذه المداراة. إنني أستطيع أن أتحدث حديث علم ودراية عما كان يجري في سيبيريا كلها في هذا المجال: إن الأقاصيص التي سمعتها من منفيين ينتمون إلى الفئة الأولى وإلى الفئة الثالثة تأتي مصدقة للنتيجة التي خلصت إليها. لقد كنا نُراقب هنا مراقبة أشد من المراقبة التي تتم في أي مكان آخر: لم يكن لنا أية حصانة لا في ما يتعلق بالأشغال ولا في ما يتعلق بالحبس. كنا نقوم بنفس الأعمال التي يقوم بها المعتقلون الآخرون، وكنا نحمل نفس الأغلال التي يحملون، وكنا نخضع لنفس أنواع التوقيف والمصادرة التي يخضعون لها. وكان يستحيل استحالة تامة أن نُحمى، ذلك أن الوشايات والمكائد والسعايات التي تريد الإيقاع ببعض الموظفين كانت في عهد قريب جدًّا قد بلغت من التكاثر أن الإدارة كانت تخشى أن تقع ضحية لتلك الوشايات... والتسامح مع طبقة من طبقات السجناء كانت تعد في ذلك الزمان جريمة لا تُغتفر... لذلك كان كل موظف من الموظفين يخاف على نفسه... وهكذا أنزلنا إلى مستوى سائر السجناء، باستثناء أمر واحد هو العقاب الجسدي... ومع ذلك كان يمكن أن تجلد لو ارتكبنا ذنبًا من الذنوب، لأن الخدمة العسكرية توجب أن نكون سواسية أمام العقاب، ولكننا لا نجلد عن خفة وطيش بغير سبب من الأسباب كما يُجلد سائر المسجونين. وحين علم آمر السجن بالعقوبة التي أنزلت في ز... سكي، غضب من الميجر غضبًا صادقًا وأمره بأن يكون أكثر انتباهًا وحذرًا بعد الآن. وقد علم الجميع بذلك. وعلموا أيضًا أن الجنرال الحاكم الذي كان يثق ثقة كبيرة بالميجر والذي كان يحبه لشدة تقيده بالقانون ولما يتصف به من مزايا الموظف المطيع، قد أنَّبه تأنيبًا شديدًا حين علم بالنبأ. وقد اتعظ الميجر بهذه الحادثة. فلقد كان يتمنى، مثلًا، أن يُمتع نفسه بجلد مـ...كي الذي كان يكرهه الميجر كرهًا بالغًا، على أساس وشايات آ...ف، ولكنه لم يستطع أن يحقق هذه الأمنية، ولم يستطع أن يحظى بهذه اللذة رغم كل ما سعى إليه من انتحال عذر يتعلل بها، ورغم اضطهاده له وتجسسه عليه، وانتشر نبأ قضية ز..سكي في المدينة، واستاء الرأي العام من الميجر، فبعض الناس لاموه وبعضهم أنَّبوه وقرَّعوه.

إنني أتذكر الآن أول لقاءٍ لي بالميجر. كانوا قد روَّعونا - أنا وسجين نبيل آخر - منذ وصلنا إلى توبولسك، بحكايات كثيرة عن سوء طبع هذا الرجل. إن منفيين قدامي (سبق الحكم عليهم بخمس وعشرين سنة في سجن الأشغال الشاقة) ([49])، وهم نبلاء مثلنا، قد زارونا زيارة كريمة أثناء إقامتنا في سجن توبولسك عابرين، وحذرونا من هذا الإنسان الذي سيكون رئيسنا في السجن؛ ووعدونا أيضًا بأن يفعلوا كل ما في وسعهم أن يفعلوه في سبيلنا لدى الأشخاص الذين يعرفونهم حتى يوقونا اضطهاداته. وبالفعل كتبوا رسائل إلى بنات الجنرال الحاكم الثلاث اللواتي تشفعن لنا في ما أعتقد. ولكن ماذا كان في وسع الجنرال الحاكم أن يفعل؟ لقد اقتصر على أن قال للميجر إن عليه أن يكون عادلًا في تطبيق القانون. وصلنا إلى المدينة في الساعة الثالثة بعد الغداء، أنا ورفيقي، فمضى بنا الخفير إلى الميجر رأسًا. لبثنا في حجرة المدخل ننتظر وصول صف الضابط الذي يعمل في السجن والذي أرسلوا يستدعونه. فما إن وصل صف الضابط حتى دخل علينا الميجر. إن وجهه المصطبغ بحمرة قانية المعبر عن الشر والخبث، قد أحدث في نفسنا أثرًا أليمًا. لكأنه عنكبوت يهم أن يهجم على ذبابة مسكينة وقعت في نسيجه وأخذت تضطرب فيه.
اتجه الميجر إلى رفيقي يسأله:
- ما اسمك؟
إن صوته خشن منقطع، وهو يريد أن يؤثر فينا ويسيطر علينا.
ثم اتجه نحوي، وحدق إليَّ من تحت نظارتيه وسألني:
- وأنت؟
ذكرت له اسمي. فقال يخاطب صف الضابط:
- يا وكيل... فليؤخذا إلى السجن، وليحلق شعرهما في مركز الحرس كما يحلق للمدنيين... أي نصف الجمجمة... وليكيلا بالأغلال غدًا! ما هذان المعطفان اللذان ترتديان؟ من أين جئتما بهما؟
كذلك سألنا فجأة إذ لمح المعطفين الرماديين المرقعين بدوائر صفراء في الظهر، وهما المعطفان اللذان أعطيناهما في توبولسك. وتابع يقول:
- هذا زي موحد جديد... لا شك أنه زي موحد جديد... إنهم ما يزالون ينوون أن... هذا آتٍ من بطرسبرج...
هكذا قال وهو يفحصنا واحدًا بعد آخر. ثم قال يسأل الخفير فجأة:
- أليس معهما شيء؟
فأجابه الخفير وهو يضع سلاحه على كتفه احترامًا، ويرتجف بعض الارتجاف خوفًا، فقد كان جميع الناس يعرفون الميجر ويخشونه، أجابه الخفير يقول:
- معهما ثيابهم الخاصة يا صاحب النبالة الرفيعة!
- انتزع منهما كل هذا. ما ينبغي أن يحتفظا بغير الملابس الداخلية البيضاء... أما الملابس الداخلية الملونة فبعها بالمزاد إذا كان معهما منها شيء.

- لا يحق لسجين الأشغال الشاقة أن يملك شيئًا، ولتكونا على حذر!
ثم أضاف يقول لنا وهو يلقي علينا نظرة قاسية:
- ليكن سلوككما حسنًا! لا أحب أن أسمع شكاوى! وإلا... فالعقاب الجسدي ينتظركما! ما إن ترتكبا أيسر ذنب حتى آمر بجلدكما!
كدت أمرض في ذلك المساء من ذلك الاستقبال الذي لا عهد لي بمثله من قبل، وتفاقم شعوري وازداد ألمي حين دخلت إلى ذلك الجحيم ولكن سبق أن تحدثت عن هذا كله، فلا داعي إلى تكراره الآن.
قلت إننا لم يكن لنا شيء من حصانة، ولم يكن يخفف عنا العمل أي تخفيف بحضور السجناء الآخرين. غير أنهم حاولوا أن يساعدونا فأرسلونا ثلاثة أشهر، أنا ورفيقي بـ...سكي، إلى مكاتب المهندسين كناسخين، ولكن ذلك تم سرًا لا علانيةً؛ وجميع الذين كان يجب أن يعلموا به قد علموا به ولكنهم تظاهروا بأنهم لا يرون شيئًا. إن الرؤساء المهندسين هم الذين تفضلوا علينا بهذه المنة، أثناء الوقت القصير الذي كان فيه الليوتنان كولونيل جـ... كوف آمرًا لنا. إن هذا الرئيس (الذي لم يبق أكثر من ستة أشهر، لأنه لم يلبث أن عاد إلى روسيا) قد بدا لنا نعمة كبرى هبطت علينا من السماء، وقد خلف في نفوس جميع السجناء أثرًا طيبًا. كان السجناء لا يحبونه حبًا بل يعبدونه عبادة إن صح هذا التعبير. لا أدري كثيرًا ما الذي صنعه، ولكنه فاز بمحبتهم منذ الوهلة الأولى. (هو أب حقًّا) كذلك كان السجناء يقولون في كل لحظة من اللحظات طوال المدة التي ظل فيها مديرًا لأشغال الهندسة. كان إنسانًا فرحًا مرحًا مُقبلًا على الحياة مُحبًا لمباهجها ومسراتها. هو رجل قصير القامة، جريء النظرة، قوي الثقة بنفسه، لطيف السلوك مع جميع السجناء، وكان يحب السجناء حبًا أبويًا حقًّا! لا أدري على وجه الدقة لماذا أحبوه ذلك الحب كله، ولكنني أستطيع أن أقول إنه كان لا يستطيع أن يرى سجينًا من دون أن يقول له كلمة تودد، أو أن يضحك له ويمازحه. ولم يكن في أمازيحه شيء من تعالٍ وتسلّط، لم يكن في أمازيحه شيء يُشعر بأنه سيد، بأنه رئيس. لقد كان للسجناء رفيقًا، كان لهم نِدًا. ورغم هذه الملاطفة كلها، لا أذكر أن السجناء قد استباحوا لأنفسهم يومًا أن يقللوا من احترامهم له أو أن يرفعوا الكلفة بينهم وبينه. بالعكس. كل ما هنالك أن السجين كان يشرق وجهه فجأة حين يُصادف هذا الرئيس؛ إن السجين يبتسم ابتسامة عريضة ويمسك طاقيته بيده متى رآه يقترب. فإذا وجه له الرئيس كلمة عد ذلك شرفًا عظيمًا له. هنالك أُناس من هذا النوع يفوزون (بشعبية) كبيرة! لقد كان جـ...كوف مهيب الطلعة، واسع الخطى، منتصب القامة. (إنه نسر) كذلك كان يقول السجناء. ولم يكن في وسعه أن يساعدهم لأن القيام بأعمال الهندسة كان يتم في عهد جميع الرؤساء السابقين وفقًا لأصول قانونية مرسومة لا يملك هو أن يبدلها ولكنه إذا إلتقى بجماعة من السجناء أنهوا عملهم، كان يسمح لهم بالعودة قبل قرع الطبل. كانِ السجناء يحبونه لأنه يوليهم ثقته، ولأنه يكره التنكيد والتنغيص

الذي يثير أعصاب السجين في علاقته بالرؤساء. إني لعلى يقين من أن أكبر لص بين السجناء لو عثر على ألف روبل ضاعت من هذا الرجل، لردها إليه كاملة غير منقوصة، نعم، أنا من ذلك على يقين. وما كان أشد تعلق السجناء به وتعاطفهم معه حين علموا بأنه اشتجر اشتجارًا عنيفًا مع الميجر الكريه المقيت! حدث هذا بعد وصولنا بشهر. وقد بلغ فرح السجناء عندئذٍ أوجه! كان الميجر في الماضي رفيقًا له في السلاح. فلما إلتقيا بعد طول فراق، عاشا في أول الأمر حياة فرحة معًا، ولكنهما لم يلبثا أن فقدا ما انعقد بينهما من علاقة حميمة؛ ثم تخاصما وأصبح جـ...كوف عدوًا لدودًا للميجر. حتى لقد قيل إنهما تضاربا، فلم يثر ذلك شيئًا من الاستغراب لدى من كانوا يعرفون الميجر. لقد كان الميجر يحب الاقتتال والتضارب. فلما علم السجناء بأمر هذه المشاجرة طفح فرحهم، فكانوا يقولون: (لا يصلح لهذا الميجر إلا مثل هذا الكومندان... إن الكومندان نسر، أما الميجر فهو...). إنني أستحي أن أذكر الكلمة البذيئة التي كانوا يصفون بها الميجر. وكانوا في أشد الشوق إلى أن يعرفوا من الذي كانت له الغلبة في هذا الصراع الذي قام بين الرجلين، وأيهما أشبع الآخر ضربًا! ولو قد كُذِّبت هذه الشائعة إذن لشعر السجناء بكثير من الأسف والحسرة! كانوا يقولون: (مؤكد إن الكومندان هو الذي بطحه. فلئن كان قصيرًا إنه لشجاع باسل مقدام ولا شك أن الثاني قد اختبأ تحت السرير من شدة خوفه وجزعه!). ولكن جـ...كوف لم يلبث إن عاد تاركًا في السجن آسفًا شديدًا وحسرة كبيرة! ولقد كان جميع المهندسين أناسًا طيبين أبدلوا خلال إقامتي في السجن ثلاث مرات أو أربعًا. كان السجناء يقولون: (لن ترى مثله أبدًا. لقد كان نسرًا.. كان نسرًا وحاميًا في آن واحد...).

إن جـ...كوف هذا هو الذي أرسلنا أنا وبـ...سكي للعمل في مكتبه، لأنه كان يحب المنفيين النبلاء. فلما سافر ظل وضعنا مقبولًا محتملًا بعض الشيء، لأن هناك مهندسًا كان يشعر نحونا بكثير من المودة. وكنا بسبيل نسخ تقارير منذ مدة، وذلك حسن خطنا، حين صدر أمر عالٍ يقضي بعودتنا إلى أشغالنا السابقة. والحق أننا لم نستأ من ذلك كثيرًا، لأننا كنا قد سئمنا عمل النسخ هذا ومللناه. وظللت سنتين كاملتين أعمل بغير انقطاع مع بـ....سكي، دائمًا في الورشات على وجه التقريب. فكنا نثرثر كثيرًا، نتحدث عن آمالنا ونتناقش في آرائنا. وكانت آراء صاحبي الممتاز بـ...سكي غريبة شاذة متفردة. إن هناك أناسًا أوتوا حظًا كبيرًا من الذكاء، ثم تكون آراؤهم في بعض الأحيان عجيبة مفارقة، ولكنهم يكونون قد بلغوا من فرط احتمال الألم والعذاب في سبيلها، ومن فرط التمسك بها والتضحية من أجلها، أن انتزاعها من عقولهم يصبح أمرًا مستحيلًا وقاسيًا. لقد كان بـ...سكي يتألم من كل اعتراض أواجهه به، فيرد على هذا الاعتراض بأجوبة عنيفة. لعله كان على حق، ولعله كان على حق أكثر مني في بعض النقاط. ولكننا اضطررنا أخيرًا أن نفترق فشعرت من

ذلك بأسف شديد، كنا قد اتفقنا في كثير من الأمور، وكانت لنا آراء مشتركة كثيرة.
وأصبح مـ...كي، بمضي السنين، ينحدر إلى مزيد من الحزن والتجهم. لقد أرهقه اليأس. كان في الأوقات الأولى من دخولي السجن أكثر تواصلًا وأكثر إفصاحًا عما يدور في فكره. كان حين وصلت أنا إلى السجن قد أنهى السنة الثانية من إقامته فيه. فاهتم في أول الأمر كثيرًا بالأنباء التي حملتها إليه، لأنه كان لا يعرف شيئًا عما يجري خارج السجن: أخذ يلقي عليَّ أسئلة كثيرة، ويصغي إلى أجوبتي بانتباه شديد، وينفعل انفعالًا قويًا، ولكنه عاد ينطوي على نفسه شيئًا بعد شيء، ولا يفصح عمَّا يدور بخاطره ويجول في فكره. وكان أثناء ذلك يزداد نزقًا وحدة. كان ما ينفك يكرر لي، وهو يتحدث عن السجناء الذين كنت قد أخذت أحسن معرفتهم: (إنني أكره هؤلاء اللصوص قطاع الطرق). فإذا حاولت أن أدافع عنهم لم تؤثر فيه حججي وآرائي أي تأثير. كان لا يفهم ما أقوله له، فإذا اتفق أن وافقني على رأيي مرة كان يفعل ذلك ذاهلًا غير منتبه، ثم إذا هو يعود يكرر في اليوم التالي قوله: (إنني أكره هؤلاء اللصوص قطاع الطرق) (يقول ذلك باللغة الفرنسية، فلقد كنا نكلمه بالفرنسية في كثير من الأحيان، ولهذا كان درانشنيكوف، وهو أحد جنود سلاح الهندسة، يسمينا دائمًا (مساعدي الجراحين)، لا يعلم إلا اللّه لماذا!). وكان مـ...كي لا ينتعش ولا يتحمس إلا حين يتكلم عن أمه. كان يقول لي: (إنها عجوز ومقعدة، وهي تحبني أكثر مما تحب أي شيء في هذا العالم، ولست أدري أهي الآن حية! آه لو علمت أنهم جلدوني!...). لم يكن مـ...كي من طبقة النبلاء، وقد جُلد قبل نفيه، فكان إذا وافته هذه الذكرى يكز أسنانه ويشيح وجهه. وصار في آخر عهده بالسجن لا يكاد يتنزه إلا وحيدًا. وفي ذات يوم، عند الظهر، دعي إلى مقابلة الكومندان، فاستقبله هذا بابتسامة عريضة على شفتيه، وسأله:
- قل لي يا مـ...كي: بماذا حلمت هذه الليلة؟
وقد حدثني مـ...كي عن هذه المقابلة في ما بعد فقال لي: (حين سألني الكومندان هذا السؤال ارتعشت وخُيّل إليَّ أن قلبي يُشق شقًّا).
قال م...كي يجيب الكومندان:
- حلمت بأنني تلقيت رسالة من أمي.
فقال له الكومندان:
- بل هناك ما هو خير من ذلك! هناك ما هو خير من ذلك. أنت منذ اليوم حر طليق... لقد توسلت أمك إلى الإمبراطور... فاستجاب الإمبراطور لتوسلها. خذ... اقرأ هذه الرسالة... إنها أمر بالإفراج عنك. سوف تبارح السجن في هذه اللحظة نفسها.
عاد إلينا أصفر الوجه ممتقع اللون لا يكاد يصدق السعادة التي هبطت عليه.

هنأناه. صافحنا بيديه الباردتين المرتعشتين. هنأه كثير من السجناء أيضًا. لقد سعدوا لسعادته. أصبح مستوطنًا واستقر في مدينتنا، وعين موظفًا بعد ذلك بقليل. فكان يأتي إلى السجن زائرًا في كثير من الأحيان، ينقل إلينا أنباء شتى متى استطاع إلى ذلك سبيلًا، وكانت الأنباء السياسية هي التي تعنيه خاصة. عدا البولنديين الأربعة الذين تكلمت عنهم، وهم سجناء سياسيون، كان هنالك اثنان آخران في ميعة الشباب نُفيا فترة قصيرة جدًّا. لم يكن لهما حظ من ثقافة، ولكنهما شريفان بسيطان صريحان. وكان هنالك ثالث اسمه آ..كزوكوفسكي، وهو شاب مسرف في البساطة لا يمتاز بشيء يلفت النظر، ولا كذلك بـ...م، وهو رجل متقدم في السن قليلًا، فقد أحدث في أنفسنا أسوأ انطباع لا أدري لماذا نفي إلى سيبيريا، رغم أنه قد روى من تلقاء نفسه سبب نفيه. إنه إنسان صغير النفس، بورجوازي الطبع، له من الآراء والعادات ما لصاحب دكان أصاب ثراءً وأصبح غنيًا. ليس على شيء من ثقافة البتة، فهو لا يهتم أي اهتمام بكل ما لا يتعلق بمهنته كدهان رسَّام. يجب أن نعترف أنه كان دهانًا مُمتازًا. وسرعان ما سمع رؤساؤنا عن مواهبه في هذا الفن، فإذا المدينة كلها تستخدمه في تزيين الجدران والسقوف فما انقضت سنتان حتى كان قد دهن جميع مساكن الموظفين تقريبًا، وكان الموظفون يدفعون له أجرًا حسنًا، فكان لا يعيش حياة مسرفة في البؤس. وكان يُرسل للعمل مع ثلاثة من رفاقه أتقنوا تعلم مهنته، حتى أصبح أحدهما، وهو ت... ريزيفشكي لا يقل مهارةً عنه. وكان الميجر يُقيم في مسكن تملكه الدولة، فاستدعى ب...م وأمره بدهن الجدران والسقوف، فبذل صاحبنا من العناية بهذا العمل وأنفق فيه من الجهد ما جعل مسكن الجنرال الحاكم لا يعد شيئًا مذكورًا إذا قيس بمسكن الميجر. كان المسكن قديمًا هرمًا مؤلفًا من طابق واحد، وكان مظهره من الخارج وسخًا جدًّا، فإذا هو يصبح من الداخل رائع الزينة كقصر من القصور. فرح الميجر أشد الفرح... فكان يفرك يديه ويقول لجميع الناس إنه سيتزوج. كيف لا يتزوج. (كيف لا يتزوج من كان يقيم في مسكن كهذا المسكن؟). كذلك كان يقول جادًا كل الجد. وكان أشد من سرور ب...م ومساعديه. لقد دام العمل في دهان مسكن الميجر شهرًا. وفي أثناء ذلك الشهر كله غيَّر الميجر رأيه فينا، حتى لقد أخذ يحمينا ويرعانا نحن السجناء السياسيين. وها هو يستدعي ز...سكي في يوم من الأيام فيقول:

- اسمع يا ز...سكي! لقد أسأت أنا إليك وأهنتك بغير سبب. إنني نادم على ذلك. هل فهمت؟ أنا، أنا نادم!

أجابه ز...سكي بأنه فهم.

فعاد الميجر يقول له:

- هل فهمت أنني أنا، أنا، أنا رئيسك، قد استدعيتك لأطلب منك الصفح والمغفرة؟ هل تتخيّل هذا؟ ما أنت بالنسبة إليَّ؟ أنت بالنسبة إليَّ دودة من

دود الأرض، بل أنت بالنسبة إليَّ أقل شأنًا من دودة! أنت سجين، أما أنا فبحمد اللّه ميجر ([50]).... ميجر، هل فهمت؟
أجابه ز...سكي بأنه فهم أيضًا.
فقال له الميجر:
- طيب... أريد أن أُصالحك. ولكن أأنت تدرك حق الإدراك ما أفعله؟ أأنت تدرك كل ما يتصف به عملي هذا من نبل وعظمة ورفعة؟ أأنت قادر على أن تشعر بهذا وعلى أن تقدِّره؟ تتصور... إنني، أنا الميجر، أنا الميجر، أصالحك... إلخ.. إلخ...
لقد قصَّ عليَّ ز...سكي هذا المشهد. إذن كان هذا الإنسان الفظ الغليظ الذي لا ينقطع عن السكر ولا يكف عن الإزعاج ولا تعرف حياته إلا الفوضى، كان إذن لا يخلو من عاطفة إنسانية. يجب أن نعترف، إذا نحن نظرنا بعين الاعتبار إلى آرائه وإلى نموه العقلي، بأن هذا الفعل الذي صدر عنه كان فيه شيء من الكرم حقًّا. ولعل السكر الدائم الذي كان لا يفارقه قد ساهم في إقدامه على هذا الفعل الكريم.
لم يتحقق حلم الميجر. إنه لم يتزوج رغم أنه عقد النية على أن يتزوج متى تم تزيين مسكنه. وبدلًا من أن يتزوج، فقد أُحيل على المحاكمة وأُجبر على الاستقالة. وعرفت عندئذٍ آثام قديمة سبق أن ارتكبها حين كان مُديرًا للشرطة بالمدينة في ما أظن. صعقته هذه الضربة التي لم تكن في حسبانه. وفرح السجناء أشد الفرح حين علموا بالنبأ الجديد. كان ذلك اليوم عيدًا لهم. قيل إن المجير أخذ يبكي كامرأة عجوز ويعول إعوالًا شديدًا. ولكن ما حيلته؟ لقد اضطر أن يقدم استقالته، وباع خيوله الشهباء الجميلة، وباع كل ما كان يملك، وانحدر إلى هوة البؤس والفقر والشقاء. أصبحنا نلتقي به أحيانًا في ما بعد، فكنا نراه في رداء مدني مرقع وطاقية متسخة، وكان يلقي على السجناء نظرة شزراء، ولكن الهالة التي كانت تحيط به في الماضي والمهابة التي كان يتمتع بها قد زالتا منذ خلعت عنه بزة الميجر. كان أثناء ارتدائه بزة الميجر أشبه بإله، حتى إذا ارتدى الرداء المدني فقد كل شيء، وأصبح أشبه بخادم.
إن البزة العسكرية هي التي تصنع قيمة أمثال هذا الرجل!...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

9

الفرار

بعد استقالة الميجر بزمن قصير، أُعيد تنظيم سجننا تنظيمًا جديدًا كل الجدة. ألغيت الأشغال الشاقة واستعيض عنها باعتقال عسكري على طراز المعتقلات في روسيا. وبعد ذلك أصبح لا يُرسل إليه المنفيون الذين ينتمون إلى الفئة الثانية، وأصبح من الواجب أن لا يضم إلا المعتقلين العسكريين أي سجناء يحتفظون بحقوقهم المدنية. هم جنود كسائر الجنود، وإنما صدرت في حقهم أحكام. وهم لا يسجنون إلا مُددًا قصيرة جدًّا (أقصاها ست سنوات)، حتى إذا قضوا مدة سجنهم عادوا إلى قطاعاتهم جنودًا كما كانوا من قبل. أما أصحاب السوابق فيحكمون بالسجن عشرين سنة. لقد كان في سجننا حتى ذلك الحين قسم عسكري ولكن ذلك يرجع إلى عدم توافر أمكنة أخرى. أما الآن فإن ما كان استثناء أصبح هو القاعدة. فالسجناء المدنيون المحرومون من جميع الحقوق والموسومون بالحديد الحامي، والمحلوقة رؤوسهم، أصبح عليهم أن يبقوا في السجن إلى أن تنصرم المدة المحكوم عليهم بها. وإذ أصبح لا يصل إلى هذا السجن سجناء جدد من هذا النوع، وإذ إن القدماء منهم قد أصبح يُفرج عنهم بعضًا بعد بعض، فإن السجن لن يضم سجينًا واحدًا من هذا النوع بعد عشر سنين. وقد أُبقي على القسم الخاص. فمن حين إلى حين كان يصل إلينا مجرمون عسكريون خطيرون يودعون سجننا بانتظار إنشاء سجون الأشغال الشاقة في سيبيريا الشرقية. ولم يتغير طراز حياتنا. فالعمل والنظام ظلا كما كانا من قبل. كل ما هنالك أن الإدارة قد تجددت وتعقدت: عُيِّن ضابط كبير برتبة كومندان رئيسًا للسجن، وجعل تحت امرته أربعة ضباط مرؤوسين يتناوبون العمل، وصُرف الجنود مشوهو الحرب، وأُحِلَ محلهم اثنا عشر رجلًا من ضباط الصف ومُراقب ترسانة. ووزع السجناء زُمرًا تضم كل منها عشرة أشخاص، واختير من بينهم عرفاء لا يملكون في حقيقة الأمر إلا سلطة اسمية على رفاقهم، وأصبح آكيم آكيمتش بذلك عريفًا. وظل هذا التنظيم الجديد كله خاضعًا لإشراف الحاكم. ولم تمضِ التغييرات إلى أبعد من هذا الحد.

اضطرب السجناء في أول الأمر كثيرًا، فكانوا يُناقشون، وكانوا يحاولون أن ينفذوا إلى أعماق رؤسائهم الجدد. ولكنهم حين رأوا أن كل شيء قد بقى في حقيقة الأمر على ما كان عليه من قبل، لم يلبثوا أن هدأوا وعادت حياتنا تجري في مجراها العادي المألوف. لقد تحررنا من الميجر على الأقل. فتنفس كل منا الصعداء، واسترد كل منا شجاعته. زال عنا الذعر. وأصبح كل واحد

يعلم أن من حقه عند الحاجة أن يشكو أمره إلى رئيسه، وأن لا يُعاقَب إذا كان على الحق، اللهم إلا خطأ.

ظلت الخمرة تُهرَّب إلى السجن كما كانت تُهرَّب إليه من قبل، رغم أن المشرفين أصبحوا الآن ضباط صف لا جنودًا من مشوهي الحرب. إنهم أناس شرفاء على جانب من حصافة الرأي، مدركين وضعهم. ولئن أراد أن يمارس شيئًا من التسلط والتحكم وأن يعاملونا كما يُعامل الجنود، فإنهم سرعان ما انساقوا مع التيار العام. والذين طال عليهم الأمد حتى يتعلموا عادات سجننا، تولى السجناء أنفسهم تعليمهم هذه العادات. حتى لقد وقعت حوادث ظريفة. من ذلك أن يغري السجناء أحد ضباط الصف بشرب الخمرة، فإذا هو يسكر، حتى إذا أفاق من سكره شرح له السجناء بطريقة مقنعة أنه ما دام قد سكر هو نفسه فليس له بعد الآن أن يعترض... وانتهى ضباط الصف إلى غض أبصارهم عن تجارة الخمرة وأصبحوا يذهبون إلى السوق، كما كان يذهب الجنود من مشوهي الحرب، فيشترون للسجناء خُبزًا أبيض ولحمًا وكل ما كان يمكن إدخاله إلى السجن من دون التعرض لخطر من الأخطار. لذلك لم أستطع أن أفهم لماذا تم ذلك التغيير كله، ولماذا أصبح السجن سِجنًا عسكريًا. وقد حدث ذلك قبل خروجي بسنتين. فكان عليَّ أن أعيش في ظل هذا النظام سنتين أُخريين..

هل يجب عليَّ أن أصف في هذه المذكرات كل الوقت الذي قضيته في المعتقل؟ لا... فلو أردت أن أقص بالترتيب كل ما رأيت إذن لضاعفت عدد الفصول مثنى وثلاث، ولجاء الوصف رتيبًا مُتشابهًا، لأن كل ما قد أرويه عندئذٍ سيكون قد ورد حتمًا في الفصول السابقة التي استمد القارئ من تصفحها فكرة كافية عن حياة السجناء الذين ينتمون إلى الفئة الثانية. لقد أردت أن أصف سجننا وأن أعرض حياتي فيه عرضًا دقيقًا واضحًا، فلا أدري هل وُفقت إلى تحقيق هذا الهدف. إنني لا أستطيع أن أحكم بنفسي على هذا العمل الذي قمت به. ولكنني أحسب أن في وسعي أن أختمه هنا. إنني حين أهز هذه الذكريات القديمة أشعر بالعذاب القديم يستيقظ في نفسي ويخنق صدري. أنا واثق من أنني نسيت أشياء كثيرة. إن ما أتذكره مثلًا هو أن هذه السنين قد انقضت بطيئة حزينة، وأن الأيام كانت طويلة مضجرة مملة تمضي قطرةً قطرة. وأتذكر أيضًا أن رغبةً عنيفة قوية في أن أُبعث بعثًا جديدًا وأن أحيا حياة جديدة قد وُهبت لي القدرة على أن أصمد وأن أنتظر وأن آمل؛ وأن نفسي قد قست أخيرًا، فأنا أنتظر صابرًا، وأعد الأيام يومًا يومًا، ويفرحني، حتى حين يكون قد بقيَ عليَّ أن أمكث في السجن ألف يوم أخرى، إنني سأستطيع أن أقول لنفسي في الغد أنه لم يبقَ إلا تسعمائة وتسعة وتسعين يومًا، لا ألف يوم. وأتذكر أيضًا أنني كنت، وأنا محاط بمئات من الرفاق، أشعر بوحدة هائلة وعزلة رهيبة، وأنني وصلت من ذلك إلى أن أُحب هذه الوحدة وهذه العزلة. كنت وأنا معتزل في وسط جمهرة السجناء أستعرض حياتي السابقة، وأحلل

أدق تفاصيلها، وأطيل التفكير فيها، وأحكم على نفسي بغير رحمة ولا شفقة. حتى لقد كنت في بعض الأحيان أشكر للقدر أنه فرض عليَّ هذه العزلة التي لولاها لما استطعت أن أحكم على نفسي ولا أن أنفذ إلى قرارة حياتي الماضية. وما أكثر الآمال التي كانت تنبت في قلبي حينذاك! كنت أفكر، وأقرر، وأحلف أن لا أقارف في المستقبل ما قارفت في الماضي من أخطاء، وأن أتجنب السقطات التي حطمتني. ووضعت برنامجًا لمستقبلي، وآليت على نفسي أن ألتزم هذا البرنامج فلا أخرج عنه بل أبقى وفيًا له، وكنت أؤمن إيمانًا أعمى بأنني سأنفذ كل ما أردت، وبأنني أستطيع أن أنفذ كل ما أردت كنت أنتظر حريتي، وأناديها في حرارة وحماسة. كنت أريد أن أجرِّب قواي مرة أخرى في كفاح جديد. وكان يلم بي في بعض الأحيان شوق محموم ينفذ له صبري ويخنقني خنقًا. أنني أتألم الآن من مجرد إيقاظ هذه الذكريات. ذلك لا يهم أحدًا غيري بطبيعة الحال. وإنما أنا أكتب ذلك لاعتقادي بأن كل إنسان سيفهمني، وبأن كل إنسان سيشعر شعوري إذا شاء حظه العاثر أن يُحكم عليه وأن يُسجن وهو في زهرة العمر وكمال القوة.
إنني أقدِّر أنه رُبَّ سائل يسأل هل الفرار من السجن مستحيل، وهلَّا وقعت محاولة هروب طوال المدة التي قضيتها فيه؟ لقد سبق أن قلت إن السجين الذي قضى في السجن سنتين أو ثلاث سنين، يحسب حساب هذا الرقم، ويقدر أن الأفضل أن يمضي المدة الباقية بلا متاعب ولا مخاطر، وأن يصبح بعد الإفراج عنه مستوطنًا. غير أن الذين يجرون هذا الحساب إنما هم السجناء الذين حُكم عليهم بالسجن مدة قصيرة بعض القِصر: أما الذين حُكم عليهم بالسجن مدة طويلة فإنهم مستعدون للمخاطرة في كثير من الأحيان... ومع ذلك كانت محاولات الهرب نادرة. أيجب أن نعزو ذلك إلى جبن السجناء أم إلى قسوة النظام العسكري، أم إلى أن وضع مدينتنا لا يستهل الفرار كثيرًا (لأنها تقع وسط سهوب مكشوفة)؟ لا أدري... أحسب أن هذه الأسباب جميعها كان لها أثرها.. لقد كان الهروب من سجننا صعبًا. وهناك اثنان من السجناء حاولا الهروب في زماني، وهما من المجرمين العتاة.
حين استقال الميجر أصبح آ...ف (جاسوس السجن) وحيدًا بلا حامٍ يحميه. إن آ...ف ما يزال شابًا، وإن طبعه يزداد صلابة كلما تقدم في السن. إنه شديد الجرأة، قوي العزيمة، ذكي جدًّا، ولو أفرج عنه لاستمر يتجسس ويتعاطى أعمال النصب والاحتيال بجميع الوسائل مهما تكن خسيسة معيبة، ولكنه لن يُقبض عليه بعد الآن بسهولة، فقد استمد من السجن خبرة واسعة، لقد تمرن على صنع جوازات سفر مزوَّرة. غير أنني لا أؤكد ذلك، لأنني سمعته من سجناء آخرين، حتى لقد قالوا إنه كان يمارس هذه المهنة في مطبخ الميجر أيام كان يذهب إليه، وإن ذلك عاد عليه بأرباح طائلة. أحسب أنه كان مستعدًا للمخاطرة بكل شيء في سبيل أن يُغير مصيره. لقد أُتيح لي أن أنفذ إلى قرارة نفسه وأن أرى كل ما فيها من بشاعة وقبح ودمامة. إن استهتاره البارد

لا يتورع عن شيء، يثير النفس ويبعث فيها اشمئزازًا لا يقاوم وتقززًا لا سبيل إلى مغالبته. وأحسب أنه لو اشتهى أن يشرب خمرة وكانت السبيل الوحيدة إلى ذلك هي أن يقتل إنسانًا، لما تردد عن ذلك لحظة، على شرط أن تبقى جريمته سرًا مكتومًا لا يعلم به أحد. ولقد تعلم في سجننا أن يحسب كل شيء. وعليه إنما وقع اختيار كوليكوف، سجين (القسم الخاص).

سبق أن تكلمت عن كوليكوف هذا، لقد تجاوز سن الشباب، ولكنه يفيض حرارةً وحماسة وحياة وقوة، وينعم بملكات خارقة فذة. كان كوليكوف يحس بقوته ويريد أن يعيش طويلًا، إن أمثال هذا الإنسان يحبون أن يعيشوا حتى تكون الشيخوخة قد ألمت بهم واستولت عليهم. فلو أن كوليكوف لم يحاول الفرار لاستغربتُ منه ذلك. ولكن كوليكوف كان قد عقد النية على الفرار. لا أدري أي الرجلين كان أكثر تأثيرًا في صاحبه كوليكوف أم آ...ف؟ ولكن أغلب الظن أنهما متكافئان، وأنهما متوافقان من جميع النواحي. لذلك ارتبط كل منهما بالآخر. أظن أن كوليكوف كان يعوِّل على آ...ف من أجل أن يصنع له جوازًا مزورًا. ثم إن آ...ف يرجع أصله إلى طبقة النبلاء، وينتمي إلى المجتمع الراقي، وذلك يهيء للرجلين فُرصًا كثيرة ويتيح لهما حظوظًا سعيدة إذا هما استطاعا أن يعودا إلى روسيا. لا يعلم إلا اللّٰه ما الذي تفاهما عليه وماذا كانت آمالهما. ولكن لا شك أن هذه الآمال تخرج عن دائرة الآمال التي تراود أحلام المتشردين السيبيريين. إن كوليكوف ممثل بارع يستطيع أن يقوم في الحياة بأدوار شتى، ومن حقه أن يعقد على مواهبه آمالًا كثيرة. إن السجن يضني أمثال هؤلاء الناس ويُخنقهم خنقًا. المهم أن الرجلين تواطآ على الفرار من السجن.

ولكن كان يستحيل الفرار من دون خفير فلا بد لهما إذن أن يضما إليهما خفيرًا. وكان في إحدى الفصائل المعسكرة في القلعة رجل بولندي متقدم في السن قليلًا، ولكنه جم النشاط، جاد شجاع كان يستحق مصيرًا خيرًا من المصير الذي انتهى إليه. إنه حين وصل إلى سيبيريا في الماضي شابًا، كان قد فرَّ من الجندية لأن الحنين إلى الوطن قد أضنى نفسه، فقُبض عليه وجُلد، وأُلحق بفِرق التأديب سنتين. حتى إذا رجع إلى فوجه بلغ من حماسته في العمل ودأبه على الخدمة بهمة ونشاط أنه كوفئ بمنحه رتبة عريف. وكان الرجل معتدًا بذاته، يتكلم بلهجة يقدر نفسه تقديرًا عظيمًا.

كنت ألاحظه أحيانًا بين الجنود الذين يراقبوننا، لأن البولنديين كانوا قد حدثوني عنه. أحسب أن حنينه إلى وطنه كان قد استحال إلى كره شديد وبغض لا يهدأ. ما كان له أن يحجم عن شيء، ولا أن يتقهقر أمام أية عقبة، ولقد أدرك كوليكوف ذلك بما أوتي من بصيرة نافذة، فاختاره شريكًا في الهرب. كان هذا العريف يسمى كوهلر، اتفق مع كوليكوف فضربا للفرار موعدًا وحددا له يومًا. كنا في شهر حزيران (يونيه). هذه أيام القيظ الشديد. إن المناخ في مدينتنا متساوٍ ولا سيما في فصل الصيف، وذلك أمر يناسب المتشردين كثيرًا ما كان

ينبغي ً التفكير في الهرب من القلعة رأسًا، فالمدينة تبعد عنها مسافة كبيرة. وكان لا بد من التنكر. ومن أجل هذا التنكر يجب الوصول إلى الضاحية حيث كان كوليكوف قد أعدَّ منذ زمن طويل مكانًا يلتجئ إليه. لا أدري هل كان أصحابه في الضاحية مطلعين على السر. يجب أن نعتقد أنهم كانوا مطلعين على السر، رغم أن هذا الأمر بقيَ غامضًا غير مؤكد. في أثناء تلك السنة، كانت قد أقامت في ركن من الضاحية فتاة مشبوهة السمعة جميلة المنظر اسمها فانيكا مانيكا. كانت هذه الفتاة تبشر بآمال كثيرة جاءت الأحداث بعد ذلك مصدِّقة لها. وكان الناس يطلقون عليها لقب (النار واللهيب). أظن أن هذه الفتاة كانت على تفاهم مع الهاربين، لأن كوليكوف قد قام في سبيلها بأعمال جنونية أثناء تلك السنة.

حين شُكِّلت فصائل العمل في الصباح، رتب أصحابنا الثلاثة أمورهم بحيث يرسلون إلى العمل مع السجين شيلكين - ومهنته مبيض - في تبييض الثكنات الخالية التي غادرها سجناء المعسكر. كان على آ...ف وكوليكوف أن يساعداه في نقل المواد اللازمة. وأفلح كوهلر في أن يعين خفيرًا عليهم. ولما كان النظام يقضي بأن يعين جنديان اثنان لحراسة ثلاثة سجناء، فقد ألحق بكوهلر مجنَّد شاب كان على كوهلر أن يدربه على الخدمة بصفته عريفًا. لا بد أن يكون هذان السجينان اللذان عقدا النية على الفرار قد أثرا في كوهلر تأثيرًا كبيرًا حتى ارتضى أن يقرر الفرار معهم، هو الرجل الجاد، الذكي، الحسوب الذي لم يبق عليه أن يقضي في الخدمة العسكرية إلا بضع سنين.

وصل السجناء الثلاثة والخفيران إلى الثكنات في الساعة السادسة من الصباح، وكانوا وحدهم لا يُرافقهم أحد آخر. فبعد أن عملوا نحو ساعة قال كوليكوف وآ...ف لزميلهما إنهما ذاهبان إلى الورشة لإحضار أداة من أدوات العمل هما بحاجة إليها. كان لا بد لهما من أن يعمدا إلى المكر مع شيلكين، ومن أن يقولا له هذا الكلام بلهجة طبيعية جدًّا لا تثير في نفسه أية شبهة. إن شيلكين رجل من موسكو، مهنته بناء المواقد. وهو ذكي ماكر قليل الكلام ضعيف البنية معروق الجسم. إن هذا الرجل الذي كان ينبغي أن يقضي حياته لابسًا صدرة وقفطانًا في دكاكين موسكو، ينتمي الآن إلى (القسم الخاص) في عداد المجرمين العسكريين بعد طول ترحل. هكذا شاء له القدر! لا أدري ما الذي فعله حتى استحق عقوبة قاسية كل هذه القسوة. كان شيلكين لا يظهر شيئًا من نزق أو شراسة، وكان يعيش في السجن هادئًا مُسالمًا مُوادعًا، إنه يسكر من حين إلى حين كما يسكر إسكافي، ولكن سلوكه فيما عدا ذلك سلوك ممتاز. لم يطلعه أصحابنا على سرهم طبعًا، وكان عليهم أن يضللوه، قال له كوليكوف وهو يغمز بعينه أنهما ذاهبان لإحضار خمرة قد خبأها في الورشة منذ البارحة، وذلك أمر شاق شيلكين كثيرًا. لم تراوده أية شبهة، وبقي وحده مع المجند الشاب، بينما مضى كوليكوف وآ...ف إلى الضاحية بحراسة كوهلر.

انقضى نصف ساعة ولم يرجع الغائبون، أخذ شيلكين يفكر. برقت في ذهنه فكرة. تذكر أن كوليكوف كان يبدو عليه شيء غير مألوف، وأنه كان يوشوش آ...ف غامزًا بعينه. لقد رآه يفعل ذلك، وهو الآن يتذكر كل شيء. ثم إن كوهلر قد لفت انتباهه أيضًا. فحين ذهب العريف مع السجين شرح للمجند ما كان عليه أن يعمله أثناء غيابه، وذلك أمر لم يكن من عادته أن يفعله. أصبحت شكوك شيلكين تزداد وتقوى كلما أوغل في نبش ذكرياته. وكان الوقت أثناء ذلك يمضي والسجينان لا يعودان. بلغ شيلكين أقصى حد من حدود القلق، فقد أدرك أن الإدارة قد تشتبه فيه وتعده متواطئاً مع الهاربين، وأن جلده معرض إذن للخطر. لقد كان يمكن أن يُظن أنه كان متواطئًا معهم وأنه سمح لهم بالذهاب، فإذا تأخر في الإبلاغ عن غيابهم، فإن هذه الشبهات ستتعزز وستقوى. كان عليه إذن أن لا يضيع وقتًا. وتذكر عندئذٍ أن كوليكوف وآ...ف قد أصبحا رفيقين حميمين منذ مدة. وأنهما كانا كثيرًا ما يأتمران وراء الثكنات بعيدين عن الأنظار.

ونذكر أيضًا أن هذه الفكرة قد راودته قبل الآن، فتصور أنهما لعلهما يُبيِّتان أمرًا يتفقان عليه... ألقى شيلكين نظرة على حارسه. كان الحارس يتثاءب مُتكئًا على بندقيته، ويحك أنفه ببراءة. لذلك لم يقدر شيلكين أن عليه أن يطلعه على خواطره. فاكتفى بأن طلب منه أن يصحبه إلى ورشة الهندسة. كان يريد أن يسأل هناك عن رفيقيه هل رآهما أحد. فلما سأل هذا السؤال تبيَّن له أن أحدًا لم يرهما. تأكدت شكوك شيلكين. أتراهما ذهبا يسكران ويعربدان في الضاحية كما كان كوليكوف يفعل في كثير من الأحيان؟ ولكن شيلكين رفض هذا الافتراض. فلو قد كانا يريدان ذلك إذن لأطلعاه على نيتهما، فلا داعي إلى إخفاء هذه النية عنه. فما إن وصل شيلكين من تفكيره إلى هذه النقطة حتى ترك العمل ومضى إلى السجن رأسًا حتى من دون أن يعود إلى الثكنة التي كان يعمل فيها.

كانت الساعة قد قاربت التاسعة حين وصل شيلكين إلى رئيس العرفاء، فأطلعه على شكوكه وشبهاته. ذُعر هذا، ولم يشأ في أول الأمر أن يصدِّق. إن شيلكين لم ينقل إليه فكرته إلا في صورة شبهة. وسرعان ما جرى رئيس العرفاء إلى الميجر يطلعه على الأمر، وسرعان ما جرى الميجر إلى الكومندان يبلغه النبأ. فما انقضى ربع ساعة إلا كانت جميع الإجراءات اللازمة قد اتخذت. ُرفع تقرير إلى الجنرال الحاكم. إن هذين السجينين هما من السجناء الخطرين، فمن الممكن والحالة هذه أن تُعاقب إدارة السجن عِقابًا قاسيًا على فرارهما. لقد كان آ...ف يُعد من السجناء السياسيين خطأً أو صوابًا. كما أن كوليكوف ينتمي إلى (القسم الخاص)، أي أنه مجرم عريق، عدا أنه عسكري قديم. ولم يسبق لأحد أن استطاع أن يفرَّ من (القسم الخاص). وتذكر المشرفون على السجن عندئذٍ أن النظام يقضي بأن يحرس كلَّ سجين من سجناء (القسم الخاص) خفيران اثنان حين يذهب إلى العمل. وهذه

القاعدة لم تُلتزم، فمن الممكن أن يسيء هذا الإخلال بقواعد النظام إلى جميع موظفي إدارة السجن، وسرعان ما أُرسل السعاة إلى كافة القرى المحيطة بالمدينة وإلى كافة المدن الصغيرة المجاورة لإبلاغ نبأ هروب سجينين. وسرعان ما جُرِّدت لملاحقة السجينين أعداد من الجنود القوقازيين، وسرعان ما كُتب في الأمر إلى جميع المديريات وجميع الأقاليم المجاورة. الخلاصة أن ذعرًا رهيبًا قد ألم بالجميع...

ولم يكن الاضطراب في سجننا أقل من ذلك. فكلما عادت من العمل جماعة من جماعات السجناء علمت بالنبأ العظيم الذي كان يجري من فم إلى فم، فكان كل سجين من السجناء يستقبله بفرح خبيء عميق... إن هذا النبأ، عدا أنه يقطع رتابة الحياة في السجن ويسلِّي السجناء، هو نبأ هروب، هروبٍ يرجِّع صدى مُستحبًا في جميع النفوس، ويلقى هوى لدى جميع القلوب، ويهز أوتارًا ظلت غافية خلال زمن طويل، أن نوعًا من الأمل والجرأة والجسارة قد حرَّك قلوب السجناء جميعًا، لأنه يصور لهم أن تغيير مصيرهم أمر ممكن وليس مستحيلًا. (نعم... لقد هربوا رغم كل شيء، فلماذا نحن لا...). وكان كل واحد إذا خطرت بباله هذه الفكرة ينهض قائمًا ويُلقي على رفاقه نظرة تحدٍ وتحريض واستفزاز. اتخذ جميع السجناء هيئة كبر وخيلاء، ونظروا إلى ضباط الصف نظرات تعاظم واستعلاء. وهرع جميع رؤسائنا، كما يتوقع ذلك، حتى لقد وصل الكومندان نفسه. فكان السجناء يرشقونهم جميعًا بنظرة جريئة يمازجها شيء من احتقار، ويشوبها نوع من رصانة قاسية. (هه؟ نحن نعرف كيف ندبر أمورنا متى شئنا!). وتوقع الجميع أن يقوم الرؤساء بجولة تفتيشية عامة. كان السجناء يتوقعون سلفًا أن إدارة السجن ستعمد إلى إجراء تحقيق وأنها ستقوم بتفتيش. لذلك خبأ السُجناء كل شيء، فهم لا يجهلون أن إدارة السجن لا بد أن تُضاعف يقظتها بعد وقوع حادث كهذا الحادث. وقد صدقت نبوءة السجناء، فانقلب السجن عاليه سافله، ولم يُترك مكان فيه من دون أن يفتش تفتيشًا دقيقًا، ولكن لم يُعثر على شيء طبعًا.

وحين دقت ساعة الذهاب إلى العمل بعد الغداء، كان عدد الخفراء الذين تولوا حراستنا مُضاعفًا. وفي المساء كان الضباط وضباط الصف من الحرس يداهموننا في كل لحظة مفتشين، وقد عدونا أكثر مما كانوا يعدوننا في العادة، فأخطأوا في عدنا مرتين، فكان هذا الخطأ يُحدِث مزيدًا من الاضطراب، فإذا هم يخرجوننا من الثكنة إلى الفناء ليعدونا مرة أخرى، حتى إذا أرجعونا إلى الثكنة عدونا من جديد.

لم يقلق السجناء كثيرًا من هذا الاضطراب، ولم يكترثوا له، بل كانوا يصطنعون هيئة الاستقلال وقلة المبالاة، ولكن سلوكهم كان سلوكًا حسنًا طوال تلك السهرة، كما يحدث هذا دائمًا في أحوال كهذه الأحوال. (لن يستطيعوا أن يجرونا إلى المشاجرة، لن نمكنهم من استدراجنا إلى خلق المتاعب). وكانت إدارة السجن تتساءل: تُرىِ أليس بيننا أُناس متواطئون مع

الفارين؟ فأمرت بمراقبتنا والتجسس على أحاديثنا، ولكنها لم تظفر بطائل. (ليسوا من الغباء بحيث يتركون وراءهم شركاء!)؛ (إن المرء يخفي سره ويكتم أمره حين يعد ضربة كهذه الضربة!)؛ (إن كوليكوف وآ...ف يملكان من المكر والدهاء ما يؤهلهما لكتمان ما عقدا النية عليه. ألا إنهما لمعلمان حاذقان، فعلا فعلتهما، من دون أن يدعا لأحد أن يشتبه فيهما وأن يخطر على باله ما يبيّتان من أمر. لقد تبخرا تبخرًا لو شاء لخرجا من أبواب موصدة، هذان الشيطانان!). ذلك ما كان يردده السجناء. لقد ازداد قدر كوليكوف وآ...ف في أنظارهم، وعظمت منزلتهما مائة مرة! إن السجناء فخورون الآن بهما. أحس الجميع أن هذه المغامرة ستتناقل الأجيال نبأها إلى آخر جيل، وأن عمر أخبارها سيكون أطول من عمر السجن نفسه.

كان بعضهم يقول:

- يا للدماغين الذكيين!

فيضيف آخرون:

- هه! كان يُظن أن الفرار مستحيل.. فهاهما يهربان مع ذلك!

ويعقب ثالث قائلًا وهو يُلقي على رفاقه نظرة فيها مسكنة:

- نعم، ولكن من هم الذين هربوا؟ أأنتم تستحقون أن تحلوا لهم أشرطة أحذيتهم!

ما كان لسجين من السجناء يُخاطب بمثل هذا الكلام، أن يسكت على هذه الإهانة بحال من الأحوال، وما كان له إلا أن يرد على التحدي وأن يُدافع عن شرفه وكرامته. ولكن السجناء الآن يلتزمون الصمت متواضعين. وإذا نطقوا قالوا: (هذا حق! ليس كل الناس مثل كوليكوف وآ...ف. على المرء أن يبرهن على قيمته أولًا!...).

قال أحد السجناء، وكان جالسًا قرب نافذة المطبخ، قال على حين فجأة مُقاطعًا:

- حقًّا يا رفاق! لماذا نبقى هنا؟ ماذا نفعل هنا؟ إننا نحيا بلا حياة، إننا أموات بغير موت!

قال الرجل هذا الكلام بصوت بطيء، متراخٍ متثاقل، بينما راح يفرك خده براحة يده، ولكن كلامه كان ينطوي على ثقة خفية واقتناع مستتر.

فأجابه أحدهم قائلًا:

- ما تنهدك هذا؟ إن المرء لا يهرب من السجن كما يخلع حذاء، نحن مشدودون إلى السجن شدًا...

فانبرى شاب غير متحمس يقول:

- ولكن هذا كوليكوف! ألم يهرب؟

فأجاب آخر، وهو ينظر إلى الفتى الغر نظرة شزراء:

- كوليكوف؟ كوليكوف؟ إن أمثال كوليكوف ليسوا كُثرًا...

- وما قولكم في آ...ف يا شباب؟ ألا إنه لفتى شجاع!

- هه! إنه قادر على أن يلف كوليكوف لفًا متى شاء وما شاء! إنسان داهية!
- أتراهم قد ابتعدوا؟ ذلك ما أود لو أعرفه!...
ويتصل الحديث ويتشعب. (هل هم الآن بعيدون عن المدينة؟ من أي جهة هربوا؟ أي طريق سلكوا؟ ما أضمن السبل لفرارهم؟ ما أقرب مديرية يلجأون إليها؟). وإذ كان بين السجناء رجال يعرفون الأماكن التي تجاور المدينة، فقد أخذ الآخرون يصغون إلى كلامهم بانتباه واستطلاع نهم.
وحين وصل الحديث إلى الكلام عن سكان القرى المجاورة، أقرَّ الجميع أنهم أشرار لا يعتمد عليهم؛ فكل من هم قربَ المدينة من سكان أُناسٌ يعرفون ما يجب عليهم أن يفعلوه، فلن يساعدوا الهاربين بحال من الأحوال، حتى إنهم سيقبضون عليهم ليسلموهم.
- ليتكم عرفتم مدى ما يتصف به هؤلاء الفلاحون من شر! ألا إنهم بهائم خبيثة، ألا إنهم حيوانات لئيمة!
- فلاحون أنذال!
- السيبيري وغد... إنه لا يتورع عن قتل إنسان في سبيل أي شيء...
- ولكن جماعتنا...
- طبعًا... سترى من الذي سينتصر... إن جماعتنا لا يخشون شيئًا.
- على كل حال، إذا لم نفطس، فسنسمع أنباءهم!
- لعلك تظن أنه سيُقبض عليهم؟
كذلك سأل سائل، فإذا بسجين من أشد السجناء اهتياجًا يضرب المائدة بقبضة يده ضربة قوية ويقول:
- أنا واثق أنهم لن يُقبض عليهم أبدًا!
فقال قائل:
- ذلك يتوقف على مجرى الأمور...
فقال سكوراتوف:
- لو هربت أنا يا رفاق، فلن يُقبض عليَّ يومًا!
- أنت؟
كذلك سأله أحدهم، فما كان من الآخرين إلا أن انفجروا يقهقهون؛ وتظاهر غيرهم بأنهم لا يريدون حتى أن يسمعوا كلامه. ولكن سكوراتوف كان مُتحمسًا، فها هو ذا يقول بحرارة وحميا:
- لو هربت ما قبضوا عليَّ في يوم من الأيام! إنني كثيرًا ما أقول هذا لنفسي. إني لأوثر أن أمر من ثقب مفتاح على أن أدع لهم أن يقبضوا عليَّ!
- لا تخف سوف تتضور جوعًا فإذا أنت تذهب من تلقاء نفسك إلى فلاح من الفلاحين تسأله أن يهب لك خُبزًا!
وتجددت القهقهات.
قال سكوراتوف:
- خبزًا؟ أنت تكذب!

- ما هذا الهراء؟ أنسيت أنك أنت وعمك فاسيا قد قتلتما موت البقر ([51])، وأن ذلك هو السبب في مجيئكما إلى هذا المكان؟

تضاعفت القهقهات. وأظهر الوقورون من السجناء استياءً واستنكارًا.

صاح سكوراتوف يقول:

- أنت تكذب! إن ميكيتكا هو الذي قصَّ عليكم ذلك. لم أكن أنا القاتل بل العم فاسيا، ثم حشرتموني في الأمر ظُلمًا! أنا موسكوفي متشرد منذ نعومة أظفاري. إليكم هذا المثل: حين كان الكاهن يعلمني تلاوة الصلوات، كان يقرص أذني قائلًا: ردِّد ما أتلوه عليك: اشملني برحمتك يا رب! فكنت أُردد قولي: (أخذوني إلى الشرطة، برحمتك يا رب!)، إلخ... ذلك ما فعلته منذ نعومة أظفاري.

انفجر جميع السجناء ضاحكين. وكان ذلك كل ما يتمناه سكوراتوف، فلقد كان يحب أن يكون مهرجًا!

ولم يلبث السجناء أن عادوا إلى أحاديثهم الجادة، ولا سيما الشيوخ منهم، والخبراء في شئون الفرار. أما الشباب والذين يتصفون بطباع أقرب إلى الهدوء فكانوا يصغون إلى الحديث متطاولين برؤوسهم، مبتهجين كل الابتهاج. كان قد تجمع في المطبخ جمهور كبير. ولم يكن هنالك أحد من ضباط الصف، وإلا لما تجرأ السجناء أن ينطلقوا في الحديث هذا الانطلاق الصريح. ولاحظت بين المبتهجين المغتبطين تتريًا قصير القامة ناتئ الوجنتين، مضحك الهيئة. إن اسمه مامتكا، وهو لا يكاد يتكلم الروسية، ولا يفهم كثيرًا ما يقوله الآخرون، ولكنه مع ذلك يمد رأسه في الجمهور ويصغي إلى الكلام مسرورًا محبورًا. قال له سكوراتوف الذي نسيه الجميع، فلم يجد بدًا من الاتجاه إلى هذا التتري يكلمه:

- هيه مامتكا! ياكشي؟ ([52]).

فقال مامتكا بحرارة وهو يحرك رأسه الضخم:

- (ياكشي!) أوه... يا كشي!...

- لن يقبضوا عليهم؟ (يوك؟).

فعاد مامتكا يقول وهو يحرك رأسه، ويلوِّح بذراعيه:

- (يوك!) (يوك!)...

- إذا كنت تكذب فسوف أُريك، هه؟

- طبعًا، طبعًا، يا كشي!

كذلك قال مامتكا وهو ما يزال يهز رأسه.

- طيب... خذ إذن هذه (الياكشي!)...

وقال له سكوراتوف ذلك ولطمه على رأسه لطمة أنزلت طاقيته حتى غطت عينيه، ثم بارح المطبخ مسرورًا كل السرور، تاركًا التتري في دهشة وانبهات!...

ظل النظام يُطبَّق في السجن تطبيقًا صارمًا قاسيًا خلال أسبوع. واستمرت مطاردة الهاربين في القُرى والمدن المجاورة. كان السجناء على علم دائم بالإجراءات التي كانت تتخذها السلطة للقبض على الهاربين، لا أدري كيف!...

فأما في الأيام الأولى فقد كانت الأنباء سارة لقد اختفى الهاربون فلا أثر لهم. أصبح السجناء لا يعملون شيئًا غير أن يسخروا من الرؤساء بينهم وبين أنفسهم، واطمأنوا على مصير رفاقهم فلا يراودهم شيء من قلق. (لن يعثروا على شيء! لسوف ترون أنهم لن يستطيعوا القبض عليهم!). كذلك كان السجناء يقول بعضهم لبعض مبتهجين مغتبطتين!

كنا نعلم أن جميع الفلاحين في القرى المجاورة قد استنفروا، وأنهم يُراقبون الأماكن المشبوهة والغابات والوديان والشعاب. فكان السجناء يقولون ضاحكين:

- حماقات! لا شك أنهم قد اختبأوا عند أحد!

- حتمًا! هؤلاء أُناس عُقلاء لا يُخاطرون قبل أن يكونوا قد أعدوا كل شيء سلفًا!

ومضت الافتراضات إلى أبعد من ذلك. فقيل فيما قيل: لعلهم قد اختبئوا في كهف من الكهوف بالضاحية ريثما يهدأ الذعر ويطول شعرهم، ولعلهم سيمكثون هنالك ستة أشهر، ثم يخرجون مطمئنين هادئين ليوغلوا في المسير...

الخلاصة أن جميع السجناء قد أطلقوا الأعنة لأخيلتهم، وفجأة، بعد الهروب بثمانية أيام، انتشرت شائعة تقول إن مكان الهاربين قد عُرف. فهبَّ السجناء يُكذبون الشائعة طبعًا باحتقار شديد. ولكن ما إن أتى المساء حتى قويت الشائعة. فاضطرب السجناء اضطرابًا كبيرًا. وفي صباح الغد كان الناس في المدينة قد عرفوا أن الهاربين قد تم القبض عليهم، وأنهم مقتادون في طريق العودة. وعُرفت بعد العشاء تفاصيل جديدة: عُرف أنهم قد اعتقلوا في قرية صغيرة تبعد مسافة سبعين فرسخًا عن المدينة. ووصل الخبر اليقين أخيرًا، إذ أعلن رئيس العرفاء الذي كان عائدًا من عند الميجر أن الهاربين سَيُقادون إلى مركز الحرس في هذا المساء نفسه. لقد قُبِضَ عليهم إذن، لم يبق ثمة شك في ذلك. إنه ليصعب عليَّ أن أصف الشعور الذي ألمَ بالسجناء حين عرفوا هذه الحقيقة. لقد اضطربوا اضطرابًا عنيفًا وازدادت حركتهم وكثر نشاطهم، ولكنهم لم يلبثوا أن هدأوا وسكنوا وخمدوا. ثم سرعان ما لاحظت لديهم ميلًا إلى الهزء والسخرية. أصبحوا الآن يضحكون لا من إدارة السجن بل من الفارين الحمقى الذين لم يحسنوا تدبر الأمر. فعل ذلك بعضهم في البداية، ثم فعلوه جميعًا بعد ذلك، باستثناء عدد من السجناء حافظوا على وقارهم واستقلالهم، لأن السخريات لا تهزهم، فكانوا ينظرون إلى الجمهرة الهائجة الطائشة نظرة احتقار، ويلزمون الصمت فلا يتكلمون.

وعلى قدر المديح والثناء والإطراء الذي كالوه في أول الأمر لصاحبيهم كوليكوف وآ...ف، أخذوا الآن يذمونهما ويقدحون فيهما ويشهرون بهما. حتى لقد كانوا يفعلون ذلك مسرورين محبورين، كأن الرجلين قد أساءا إلى رفاقهم وألحقا بهم الإهانة حين أتاحا للسلطة أن تقبض عليهما، وقيل فيما قيل: لعلهما قد عضَّهما الجوع فلم يستطيعا أن يحتملا آلامه فذهبا إلى ضيعة من الضياع يسألان الفلاحين شيئًا من خبز وهذا غاية الضعة والحطة والصغار في متشرد. والحق أن هذه الروايات لم تكن صحيحة، ذلك أن المطاردين قد اقتفوا أثر الهاربين، حتى إذا صار الهاربون إلى إحدى الغابات، أحاط بها المطاردون فأحكموا مُحاصرتها، فلما رأى الهاربون أن لا سبيل لهم إلى الفرار، استسلموا، وما كان في وسعهم أن يفعلوا غير ذلك.
أُعيد الهاربون في المساء بحراسة رجال الشرطة، وقد كُبِّلت أيديهم وأرجلهم. أسرع جميع السجناء نحو السياج ليروا ما سيصنع برفاقهم. فلم يروا إلا عربتي الميجر والكومندان ترابطان أمام مقر الحرس. لقد أُخفيَ الهاربون بعد أن أُعيد تقييدهم بالسلاسل اقتيدوا في الغداة إلى المحاكمة، وانقطعت سخريات السجناء من رفيقيهم من تلقاء نفسها، وانقطع احتقارهم لهما، حين عرف السجناء التفاصيل، حين علموا أن رفيقيهما قد اضطرا إلى الاستسلام اضطرارًا، لأنهما حوصرا من كل جهة فلم يكن لهما إلا أن يستسلما. واهتم جميع السجناء بالقضية اهتمامًا فيه كثير من العطف والمودة.
لا شك أنهم سيجلدون ألف جلدة!
- أوه! أوه! بل سيُجلدون حتى الموت. قد لا يضرب آ...ف إلا مائة ضربة بالعصا، أما الآخر فلا شك أنهم سيموتونه... هل نسيت أنه من القسم الخاص؟
كذب ظن السجناء. لقد حُكم على آ...ف بأن يضرب خمسمائة ضربة بالعصا. لقد اعتبر سلوكه الماضي أسبابًا مخففة، ثم إن الذنب كان أول ذنب يرتكبه، أما كوليكوف فأظن أنه قد نال ألفًا وخمسمائة ضربة. والعقوبة كما ترون طفيفة. وكان الرجلان عاقلين حكيمين، فلم يورِّطا في القضية أحدًا، وصرَّحا بأنهما فرا من القلعة من دون أن يدخلا أي مكان من الأمكنة.
أخذتني الشفقة بكوهلر خاصة: لقد فقد بهذا الفعل آخر أمل له، عدا العقوبة التي أنزلت فيه وهي ألفا ضربة. وقد أُرسل بعد ذلك إلى سجن آخر.
لم يكد يعاقب آ...ف، فإنه قد أُعفيَ من الضرب بفضل الأطباء. ولكنه ما إن صار في المستشفى حتى أخذ يتباهى ويتبجح، وأعلن أنه لن يتراجع بعد اليوم أمام أية عقبة، وأنه سيعرف كيف يجعل الناس تتحدث عنه وتتناقل أخباره أما كوليكوف فلم يتغير، بل ظل كما كان رجلًا لبقًا رضيًا رزينًا، وحين عاد إلى السجن بعد إنزال العقوبة فيه كان كمن لم يغادر السجن لحظة من اللحظات. ولكن السجناء أصبحوا لا ينظرون إليه كما كانوا ينظرون إليه من قبل؛ فهم، على رغم أنه لم يتغير، قد أصبحوا في قرارة نفوسهم، لا يضمرون له ما كانوا يضمرونه من تقدير وإعجاب وأصبحوا يعاملونه معاملة الند للند.

لقد كبا نجم كوليكوف كثيرًا بعد حادثة الفِرار هذه، إن النجاح يعني كل شيء في هذا العالم...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

10

الخلاص

تمت محاولة الفرار هذه أثناء السنة الأخيرة من إقامتي بالسجن. إنني أتذكر تلك السنة الأخيرة، كما أتذكر السنة الأولى وضوحًا. ولكن فيم الإفاضة في سرد التفاصيل؟ حسبي أن أقول إن هذه السنة الأخيرة كانت أقل سني منفاي مشقةً وعذابًا رغم تحرقي شوقًا إلى انتهاء مدة سجني. كنت قد اكتسبت آخر الأمر كثيرًا من الأصدقاء والأصحاب بين السجناء الذين استقر رأيهم على أنني رجل طيب. إن عددًا كبيرًا قد أخلص لي المودة وأحبني حبًا صادقًا. حتى أن جندي سلاح الهندسة قد أوشك أن يبكي حين شيعنا أنا ورفيقي إلى خارج السجن؛ وحين أفرج عنا تمامًا أصبح يزورنا كل يوم تقريبًا في مبنى تابع للدولة حددت إقامتنا فيه خلال الشهر الذي قضيناه في المدينة. غير أن هناك وجوهًا قاسية متجهمة مكفهرة لم أستطع أن أحظى برضاها وأن أكتسب صداقتها، لا يدري إلا اللّه لماذا! لكأن حاجزًا سميكًا كان يفصل بيننا وبينها، لكأن سدًا منيعًا يحجبنا عنها...

وقد تمتعت خلال تلك السنة الأخيرة بامتيازات لم أكن أتمتع بها قبل ذلك. كنت قد وقعت بين الموظفين العسكريين في مدينتنا على أناس أعرفهم بل وعلى رجال كانوا من رفاقي في المدرسة، فانعقدت بيني وبينهم صلات، وبفضلهم إنما أصبحت أتلقى مالًا وأكتب إلى أُسرتي رسائل بل وأملك بعض الكتب. كنت لم أملك كتابًا واحدًا منذ سنين. لذلك يصعب عليَّ أن أصف الشعور الغريب الذي شعرت به والانفعال الشديد الذي عانيته حين قرأت في السجن أول كتاب أُتيح لي أن أقرأه. لقد أخذت ألتهمه في المساء حين أُغلقت علينا الأبواب، فما زلت أقرأ الليل كله حتى مطلع الفجر، إن ذلك العدد من المجلة قد بدا لي كأنه رسول هبط عليَّ من العالم الآخر. ارتسمت حياتي الماضية أمام عيني بارزةً واضحة حينذاك، وحاولت أن أعرف هل أنا تخلفت وهل عاشوا كثيرًا بدوني هناك! تساءلت عما يشغل بالهم ويُحرك نفوسهم، تساءلت عن المسائل التي أصبحت تعنيهم وعن المشكلات التي أصبحت تهمهم. كنت أتلبث على الكلمات قلقًا، وأقرأ بين السطور، وأُحاول أن أفهم من العبارات معناها الخفي، وأن أرى ما فيها من إشارات إلى الماضي الذي أعرفه. كنت أقتفي آثار الأشياء التي كانت تهز الانفعال في زماني فما كان أشد حزني حين اضطررت أن أعترف لنفسي بأنني أصبحت غريبًا عن الحياة الجديدة، وأنني الآن عضو في المجتمع منفصل عنه منبوذ منه! لقد تأخرت وتخلفت. عليَّ أن أعرف الجيل الجديد. لقد وقعت عليَّ مقالة مذيلة باسم إنسان عزيز على نفسي فارتميت على المقالة ألتهمها إلتهامًا. ولكن أصحاب

أكثر المقالات الأخرى أناس لا أعرفهم. إن العاملين جددًا قد أصبحوا الآن على المسرح. أسرعت أتعرف بهؤلاء العاملين الجدد. وأحزنني أشد الحزن أن لا أملك إلا هذا العدد القليل من الكتب، وأن يكون الحصول على المزيد منها صعبًا كل هذه الصعوبة، وقبل ذلك، في عهد الميجر السابق، كان إحضار كتب إلى السجن مجازفة كبيرة ومخاطرة عظيمة. فإذا عثرت الإدارة على كتاب في السجن أثناء التفتيش، قامت مشكلة ضخمة ونشأت قصة طويلة، فأنت تُسأل من أين جئت بالكتاب وتُتهم بأن لك شركاء تواطأت معهم. بماذا كان يمكن أن أُجيب لو أُلقيت عليَّ أسئلة كهذه الأسئلة؟ لذلك عشت في السجن بغير كتب، منطويًا على نفسي طارحًا مشكلات أُحاول أن أحلها، مشكلات تقض مضجعي وتُقلقني أشد القلق في كثير من الأحيان... ولكن حسبي ما قلته، فليس في وسعي أن أُعبر عن هذه الشجون تعبيرًا كافيًا في يوم من الأيام!

كان ينبغي إطلاق سراحي في الشتاء لأنني دخلت السجن في الشتاء. سوف يخلى سبيلي في مثل اليوم الذي وصلت فيه إلى السجن منذ سنين. فما كان أشد تحرقي شوقًا إلى حلول ذلك الشتاء السعيد! ما كان أعظم فرحي وابتهاجي حين كنت أُلاحظ أن الصيف يُشارف على الانتهاء، فأرى الأوراق تصفرُّ على الأشجار وأرى العشب يصوِّح في المروج! لقد انقضى الصيف... هذه ريح الخريف تئنّ، وهذا هو الثلج يهطل عاصفًا أول مرة... إن ذلك الشتاء الذي طالما انتظرته قد حل أخيرًا... أصبح قلبي يخفق خفقانًا سريعًا حين أستشعر اقتراب الحرية. ومع ذلك، كلما انقضى الوقت واقترب الموعد أصبحتُ أكثر هدوءًا وأجمل صبرًا. شيء غريب. دهشت أنا نفسي، حتى لقد اتهمتني ببرود العاطفة وقلة الاكتراث.

وأخذ كثير من السجناء يتحدثون معي ويهنئوني حين ألقاهم في الفناء بعد انتهاء الأعمال.

- هيه ألكسندر بتروفتش العزيز! سوف يُطلق سراحك قريبًا، فتتركنا وحيدين نحن الأشقياء!...

كذلك قال لي أحدهم، فسألته:

- وأنت يا مارتينوف، متى تنتهي مدة سجنك؟

- أنا؟ بعد سبع سنين يا عزيزي... سبع سنين أسلخها هنا في كدٍ وعناء...

قال مارتينوف ذلك وتنهد، ثم وقف ونظر إلى بعيد شارد اللب ذاهلًا كأنه ينظر إلى المستقبل...

نعم... كان كثير من رفاقي يهنئوني بصدق ومودة. حتى لقد بدا لي أنهم أصبحوا أكثر لطفًا وبشاشة في معاملتي. أنا الآن لا أنتمي إليهم، أنا لست الآن نظيرهم وشبيههم. إنهم يودعونني. وكان ك...زنسكي، وهو شاب بولندي من طبقة النبلاء، حلو الطبع هادئ وديع، كان يحب أن يتجول مثلي في فناء السجن. إنه يأمل أن يُحافظ على صحته بالتروض واستنشاق الهواء النقي بعد

العذاب الذي يلقاه اختناقًا في الليالي الطويلة داخل الثكنات. قال لي ذات يوم مُبتسمًا بينما كنا نتنزه معًا:
- إنني أنتظر خروجك من السجن بصبر فارغ. فمتى خرجت أنت عرفت أنا أنه قد بقي من مدة سجني عام.
يجب أن أذكر هنا عابرًا أن الحرية أصبحت بفضل ما تسبغه عليها من خيالنا وفكرنا، أزخر بالحرية من الحرية كما هي في الواقع. كان السجناء يضخمون معنى الحرية. ذلك أمر يشترك فيه جميع من يودعون السجون. رب خادم رث من خدم الضباط يبدو للسجين كأنه ملك من الملوك... إنه مثال الإنسان الحر. إنه بغير سلاسل تقيد ساقيه، إنه لم يُحلق له شعر رأسه، إنه يذهب إلى حيث يشاء من دون خفير يحرسه.
حين هبط الغسق، عشية إطلاق سراحي، طفت حول السياج آخر طواف!... لقد طفت حول هذا السياج آلاف المرات خلال هذه السنين العشرة! ما أكثر ما تجولت وراء الثكنات أثناء السنة الأولى وحيدًا حزينًا يائسًا! إنني أتذكر كيف كنت أعدُّ الأيام التي كان ما يزال عليَّ أن أقضيها في السجن. كان عددها عدة آلاف. يا رب! ما أبعد ذلك العهد!... في هذا الركن قبع نسرنا السجين... في هذا المكان كنت ألقى بتروف في كثير من الأحيان... لقد أصبح بتروف لا يفارقني الآن. فهو يُسرع إليَّ، ويسير إلى جانبي صامتًا كأنه يريد أن يحزر ما يجول في ذهني من خواطر، ويدهش بينه وبين نفسه لا يدري إلا اللّه من أي شيء... قلت في ذهني: وداعًا.. قلتها لعوارض الأخشاب المتشققة التي تتألف منها جدران الثكنات.. كم من أعمال فتية وقوى معطلة دُفنت وضاعت بين هذه الجدران من دون أن يُفيد ذلك أحدًا! يجب أن نعترف فنقول: إن أولئك الرجال جميعًا كانوا خير أبناء شعبنا مواهب وقدرة. غير أن هذه القوى الجبارة قد أُهدرت إلى غير رجعة! من المذنب في هذا؟
نعم من المذنب؟
وفي ساعة مبكرة من غداة ذلك المساء، قبل أن يصطف السجناء للذهاب إلى العمل، طُفتُ بجميع الثكنات أودع السجناء، إن كثيرًا من الأيدي الخشنة القوية قد امتدت تصافحني بمودة؛ وإن بعض السجناء قد صافحوني كما يصافح الرفيق رفيقه، غير أن هؤلاء كانوا هم القلة القليلة. أما الآخرون فقد كانوا يشعرون شعورًا قويًا بأنني أصبحت الآن شخصًا آخر تمامًا، وبأنني ما عدت واحدًا منهم. كانوا يعرفون أن لي بالمدينة أُناسًا أعرفهم، وأنني ذاهب رأسًا إلى منزل (سادة)، أجلس إلى موائدهم نِدًا لهم. كان السجناء يدركون ذلك، لهذا لم تكن مصافحتهم لي مصافحة الند للند، رغم ما كان فيها من مودة وبشاشة ولطف، وهناك سجناء أشاحوا بوجوههم عني، ولم يردوا لي تحية الوداع. حتى لقد رشقني بعضهم بنظرات فيها كره وبغض.
قُرع الطبل، ومضى جميع السجناء إلى العمل. بقيت وحدي. كان سوشيلوف قد نهض قبل جميع الناس وأخذ يتحرك من أجل أن يعد لي الشاي مرة أخيرة.

مسكين سوشيلوف! لقد بكي حين أعطيته ثيابي وقميصي وسيور الجلد التي توضع تحت السلاسل وقليلًا من المال. وقال لي وهو يعض على شفتيه المرتعشتين: (لا... ليس هذا.. ليس هذا ما أفقد... إنني أفقدك أنت يا ألكسندر بتروفتش.. ما عساي فاعلًا الآن بدونك؟...).

وودَّعت أيضًا آكيم آكيمتش. قلت له:

- قريبًا يُطلق سراحك أنت أيضًا.

فدمدم يقول وهو يشد على يدي:

- سأبقى هنا زمنًا طويلًا، طويلًا جدًّا...

وارتميت عليه، وتعانقنا.

وبعد خروج السجناء بعشرة دقائق، بارحنا السجن أنا ورفيقي إلى الأبد. ذهبنا إلى ورشة الحدادة حيث كان يجب أن تُحَطَّم أغلالنا، لم يخفرنا حرس مسلحون في هذه المرة، وإنما ذهبنا إلى ورشة الحدادة يصحبنا واحد من ضباط الصف. تولى تحطيم أغلالنا سجناء يعملون في ورشة الهندسة. انتظرت كسر أغلال رفيقي، ثم اقتربت من السندان. أدار الحدادون ظهري، وأمسكوا بساقي فمدوها على السندان... كانوا يتحركون كثيرًا ويضطربون كثيرًا. إنهم يريدون أن ينفذوا عملهم بسرعة ومهارة.

أمر معلم الحدادة مساعده قائلًا:

- عليك بمسمار المفصل أولًا... أدر مسمار المفصل... ضعه هكذا، ضعه جيدًا... والآن اضربه بالمطرقة.

سقطت الأغلال. أنهضتها.. كنت أريد أن أمسكها بيدي، وأن أنظر إليها مرة أخرى... أدهشني أنها كانت منذ لحظة تُكبل ساقيَّ.

قال لي السجناء الحدادون بأصواتهم التي كانت غليظة متقطعة ولكنها كانت فرحة:

- وداعًا!...

نعم... وداعًا!... إلى الحرية، إلى الحياة الجديدة!... إلى الانبعاث من بين الأموات!...

كانت تلك لحظة لا سبيل إلى وصفها!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون E-BOOK

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

عن هذا الكتاب..
تقديم
الجزء الأول
مدخل
1
منزل الموتى
2
المشاعر الأولى
3
المشاعر الأولى
تتمة
4
المشاعر الأولى
تتمة
5
المشهد الأول
6
الشهر الأول
تتمة
7
أصحاب جدد
بتروف
8
أولو العزم
لوقا
9
أشعيا فومتش - الحمام
قصة باكلوشين
10
عيد الميلاد
11
التمثيل

الجزء الثاني
1
المستشفى
2
المستشفى
تتمة
3
المستشفى
تتمة
4
زوج آكولكا
قصة
5
فصل الصيف
6
حيوانات السجن
7
الظلامة
8
رفاقي
9
الفرار
10
الخلاص

Notes

[←1]

(1) كان الشعب الروسي يطلق على نزلاء سجون الأشغال الشاقة اسم "عاثري الحظ"، أو "الأشقياء".

[←2]

(2) الأشغال الشاقة من الفئة الثانية هي العمل في بناء القِلاع التي كانت تشاد في سيبريا للسيطرة على حركات العصيان والتمرد التي كان يمكن أن يقوم بها أهل سيبريا دائمًا. أما الأشغال الشاقة من الفئة الأولى فهي العمل في المناجم، وأما الأشغال الشاقة من الفئة الثالثة فهي العمل في المصانع.

[3←]

(3) (مدينة ك...): لعلها مدينة كوزنتسك من إقليم المونسك حيث تزوج دوستويفسكي زوجته الأولى سنة 1857.

[4←]

(4) (الشارع الأخضر): كلمة مألوفة تعني عقوبة الجلد: لقد كان على المحكوم عليه بعقوبة الجلد أن يمر بين صفين من الجنود يحمل كل منهم سوطًا و يهوى به على ظهر السجين.

[←5]

(5) ان اسم هذا الميجر هو كريفتسوف. أما الرئيس فهو الجنرال فون جراف.

[6←]

(6) (الفارتيكوتبانبوست): ليس لهذه الكلمة معنى، وإنما كان السجين يتوهم أنها لفظة فرنسية معناها حسن السلوك، فهو ما ينفك يستعملها بهذا المعنى تندرًا وتفكهًا.

[←7]

(7) (كاجان): لا وجود لطائر بهذا الاسم. وتعنى كلمة كاجان، في بعض اللغات الشرقية، الملك أو الأمير.

[8←] (8) (نيفاليد): تحريف للكلمة الفرنسية "أنفاليد" التي تعني مشوه الحرب.

[←9]

(9) (الكفاس): شراب مخمر يستخرج من نقع الخبز الأسود مع دقيق الشعير.

[←10]

(10) إن قاتل أبيه هذا الذي أدهش دوستويفسكي ستُحكى قصته في مطلع الفصل 7 من الجزء الثاني من "ذكريات من منزل الأموات". وسيكتشف القارئ حقيقته الكاملة (لن نخوض في التفاصيل حتى لا يحدث حرق للأحداث على القارئ).

[11←]

(11) إن مـ.... كي هو الثوري البولندي ألكسندر ميرتسكي الذي حُكم عليه سنة 1846 بسجن الأشغال الشاقة مدة عشرة سنوات ثم صدر عفو عنه قبل إنتهاء هذه المدة.

[←12]

(12) إن مدينة فياتكا الواقعة في أراضي لتوانيا قد أصبحت منذ نهاية القرن السابع عشر ملجأ هذه الملة الدينية التي تحارب إصلاحات البطريق نيكون.

[←13]
(13) إن اسم سيروتكين مشتق من كلمة سيروتا ومعناها اليتيم ويُقال "يتيم قازان" عن شخص يمثل دور الفقير.

[←14]

(14) إن اسم سيروتكين مشتق من كلمة سيروتا ومعناها اليتيم ويُقال: يتيم قازان، عن شخص يمثل دور الفقير.

[15←]

(15) (نرتشنسك): مدينة في ترانسبايكالي كانت مركزًا لمنطقة مناجم يرسل إليها السجناء المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة من الفئة الأولى.

[16←]

(16) (برولوف): رسام روسي (1799-1852)، يرجع أصله الى أسرة هوجنوتية فرنسية اسمها برولولو.

[←17]

(17) ان م... كي هو الثوري البولندي ألكسندر ميرتسكي الذي حكم عليه سنة 1846 بسجن الأشغال الشاقة مدة عشرة سنوات ثم صدر عفو عنه قبل إنتهاء هذه المدة.

[←18]

(18) زارت دوستويفسكي في مدينة توبولسك سنة 1850 ثلاث نساء من الديسمبريين هنَّ: مورافيوفا وآنتكوفا وفونفزينا.

[19←]

(19) (السائق): صف ضابط من سلاح الهندسة.

[←20]

(20) يستخدم دوستويفسكي عبارة المنزل في إحالة على تسميته للسجن "منزل الأموات".

[←21]

(21) (ب...): هو جوزيف بوجوسلافسكي، ثوري بولندي.

[←22]

(22) (بونابرت): المقصود هنا لويس نابوليون بونابرت الذي انتخب رئيسًا لجمهورية فرنسا في 10 كانون الأول (ديسمبر) 1848.

[←23]

(23) (فاسيا): تصغير "فاسيلي".

[←24]

(24) (علبة صغيرة): ان هذه العلبة المكعبة تمثل عند اليهود هيكل سليمان، وقد كُتبت فيها الوصايا العشر.

[←25]

(25) (مرأة العدالة): إن "مرآة العدالة" التي كانت توجد على منضدة كل محكمة روسية هي نوع من موشور مثلث قائم على نسر مذهب له رأسان. وعلى كل وجه من وجوه الموشور يقرأ المرسوم الذي أصدره بطرس الأكبر بشأن اجراءات المحاكمة وحق المواطنين. وكانت هذه "المرآة" تمثل السلطة الامبراطورية الموجودة في كل مكان، وتأمر بإلتزام أقصى حدود الأدب.

[26←]

(26) (الغريمان فيلادكا وميروشكا): مسرحية هزلية من تأليف ب. جـ. جريجورييف مُثلث في بطرسبرج منذ سنة 1831 ثم راجت كثيرًا في الأقاليم.

[27←]

(27) (كدريل): لعل اسم كدريل أن يكون تحريفًا لاسم بدريللو.

[←28]

(28) (غرفتي الصغيرة): أغنية روسية مشهورة جدًّا.

[←29]

(29) (الكارامنسكايا): رقصة روسية شعبية عنيفة جدًّا يصاحبها غناء في كلماته استهتار.

[←30]

(30) (براهمي يرتدي مسوح الكاهن): لعل المقصود بالبراهمي قس من القسس.

[←31]

(31) لعل دوستويفسكي تعمد أن يخطئ حين قال عن مـ...كي أنه لا ينتمي إلى طبقة النبلاء، وذلك حتى لا يلح على عدم مشروعية العقاب الجسدي الذي أُنزل في ألكسندر ميرتسكي الذي ينتمي في الواقع إلى الطبقة النبيلة.

[32←]

(32) (نوزدريوف): شخصية من شخصيات كتاب جوجول "النفوس الميتة". إن نوزدريوف سكير عربيد مقامر.

[33←]

(33) (ما تزال ذكراه حية...): بيت من الشعر يجري على الألسن مجرى المثل؛ وهو يريد في مسرحية جريبويدوف التي عنوانها: "كثير من الفكر ضرر" وذلك على لسان تشاتسكي.

[←34]

(34) (تحدثت هنا عن العقوبات): إن كل ما أرويه عن العقوبات الجسدية كان موجودًا في زماني. ولكنني سمعت أن كل شيء قد تغير الآن وما يزال يتغير (هذه الحاشية كتبها دوستويفسكي).

[35←]

(35) (المركيزة برنفلييه): هي المركيزة مارين مادلين دي برنفلييه التي قتلت أباها واخوتها وأقرباء آخرين لتستولي على ميراثهم. وقد عُذبت سنة 1676.

[36←]

(36) (مـ.. كي و ب...) هما ميريكي وبوجوسلافسكي الثوريان البولنديان.

[←37]

(37) (هل عندكما أوراق؟): أي هل عندكما جواز سفر.

[←38]

(38) (إن معي رفيقين يعملان في خدمة الجنرال وقواق): يعني أنهما في الغابة حيث يغرد طائر "الوقواق" أي أنهما متشردان أيضًا (حاشية كتبها دوستويفسكي).

[←39]

(39) (هلموا نلطخ باب أكولكا بالقطران): ان تلطيخ باب منزل تسكنه فتاة يعني أن هذه الفتاة قد فقدت بكارتها.

[←40]

(40) كان الجدي يعد فألًا حسنًا في الاسطبلات الروسية.

[←41]

(41) إن القصة المؤثرة التي تروي عن ملازم اسمه ايلتسكي إتهم ظلمًا بأنه قتل أباه قد استعمل دوستويفسى بعضها في موضوع (الاخوة كارامازوف).

[←42]

(42) تقع تاجانروج على بحر آزوف، وتقع بتروبا فلوسك في كامتشاتكا، فالمسافة بينهما ألفا فرسخ.

[←43]

(43) (تـ... سكي) هو سيمون توكارفسكي (1823-1900) الثوري البولندي، مؤلف كتاب بعنوان "سبع سنوات في المعتقل".

[44←]

(44) (ثمانية رفاق آخرين): هم بولنديون من السجناء السياسيين.

[←45]

(45) (بـ.. سكي): ثوري بولندي

[46←]

(46) (ز... سكي): جوزيف زوخوفسكي ثوري بولندي ولد عام 1800، وحكم عليه سنة 1848 بالسجن مع الأشغال الشاقة عشر سنين، ومات في السجن سنة 1851.

[←47]

(47) (أو - جورسك): هي أوست - كامينوجورسك، مدينة من سيبريا الغربية في إقليم سيميبالاتنسك.

[←48]

(48) (هم الديسمبريون) الذين نفوا سنة 1826 (وعددهم يربو على المائة).

[←49]

(49) (هم الديسميريون) في نوبولسك.

[50←]

(50) (أما أنا فبحمد اللّه ميجر) لم يكن هذا الميجر بالضابط الوحيد الذي يستعمل هذا التعبير، بل كان ثمة ضُباط عسكريون آخرون يفعلون ذلك في زماني، ولا سيما أولئك الذين ارتقوا من رتبة ضابط صف. (هامش كتبه دوستويفسكي).

[←51]

(51) (قتلتما موت البقر) أي قتلا فلاحًا أو فلاحة اشتبها في أنها دعت على الماشية بالموت. ولقد كان في سجننا قاتل من هذا النوع (هامش كتبه دوستويفكسي)

[←52]

(52) (ياكشي): كلمة تعني باللغة التترية (طيب)، و"يوك" تعنى (كلا).